

المجلد ٢٠ الجزء (١) ٢ م سنة ١٣٧٣

١١٨

ثمن النسخة ٥ قروش

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر فى أول كل شهر عربى

رئيس التحرير
محب الدين الخطيب

العنوان
إدارة الجامع الأزهر بالقاهرة
تليفون ٤٦٢١٤

الاشتراك السنوى
٥٠ فى مصر والسودان
٣٠ للطلبة فى مصر والسودان
٦٠ فى الخارج
٤٠ للطلبة فى الخارج
ثمن الجزء ٥

المجلد الخامس والعشرين | غرة المحرم ١٣٧٣ — ١٠ سبتمبر ١٩٥٣ | الجزء الأول

فاتحة السنة الخامسة والعشرين لمجلة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الواصل الحمدَ بالنعم ، والنعمَ بالشكر . اللهمّ إنا نعوذ بك أن نفتتن عن دينك ، أو تتابع بنا أهواؤنا دون الهدى الذى جاء من عندك .

وبعد فقد دار ملكوت الله الأعظم دورةً أخرى ، فالتقينا – على رأس السنة الخامسة والعشرين من حياة هذه المجلة – بمن جمعنا الله بهم من كتابها وقرائها ، لنتعاون إن شاء الله على ما يسدد خطانا نحو الغاية التى بعث الله بها رسله برسالاته ليوجهوا الإنسانية إليها ، وعلى ما يصلح خططنا فى تنظيم حياتنا وإسعادها ، والإفادة من ثروتنا فى العلم والحكمة والأخلاق ، التى ادخرها لنا العلماء البررة من سلفنا الكادحين الناصحين الصالحين .

نحن فى زمن كثر فيه القائلون ، وما أكثر من يحسن القول ويجوّده ، ولكن قل منا من يعمل بما يقول ، ومن يخطر بباله وهو يقول أن الذى يقوله يراد منه العمل به . وحبذا الكاتب المقل الذى يؤمن بما يكتبه ، ويعمل بما هو مؤمن به ، ويدعو قراءه إلى مثل هذا الإيمان والعمل به ، فهو الذى يخاطب القلوب بلغة القلوب ، وقديماً قالوا : من القلب إلى القلب سبيل . ونحن فى [illegible] فيه القارئون ، وكثيرون منهم يواصلون

القراءة بشغف ونهم ، وقد لا يفوتهم شيء مما يهمهم الاطلاع عليه . غير أنهم يقرأون – في الغالب – للتسلية والمتعة ، وليقولوا أحسن فلان وزل فلان ؛ وقل منهم من يرتفع إلى مستوى العاملين على تمحيص الحقائق والتعاون مع أهلها والدعوة إلى تعميم العمل بها .

وحبذا القارىء الذي يتحرى الحق والخير فيما يقرأ ، والذي وهبه الله حاسة الشعور بإيمان من يكتب عن إيمان ، فيعمل من ناحيته على تحقيق النافع من دعوة الحق ، إلى أن يكون للحق أولياء يهاجرون إليه حيثما يكون ، وللخير أنصار يؤيدونه في كل الظروف .

إن مَثل المبادىء والسنن في تاريخ الإنسانية كمثل النقود التي يتعامل الناس بها في الأسواق . ونحن المسلمين أغنى أمم الأرض في مواريث الإنسانية من مبادىء الحق وسنن الفضائل والخير . ولكن مرت علينا بضع مئات من السنين جهلنا فيها قدر هذه المواريث فأهملنا التعامل بها ، ثم طغى علينا الاستعمار الأجنبي فروّج فينا عملة أخرى من مبادئه وسننه ، صنعها لنا ولنفسه من نحاس وصفر ، وطلاها بطلاء لامع براق ، فبقيت مواريثنا الذهبية والفضية مهملة في جملة مهملاتنا التي لا ننتفع بها ، ويسطو عليها المستشرقون – وهم عيون الغرب في الشرق – فيستخلصون منها ما يروقهم ، ويدلونه في نظريات لهم ينتحلونها . وبحوث يفخرون بها ويتيهون على الناس ، ثم يعرضون علينا مآثر تراثنا ناظرين إليه بعين السخط ، فيتطفل أبناؤنا على فتات موائدهم ، ناقلين إلينا غذاءنا من فضلاتهم . وهذا هو العلم اليوم عند مؤلفينا وكتابنا وعلمائنا : ثقافة أجنبية محضة أحللناها محل ثقافتنا ، وارتضيناها عملة لأسواقنا بدلا من عملتنا المهملة . وعلم من تراثنا لا نأخذه مباشرة عن أصوله بأساليب قومية وروح إسلامية ، بل نأخذه عن طريق الآخرين ناظرين إليه بأعينهم ، حاكمين عليه بأهوائهم ، عارضين له بأذواقهم وأغراضهم

بين أيدي أبناء هذا الجيل — من شرقيين وغربيين ، مسلمين وغير مسلمين — تركة جهاد وجهود لسلفنا من المسلمين والعرب سهروا على تكوينها أربعة عشر قرناً في الإسلام وقروناً مثل ذلك قبله . وهذه التركة فيها لغة العرب ، وهي أدق لغات البشر وأوسعها وأجملها . وفيها شريعة الإسلام ، وهي أعظم الشرائع على الإطلاق وأغناها وأبعدها عن أهواء النفوس البشرية في تحري العدل وتوقيعه [illegible] تامة على ما يحدث للناس من أقضية . وفيها جهاد نبيل لبعث الأخلاق الفطرية ، وت[illegible] [illegible]غ الإنساني السعيد الذي لم تنجح فيه

أمة ولا دعـــوة كما نجحت فيه أمتنا وقامت عليه دعوتنا . وقد شمرت طوائف كثيرة عن سواعدها لجرد هذه التركة الإسلامية العربية والإفادة منها وعرض محتوياتها بعزائم ضعيفة وأخرى قوية ، وبعيون الرضا وعيون السخط .

ومن هذه الطوائف المستشرقون على اختلاف أجناسهم ولغاتهم من نحو مائتى سنة وأكثر ، وأخيراً الجامعة العبرية القائمة على جبل الزيتون فى بيت المقدس ، وفى شهرنا هذا انعقد المؤتمر الدولى للثقافة الإسلامية فى برنستون من ولاية نيوجرسى بأمريكا . كل هذه الطوائف والعناصر أباحت لنفسها أن تضع أيديها على تركتنا التى هى أثمن تركات البشر ، ونحن وحدنا الواقفون موقف المتفرج عليهم ، وفينا من الأغرار من لا يريد أن يتعرف على تركة سلفه إلا عن طريق هؤلاء الأغيار فيجلب الحشف من تمرها إلى أسواق هجر ، بكل ما فيه من عجر وبجر ، حتى أضحكوا علينا أشياخهم من المستشرقين أنفسهم .

أما هذه المجلة فتدعو إلى أخذ النافع من العلم حيثما كان ، ومن أى مصدر صدر ، بشرط أن يكون حقاً ونافعاً . وتلفت أنظار المخلصين من شباب الجيل إلى أن تراثنا العلمى والثقافى أثمن تراث ورثه خلف عن سلف ، غير أنه أصبح بإهمالنا له كالعملة التى بطل التعامل بها وبذلك صرنا مفلسين . فعلينا أن نعود إلى تراثنا فنتعاون على بعثه بأيدينا ، ناظرين إليه بعيون إسلامية ، حريصين عليه حرص المالك على ما يملك . وبذلك نرد على عملتنا قيمتها ، فيرد الله على هذه الأمة المفلسة اعتبارها ، وتتبوأ مكانتها بين الأمم .

لقد أصيب كتابنا ومؤلفونا - من أعقاب الحرب العالمية الأولى - بمرض أجنبى حملهم على أن ينظروا إلى ماضيهم ، وإلى تاريخهم ، وإلى علومهم ، بعيون الأجانب . وصاروا يحكمون على أسلافهم بقسوة الأغيار على غيرهم . ونحن ندعو فى هذه المجلة إلى بعث تراثنا ، وإلى التعامل بمبادئه وسننه ، وإلى الاعتزاز به كما يعتز خير الخلف بخير السلف . ونرحب بكل تعاون على ذلك من كتاب هذه المجلة وقرائها ، ونرجو الله لهذه الدعوة المخلصة حسن الاستجابة .

المحرر

إيمان ...

من الشائع على ألسنة الجماهير فى الكيان الإسلامى أن « النظافة من الإيمان » ... فأىّ إيمان هذا الذى يعدُّ النظافة من عناصره ؟

ومما يلهج به كلُّ مسلم فى كل مكان أن « الحياء من الإيمان » ، ولكن ما هى الرابطة بين الحياء وبين الإيمان ؟

الحياء زينة الأخلاق ، وهو ماء الحيوية الذى يترقرق فى سيما الفضائل . كما أن النظافة مقياس من مقاييس الحضارة والعمران ، وهى - بعدُ - فى طليعة وسائل الصحة وأسباب الوقاية من الأوبئة والأمراض ، وتكاد تكون نصف الجمال .

هذه حقائق يعرفها ويعترف بها جميع الناس فى كل الأمم . غير أن موضع العجب فى هاتين الكلمتين الشائعتين على ألسنة المسلمين أن تكون النظافة وأن يكون الحياء من الإيمان ، فأى شرع هذا الذى نقل النظافة والحياء من جو الدنيا ونطاقها ، وأقحمهما فى جو الدين وصميم إيمانه ؟ !

إن الإيمان الذى عرفته الأمم فى أكثر الديانات يتناول الغيبيات والخوارق ، ويتجاوز الطبيعة إلى ما وراءها . والإسلام قد أقر من ذلك ما هو حق ، وجاء مصدقا لما صح من رسالات الله السابقة ، غير أنه افترق عن غيره باتساع أفقه لكل ما تتوقف عليه سعادة المجتمع الإنسانى ، فجعل ذلك من عناصر إيمانه ، حتى لقد قال حامل آخر رسالات الله وأكملها صلوات الله وسلامه عليه :

« الإيمان بضع وسبعون شعبة : أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الإيمان » .

وهذه البضع والسبعون من شعب الإيمان الإسلامى هى التى بينها الله ورسوله فيما ورد من أوامر القرآن ونواهيه ، وفيما صح من الأوامر والنواهى فى السنة المحمدية . فكل أمر

أو نهى فى دين الإسلام فإن المسلم مكلف بأن « يؤمن » أنه حق ، وعليه أن « يعمل » به ، وأن يظهر أثر إيمانه به فى جوارحه وتصرفاته . وهذا هو معنى قول السلف : الإيمان تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان . ومن حكمة التعبير النبوى عن شعب الإيمان بأن أعلاها « لا إله إلا الله » ، وأدناها « إماطة الأذى عن الطريق » وأن « الحياء من الإيمان » هو أن هذه الدرجات الثلاث التى ضربها النبى صلى الله عليه وسلم مثلا لسائر درجات الإيمان وشعبه قد حوت الإقرار باللسان فى كلمة « لا إله إلا الله » والعمل بالجوارح فى إماطة الأذى عن الطريق ، كما حوت التمثيل بالحياء لأثر الإيمان فى جوارح المؤمن ، لما لا يخفى من ظهور أثر الحياء فى ملامح صاحبه وعلى وجهه وأوضاعه .

لقد تتبعت - منذ سنين طويلة - شعب الإيمان الإسلامى كما وردت فى أوامر هذا الدين ونواهيه ، فرأيتها كلها - بلا استثناء - تتفرع من دوحتين عظيمتين لا تخرج شعبة من شعب الإيمان الاسلامى عن إحداهما :

الدوحة الأولى : هى « دوحة الحق » ومعظم أوامر الإسلام التى نحن مكلفون بالإيمان بها متفرعة عنها .

والدوحة الأخرى : هى « دوحة الخير » وكل مازاد عن فروع الدوحة الأولى من شعب الإيمان الإسلامى داخل فى شعب الدوحة الثانية ومتفرع عنها ومكمل لها .

وتعال معى الآن نلق نظرة على « دوحة الحق » فى الإيمـــان الاسلامى لنرى نماذج ولو قليلة من العناصر التى يتألف منها هذا القسم من إيمان المسلمين كما بعث الله به آخر رسل الله بأكمل رسالات الله :

من ذلك عنصر « الصدق » وقد أمر الله به فى سورة التوبة (١١٩) فقال : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » وفى سورة الأحزاب (٧ - ٨) : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا . ليسأل الصادقين عن صدقهم ، وأعد للكافرين عذاباً أليما » . وفى السورة نفسها (٢٣ - ٢٤) : « من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا . ليجزى الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ، إن الله كان غفوراً رحيما » . وفى سورة الزمر (٣) : « إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار »

وفى آل عمران (٦١) : « تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

ومن دوحة الحق عنصر « العدل » الذى عليه تقوم الامم وتحيا الجماعات ، وفيه يقول الله عز وجل فى سورة النحل (٩٠) : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى » . وفى سورة النساء (٥٨) : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

ومن تلك الدوحة فى الإيمان الإسلامى « الشهادة بالحق » وقد ورد من ذلك فى سورة البقرة (٢٨٣) : « ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ، والله بما تعملون عليم » . وفى السورة نفسها (١٤٠) : ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ، وما الله بغافل عما تعملون » . وفى سورة الطلاق (٢) : « وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله ، ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » . بل المسلم مأمور بأن يقف فى مجلس الحكم فيشهد بالحق ولو على أقاربه ، بل على أبيه وأمه ، بل يشهد على نفسه ولا يبالى بكل ما يكون لشهادته من نتائج ، وذلك قول الله عز وجل فى سورة النساء (١٣٥) : « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين . إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » . وهذه المرتبة فى التزام الحق والإيمان به والعمل بمقتضاه لا نعرف فوقها مرتبة ، وأى مرتبة فوق أن يتقدم الإنسان إلى المحكمة بدافع من إيمانه الدينى فيشهد على نفسه ، أو على أبيه وأمه ، فضلا عن سائر ذوى القربى ؟ . . . وإن خالف الحق فى ذلك كان مخلا بشعبة عظيمة من شعب الإيمان فى الدين الذى هو أحد المؤمنين به !

ومن دوحة الحق فى الإيمان الإسلامى حفظ « الامانات » وحسن أدائها . وقد ورد من ذلك قول الله عز وجل فى سورة البقرة (٢٨٣) : « فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته ، وليتق الله » . وفى سورة النساء (٥٨) : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها » . ومدح الله المؤمنين برعايتهم للامانات فى سورة المؤمنين (٨) بقوله سبحانه : « والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون » . ونهاهم عن ضد ذلك فى سورة الأنفال (٢٧ - ٢٨)

فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ورسوله وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون . واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم » .

ولو ذهبت أستعرض ما فى كتاب الله - فضلا عما فى سنة أكمل رسل الله - من الأوامر والنواهى المفروض فيها على المسلمين أن يؤمنوا بالحق - بجميع معانيه ومظاهره ومذاهبه - وأن ينصروه ، وأن يربوا عقولهم ونفوسهم وقلوبهم ؛ وبنيهم وذويهم وشعوبهم ، على محبته ومقت أعدائه ومقاومتهم فى جميع المواقف ، لطال بى المقام . لأن شعب الحق التى وجه الإسلام عنايته إليها تعد بالعشرات ، بل هى الشطر الأعظم من الشعب البضع والسبعين التى أشار إليها رسول الله ﷺ فى حديث شعب الإيمان ، والمسلم مأمور من دينه بأن يؤمن بكل شعبة منها ، وأن يبذل جهده لتحقيقها بالعمل ، فى كل الظروف ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

و « التعاون » على جميع الأعمال المباحة - من تجارية وصناعية وزراعية واجتماعية وعسكرية وإنسانية - متى تبينت فائدتها للأفراد أو الجماعات أو الأمة ، فإن ذلك معدود من صميم الإيمان الإسلامى . لأنه من البر ، وقد أمرنا الله فى سورة المائدة (٢) فقال : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . بل لو مست الضرورة فى يوم من الأيام إلى أن تكون دول المسلمين كلها « دولة تعاون » ، وشعوب المسلمين كلها « أمة تعاون » ، لكان المسلمون عاملين فى ذلك بشعبة من شعب إيمانهم ، ولكان ذلك من تمام إسلامهم .

ومن عجائب التربية الإسلامية الأولى على العمل بالإيمان الإسلامى أنهم كانوا يعتبرون « المال » الذى تحت يد أحدهم من كسبه وفى حيازته أنه « أمانة لله » عنده ، فلا يتصرف منه فى حوائجه وحوائج من يعولهم إلا بالمعروف وعلى قدر الضرورة . ثم يرون أن ما زاد على ذلك فهو لله عندهم فلا يتصرفون فيه إلا بما يرضى الله ، ويؤيد الحق ، وينمى مرافق المسلمين ، ويقيل عثرات الأخيار ، ويوسع دائرة الخير . وقد فهموا ذلك من قول الله عز وجل فى سورة الحديد (٧) : « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم (مستخلفين) فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » . وبذلك تعودوا لذة الزهد فى الكماليات التى يسهل الاستغناء عنها ، وترفعوا عن سفاسف الأمور فلم يضيعوا فيها شيئاً من أموالهم

وأوقاتهم وجهودهم ، وحرروا نفوسهم من أن تكون مستعبدة المتع الزائلة وفضول الشهوة ، فسعدت بذلك أممهم ، وقويت ، واستفحل ملكها ، وبلغت أوج العزة وقمة السيادة .

أما « دوحة الخير » في الإيمان الاسلامي فإنها لا تقل عظمة وحيوية وازدهاراً عن أختها دوحة الحق ، بل إن نفس المؤمن في ظل هذه الدوحة أرضى وأسعد ، لأنها تقوم بالقدر الزائد عن الحق ، وتقوم به مختارة ، فهي تجد اللذة عنده مضاعفة . ولو شاء امرؤ أن يؤلف في تفاصيل هاتين الدوحتين كتابا يبدأه بحصر عبودية الإنسانية وطاعتها في الله وحده ، إذ « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، ثم يستعرض شعب الإيمان الإسلامي شعبة بعد شعبة ودرجة فدرجة حتى يبلغ شعبة الرفق بالحيوان وأنها من عناصر إيمان المسلمين ، ثم ينزل منها إلى الشعبة التي تجعل من تكاليف المسلم أن يميط الأذى عن الطريق ليمنع ذلك الأذى عمن يعرف ومن لا يعرف ، بل عن أعدائه الذين يسلكون ذلك الطريق فضلا عمن يودهم ويريد الخير لهم ، إن من يؤلف في شعب الإيمان الإسلامي فيستعرضها كلها ، سيجد نفسه أمام دين لا شك أنه دين الحق ، وشريعة لا ريب أنها شريعة الخير : بمفهومها الإنساني منذ وجدت الانسانية في هذه الأرض إلى أن تقوم الساعة . وإن كتابا كهذا لا يستطيع المؤلف الحكيم المنصف إلا أن يخرجه في مجلدات حافلة بالمثل العليا للإنسانية العليا . وما هذه المثل العليا للإنسانية العليا إلا « الاسلام » نفسه في ريعان حيويته وروعة فطرته ، مجرداً من أنانيات البشر وإسفافهم وضآلة نفوسهم منذ انقطع عنها هذا الغذاء الشهي والمورد العذب الهني . ويوم دخل المسلمون الأولون مصر والشام والعراق وشمال إفريقية وسائر البلاد التي حلوا إليها الرسالة المحمدية ، تقدموا إلى أهلها بهذا الإيمان معروضا على الأنظار ببراهين العمل به والتعامل بقواعده وسننه ، فبادرت الأمم في الحال إلى اقتباسه وتفضيله على كل ما كانت عليه من قبل .

أيها الطالب الأزهري ، ويا أيها الشباب المسلم حيثما كنت : إن إسلامك إذا عرفته من ينبوعه فهو سبب سعادتك ، وسعادة وطنك وأمتك بك . آمن به ولا تخف ، ومن شرط إيمانك به أن تعمل به ، وإذا عملت به أنت وأبناء جيلك فأنا الضامن لكم بأن تؤمن به هذه الأمم الحائرة التي تنشد أهداف رسالة الإسلام وهي لا تعلم أنها موجودة في الاسلام لأنها تريد أن ترى بعيونها ، لا أن تسمع بآذانها . . .

محب الدين الخطيب


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرعياً حتى اليوم . والثانى مسجد المدينة نفسها ، وكانت نشأته بعد ذلك ، وهو المسجد الأوحد فيها ، وما ينبغى أن يقام فيها سواه ، فإن الكواكب لا تفنى ، بل هى لا تبدو بجانب الشمس الضاحية . .

فأى المسجدين يراد فى الآية ؟ كلاهما أسس على التقوى من أول يوم ، وفى كليهما رجال أطهار بررة بدينهم وبنبيهم . غير أن مسجد قباء أسبق . وأن الثانى أعظم وأنفع . قال ذوو رأى صائب من المفسرين أن كليهما مراد ، وذكر المسجد ووصفه بصيغ المفرد لا يأبى التعميم إذا كان الوصف شاملا ، وقاعدة التفسير : الاعتماد على عموم اللفظ ، ولا عبرة بخصوص السبب ، ومع الارتياح إلى هذا : فإن المفسرين المولعين بالتحرى يأخذون بالقرائن ، ولكل وجهة .

ففريق يقول : إنه مسجد قباء ، والوجه عندهم أنه لما أقيم ذلك المسجد ، وظهرت به الحياة الروحية ، شق على المنافقين أن يدعوه من غير مناوأة ، فأشار عليهم أبو عامر - وهو من غلاة المنافقين - أن يقيموا بجانبه مسجداً آخر ، ريثما يذهب هو ليأتيهم بمدد من الروم يقاوم به المسلمين ، ثم ذهب هو ، وبنوا المسجد ، وطلبوا إلى النبي ﷺ أن يصلى فيه ليباركه ، وليكون مقصوداً للناس من بعد ، كما يقصدون مسجد قباء - ذلك زعمهم .

وإذ كان النبي ﷺ على أهبة السفر إلى غزوة تبوك ، وعدهم بالانتقال إلى مسجدهم للصلاة فيه بعد رجوعه من الغزوة ، ولكنه لم يكد ينتهى من غزوته حتى أوحى الله إليه بآيات تكشف له عن قصد البانين لهذا المسجد ، وتفضح نفاقهم ، وتجعله فى حل من وعده إياهم : « والذين اتخذوا مسجداً ضراراً ، وكفراً ، وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون » . فهذه أغراض أربعة ، ليس فيها واحد يمت إلى المسجدية بسبب : (ضراراً) أى رغبة فى إلحاق الضرر بالمسلمين . كأن يستدرجوهم إلى مسجدهم ليقضوا على المسجد الأول بإهماله ، أو يختلطوا بهم دائماً فى غير تمييز فيستطيعوا الكيد للمسلمين دون تعرف عليهم (وكفراً) ورغبته فى ترويج كفرهم باسم الإسلام . وهم لا يجرؤون على التظاهر به كما هو معنى النفاق (وتفريقاً بين المؤمنين) فى مساجد متعددة ليست إليها حاجة ، وفى ذلك توهين للرابطة ، وتمزيق للأخوة التى يساعد عليها اجتماعهم فى مسجد واحد ، ومن أجل ذلك جرى العمل

على الاكتفاء بالمساجد متى كانت تسع أهل محلتها على ما هو مبين فى بابه من الفقه .
(وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل) أى ترصداً وانتظاراً لمن غاب عنهم فى استدعاء المدد من الروم ، وانتظاراً لحشد من يجتمع إليهم من منافق آخر يتحين الفرص معهم . .
وكان من فرط نفاقهم أن يحلفوا للنبى على أنهم لا يقصدون من بناء مسجدهم إلا المقاصد الطيبة ، والعاقبة الحسنى ، وقد شهد الله عليهم بالكذب فى أسلوب أكيد ، وكفى بالله شهيداً .

بين الله أغراضهم ، ونهى رسولهم عن الصلاة فى مسجدهم أبداً ، فكان النهى عن الصلاة فيه إيذاناً بهدمه ، ومحو آثاره حتى لا يفتتن به من لا يعى . لذلك بادر النبى ﷺ بإرسال نفر من صحبه فأحرقوه ، وكبتوا أهل المنافقين ، وكان النهى عن الصلاة مشفوعاً بالتوجيه إلى المسجد الأول ـ مسجد قباء ـ الموصوف بأنه أسس على التقوى من أول يوم ، وبأن فيه رجالا يحبون أن يتطهروا من الأخباث الحسية بالماء الطهور ، ومن الأوزار والشبهات بالعبادة الخالصة لله .

وإن مسجدا يكون زكيا عند الله ، ويكون أهله أطهارا بشهادة الله لأحق بصلاة النبى ﷺ فيه من مسجد دون ذلك ، بل بعيد كل البعد عن ذلك . . ذلك توجيه القائلين بأنه مسجد قباء ... وآخرون يتقبلون الثناء على هذا المسجد ، ولكنهم يجنحون فى توجيه الآية إلى مسجد المدينة ، لأن النبى ﷺ سئل عن المسجد الموصوف فقال (هو مسجدى هذا ، وفى ذلك خير) . . ولأنه لما نهى عن الصلاة أبدا فى مسجد المنافقين ترجح أن المسجد المقصود هو ما ثبتت له الأبدية ، وهو مسجد المدينة . . ونحن نفهم أنها توجيهات للرأى ، واجتهاد غير ملزم ، وأقربها إلى الحق شمول المسجدين فكلاهما على ما وصفت الآية .

ثم تظل الآيات فى تحقير النفاق وأهله ، وتزييف أعمالهم فيقول تعالى . أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار به فى نار جهنم ، والله لا يهدى القوم الظالمين ، .

أى : هل الفاعل لفعل بباعث من التقوى ، والرغبة فى رضوان الله يكون أشرف قصدا وأجدى نفعا ، أو من يفعل فعلا زائفا خبيث الغاية كمن يقيم بناءه على حافة بئر متصدع على وشك الانهيار حتما ، وإذا انهار ذلك العمل كما هو متوقع له ، فسيخر بصاحبه فى جهنم ؟ هل يستوى ذلك وهذا ؟ ؟ الجواب عقلا وطبعا وشرعا ـــ لا ـــ لا يستوى الخبيث والطيب ، وكذلك شأن النفاق والإيمان . ومن عجب أن القرآن يردد علينا حديث النفاق والمنافقين ، ويؤكد فى وقائعه وأمثاله أن النفاق مضيعة للأعمال ، ومهلكة للعاملين ، ولكننا لا نتبصر

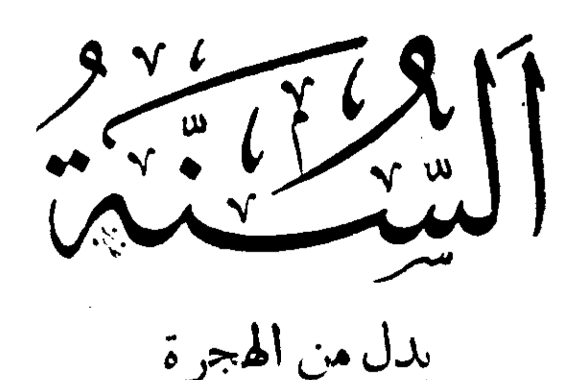
فى الآيات ، ولا تجدينا الزواجر ، بل نسمع ولا نعى ، ونقرأ ولا نفطن : وشىء من التعقل يهدينا إلى سنة الله فى تكوينه لهذا الكون ، فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وجعل الحياة الجدية لما يتسم بسمة الحق ، وكل شىء يلتاث بلوثة الباطل لا يحمل فى إهابه نصيبه من الحياة التى تكفل نفعه ، أو تورثه حظا من الخلود لأنه على غير سنة من الله فى تكوينه لكونه هذا ومن هنا يتضح قوله سبحانه « إن الباطل كان زهوقا » ذلك قصص نستمده من الحديث عن مسجد المدينة . وإن يكن مسجد قباء فيما تتناوله الآيات فالمساجد فى القرآن أربعة مشكورة : لا ثلاثة . . ثم خامس مرذول بغيض .

أما مسجد الرسول ﷺ — وقد احتوى الجثمان الزكى الأطهر ، واحتوى معه صاحبيه وهما من أكرم الكرام على الله بعد رسله — فإنه ليعد بحق طهوراً لقاصديه من المآثم ، فإن فيه مبعوث الهداية ، وداعى الإيمان ، والناصح الأمين . . والقرب من مثواه الكريم فى هذا المسجد يفتح القلوب الغفل ، ويدفع العظة إلى النفس ، ويوقظ الإحساس سريعاً إلى التماس المغفرة من الله فى هذه الروضة المأهولة بأحب الناس إلى الله : بمحمد خاتم رسله ، وأفضل أنبيائه ، وبصاحبيه المقدمين على سواهما من الشهداء عند ربهم .

أليس يؤيد ذلك أن الله جعل الصلاة فى هذا المسجد بألف صلاة فى غير المسجد الحرام ؟ ؟ فإذا كان ثواب الصلاة يبلغ هذه الأضعاف أفلا تكون الدعوات هناك والصدقات وعامة الحسنات كذلك ؟ إن الأماكن تفاوتا فى القدر كتفاوت الأشخاص . . كان مسجده هذا أول مدرسة ترعرعت فيها العقلية الإسلامية ، وأول مجلس تشريعى أحكم فيه نظام القضاء ، ودبر فيه أمر المسلمين فى سياستهم وفى حروبهم ، وأول ندوة رحيبة صدر عنها التوجيه الصالح لخير الأمة الناشئة ، وانبثق منها العلم والتاريخ والأدب الرفيع .

واليقين فى الله لهذا المسجد — وقد اختاره لذلك كله — أن يظل مشمولا بالرعاية ، وأن يثبته بين معالم الدنيا طوال حياتها ، وأن يجعل منه الإشعاع الذى لا يخبو ، ونسيم الحياة الروحية التى لا تفتر ، وأن يربط بين قلوبنا وبين ساكنه برباط قوى من الإيمان الصادق ، حتى تلتقى الدنيا فى نهايتها بالآخرة فى بدايتها ، فننتقل بنور هدايته فى دنيانا إلى ظل شفاعته العظمى فى أخرانا . . وما ذلك على الله بعزيز ؟

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء



بدل من الهجرة

منهاج الحنيفية السمحة - رب مقيم خير من مهاجر - حقوق النعم - صنائع المعروف - بدل الهجرة فى الأمم الإسلامية - زكاة العلم والمعرفة .

« عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ الْهِجْرَةِ ، فَقَالَ : وَيْحَكَ ! إِنَّ الْهِجْرَةَ شَأْنُهَا شَدِيدٌ ، فَهَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَتُعْطِي صَدَقَتَهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَهَلْ تَمْنَحُ مِنْهَا شَيْئًا ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَتَحْلُبُهَا يَوْمَ وِرْدِهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَاعْمَلْ مِنْ وَرَاءِ الْبِحَارِ ؛ فَإِنَّ اللهَ لَنْ يَتِرَكَ مِنْ عَمَلِكَ شَيْئًا » .

رواه الشيخان ، واللفظ للبخارى .

* * *

قد يبدو جديداً فى هذا العهد الجديد ، أن ننتقل من أحاديث الهجرة وشئونها ، وحكمها وأحكامها ، وما يتصل بها من روائع أخبارها وأسرارها ، وبدائع إيثارها وآثارها - إلى ما يعادلها من صالح الأعمال ، وحميد الخصال ؛ فقد أسهمت هذه المجلة فى مجلداتها الأربعة والعشرين ، بنصيب غير قليل من تلك الشئون . ومنها ما كتبناه مستهل العامين : الخامس عشر والتاسع عشر فى حديثى الصحيحين : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية . . » و « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى . . »

ويسير على من تأمل فى سياسة الحنيفية السمحة ، أن يلمس فى منهاجها الحكيم القيم ،

من كل عسر يسرا ، ومن كل ضيق فرجا ، ومن كل شاق بدلا ؛ وحسبنا حديث ذلك الأعرابي شاهداً إلى أن يمن الله ببسط الشواهد فى أحاديث أخرى .

ظن هـذا الأعرابى أن الهجرة إلى المدينة ومصاحبة النبى ﷺ فيها ، أمر محتوم على كل مسلم ، وعزب عنه أنها متعذرة على مثله أو متعسرة ، أو أنها إنما تجب على القادر عليها مخافة الفتنة فى دينه ، فأما من كان مثله فلا بأس بأن يقيم مكانه ويعبد ربه ؛ فلما سأل الرسول ﷺ أن يبايعه على الهجرة رق له صلوات الله وسلامه عليه ورحمه ! وهو بالمؤمنين رءوف رحيم ، وأخبره أن الهجرة شيء عظيم ، لا يقدر عليه إلا من يوطن نفسه على الصبر والجلد وبذل النفس والنفيس فى سبيل الله . ورب قارٍّ فى وطنه يعمل ويتصدق خير من مهاجر ، ورب مهاجر ليس له من هجرته إلا نصب الجسم وشقاء النفس !

ثم عرفه صلوات الله عليه أن للهجرة بدلا يقوم مقامها فى عظيم الأجر والمثوبة ، لمن أصلح نيته وأحسن عمله : بدلا يختلف باختلاف كل وما خلق له .

والأعراب أهل المال الراعى : الإبل ، والبقر ، والشاء ؛ والأولى أكرم أموالهم ولا سيما الحمراء : فبدل هجرتهم أن يؤدوا حقوقها كاملة غير منقوصة ، من صدقاتها الواجبة ، ونوافلها المستحبة ، وليعملوا بعد ذلك أينما كانوا ، ولو من وراء البحار[1] فإن الله تعالى لن ينقص أجر عامل مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما ، .

* * *

بين النبى ﷺ فى حديثه هذا أهم حقوق النعم : أن تؤدى زكاتها ؛ وأن يمنح منها ؛ وأن تحلب على الماء يوم وردها . ومن حقها كما بين ﷺ فى أحاديث أخرى ، إعارة دلوها ، وإعارة فحلها ، وحمل عليها فى سبيل الله .

* * *

فأما زكاتها وزكاة سائر الأموال فهى فريضة محتومة لا ريب فيها ، بل هى ثالث أركان

---

(١) الشراح على أن البحر هنا : القرية أو البلد ومنه : وكتب لهم ببحرهم ، ولكننا نختار أن يكون على حقيقته وأن العبارة جارية مجرى المثل للأمكنة التى تحول بينها البحار شقة وبعدا . وأكبر علمنا انه صلى الله عليه وسلم صاحب هذا الابتكار البديع .

الإسلام الخمس . وكفى مانعَ الزكاة إثماً وخزياً أن الله يعذبه بماله فى الدنيا والآخرة ، فهو فى دنياه حارس مهين ذليل خائف ، وفى أخراه أشد مهانة وذلا ، يوم يحمى على الذهب والفضة فى نار جهنم فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره . وتجىء الإبل أو البقر أو الغنم أعظم ما تكون وأسمنه تطؤه بأخفافها وتنطحه بقرونها ، كلما جازت أخراها ردت عليه أولاها ، حتى يقضى بين الناس .

وأما المنحة والمنيحة فهى العطية ، وتقع على وجهين : عطية الرقبة بمنافعها من الحيوان والنعم والذهب والورق والأثاث وما إلى ذلك ، وهذه هى الهبة ؛ وعطية الرقبة للمنافع زمانا من اللبن والشعر والصوف والوبر والثمار ونحوها على أن ترد الرقبة إلى صاحبها وهذه الثانية هى المرادة هنا .

والمنائح من الصنائع الجليلة الشأن ، العظيمة الخطر ، التى لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم ومما جاء فى فضلها والحث عليها ما رواه الأئمة : أحمد والترمذى وابن حبان عن البراء ابن عازب رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من منح منيحة لبن أو ورق ، أو هدى زقاقا كان له مثل عتق رقبة [١] وإنما كان له هذا الأجر لأنه أحيا نفساً ، أو نفس كرباً ، والجزاء من جنس العمل : وما رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا ، ألا رجل يمنح أهل بيت ناقة تغدو بعس وتروح بعس ، إن أجرها لعظيم ، والعُس : الإناء الضخم .

وقد كانت معيشة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه أول ما قدموا المدينة ، تعتمد على هذه المنائح . أراد الأنصار أن يقاسموهم أموالهم وديارهم ، حتى عرض بعضهم أن ينزل عن إحدى زوجتيه فيطلقها ليتزوجها أخوه المهاجرى عقب عدتها . . فأبو إلا منيحة المنفعة . . وفى هذا تقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها لابن أختها عروة : إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين وما أوقدت فى أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار ، فيقول : يا خالة : ما كان يعيشكم ؟ فتقول : الأسودان : التمر والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار كانت لهم منائح ، وكانوا يمنحون رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانها فيسقينا .

---

[١] شرح هذا الحديث فى المجلد الثانى من هذه المجلة ص ١٠٤–١١٣ .

ويروى الترمذى وأبو داود عن أنس رضى الله عنه قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة أتاه المهاجرون فقالوا يا رسول الله ما رأينا قوما أبذل من كثير ولا أحسن مواساة من قليل ، من قوم نزلنا بين أظهرهم ، لقد كفونا المئونة ، وأشركونا فى المهنأ ، حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا ، ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم .

وحسب الأنصار بدلا من الهجرة هذه الصنائع التى كتبها الله لهم وأثنى بها عليهم ؛ ثم بشرهم نبيه صلوات الله عليه وسلامه بأنه لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق ، وأن من أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله ، ثم إعلانه بأنه لولا الهجرة لكان امرأ من الأنصار ... أى بدل هذا ؟! وأى فضل هذا ؟! تالله لولا أن النصرة تابعة للهجرة ، لقلنا إن الأولى خير من الآخرة .

* * *

وأما تخصيص حلبها بيوم وردها فالرفق بالماشية والتيسير عليها ، ولتمكين المساكين والمحاويج من لبنها وانتفاعهم به ، ولتعميم البر وإشاعة الخير وبث التعاون جهرة فى أشد المواطن حاجة إليه ، فكم من فقير محتاج منقطع لا يسأل الناس إلحافا ، يموت جوعا ولا يرزأ أحداً شيئا ! فإذا أوى إلى ورد الماشية تفطن له أصحابها فمنوا عليه مما من الله عليهم من فضله .

وإذا كانت صدقة السر أفضل من صدقة الجهر ، لأنها أقرب إلى إخلاص المعطى والستر على المعطى — فإن صدقة الجهر أفضل ، لأنها أدعى إلى الاقتداء وأعون على إذاعة البر والتقوى . وما أصاب موضعه مع صدق النية فهو خير وأبقى « ولكل امرئ ما نوى » .

* * *

ذلك ، وللعلماء بحث هنا فيما عدا الزكاة من هذه الصنائع وأمثالها : هل هى حقوق مفروضة فرض الزكاة ، أوهى من مكارم الأخلاق ونوافل البر ؟ والذى نختاره أنها من المكارم المستحبة ، مالم تدع إليها ضرورة واجبة ، فتكون حينئذ حقا محتوما على المصلين « الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم » .

* * *

وإذا كان هذا هو بدل الهجرة من أعرابى واحد فى إبله ، فكيف يكون البدل من

الامم الإسلامية ، منفردة ومجتمعة ، وفى كل منها من العلماء والأغنياء والساسة والقادة والكتاب والخطباء والشعراء ، من لو أدوا ما افترض عليهم من هذا البدل ، لما طمع فيهم من كان بالأمس فى كنفهم وتحت رعايتهم ؟ !

* * *

الحق أن بدل الهجرة ليس جديداً ، فلقد قرر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا البدل حقا محتوما واضحاً لا لبس فيه يوم قال فى كلمته الجامعة الساطعة : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » ولقد حذر الله الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ! !

فهل آن لأمة محمد صلى الله عليه وسلم — وقد جربوا عاقبة خلافه مراراً — أن يستجيبوا له مرة ، فيجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، ويؤدوا زكاة ما أنعم الله عليهم من علم ومعرفة ، ليعودوا كما كانوا سادة الدنيا وملوك الآخرة ؟

ألا قد بلغت . . اللهم فاشهد ؟

طه محمد الساكت

هلال المحرم

ضمنت مخايله بشير هلاله ... وجلت مطالعه تفاؤل آله

الهجرة الكبرى سماح يمينه ... وبياض غرتها صلاح شماله

أضفى عليه هدى الرسول سوابغاً ... من يمن طلعته وطهر خصاله

واستن بالتوحيد أقوم سنة ... تركت عيي الشرك رهن عقاله

لما أخوه طوى الأسى إدباره ... نشر الرجاء المحض فى إقباله

يا مرحباً بالبشر فى استهلاله ... مترفقاً واليسر فى استكماله

حيوا وليدكم الجديد وكبروا ... فى وجهه ، وتيمنوا بهلاله

الهياوى

في ظلال القرآن (*)

القرآن كتاب الإسلام ودعامته وأساسه الوحيد ، وقد أنزله الله هدى للمتقين ونوراً أخرج به العالم من الظلمات إلى النور . وهو المصدر الأول لشريعة الإسلام ونظمه الرشيدة الحكيمة في السياسة والحكم والإدارة ، هذه النظم التي بها صلاح المسلمين والعالم كله في الحاضر والمستقبل من الزمان .

وهذا الكتاب الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه تنزيل العليم الحكيم ، هو الذي يقول فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، على مارواه سيدنا علي رضي الله عنه إذ يحدث أنه سمع الرسول يقول : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم » ، قلت يا رسول الله ؛ وما المخرج منها ؟ قال : « كتاب الله تعالى ؛ فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله . . . من حكم به عدل ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

وقد عنى المسلمون أشد عناية بهذا الكتاب منذ فجر الإسلام ، فتناولوه بالدرس والبحث والتنقيب من كل نواحيه . فمنهم من عنى ببيان ناسخه ومنسوخه ، ومن عنى ببحث أسباب النزول لكثير من آياته ، ومن عنى ببيان وجوه إعجازه ، ومن اهتم ببحث ما فيه من ألوان الفصاحة والبلاغة وصور البيان المعجز ، ومن كان وكده بحث ما فيه من النحو والإعراب واللغة ، وهكذا إلى سائر النواحي التي تناولها دارسو هذا الكتاب العظيم .

ثم كان من هؤلاء وأولئك من أخذوا في شرحه وتفسيره ، وكانوا في ذلك طوائف من حيث المنازع والوجهات التي قادتهم في التفسير ، فمنهم من وقف في تفسيره عند المأثور عن الرسول وصحابته الأكرمين ، ومن خلط بين التفسير بالمأثور وبين التفسير بالرأي ، ومن جعل همه بيان ما في القرآن من عقائد علم الكلام على مذهب أهل السنة أو المعتزلة ، ومن حاول أن يؤيد به مذهبا في الفلسفة أو التصوف ، ومن حاول أخيراً أن يجعل منه كتابا جامعا لكل ما عرفت الحضارة الإنسانية من معارف وعلوم .

(*) للأستاذ سيد قطب ، وتقوم على نشره دار إحياء الكتب العربية : عيسى البابي الحلبي وشركاه بالقاهرة ، وظهر منه حتى الآن ستة أجزاء .

ثم كان من قدر الله وسوء صنيع المسلمين ، أن فقـد المسلمون مقام الصدارة فى العالم ومنزلة الإمامة والتوجيه ، فركدت الهمم ووقفت العقول ، واعتقدنا أن الاول لم يترك للآخر شيئا ! فوقفت حـركة التأليف ، وأقبلنا على دراسة ما كتب الأوائل لا نزيد عليها شيئا .

ولـكن الزمن يسير ، والفلك يدور ، والعالم يتغير ، وشباب الإسلام اليوم لا يقنع بما كتب الأولون ، ولا يجد فى ذلك طلبته . ثم زاد هذا الإحساس بظهور « الإخوان المسلمين» الذين خلقوا جيلا جـديدا ، وأحدثوا فى ناشئة اليوم وعيا إسلاميا قويا ، وأقبلت هـذه الناشئة على دراسة كتاب الله وسنة رسوله المصطفى ، وتلتمس فى هذا السبيل عون القادرين الأكفياء من علماء المسلمين . هؤلاء الأكفياء الذين تذوقوا القرآن وتعمقوه ، ورأوا فيه ما يستحق البحث والتجلية من النواحى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية ، حتى يكون من الممكن والميسور أن ينادى — بحق — بحكم الله وشريعة القرآن التى لا يصلح العالم إلا بها .

وكان من هـؤلاء العلماء الأكفياء الذين أخذوا فى مد شباب الإسلام بما فى طوقهم من عون فى سبيل فهم القرآن وتعمقه والإفادة منه صديقنا الأستاذ الفاضل سيد قطب الداعية الإسلامى والباحث المعروف فى مصر والعالم الإسلامى والعربى عامة ، والذى يسعدنا أن نتحدث اليوم إلى قراء مجلة الأزهر عن كتابه : « ظلال القرآن » .

وقد يرى فريق من قراء هذه الظلال كما يقول الأستاذ فى مقدمة الجزء الأول منها — « أنها لون من تفسير القرآن ، وقد يرى فريق آخر أنها عرض للمبادئ العامة للإسلام كما جاء بها القرآن ، وقد يرى فريق ثالث أنها محاولة لشرح ذلك الدستور الإلهى فى الحياة والمجتمع ، وبيان الحـكمة فى ذلك الدستور ... أما أنا فلم أتعمد شيئا من هـذا كله ، وما جاوزت أن أسجل خواطرى وأنا أحيا فى تلك الظلال .

« كل ما حاولته ألا أغرق نفسى فى بحوث لغوية أو كلامية أو فقهية ، تحجب القرآن عن روحى وتحجب روحى عن القرآن . وما استطردت إلى غير ما يوحيه النص القرآنى ذاته من خاطرة روحية أو اجتماعية أو إنسانية ، وما أحفل القرآن بهذه الإيحاءات ! كذلك حاولت أن أعبر عما خالج نفسى من إحساس بالجمال الفنى العجيب فى هذا الكتاب المعجز ، ومن شعور بالتناسق فى التعبير والتصوير » .

هكذا ، يحدد الأستاذ المؤلف منهجه فى التفسير وخطته فى التأليف ، وحسناً فعل . فقد كفانا - بل زاد عن الحاجة - ما ذخرت به كتب التفاسير المعروفة من الإغراق فى البحوث اللغوية والفقهية والكلامية والفلسفية وما إلى ذلك كله بسبيل ، مع التفريط فى بيان ما اشتمل عليه هذا الكتاب المعجز من نظم اقتصادية واجتماعية وسياسية لا نكاد نجد فى تلك المؤلفات — على قيمتها وجلالتها — محاولة لبيانها مع شدة الحاجة لها .

نحن إذن أمام كتاب فى تفسير القرآن على غير النحو الذى ألفناه ، ومع كاتب له هدفه الواضح ومنهجه السليم فى كتابته ، ولا يرى أن القرآن كتاب فى علم من العلوم مهما كان خطر هذا العلم .

إن القرآن (كما يقول ج ٢ : ٤١ - ٤٢) : كتاب كامل فى موضوعه وفى مهمته ، وإنما مهمة أضخم من مهمة العلم النظرى المجرد أو العمل التطبيقى . إن العلم والبحث فيه خاصية من خواص العقل فى الإنسان . والقرآن إنما يحاول بناء هذا الإنسان نفسه ، بناء شخصيته وضميره ووجوده ، كما يحاول بناء المجتمع الإنسانى الذى يسمح لهذا الإنسان أن يستخدم طاقاته . وبعد أن يوجد الإنسان ويوجد المجتمع الذى يسمح له بالنشاط ، يترك لعقله أن يجرب ويحاول ويخطئ ويصيب فى مجال العلم والبحث والتجديد .

وبعد هذا الإجمال ، لابد لنا من شيء من التفصيل . وهذا يكون بأن نسير قليلا مع الأستاذ المؤلف فى الأجزاء الستة التى ظهرت من كتابه القيم . على أن الخير كل الخير أن يأخذ القارىء نفسه بالسير مع الأستاذ طول الشوط ، وإنه سيجد من الفائدة والمتعة مايدفعه إلى ذلك دفعا .

بدأ الأستاذ بتفسير سورة الفاتحة ذات الآيات السبع فقط ، ومع هذا فقد حوت كليات العقيدة الإسلامية : الإقرار بربوبية الله المطلقة للعالمين ، وأن العلاقة بين « الرب » وعبيده هى الرحمة الثابتة المتجددة ، وأنه مالك الأمر كله يوم الدين وما قبله ، وأنه نتيجة لذلك كله لا ينبغى لأحد أن يعبد غيره أو يستعين بسواه (ج ١ : ٩ - ١١) .

وفى الحديث عن الآيات الأولى من سورة البقرة ، نرى الأستاذ يرسم بقلمه البارع (ج ١ : ١٤ وما بعدها) ثلاث صور لثلاثة أنماط من النفوس تشمل البشرية كلها فى كل عصورها ! وهى نفوس المتقين ، ونفوس الكافرين ، ونفوس المنافقين . وهذا كله استمداد من عدد قليل من الكلمات والأسطر المعدودات فى أول السورة الكريمة الجامعة .

وبعد هـــذا ، يعرض لقصة خلق آدم ومغزاها ، ويحرص على بيان أنه لا تكرار فى القصص القرآنى ، لأنه ما من قصة أو حلقة من قصة قد كررت فى صورة واحدة من

ناحية القدر وطريقة الأداء (جـ ١ : ٢٨) . كما أنه يحرص فى كل ما ظهر من الكتاب : على بيان المناسبات بين كل مجموعة من الآيات يربط بينها سبب خاص ، وبين المجموعة التى تليها ، هذه المجموعات التى قد جعل من كل منها درسا قرآنيا كما يذكر فى المقدمة .

ونذكر من باب التمثيل لهذه الدروس التى قام عليها الكتاب ، ما كان خاصا ببنى إسرائيل وكفرهم بنعمة الله عليهم ، ونقضهم لعهودهم ، وكفرهم بمحمد ﷺ مع أنهم يعرفونه بصفته عندهم فى التوراة ، ثم الدرس الأخير من الجزء الأول ، وهو خاص بالحديث عن « إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، والحديث عن البيت الحرام وبنائه وعمارته وشعائره . . لتقرير الحقائق الخالصة فى دعاوى اليهود والنصارى والمشركين حول هذا النسب وهذه الصلات . كذلك تجىء المناسبة لتقرير وحدة الدين الإلهىّ ، واطراده على أيدى رسله جميعا ، ونفى الاحتكار عنه فى أيدى أمة أو جنس ... الخ ص ٧٩ وما بعدها .

وهكذا ، نجد الدروس تتوالى فى الأجزاء الأخرى ، وكل منها متماسك متجانس بما ينتظم من آيات يربط بينها سبب خاص ويظللها ظل خاص . وهنا ، نلاحظ مع صديقنا الأستاذ المؤلف أن جميع الدروس التى تنتظمها سورة البقرة ، من أول الجزء الثانى إلى آخر السورة الكريمة ، تدور حول الشئون الخاصة بالأمة المسلمة دون الأمم الأخرى ، فالخطاب والبيان يتجهان لها وحدها .

وفى هذا يقول الأستاذ حرفياً (جـ ٢ : ٧) : « ومنذ هذه النقطة ، سنرى أن السياق فى السورة يسير فى بيان تبعات هذه الأمة ، وإعدادها نفسياً ، وتنظيمها عملياً ، وبيان الكثير من تكاليفها فى العبارات والمعاملات . فمن حديث عن الصبر على المكاره ، إلى تعليم شعائر الحج ، إلى بيان بعض الحرام والحلال فى الطعام ، إلى تجلية معنى البر وحقوق الله فى المال ، إلى القصاص وآثاره فى حياة الجماعة ، إلى الوصية عند الموت ، إلى فريضة الصيام ، إلى أحكام القتال ، إلى حكم الخمر والميسر ، إلى شريعة النكاح وروابط الأسرة ، إلى آداب النفقة والصدقة ، إلى تحريم الربا ، إلى شروط الدين .

تخلل هذه الأحكام تلك التوجيهات القرآنية إلى الله ، وإلى آيات الله . . على طريقة القرآن الفريدة فى مخاطبة القلب كلما خاطب العقل ، وإلى توجيه الضمير كلما هم بالتشريع . ومنذ هذه النقطة ، نحن مع الأمة المسلمة وحدها ، وقد خلص السياق كله لها ، الأمة التى رباها القرآن بهدى القرآن » .

هذا ، وليس من الميسور لنا أن نسير مع الأستاذ إلى نهاية الشوط ، فالنطاق المخصص

لهذه الكلمة محدود ، فلندع ذلك للقارىء الذي سيجد ، بلا ريب ، فيما كتب المؤلف رضى لقلبه ومتعة لنفسه ورياً لعاطفته وإحساساته الفنية .

على أنه مهما اضطررنا للإيجاز ، وغنينا بالإشارة ، فلا بد لنا من وقفات قصيرة عند بعض ما وفق إليه أخونا الفاضل من اللفتات البارعة الأصيلة ، وهنا أيضاً نكتفي بالإشارة إلى القليل من هذه اللفتات .

ففي قوله تعالى في سورة البقرة : « واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون » ، لم يقل مع كثير من المفسرين بأن الظن هنا معناه اليقين ويحل محله أحيانا في التعبير . إنه يرى أن هذا التعبير يلفت النظر ، ويقول (ج ١ : ٣٨) : « أحسب أنه يراد أن يقال إن أدنى العلم بلقاء الله كفيل بأن يترك في النفس آثاره ، كفيل بأن يهب الروح قوة وطمأنينة ، كفيل بأن تخشع له القلوب وتلين له النفوس » .

وفي قوله تعالى في السورة نفسها : « ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم » ، يذكر (ج ٢ : ١٩) أن المعنى المقصود هو أن الله يرضى عن ذلك الخير ويثيب عليه . « ولكن كلمة « شاكر » تلقي ظلالا ندية وراء ذلك المعنى المجرد ، تلقي ظلال الرضى الكامل حتى كأنه الشكر من الله للعبد ، وتوحي بالأدب الواجب في حق الإحسان . . . »

وفي قوله جل ذكره في سورة آل عمران : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ، نرى الأستاذ يقول (ج ٤ : ١٤) : « إنه تعبير يلفت النظر ، لفظ أخرج وبناؤه المجهول . وهو يكاد يشي باليد الخفية المدبرة ، تخرج هذه الأمة إخراجا وتدفعها إلى الظهور دفعاً من ظلمات الغيب . . إنها لفظة تصور حركة خفية المسرى لطيفة الدبيب ، حركة تخرج على مسرح الوجود أمة ! فيالها من يد قادرة مدبرة ، تشي بها لفظة مصورة معبرة » !

هذه اللفتات ، وما أكثرها في الكتاب ، هي إحدى خصائص هذا العمل الجليل الذي يجب أن نحتفل بصدوره . والذي ندعو الله أن يهب صاحبه العون والتوفيق لإتمامه . ولا عجب ! فهو عمل يصدر عن رجل يعتز بدينه ، وقلب مؤمن حق الإيمان بسمو الإسلام وشريعته ، وعقل ألمعي لماح . وهو مع هذا كله ، عمل يمتاز بالبيان الرائع المشرق ، والأسلوب السهل الممتنع .

الدكتور محمد يوسف موسى
الأستاذ بكلية الحقوق - جامعة القاهرة

نشأة المعاجم اللغوية وتطورها

كانت أهم المصادر التي اعتمد عليها القدماء في جميع اللغة العربية هي :

ا — القرآن الكريم

ب — الحديث النبوي

ج — كلام العرب الفصحاء

ووجه الاعتماد على هذه المصادر الثلاثة هو ما فصله علماء أصول الفقه في موضوع : الطريق إلى معرفة اللغة :

فمن العلماء من رأى أن الطريق إلى ذلك هو النقل المحض [١] .

ومنهم من رأى أنه إما النقل المحض كأكثر اللغة ، وإما استنباط العقل من النقل كمعرفة أن صيغ الجمع تفيد العموم ، بالاستدلال العقلي على ذلك عن طريق الاستثناء من الجمع المعرف [٢] . وعلى كلا القولين فالأساس الأصلي في معرفة اللغة هو النقل ولا مجال في ذلك لمحض العقل .

والنقل إما تواتر وإما آحاد ، فالمتواتر ما بلغ عدد ناقليه حدا لا يجوز على مثلهم الاتفاق على الكذب ؛ وهذا القسم قطعي يفيد العلم . والآحاد ما انفرد بنقله بعض أهل اللغة ولم يوجد فيه شرط التواتر ، وهو دليل مأخوذ به . وذهب الأكثرون إلى أنه يفيد الظن ، وزعم بعضهم أنه يفيد العلم [٣] .

وإذاً فلا مناص من تخير مصادر النقل على أساس يكسبها صفة التواتر المؤدي إلى العلم القطعي حسب الإمكان ؛ والأخذ بنقل الآحاد الموثوق بهم فيما عدا ذلك .

وأمثلة المتواتر لغة القرآن ، وما تواتر من السنة ومن كلام العرب .

---

(١) أنظر كتاب الاحكام في أصول الأحكام لأبي الحسن الآمدي ج ١ ص ١٠٤ فما بعدها ط مطبعة المعارف ١٩١٤ والمزهر للسيوطي ج١ ص ٢٩ فما بعدها [بولاق]

(٢) المزهر في الموضع السابق

(٣) المزهر في الموضع السابق وفي النوع الثالث معرفة التواتر والآحاد

ومن أمثلة المتواتر من كلام العرب ما تواتر على ألسنة الناس من زمن العرب إلى اليوم وليس فى القرآن ، ولا تحوم حوله شبهة الدخيل ؛ من ذلك أسماء الشهور والأيام والفصول ، وأجناس الحيوان والنبات ، والحلى واللباس والأدوية والأمراض وغير ذلك .

وقد يعيننا على فهم السر فى اتباع هذا النظام مراجعة النظر فى الأصل الداعى إلى جمع لغة العرب ، وهو القرآن الكريم .

ذلك أن جمع اللغة وإن صار فيما بعد مقصداً مطلوبا لذاته ، ودراسة اتجه إليها التفرغ والاختصاص ، ونشأت فيها المدارس والمذاهب ، فإنه لم يكن فى بادئ الأمر إلا وسيلة وسبباً لفهم مدارك القرآن الكريم ، واستيضاح أسراره ؛ كما هو الشأن فى نشأة جميع العلوم الإسلامية على وجه العموم . فكما كان القرآن مصدر الدراسات الفقهية والكلامية ، وما ينتمى إليها بأدنى سبب ؛ كذلك كان مصدر الدراسات اللغوية والأدبية وما يتعلق منها بقرابة أو نسب .

القرآن إذاً هو المصدر اللغوى الأصلى الذى صدرت عنه الدراسات اللغوية كافة ، وفن مفردات اللغة على وجه الخصوص . وهو مصدر مزدوج من هذه الوجهة أيضاً :

فهو من جانب منبع لذاته من أهم منابع اللغة بل أهمها على الإطلاق ، لبلوغه مبلغاً خاصاً من التواتر لا يدانيه فيه غيره ؛ كما أن لغته تبلغ فى نظر العرب الأصلاء أسمى درجات الخلوص والفصاحة .

وهو من جانب آخر مصدر باعث إلى التوسع والتبحر فى اللغة ، توفرت بسببه الدواعى إلى تنميتها ، والإحاطة بها . فكل كلمة منه ، وكل جملة فى تركيبه ، حفزت الهمم إلى ملاحظة نظائرها فى الاستعمال العربى العام ، والبحث عن أصولها وفروعها ، ووجوه اشتقاقها وتصريفها ؛ وكل ما يتصل بشجرتها من ألفاظ وعبارات .

ومن هنا كان المصدر الأساسى فى حقيقة الأمر هو القرآن الكريم ، وكل ما عداه تبع له وفرع عليه .

— ٢ —

قد نستطيع الآن أن نفهم : لماذا كان علماء العربية القدامى شديدى التحرى والتزمت

فى جميع اللغة، ووسائل معرفتها؛ حتى كانوا أشد حرصا على حرفيتها من الحديث والسنة، لا لأن اللغة كانت عندهم أعلى مقاما، وأقدس قداسة من الحديث والسنة، بل لأن اللغة كانت مقصودة لذاتها، مطلوبة لحرفيتها. بخلاف الحديث الذى جوز جمهور العلماء روايته بالمعنى، الذى هو مناط التعبد لا اللفظ، بشرط أن يكون الراوى عالما بمدلولات الألفاظ واختلاف مواقعها[1].

وعن هذا نشأ الاختلاف فى جواز الاحتجاج بالحديث على اللغة؛ على حين لا يختلف العلماء فى جواز الاحتجاج بما ثبت من كلام العرب[2].

وفى سبيل التأكد من هذه الحرفية اللغوية، بدأ العلماء فى جمع اللغة جارين على سنة أهل الحديث: من تخير الرواية، والرحلة إلى من يؤخذ عنهم بعد التصفية والتنخل، والاستيثاق من الأسانيد، والسبر بمعايير النقد الدقيقة، ووسائل الجرح والتعديل، الخ.

ونمت هذه الطريقة فى اللغة كما نمت فى الحديث؛ حتى نشأ من ذلك فن متكامل للرواية اللغوية[3]، على نمط فن رواية الحديث، الذى عرف فيما بعد بعلم مصطلح الحديث.

ولا شك أن من دواعى ازدهار ذلك الفن فى القديم انتشار الأمية بين العرب، وحداثة عهدهم بالكتابة، كما هو الشأن فى أصل ازدهار الحديث.

وربما كان الفارق بين اللغة والحديث فى أصل طبيعتهما، أن الدواعى كانت متوفرة على

---

(١) انظر: كتاب الاحكام للآمدى ج ٢، ص ١٤٦ فما بعدها.

(٢) انظر تفصيل الكلام على الاحتجاج بالحديث وكلام العرب فى: خزانة الادب للبغدادى، ج ١ ص ٣ فما بعدها.

(٣) بنى السيوطى كتابه: المزهر فى علوم اللغة، على هذه الطريقة، وانظر قوله فى المقدمة: «هذا علم شريف ابتكرت ترتيبه، واخترعت تنويعه وتبويبه، وذلك فى علوم اللغة وأنواعها، وشروط أدائها وسماعها، حاكيت به علوم الحديث فى التقاسيم والأنواع»، الخ. ثم انظر فى ختام هذه المقدمة نقله قول أحمد بن فارس فى أول كتاب فقه اللغة حيث جاء فى آخره: «والذى جمعناه فى مؤلفنا هذا مفرق فى أصناف كتب العلماء المتقدمين، وإنما لنا فيه اختصار مبسوط أو بسط مختصر، أو شرح مشكل أو جمع متفرق»، ثم تعقيب السيوطى على ذلك بقوله: «وبمثل قوله أقول فى هذا الكتاب».

الـكذب فى الحديث لأسبابه المعروفة الحاملة للواضعين على الوضع . وأما اللغة فالدواعى إلى الـكذب عليها فى غاية الضعف » (١) .

لهذا ما كادت الـكتابة تشيع وتفشو فى العالم الإسلامى حتى أقبل العلماء على تدوين اللغة ووضع المؤلفات الـكثيرة فيها ، وتقييد شواردها ، وجمع شواهدها ، مع قلة العناية — بعد ذلك — بنقد الأسانيد ، وتجريح الرجال وتعديلهم ، كما استمر ذلك فى فن رواية الحديث من قبل ومن بعد (٢) . بل جمع من اللغة ما صح وغيره ، فلم يلتزم المؤلفون الصحيح ، وإن نبهوا غالبا على ما لم يثبت (٣) .

ومع هذا فقد بلغ التزمت والدقة اللغوية عند بعض اللغويين فيما بعد أيضا مبلغا شبيها بما عرف فى السنة ، حتى بدأ بالتزام الصحيح من اللغة فى تأليفه مقتصرا عليه ، مثل الإمام أبى نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى ، صاحب كتاب الصحاح ، الذى ألفه بعد « تحصيله لغة بالعراق رواية ، وإتقانه لها دراية ، ومشافهته بها للعرب العاربة [أى الأصيلة العروبة] فى ديارهم بالبادية » (٤) .

ومثل أحمد بن فارس ، المعاصر للجوهرى ، والذى ألف كتابه المجمل ، فالتزم فيه الصحيح ، « وذكر ما صح من ذلك سماعا ، أو من كتاب لا يشك فى صحة نسبه » (٥) .

واستمر بعد ذلك جمع اللغة وتدوينها سائرا على هذا المنوال من التحرى والتزمت ، أو على الأقل محدودا بقيود العربية الفصحى . فـكثرت المؤلفات فى هذا النطاق ، على تطور معلوم فى الترتيب والتبويب .

— ٣ —

قد نستطيع أن نفهم ، على ضوء ما تقدم ، أن جامعى اللغة العربية رأوا أنفسهم منذ البدء محدودى الحرية ، مقيدين باتجاه خاص فى مزاولة نشاطهم إلى الجمع .

(١) من كلام الامام القرافى فى شرح المحصول ، كما نقله السيوطى فى المزهر ج ١ ص ٦٠ .
(٢) انظر تفصيل الـكلام على ذلك فى المزهر ج ١ ص ٥٦ فما بعدها .
(٣) أنظر عبارة للفيروز أبادى صاحب القاموس المحيط ، كتبها على ظهر نسخة من العباب ، كما نقلها السيوطى فى المزهر ج ١ ص ٤٨ .
(٤) بتصرف قليل من خطبة كتاب الصحاح .
(٥) من أول كتاب المجمل .

فلم تحظ اللهجات الشعبية ، ولا غير الفصحى من العربية ، إلا بأقل من القليل من مثل تلك العناية بل لا نكاد نجد لها ذكرا إلا عرضا ، أو بمناسبة التمييز بين الفصيح والأفصح ، أو فى غير ذلك من الكتب التى وضعت لخدمة العربية الفصحى ، فعنيت بتنقيتها من ظواهر اللحن والخطأ ، التى لم تقو كل المحاولات على منع تسربها من اللهجات الشعبية والدارجة .

ولم يبدأ الاتجاه إلى الشعور بالحاجة لجمع اللهجات الشعبية ، وضرورة هذا الجمع فى تغذية الثقافات اللغــوية ، والتاريخية ، والاجتماعية ، والعلمية العــامة ، إلا فى مفتتح النهضة العلمية الحديثة .

وقد كانت لمــا سلكه اللغويون القدماء فى جمع اللغة آثار هامة لا تزال ظواهرها بارزة إلى اليوم :

١ — سهل ذلك عليهم من ناحيـة عمل الحصر والاستقصاء الذى يهدفون إليه ، لأنهم وضعوا نصب أعينهم أولا أن يحصوا لغة القرآن والسنة ، التى ترجع فى الكثير الغالب إلى لهجة قريش ، وإن اشتملت على ظواهر مختلفة من بقية اللهجات العربية .

ومن هنا كان هم أولئك العلماء أن يرتادوا فى جمع اللغـة مناطق العربية البعيدة عن التأثر بالدخيل . كما حدد ذلك بتفصيل أبو نصر الفارابى فى كتابه المسمى بالألفاظ والحروف»[1].

٢ — بيد أن ذلك - من ناحية أخرى - حد من سعة الأفق العلمى اللغوى ، والنظر إلى العربية لذاتها ، على أنها أصل أو فصيلة لغوية عامة ذات فروع وأفنان مختلفة المظاهر والنمو وترتب على ذلك تقييد حركة البحث العلمى ، وحجزه عن الاستعانة بوسائل كانت تلقى كثيراً من الضوء على أصول اللغة وتطورها ، لو توفرت العناية بها فى ذلك الوقت المناسب .

٣ — كان ذلك الاتجاه أشبه بوسيلة من الوسائل الصناعية ، أبعد ما تكون عن الصراع حول تنازع البقاء ، للعمل على سيادة لهجة من لهجات اللغة الواحــــدة ، وصبغها بصبغة الاعتماد الرسمى ، الذى يفرض نفسه فرضا ، ولا يستمد حياته وقوته من النمو الطبيعى ، والشعور العام .

٤ — أخضع الأدب والنتاج العقلى لقيود حدت من حريته وانطلاقه ، لحرم ذلك الأدب من إبراز صورته الشعبية الحقيقية ، والظهور فى صيغة القومية الأصيلة ، التى لم تخضع

(١) أنظر المزهر للسيوطى ج ١ ص ١٠٤ .

للقيود النحوية الجامدة ، المفروضة فرضاً ؛ بل ظلت منطلقة على طبيعتها دون أن تنال الاحترام والتسجيل .

٥ — بعدت الهوة بين اللهجات العربية الحديثة وأصولها القديمة إلى حد يخشى بسببه من تباعد الشعوب العربية وتجافيها اللغوى ، دون أن يجد الباحثون بين أيديهم عوناً تاريخياً وافياً يكشف لهم عن سر ذلك التطور وأسبابه الحقيقية ، من جراء الاكتفاء فى جمع اللغة بالعربية الفصحى .

٦ — ترتب على بعد الشقة بين اللهجات الحديثة وأصولها القديمة خصوصية الثقافة العربية ، واقتصارها على وسط المتعلمين ، وحرمان عامة الشعوب العربية من نتائج الحضارة والمعرفة ، وترقية مستوى تفكيرهم ، وأحاسيسهم ووجداناتهم ، عن طريق ذلك . وهكذا تصير الثقافة عندهم من قبيل الترف العقلى الذى لا يقدر عليه إلا المحظوظون ، بدلا من أن تكون فى متناول الجميع كالغذاء والماء والهواء .

٧ — صار كل طامح للتزود من العلم والمعرفة ملزماً باصطناع لغتين : لغته الشعبية الدارجة ولغة العلم والأدب .

إلى غير ذلك من الآثار اللغوية والعلمية والاجتماعية ، ولا سيما هذه الأخيرة ، إذا لاحظنا أن اختلاف الثقافة اللغوية بين أبناء الشعب الواحد كثيراً ما يؤدى إلى تنمية الفروق الاجتماعية بين الطبقات . « يتبع »

دكتور عبد الحليم النجار

القافية فى الشعر الاوربى

أخذ الأسبانيون القافية فى صناعة الشعر عن شعراء العرب ، ثم وصلت هذه الصناعة إلى مرسيليا وطولون بواسطة التجار الأسبانيين . وذاعت القافية بعد ذلك فى الشعر الفرنسى وشعر الأمم الاوربية الأخرى .

من نوادر المخطوطات

شفاء الغليل في مسالك التعليل (للغزالي)

للغزالى مكانته العلمية ، ليس بين علماء المسلمين فحسب ولكن بين العلماء فى سائر الأقطار ، ولقوة حجته وشدة عارضته وقدرته على الكشف عن محاسن الإسلام ومدافعة أعدائه ودرء الشبهات عنه لقب بحجة الإسلام . وللغزالى أسلوبه الخاص فى عرض قواعد العلوم وبسط قضاياه فهو لا يقنع بسرد المعلومات جافة جامدة ، بل يلتزم فى أكثر الأحيان أن يتبع القواعد بالأمثلة ليستأنس المتعلم وينشط فى تحصيل العلوم ، وقد نهج هذا المنهج فى أكثر ما صنف من كتب فى مختلف الفنون . نهج ذلك فى الأخلاق والتصوف والفقه والأصول ، وبهذا عده علماء الغرب فى التربية وعلم النفس من أئمة المتقدمين من علماء الإسلام فى هذه الفنون ، وجعلوا من آرائه فيها نظريات تدارسوها فى جامعاتهم بروح الإعجاب ، وأحلوها محلها من العناية والتقدير ، وعن هذه العقلية التربوية صدرت مؤلفات الغزالى فمنها المختصر ومنها المطول ، ومنها السهل الذى يلائم مستوى الناشئين ومنها الدقيق العميق الذى يناسب عقليات العلماء الذين رسخت فى العلوم أقدامهم واستمكنت فى دراستها ملكاتهم . ومن أسماء كتبه « إلجام العوام عن علم الكلام » و « المضنون به على غير أهله » .

وللغزالى مؤلفات كثيرة فى فنون مختلفة أكثرها فى علوم الكلام والتصوف والأصول . ومن مصنفاته فى الأصول كتابنا هذا الذى نعرف به وهو « شفاء الغليل فى بيان الشبه والطرد والمخيل . ومسالك التعليل » ويختصر عنوانه أحيانا فيقال : « شفاء الغليل فى مسالك التعليل » ، وموضوع الكتاب : القياس الأصولى بأركانه المعروفة لعلماء الأصول .

والقياس أحد الأدلة التى تستمد منها الأحكام الشرعية . وقد كان القياس من بين أدلة الأحكام مجال جدال بين متقدمى علماء الإسلام فى اعتباره دليلا من أدلة الأحكام وغصت كتب الأصول بالحديث عنه ، وقد أورثنا الكلام عنه ثروة فكرية رائعة تدل على استنارة أذهان أسلافنا من علماء الأصول واستحضار ملكاتهم فى علومهم وتحققهم بها . وللقياس مناح دقيقة ، ومباحث عويصة من أدقها العلة ومسالكها ، وقد خصها الغزالى فى كتابه

هذا بالحظ الأوفر من عنايته ، وفصل القول فيها تفصيلا لم يعهد فى كتب الأصول . وإن عنوان كتابه ليدل على هذه العناية بل إنه يفيد عقد الكتاب عليها ، فعنوان الكتاب «شفاء الغليل فى مسالك التعليل» وإن كان الواقع أن الكتاب فى القياس بسائر أركانه فقد قال قدمت لك مقدمة فى صدر الكتاب على نهاية الإيجاز فى بيان معانى القياس والعلة والدلالة ثم قسمت مقصود كتاب القياس إلى خمسة أركان : الركن الأول فى إثبات طرق علة الأصل ، الركن الثانى فى العلة ، الركن الثالث فى الحكم ، الركن الرابع فى الأصل الذى يقاس عليه ، الركن الخامس فى الفرع الملحق بالأصل .

والكتاب فى نظرنا من أدق كتب الأصول وأعمقها ، وهو مثال رائع فى قوة الحجاج واستحضار الشواهد والأمثلة ، ودليل قاطع على ذهنية الغزالى الخصبة فى علم الأصول . ولعلنا لا نعدو الواقع إذا قلنا : إنه من أجل كتب الغزالى فى هذا الفن ، وهو فقه الأصول ولبابه وخلاصته فى بابه ومنهجه فيه منهجه فى أكثر مصنفاته من حيث الاعتماد على الأمثلة فى توضيح القواعد وبسطها مع اختلاف فى الأسلوب وبعض المصطلحات عما ألفناه فى كتب الأصول

ويمتاز هذا الكتاب بأسلوب أدبى قوى لم يعهد فى كتب هذا الفن ، وقد أودعه الغزالى دقائق كتاب القياس ولباب أبحاثه فيه ، ونبه فى مقدمته على مكان الكتاب من علم الأصول وأنه لا يتيسر لكل دارس أن يقتحم لججه ، ويستخرج دره ، بل يشترط أن يكون دارسه على قسط خاص من الثقافة وذا تنبه ذهنى قوى . فيقول فى خطبة الكتاب بعد الديباجة : أما بعد فإن إلحاحك أيها المسترشد فى اقتراحك ، ولجاجك فى إظهار احتياجك إلى شفاء الغليل فى بيان مسالك التعليل من المناسب والمؤثر والشبه والطرد والمخيل . هـــزم لجاجى فى التسويف والتساهل ، وحل عقدة عزمى فى المماطلة والتكاسل فانجررت إلى تحقيق أربك ، واستخرت الله تعالى فى إسعافك بمطلبك ، وأتيت فيه بالعجب العجاب ولباب الألباب ، وكشفت عن مخمضاته غواشى الارتياب ، وأنا أنبهك أيها المسترشد على شاكلة الصواب ، قبل أن أخوض بك فى غمرة الكتاب ، وأقدم إليك نصيحة مشوبة بخشونة ولا يزوينك عنها مرارة مذاقها وخشونة ملمسها - فنصيحة فى تخشن خير من خديعة فى لين - وهى أن هذا الكتاب لن يسمح بمضمون أسراره على مطالع ، ولن يجود بمخزون أغواره على مراجع إلا بعد استجماع أربع شرائط . الشريطة الأولى : كمال آلة الدرك من وفور العقل وصفاء الذهن . . . . . . الشريطة الثانية : استكداد الفهم والاقتراح عن القريحة واستثمار العقل

بتحديق بصيرته إلى صوب الغوامض . . . . الشريطة الثالثة : الانفكاك عن داعية العناد وضراوة الاعتياد . . . . الشريطة الرابعة : أن يكون التعريج فى مطالعة هذا الكتاب مسبوقا بالارتياض بمجارى كلام الفقهاء فى مناظراتهم ومراقى نظرهم فى مباحثهم محيطا بجليات كلام الأصوليين محتويا على أطراف هذا العلم خبيرا بمناهج الحجاج . . . . . .

ولم يستوف الغزالى فى كتابه هذا الكلام فى القياس بل قصره على الدقيق من مباحثه والغويص من مسائله ، فقد قال : « وما أخللته من كتاب القياس مما لم أتعرض له فهو منقسم إلى ما رأيته جلياً يستغنى بكتاب المنخول عنه - (المنخول) للغزالى - وإلى ما لا تمس الحاجة اليه فى المناظرة إلا نادراً ، فقصرت همتى على الأغمض ثم اجتزأت بالأهم .

والكتاب نسخة فريدة فى المكتبة الأزهرية ليس لها نظير فى مصر فيما نعلم ولها نظير فى الهند . وبأول نسختنا وقف للشيخ أحمد الدمنهورى على طلبة العلم بدون تاريخ على أن يكون مقرها بمقصورة الأزهر ، وتقع فى ١٨٠ ورقة من القطع المتوسط وعدد سطورها ما بين ٢١و٢٣ للصفحة الواحدة وليس عليها ما يدل على تاريخ كتابتها إلا أننا نرجح من طريق رسم خطها ونوع ورقها أنها كتبت فى القرن السادس ، وخطها هو الخط المعتاد لذلك العصر الذى ينقصه كثير من النقط فتعسر قراءته حتى على من مارس موضوع الفن ، وهى لناسخين ، وقواعدهما فى رسم الكلمات على غير ما نعرفه الآن من كلمات كثيرة .

ولا تستطيع النسخة الأزهرية مهما بولغ فى تصحيحها أن تعطينا صورة صحيحة للكتاب كما ألفه الغزالى ، لرداءة الخط ولحالة النسخة ، فقد عبثت الارضة ببعض كلماتها وذهبت ببعضها ذهاباً كاملا فى الكراسة الأولى . وقد يمكن معرفتها بمقارنتها بالنسخة الهندية . وقد استحضرت الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية صورة مصغرة « فيلم » منها وهى تقع فى ١٧٩ ورقة وكتبت سنة ٥٥٥ أى بعد وفاة المؤلف بنصف قرن وقد قابلناها فى بعض صفحاتها بالنسخة الأزهرية فرأيناها مختلفة فى بعض الكلمات . وفى رأينا أن النسخة الأزهرية أدق فى عبارتها .

وقد حرصت المكتبة الأزهرية على الاحتفاظ بهذا الكتاب فاستنسخت لحسابها نسخة من نسختها على قدر الطاقة ، وراجعناها على الأصل ، ورغم التروى والتدقيق فى المراجعة فقد فاتنا معرفة كثير من الكلمات واعتمدنا فى تعرف بعضها على سياق الكلام ومعناه وأثبتناه على الهامش مع استبقاء الأصل بالصلب ونبهنا على ذلك .

والكتاب في نظرنا جليل القدر في علم الأصول وفي باب القياس بوجه خاص، وهو جدير بالنشر والطبع لأنه نهج غير مألوف في كتبه. والكتب القديمة غير المقررة في المعاهد لا تغري دور النشر التجارية بالنشر مهما كانت قيمتها العلمية، لذلك نرى أن تعمل المشيخة على نشره بمطبعة الأزهر بعد أن يقوم على تحقيقه وتصحيحه عالمان من علماء الأصول بالكليات، وإن صدور هذا الكتاب وأمثاله عن مشيخة الأزهر محققاً ممحصاً جزء من رسالتها

هذا وإني أنتهز هذه الفرصة فأهيب بالغيورين على العلوم الإسلامية من سائر الأقطار وبخاصة مشيخة الأزهر فإنهم من منبر المسلمين العام ودو مجلة الأزهر على الخطر الذي يتهدد هذه العلوم بركود حركة الطباعة فيها. وبخاصة المراجع المطولة منها، فقد انصرفت أكثر دور الطباعة التجارية عن طبع هذه الكتب انصرافا تاما بطبع الكتب الصغيرة الحديثة في التاريخ والأدب وما إليهما فارتفعت أثمان الكتب الإسلامية القديمة ارتفاعا مرهقاً للراغبين فيها، وأخذت تختفي من الأسواق شيئاً فشيئاً، وإن ذلك الخطر لا يقتصر على مصر وحدها ولكنه سيعم الأقطار الإسلامية ومن واجبها أن تتضافر لدفعه والسبيل إلى ذلك في نظرنا أن تتألف لإحياء الكتب الدينية والعربية جمعية من بعض علماء جميع الدول الإسلامية على أن يكون لهذه الجمعية رأس مال تسهم فيه كل دولة بقدر طاقتها وتقوم بنشر مطولات كتب اللغة والحديث والفقه مما تهمل دور الطباعة نشره، ثم تباع هذه الكتب للجماعات والأفراد بجزء من تكاليفها وتتحمل الجمعية الباقي من التكاليف.

وإن في بعض الأمم جمعيات تقوم بمثل هذه الرسالة في نوع خاص من الكتب ولها فروع في القاهرة.

قد يقال: إن بالجامعة العربية إدارة لمثل هذا العمل وأنا جد عليم بهذه الإدارة وعلى صلة قوية بها وأقدر مجهوداتها العلمية، إلا أن هذه الإدارة لا يمكن أن تنهض بالعمل الذي أدعو إليه ونشاطها في نواح أخرى لا يغنينا عن القيام بهذا العمل دفعاً للخطر عن ثقافتنا الإسلامية العربية.

وعسى أن يكون لدعوتنا صدى والله يتولانا بالسداد والرشاد.

أبو الوفا المراغي
مدير المكتبة الأزهرية

الحج المبرور

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

أذيع من دار الإذاعة المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . ورد فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : إيمان بالله وبرسوله . قال السائل : ثم ماذا ؟ قال : ثم الجهاد فى سبيل الله . قيل : ثم ماذا ؟ قال : ثم حج مبرور .

وقد ثبت فى صحيحى البخارى ومسلم وأكثر كتب السنة المعتبرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » .

والحج المبرور : هو الذى وفيت أحكامه ، ولم يخالطه شىء من الإثم ، والذى يستعرض أعمال الحج وأحكامه يجدها ترجع إلى عناصر يكمل كل منها الآخر ، ومدارها على أن يجدد المسلم حياته بالحج : فيقطع صلته بكل ما كان يعاق بها من شوائب الإثم ، أو الانحراف عن طريق الله ووسائل مرضاته ، ويبدأ حياته جديدة نقية ، بنفس راضية نقيه ، بعد توبة نصوح يشهد الله عليها فى أطهر بقاع الأرض ، مخاطبا ربه عز وجل قائلا . « لبيك اللهم لبيك » ، وملتزما أن لا يعمل من ذلك الحين إلا ما يرضى الله من عمل ، وأن لا يقول إلا ما يقربه إلى ربه من خير وحق ، وأن لا يعود إلى أهله ووطنه ألا وهو إنسان آخر يؤثر مرضاة الله فى كل ما يصدر عنه ، ويكون فى جانب الحق فى كل ما يصطدم فيه الحق والباطل ، ويحرص على أن يكون من أهل الخير كلما دعته الظروف وسنحت له الفرص لعمل الخير .

كما أن المدرسة مصنع يدخله غير العارفين ثم يتخرجون منه علماء عارفين ، كذلك الحج

فرصة من فرص الحياة يتعرض لها المسلمون بما ارتكبوا فى حياتهم من هفوات ، وما وقع منهم مما لا يرضى الله عنه فيجددوا توبتهم العظمى فى البلد الحرام والشهر الحرام ، ويهتفون من أعماق قلوبهم معاهدين ربهم على التزام أوامره واجتناب نواهيه قائلين : « لبيك اللهم لبيك » ، فلا ينتهون من مناسكهم إلا وهم على عهد مع الله عز وجل بأن يكونوا من أهل الاستقامة فى حياة جديدة قامت مناسك الحج حائلا بينها وبين شوائب الماضى ، فيعفو الله عما سلف على قدر ندم صاحبه عما فرط منه ، وعلى قدر ثباته على عهده مع الله بأن يكون من أهل السلامة والاستقامة والتقوى .

إن عشرات الألوف من المسلمين يقفون بين يدى الله عز وجل فى عرفة ، فى البقعة المباركة التى وقف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوة خلق الله من أصحابه الأكرمين والتابعين لهم بإحسان .

وهذه الألوف التى لا تحصى ترفع أصواتها بالدعاء إلى الله الرحمن الرحيم معلنة أنها أجابت دعوته ، وأنها تعاهده عز وجل على أن تتوخى رضاه فى أقوالها وأفعالها . ولن تكتفى هذه الجموع العظمى بهذا العهد العظيم مع الله ، بل إنها بعد الإفاضة من عرفات إلى مزدلفة تدفع من مزدلفة إلى منى قبل أن تطلع الشمس ، وفى منى تعلن مقاطعتها للشيطان ، وترمز لهذه المقاطعة برميه عند الجمرة الكبرى ثم عند الجمرة الوسطى وجمرة العقبة فى أيام التشريق وهى الأيام الثلاثة التى بعد يوم النحر .

هذه المقاطعة الرمزية للشيطان فى كل ما ينتظر أن يسول به للمسلم فى حياته من شر أو إثم ، يقوم بها الحجاج جميعاً بعد ذلك العهد الذى قطعوه لربهم كلما هتفوا له « لبيك اللهم لبيك » ، فتخرج نفوسهم نقيـة طاهرة منيبة إلى الله ، مستريحة من أوزار الماضى ، ومستقبلة حياة جديدة صالحة . وأياما سعيدة هنيئة .

هذا هو الحج المبرور لأنه يرجع بالمسلم إلى الله ، ويرجع المسلم إلى سعادته التى كلفها له الإسلام ، ودله على طريقها ، وضمن له الجنة إذا التزم هذا الطريق فلم يخرج عنه .

يا حجاج بيت الله الحرام ، أن الله عز وجل قد هيأ لكم الفرصة الثمينة لتجددوا أنفسكم وترجعوا إلى ربكم . وتكونوا من خيرة أبناء بلادكم وأمتكم ، فتسعدوا فى الدنيا ، وتكونوا من أهل الجنة فى الآخرة . وسبيل ذلك أن تكونوا من أهل الحج المبرور ، ولا يكون حجكم مبرورا إلا بالتوبة الصادقة ، ومقاطعة الشيطان إلى الأبد وفى كل شىء . فسأل الله عز وجل أن يتم عليكم هذه النعمة ، وأن يجعلكم من عباده الصالحين . والسلام عليكم ورحمة الله ؟

جددوا أنفسكم فى هذا العيد

كما جددتم ثيابكم

كلمة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر
ألقاها الشيخ عبد الحليم بسيونى مدير مكتبه من محطة الإذاعة المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أيها المسلمون :

فى مثل هذا اليوم المبارك من حجة الوداع . خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسلمين الأولين ، وكانوا بشهادة الله لهم خير أمة أخرجت للناس ، فأعلن فيهم بدء حياة جديدة ، يتناسون فيها ما كان بينهم من إحن وشحناء وترات وبغضاء ، وتعامل بما لا يرضى الله واختلاف بالباطل على الأموال ، وتعامل بالربا . وخروج عن سنن الإسلام إلى سنن الجاهلية . وبذلك جدد فيهم الأخوة والمحبة والتعاون على الخير ، والتعامل بشرع الله وأخلاق الإسلام . وجعل ذلك نظاما عاما لأمته جميعا ، من حضر منهم تلك الخطبة النبوية العظيمة ومن غاب عنها . وقد فعل ذلك بأمر من الله ، ولذلك أشهد الله على ما فعل ، وأمر الذين شهدوا خطبته وسمعوا مقالته أن يبلغ الشاهد الغائب . وإذا كنا نحن أيها المسلمون ممن غاب عن تلك الأوامر والإرشادات المحمدية ، فقد أبلغنا ذلك الرواة الثقاة العدول .

أيها المسلمون :

إن أمل نبيكم فيكم لعظيم ، وإنكم أمة مباركة ، أولها خير وآخرها ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم فى خطبته التى خطبها فى حجة الوداع : « رب مبلغ أوعى من سامع » . وها أنتم هؤلاء ممن بلغتهم دعوة نبيكم صلى الله عليه وسلم إلى أن تجددوا أنفسكم فى هذا العيد المبارك كما جددتم ثيابكم ، فاجعلوا نفوسكم وقلوبكم نقية طاهرة ، كما جعلتم ثيابكم وبيوتكم طاهرة

نقية ، كونوا من أمة نبيكم المباركة لتكونوا من أهل الخير كما كان سلفكم الأول من أهل الخير ، وكونوا من أهل الوعى لهذا الإرشاد العظيم لتسعدوا به ، ولتكونوا ممن قال فيهم صلوات الله وسلامه عليه ، رب مبلغ أوعى من سامع » .

أيها المسلمون :

إن هذا العيد يفرح فيه المسلمون بما كتب الله لإخوانهم حجاج بيت الله الحرام من تجديد فى حياتهم بما خلعوا عنهم من سيئات الماضى وآثامه ، وبما عاهدوا الله عليه عند ما هتفوا له ، لبيك اللهم لبيك ، بأن يكونو من أهل مرضاته . فهذا العيد هو عيد الفرح بأن هذا الجمع الأعظم من المسلمين الذين حجوا بيت الله الحرام قد طهروا نفوسهم وقلوبهم من درن الآثام ، وصاروا من صالحى أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وإذا كان هذا مما يفرحنا ونعيد لأجله ، فلماذا لا نشاركهم فى هذا العهد الذى نعقده مع الله عز وجل بأن نكون نحن أيضا من أهل الخير ، وأن نتعامل فيما بيننا بما يرضيه ، وأن نتعاون على البر والتقوى .

أيها المسلمون :

عاهدوا ربكم على ذلك ، وجددوا حياتكم لتلقوا الله وأنتم من أهل السعادة ، وإذا عاد إليكم حجاج بيت الله فراقبوهم وصاحبوهم ، وكلما هفا أحد منهم هفوة تخالف ما عاهد الله عليه عند ما نادى ربه قائلا ، لبيك اللهم لبيك ، فذكروه بعهده مع الله ، وتعاونوا معه على ما يرضى الله ، لتكونوا بعد اليوم أمة صالحة سعيدة ، تعيش بالحق وللحق وبما يرضى الحق جلت عظمته وعز سلطانه .

أيها الأغنياء من المسلمين :

إن نبيكم ﷺ كان يضحى فى هذا العيد المبارك بكبشين سمينين عظيمين ، فإذا صلى وخطب الناس أتى بأحدهما وهو قائم فى مصلاه فذبحه ثم يقول ، اللهم إن هذا عن أمتى جميعاً من شهد لك بالتوحيد وشهد لى بالبلاغ ، ثم يؤتى بالكبش الآخر فيذبحه ويقول : هذا عن محمد وآل محمد . فيطعمهما جميعاً المساكين ويأكل هو وأهله منهما .

فالنبى ﷺ كان يعيش لأمته ، ويحمل عن أمته .

السيد أبو أيوب الأنصاري

من ذا الذى يذكر الهجرة ، ولا يذكر المضيف الأول ، والرجل الذى نال من الشرف الرفيع ما لم ينله أحد من أهل المدينة أوسها وخزرجها ، وهو السيد الجليل ، أبو أيوب الأنصارى ، ، فقد أبى الله ورسوله إلا أن يكرم بنو النجار أخوال جد رسول الله ، وكان تكريمهم فى شخص الرجل الكريم أبى أيوب رضى الله عنه .

ولو أن فضل أبى أيوب تمثل فى إضافته لرسول الله لكفى ، فما بالك وقد تمثل فى شخصيته شتيت من المفاخر والفضائل ، فهو - فضلا عن كرمه - مرهف الحس والشعور ، ذو أدب عال ، شجاع أبى مجاهد من الطراز الاول ، يرى أن نفسه ونفيسه شىء هين فى سبيل نصر دين الله وإعزازه . وقد كانت وفاته بجوار أسوار القسطنطينية شهادة حق على مبلغ حبه لله وإعزاز دينه ، وأمارة صدق على ما ينبغى أن يكون عليه المجاهد فى سبيل الله . وإن فى التحدث عن الرجل الذى صدق الله فيما عاهد عليه لوفاء ببعض الذكرى لرجل الوفاء .

فيا من أغناهم الله : اشكروا نعمة الله عليكم ، بأن تعيشوا أيضاً لأمتكم ، وتحملوا عن أمتكم ، وإن الزمان قد استدار ، وإن أمتكم قد عزمت بحول الله وحسن توفيقه على أن تبدأ حياة جديدة يدعمها كل فرد منا بما يستطيعه من الناحية التى هو فيها ، وبالموهبة التى وهبها الله له من مال أو علم أو صناعة ، أو غير ذلك من نعم الله عليه .

فكل فرد من أفراد الامة مدعو إلى بذل ما يستطيعه وما يتيسر له من تضحية ليتمتع هو الآخر من مجموع تضحيات .

وعيد الاضحى رمز إسلامى قديم لمعنى التضحية ، ولما يجب على المسلم من بذل فى دائرة مقدوره ، وبمجموع ذلك يكون التعاون ، وإن الحياة بهذا التعاون وهذه المحبة تكون جميلة وسعيدة ، وفى أيدينا أن نكون من أهل السعادة إن شاء الله ، وهذا العيد المبارك يذكرنا بهذا كله ، أعاده الله عليكم بالهناء والسعادة وتحقيق الأمانى .

السيد أبو أيوب الأنصاري

من ذا الذى يذكر الهجرة ، ولا يذكر المضيف الأول ، والرجل الذى نال من الشرف الرفيع ما لم ينله أحد من أهل المدينة أوسها وخزرجها ، وهو السيد الجليل ، أبو أيوب الأنصارى ، ، فقد أبى الله ورسوله إلا أن يكرم بنو النجار أخوال جد رسول الله ، وكان تكريمهم فى شخص الرجل الكريم أبى أيوب رضى الله عنه .

ولو أن فضل أبى أيوب تمثل فى إضافته لرسول الله لكفى ، فما بالك وقد تمثل فى شخصيته شتيت من المفاخر والفضائل ، فهو - فضلا عن كرمه - مرهف الحس والشعور ، ذو أدب عال ، شجاع أبى مجاهد من الطراز الاول ، يرى أن نفسه ونفيسه شىء هين فى سبيل نصر دين الله وإعزازه . وقد كانت وفاته بجوار أسوار القسطنطينية شهادة حق على مبلغ حبه لله وإعزاز دينه ، وأمارة صدق على ما ينبغى أن يكون عليه المجاهد فى سبيل الله . وإن فى التحدث عن الرجل الذى صدق الله فيما عاهد عليه لوفاء ببعض الذكرى لرجل الوفاء .

فيا من أغنام الله : اشكروا نعمة الله عليكم ، بأن تعيشوا أيضاً لأمتكم ، وتحملوا عن أمتكم ، وإن الزمان قد استدار ، وإن أمتكم قد عزمت بحول الله وحسن توفيقه على أن تبدأ حياة جديدة يدعمها كل فرد منا بما يستطيعه من الناحية التى هو فيها ، وبالموهبة التى وهبها الله له من مال أو علم أو صناعة ، أو غير ذلك من نعم الله عليه .

فكل فرد من أفراد الامة مدعو إلى بذل ما يستطيعه وما يتيسر له من تضحية ليتمتع هو الآخر من مجموع تضحيات .

وعيد الأضحى رمز إسلامى قديم لمعنى التضحية ، ولما يجب على المسلم من بذل فى دائرة مقدوره ، وبمجموع ذلك يكون التعاون ، وإن الحياة بهذا التعاون وهذه المحبة تكون جميلة وسعيدة ، وفى أيدينا أن نكون من أهل السعادة إن شاء الله ، وهذا العيد المبارك يذكرنا بهذا كله ، أعاده الله عليكم بالهناء والسعادة وتحقيق الأمانى .

نسبه :

هو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد عوف بن غنم بن مالك بن النجار ، واسم النجار تيم الله بن ثعلبة بن عمرو ابن الخزرج الاكبر ، أبو أيوب الأنصارى الخزرجى ، معروف باسمه وكنيته . وأمه السيدة هند بنت سعيد بن عمرو بن امرىء القيس بن مالك ابن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج .

فإلى الخزرج ينتهى نسبه من جهة أبيه وأمه . وبنو الخزرج إحدى القبيلتين المشهورتين اللتين يتكون منهما عرب المدينة . وبنو النجار فى الذؤابة من أهل المدينة نسباً وفضلا ، وإلى هذا يشير الحديث الصحيح الذى رواه البخارى فى صحيحه أن النبي ﷺ قال : « خير دور الانصار بنو النجار ، ثم بنو الأشهل ، ثم بنو الحارث بن الخزرج ، ثم بنو ساعدة وفى كل دور الأنصار خير » ولم يكن هـذا من رسول الله ﷺ عن مجاملة أو محاباة ، فرسول الله لا يقول إلا الحق ولا ينطق إلا بالصدق ، وليس للمحاباة إلى نفسه سبيل .

ولعل من الأسباب التى حملت هاشم بن عبد مناف سيد قريش على أن يصاهر بنى النجار ما لهم من فضل ومنزلة بين قومهم . وقد تزوج هاشم سلمى بنت عمرو النجارية وهى والدة عبد المطلب جد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وفى بيوت بنى النجار تربى عبدالمطلب فلما كبر وترعرع عاد إلى موطن آبائه ، وإليه انتهت الرياسة فى قريش .

إسلامه :

كان أبو أيوب رضى الله عنه من السابقين إلى الإسلام من الأنصار . فبعد بيعة العقبة الاولى أرسل رسول الله مصعب بن عمير مع من أسلموا ، وقد كان له أثر حميد فى إسلام كثير من أشراف المدينة وسادتها ، فانتشر الإسلام فى المدينة حتى لم يبق بيت من بيوت المدينة إلا وقد استضاء بنور الإسلام .

وكان أبو أيوب ممن شهد بيعة العقبة الثانية من مسلمى المدينة ، وأخذ عليهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه العهد على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم ، وعلى السمع والطاعة فى النشاط والكسل والنفقة فى العسر واليسر . وقد وفى أبو أيوب بما عاهد عليه . فكان مثالا عالياً للجهاد والكفاح على كل حال .

روايته الحديث عن رسول الله :

روى أبو أيوب الحديث عن النبي ﷺ وعن أبي بن كعب ، وروى عنه من الصحابة ابن عباس وابن عمر والبراء بن عازب وأبو أمامة وزيد بن خالد الجهني والمقداد بن معد يكرب وأنس بن مالك وجابر بن سمرة وغيرهم من الصحابة . ومن التابعين سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله وعطاء بن يسار وغيرهم وقد خرج له أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد ، وله في صحيح البخاري سبعة أحاديث .

المآثر الخالدة :

لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق إلى المدينة نزلا أول ما قدما بقباء ، وأقام رسول الله في بني عمرو بن عوف حتى بنى مسجد قباء ، وهو المسجد الذي أسس على التقوى .

وبعد أن أقام رسول الله في بني عمرو بن عوف بضعة أيام أو تزيد خرج يوم الجمعة متوجها إلى المدينة فأتاه رجال من بني سالم بن عوف فقالوا : يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة . وتعلقوا بزمام الناقة ، فقال لهم الرسول « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » ، وسار رسول الله والأنصار يحفون به متقلدي السيوف ، وكان كلما مر بدار من دور الأنصار تعلق أهلها بزمام الناقة وتضرعوا إليه أن ينزل عندهم في العدد والعدة والمنعة ، فيقول لهم : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » . وما زالت الناقة تسير حتى بركت في موضع مسجد رسول الله أمام دار أبي أيوب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أي بيوت أهلنا أقرب ؟ فقال أبو أيوب : أنا يا رسول الله ، هذه داري وهذا بابي . قال : فانطلق ، فهيء لنا مقيلا . فاحتمل أبو أيوب - وهو قرير العين - رحل رسول الله إلى بيته . ثم جاء رجل إلى رسول الله فقال : أين تحل ؟ فقال له « المرء مع رحله حيث كان » . فكانت مكرمة لأبي أيوب خالدة على وجه الدهر .

وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بخطام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت عنده ، وبقى رسول الله في بيت أبي أيوب مكرماً معززاً مدة سبعة أشهر ، حتى بنى المسجد وبيوت نسائه فانتقل إليها ، وفتح أبو أيوب بابه على مصراعيه لاستقبال زوار رسول الله على الرحب والسعة ، وتسابق الأنصار رضوان الله عليهم في إكرام رسول الله وصحبه ،

وما من ليلة إلا وعلى باب أبى أيوب الثلاثة والأربعة يتناوبون القصاع ، وكان أبو أيوب يرسل بقصعته ولا يتناول العشاء حتى يتناوله رسول الله ، ويتحرى هو وأم أيوب موضع أصابع النبى يلتمسان بذلك البركة ، وفى ليلة من الليالى بعثا لرسول الله بعشائه وفيه بصل أو ثوم ، فرده رسول الله وليس ليده فيه أثر . قال أبو أيوب فجئته فزعا فقلت : يا رسول الله بأبى أنت وأمى رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك . فقال أنى وجدت فيه ريح هذه الشجرة ، وأنا رجل أناجى ، وأما أنتم فكلوه . قال أبو أيوب : فأكلناه ، ولم نصنع له تلك الشجرة بعد .

ومن أدب أبى أيوب الرفيع أنه تحرج أن يكون رسول الله فى سفل البيت وهو فى العلو فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، إنى أكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى ، فاظهر أنت فكن فى العلو ، وننزل نحن فنكون فى السفل . فاعتذر له رسول الله مبيناً الحكمة فى اختيار السفل قائلا : « يا أبا أيوب بأن أرفق بنا وبمن يغشانا أن أكون فى سفل البيت » . لكن أبا أيوب لم يطب نفساً بأن يعلو رسول الله فتنحى هو وأهله فباتوا فى جانب غير مسامت لرسول الله ، ولم يزل أبو أيوب يرجو رسول الله أن يكون فى العلو حتى قبل رجاءه وحقق له رغبته .

وكان أبو أيوب شديد الحرص على راحة رسول الله ﷺ وزواره ، فقد انكسر حب لهم فيه ماء فى الغرفة ، قال أبو أيوب ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفا أن يقطر على رسول الله منه شىء فيؤذيه . ومن فضائل أبى أيوب التى تدل على العفة فى القول ورجاحة العقل أن السيدة زوجه لما قالت له : أما تسمع مايقول الناس فى عائشة ؟ فقال لها : أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ فقالت : لا والله . فقال : والله لهى خير منك . فأنزل الله سبحانه تصديقاً لمقالته « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا أفك مبين » . كما يروى أن أبا أيوب هو الذى أرضى سهلا وسهيلا صاحبى المربد الذى بنى موضعه المسجد النبوى عن ثمنه من حر ماله [1] .

وهكذا نجد أبا أيوب قد سجل لنفسه مآثر خالدة فى سجل الخالدين فرضى الله عنه وأرضاه .

(١) فتح البارى جزء ٧ ص ١٩٦ .

عرفان الجميل لصاحبه :

وتدور الأيام دورتها ، ويقدم أبو أيوب البصرة ، وكان واليها يومئذ عبد الله بن عباس نائباً عن على كرم الله وجهه ، فيتلقاه بالبشر والترحاب ويقول له : يا أبا أيوب إنى أريد أن أخرج لك عن مسكنى ، كما خرجت لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسكنك . وأمر أهله فخرجوا وملكه كل شىء أغلق عليه بابه . ولما أراد الانصراف أعطاه ابن عباس رضى الله عنهما عشرين ألفا وأربعين عبدا ، وقد صارت دار أبى أيوب بعده إلى مولاه أفلح ، فاشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار وأصلح ما وهى من بنيانها ووهبها لأهل بيت فقراء من أهل المدينة [1] ولا يزال موضع دار أبى أيوب فى المدينة معروفا إلى يومنا على قيد خطوات من المسجد النبوى .

بلاؤه فى الجهاد :

كانت حياة أبى أيوب سلسلة متصلة من الكفاح والجهاد والبطولة ، وقد شهد بدرا والمشاهد كلها فى عهد رسول الله ، ولزم الجهاد بعده ، ولم يتخلف عن غزاة إلا وهو فى أخرى . ولما حدثت الفتنة بين السيدين على ومعاوية انحاز إلى جانب على وشهد معه قتال الخوارج ، ولما أرسل معاوية ابنه يزيد على رأس جيش لغزو القسطنطينية تحرج فى أول الأمر أن يخرج فى جيش تحت إمرة يزيد ولكن نفسه التواقة للجهاد نازعته إليه وقال : ما ضرنى من استعمل على ، فلحق بالجيش وأبلى بلاء حسنا . ثم مرض فعاده يزيد فقال له ما حاجتك ؟ قال : حاجتى إذا أنا مت فاركب بى ما وجدت مساغا فى أرض العدو ، فإذا لم تجد فادفنى ثم ارجع [2] . ثم قال : سأحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لولا حالى هذا ما حدثتكموه ، سمعت رسول الله ﷺ يقول « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » ؛ فلما توفى صلى عليه يزيد ودفن بجوار أسوار القسطنطينية ، وكانت وفاته فى سنة اثنتين وخمسين ، وهى السنة التى وقعت فيها هذه الغزاة ، وقيل سنة خمسين أو إحدى وخمسين ، والأكثرون على الأول ، ولا يزال موضع قبره معروفا إلى اليوم .

---

(١) البداية والنهاية جزء ٣ ص ٢٠٢ .

(٢) الإصابة ص ٤٠٥ جزء أول .

بعض آرائه :

وقد كان أبو أيوب فى ملازمته للجهاد وحرصه عليه يصدر عن علم بكتاب الله ومعرفة بالآيات التى وردت فى التحريض على الجهاد . وقد حفظت لنا كتب التفسير والحديث بعض هذه الآراء ، فقد كان يستدل على لزوم الجهاد على كل حال فى المنشط والمكره والعسر واليسر والشباب والشيخوخة بقوله تعالى : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » ، وقد ذكر ابن جرير فى تفسيره أن أبا أيوب شهد بدراً مع رسول الله ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا عاما واحداً ، قال : وكان أبو أيوب يقول : قال الله تعالى « انفروا خفافا وثقالا » فلا أجدنى إلا خفيفاً أو ثقيلا ؛ وكان يرى — وحقا ما رأى — أن فى الرغبة عن الجهاد والاشتغال بالأهل والمال إلقاء باليد إلى التهلكة .

روى أصحاب السنن والحاكم فى مستدركه عن يزيد بن حبيب عن أسلم أبى عمران قال : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه معنا أبو أيوب الأنصارى ، فقال ناس : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية ، إنما نزلت فينا ، صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه ، فلما فشا الإسلام وظهر ، اجتمعنا معشر الأنصار نجيا فقلنا : قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ حتى فشا الإسلام وكثر أهله ، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها ، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيها . فنزل فينا « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » فكانت التهلكة فى الأهل والمال وترك الجهاد . وصدق السيد أبو أيوب فما أتى المسلمون وغلبوا على أمرهم إلا يوم أن تخلوا عن الجهاد ، واشتغلوا بالأموال والأولاد . ورضوا بالراحة ، وأخلدوا إلى الضعف والاستكانة .

« وبعد ، فهذه سيرة يتمثل فيها الطهر والعفاف وكرم النفس وسماحة الطبع وأصالة الرأى وأدب الضيافة العالى وحب الجهاد والاستشهاد ، ولعل فيها نبراسا للذين ينشدون مكارم الأخلاق ومحاسن الفعال . ووازعا للذين يجاهدون فى سبيل الله ويطلبون الشهادة فى سبيل الحق وعز الأوطان ، وعزاء للذين يفقدون الأحبة وفلذات الأكباد وهم بمنأى عنهم فى ساحات الكرامة والخلود .

محمد محمد أبو شهبة

الأستاذ بكلية أصول الدين

بيان الى الشعوب الاسلامية

عن أحداث مراكش

من جماعة كبار العلماء في الأزهر

في الساعة الحادية عشرة من صبيحة يوم الأحد ٢٠ من ذى الحجة سنة ١٣٧٢ (٣٠ من أغسطس سنة ١٩٥٣) عقدت جماعة كبار العلماء جلستها الاولى بعد عطلة عيد الاضحى برياسة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر، واستعرضت الاحداث الجسام التى وقعت أخيراً فى المغرب الأقصى، وقررت إذاعة البيان التالى على المسلمين جميعاً وعلى الشرقيين من كل الأجناس، وعلى أنصار الإنسانية فى كل مكان — إرشاداً إلى حكم الله فى العدوان الذى وقع من فرنسا على إخواننا فى المغرب الأقصى، وفيمن مد إليهم يد المعونة والتأييد فى هذا الاعتداء من أبناء تلك البلاد :

إن دولة المغرب الأقصى (مراكش) من أعرق الدول الإسلامية المستقلة منذ عصور طويلة، ولها فى تاريخ الإنسانية وخدمة الإسلام مجد مؤثل لايزال يحفظه التاريخ إلى اليوم، ولا يزال الحريصون على دينهم ووطنيتهم يتوارثونه جيلا بعد جيل، ويضحون فى سبيل الاحتفاظ به كل مرتخص وغال .

وقد ضرب الظلم الغاشم على تلك البلاد الإسلامية حمايته قبيل الحرب العالمية الأولى . ومع أنها حماية ظالمة يأباها الإسلام؛ ويأبى على أهله أن يقبلوها ويخضعوا لسلطانها، فإن لها بمقتضى وثيقتها الرسمية قيوداً لم يبرح رجال الاستعمار الفرنسى يعملون على تخطيها ومخالفتها، ويعتدون بذلك على كل ما يمس حقوق الوطن المغربى الدينية والاجتماعية والسياسية .

وإن أشد نكبة أصيبت بها البلاد الإسلامية عامة وبلاد المغرب الأقصى خاصة، هى تلك النكبة التى وقعت فى هذه الأيام .

تعمد فرنسا بطغيانها المستمر وجبروتها الغاشم، فتخلع سلطان البلاد الشرعى، وتلقى به وبأبنائه فى المنفى، وتشدد الحصار عليه فتسلبه حق حريته الشخصية . ثم لا يدرى إلا الله

عاقبة ما تريد من وراء ذلك . وهى فى الوقت نفسه تعمل على شق وحدة المسلمين فى البلاد ، وتفريق كلمتهم ، حتى أصبح أبناء البلد الواحد والدين الواحد يضرب بعضهم رقاب بعض .

إن جماعة كبار العلماء بالأزهر الشريف وعلى رأسهم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ليرون :

أولا — أن موالاة أرباب المنافع الشخصية من أبناء تلك البلاد لدولة الاستعمار ومعاونتهم إياها فى تحقيق أهدافها الماسة بكرامة الإسلام والمسلمين ، هى من موالاة الأعداء التى جعلها القرآن فى صريح آياته عنوانا على النفاق والخيانة لله وللرسول ، وعلى الانضمام إلى هؤلاء المعتدين وصيرورتهم منهم ، « ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » . « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » .

ويرون ثانياً — أن واجب المسلمين فى كافة بقاع الأرض أن يكافحوا هذا الظلم الواقع على إخوانهم فى بلاد المغرب بكل ما يملكون من وسائل الكفاح ، وأن يعلنوا أولئك الخونة الذين عاونوا الأعداء ووالوهم أنهم ليسوا منهم ، وأن الدين برىء من صنيعهم ما داموا مقيمين على تلك الموالاة الآثمة ، وأن أقل مراتب الكفاح للمعتدين وأعوانهم أن يقاطعوهم مقاطعة تامة فى جميع شئونهم الاقتصادية والاجتماعية ، وعلى المؤمنين من أبناء مراكش أن يصارحوا أولئك المنافقين الذين عرفوهم بموالاة الأعداء والانضمام إليهم بالسخط عليهم وتحقير خطتهم والتضييق عليهم ومقاطعتهم حتى فى السلام والحديث كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تأديب المتخلفين عن القيام بواجبهم الدينى والوطنى .

ألا وأن جماعة كبار العلماء ليضعون فى خاتمة هذا البيان أمام أعين المسلمين قوله تعالى « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا » وقوله تعالى « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » والسلام على من اتبع الهدى .

ديوان مجد الإسلام

من بدائع الشاعر الإسلامي الكبير أحمد محرم رحمه الله

بتعليق الأستاذ إبراهيم عبد اللطيف نعيم

ذكرى غزوة بدر المباركة

تعلموا كيف تبنى مجدها الامم ... وكيف تمضى إلى غاياتها الهمم

تعلموا ، وخذوا الانباء صادقة ... عن كل ذى أدب بالصدق يتسم

ممن يقول ، فما ينفك يكذبكم ... ممن إذا قال لم يكذب له قلم ؟

لكم على الدهر منى شاعر ثقة ... تقضى الحقوق ، وترعى عنده الذمم

تعلموا يا بنى الإسلام سيرته ... وجددوا ما محا من رسمها القدم

الله أكبر ، هل هانت ذخائره ... فما لكم مقتنى منها ومغتنم ؟

بل أنتم القوم ، طاح المرجفون بهم ... وغالهم من ظنون السوء ما زعموا

ماذا تريدون من ذكرى أوائلكم ... أكل ما عندكم أن تحشد الكلم ؟

لسنا بأبنائهم إن كان ما رفعوا ... من باذخ المجد يمسى وهو منهدم

إن تذكروا « يوم بدر » فهو يذكركم ... والحزن أيسر ما يلقاه والالم

من السبيل لكم مجداً ومأثرة ... فلا يد نشطت منكم ولا قدم

غاز يصول بجند من وساوسه ... وقائد ماله سيف ولا علم

* * *

حيوا (القراة) قياما ، وانظروا تجدوا ... وفودهم حولكم يا قوم تزدحم

ثم انظروا تارة أخرى تروا لهباً ... فى كل ناحية للحرب يضطرم

حيوا الملائكة الابرار يقدمهم ... (جبريل) فى غمرات الهول يقتحم

الارض ترجف رعباً ، والسماء بها ... غيظ يظل على الكفار يحتدم

هم حاربوا الله ، لا يخشون نقمته ... فى موطن تتلاقى عنده النقم
من جانب الحق ، أردته عمايته ... واحزم الناس من بالحق يعتصم

* * *

الدين دين الهدى تبدو شرائعه ... بيضاً تكشف عن أنورها الظلم
ما فيه عند ذى الألباب منقصة ... ولا به من سجايا السوء ما يصم
يحيى النفوس إذا ماتت ، ويرفعها ... إذا تردت بها الأخلاق والشيم
لا شىء أعظم خزياً أو أشد أذى ... من أن يطاع الهوى ، أو يعبد الصنم
دين تصان حقوق العالمين به ... ويستوى عنده السادات والخدم
ضل الألى تركوا دستوره سفهاً ... فلا الدساتير أغنتهم ولا النظم

* * *

دعا (النبى) فلبى من قواضبه ... بيض مطاعمها المأثورة الخذم
حرى الوقائع ، عرقى لا كفاء بها ... إن جد ملتهب ، أو شد ملتهم
تجرى المنايا دراكا فى مسايلها ... كما جرى السيل فى تياره العرم
قواضب الله مانامت مضاربها ... عن الجهاد ، ولا أزرى بها سأم
يرمى بها كل جبار ، ويقصمه ... إن ظن من سفه أن ليس ينقصم

* * *

الجيش منطلق الغارات مستبق ... والبأس محتدم ، والأمر ملتئم
الله ألف بين المؤمنين فهم ... فى الحرب والسلم صف ليس ينقسم
كروا سراعا ، فللأعمار مصطرع ... تحت العجاج ، وللأقدار مصطدم
من كل أغلب يمضى الحتف معتزما ... إذا مضى فى سبيل الله يعتزم
حران ، يحسب إذ يرى بمهجته ... نشوان يزداد شكراً أو به لمم
للحق نشوته فى نفس شاربه ... وليس يشربه إلا امرؤ فهم

وأظلم الناس من ظن الظنون به ... ما كل ذى نشوة فى النـاس متهم

* * *

طال القتال . فـا للقوم إذ دلفوا ... إلا البلاء ، وإلا الهول يرتـكم
وقام بالسيف دون الليث (صاحبه) ... يذود عنه ، وعز الليث والأجم
ماذا يظن (أبو بكر) بصاحبـه ؟ ... إن (الرسول) حمى للجيش أو حرم
أمن النفوس ، إذا اهتاجت مخاوفها ... والمستغاث إذا ما اشتـدت الغمم
هل يعظم الخطب ، يرميه امرؤ درب ... أقصى الجلال إليه ، وانتهى العظم ؟
راع الـكتائب ، واستولت مهـابته ... على القواضب ، تلقـاه فتحتشم
دعا فجاءت سماء الله ، وانطلقت ... كتائب النصر ملء الجـو تنتظم
لاهم غوثك ، إن الحق مطلبنـا ... وأنت أعلم بالقوم الألى ظلموا
تلك العصابة ، ما لله إن هلـكت ... فى الأرض من عابد للحق يلتزم

* * *

جاء الغياث ، فدين الله منتصر ... عالى اللواءِ ، ودين الشرك منهزم
جنى على (زعماء السوء) ما اجترحوا ... وحاق بالمعشر الباغين ما اجترموا
ما الجـاهلية إلا نكبة جلل ... تردى النفوس ، وخطب هائل عمم
هذى مصارعها تجـرى الدماء بها ... وتشتكى الهون ، فى أرجائها الرمم
هـذا (أبو الحـكم) انجابت عمايته ... لمـا قضى السيف ، وهو الحـكم والحـكم
ماذا لقيت (أبا جهل) وكيف ترى ... آيات ربك فى القوم الذين [illegible]وا ؟
هـذا (القليب) لـكم فى جوفه عبر ... لا اللوم ينفعكم فيها ولا النـدم
ذوقوا العـذاب أليمـا فى مضاجعكم ... ما فى المضاجع إلا النـار والحمم
لا تجزعوا واسمعوا ماذا يقال لـكم ... فـا بكم تحت أطباق الثرى صمم
الشرك يعول ، والإسـلام مبتسم ... سبحان ربى له الآلاء والنعم
يا قومنا إن فى التـاريخ موعظة ... وإنه للسـان صـادق وفم
لنـا من الدم يجرى فى صحـائفه ... شيخ يحـــدثنـا أن الحياة دم

الأزهر ومعارك التحرير الأولى

فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) افتتح رجال الأزهر أولى حركات التحرير فى تاريخنا القومى ، فاشترك كبار العلماء فى إعداد الثورات ورسم خطط المقاومة الشعبية مضحين فى سبيل الدفاع عن الوطن بأموالهم وأنفسهم فنهم من صودرت أملاكه ، ومنهم من عذب ، ومنهم من استشهد ، وقد كان لهذه التضحيات أكبر أثر فى بعث روح المقاومة فى الشعب الذى نهض ليواجه قوات الاحتلال فى شجاعة نادرة المثال .

إعلان الجهاد :

اضطرب المماليك حين وصلهم نبأ احتلال نابليون للإسكندرية فى صفر ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) ، وعقدوا اجتماعاً للتشاور فى الأمر ودعوا العلماء لحضوره - وكانوا قادة الرأى العام إذ ذاك - لحضر منهم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، والشيخ السادات ، والشيخ الشرقاوى ، والشيخ سليمان الفيومى ، والشيخ الصاوى ، والشيخ المهدى ، والشيخ العربى ، والشيخ محمد الجوهرى . وجرت أثناء الاجتماع مناقشة حادة بين العلماء والأمراء حتى قام الشيخ السادات ووجه الكلام إلى الأمراء قائلا : « إن كل هذا من سوء مقالكم وظلمكم . وآخر أمرنا معكم أنكم ملكتمونا للافرنج » . ثم نظر إلى مراد بك قائلا له : « وخصوصاً بأفعالك وتعديك أنت وأمراؤك على متاجرهم وأخذ بضائعهم » . وأخيراً اتفق المجتمعون على إخطار الدولة العثمانية بالأمر وتجهيز العساكر للحرب .

من هذا الاجتماع نستطيع أن ندرك لأول وهلة موقف الأزهر بالنسبة للفرنسيين ، فهو موقف المقاومة المسلحة ؛ كما أن العلماء بصفتهم وكلاء عن الشعب وضعوا قاعدة دستورية هامة ، وهى محاسبة الحكام على تفريطهم فى حقوق الشعب .

ولما وصل نابليون إلى إمبابة أعلن السيد عمر مكرم والعلماء الجهاد واستنفروا الشعب ودعوا إلى التطوع العام ، وسار السيد عمر مكرم فى مقدمة المتطوعين للقتال ، وقام بعرض شعبى فى شوارع القاهرة استجاب له جميع الأهالى ، ولكن إذا كان العلماء قد نجحوا فى تعبئة الشعب إلا أن تخاذل المماليك أسرع بالبلاد نحو الخاتمة المنتظرة .

بين الأزهر ونابليون :

استفز الفرنسيون المصريين بفرض الضرائب الثقيلة والقتل ومصادرة الأملاك والاعتداءات المتوالية ، مما عجل بقيام ثورة القاهرة الأولى فى (جمادى الاولى سنة ١٢١٣ أكتوبر سنة ١٧٩٨) . فقام العلماء وعلى رأسهم الشيخ السادات يدعون إلى الجهاد ضد الفرنسيين ، وانتخبوا مجلساً للثورة كى ينظم حركات المقاومة ويمونها بالأسلحة والذخائر ، وفى ذلك يقول نابليون فى مذكراته : « إن الشعب قد انتخب ديوانا للثورة ، ونظم المتطوعين للقتال ، واستخرج الأسلحة المخبوءة . وأن الشيخ السادات انتخب رئيساً لهذا الديوان » . وذكر فى تقريره إلى حكومة الديركتوار أن لجنة الثورة كانت تنعقد فى الأزهر .

انتشر رجال الأزهر فى القاهرة يبثون الثورة فى النفوس ويدعون الشعب إلى الجهاد ويعاهدونه على المقاومة ، بينما كان مجلس الثورة يوزع الاسلحة على إحياء العاصمة ، حتى اقترب الوعد فعقد المجلس اجتماعا ليلة الاحد (١٠ جمادى الاولى ١٢١٣ - ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨) لرسم خطة العمل فى صبيحة ذلك اليوم .

يقول الكولونيل ديترو فى يومياته وصفاً للثورة كما شهدها : فى الساعة السادسة صباحا من يوم ٢١ أكتوبر احتشدت الجموع فى كثير من أحياء القاهرة وكان المؤذنون يدعون إلى الجهاد على المآذن ، وكان المعسكر العام للثائرين الجامع الكبير المسمى بالازهر ذلك المسجد الجميل الذى طارت شهرته فى أنحاء المشرق وقد قام الثوار بإقامة المتاريس فى الطرق والأزقة المفضية إليه حتى أصبح من المستحيل أن تقتحمه المدفعية أو الجنود المشاة .

وفى الساعة العاشرة صباحا اصطدم الثوار بكتيبة من الفرسان يقودها الجنرال ديبوى قومندان القاهرة وتغلب الأهالى على الكتيبة وقتل الجنرال ديبوى أثناء المعركة . وامتدت الثورة حتى اشتبكت الجماهير بدوريات الجنود فى كل مكان .

كان نابليون فى ذلك الوقت يطوف بسرعة ليتفقد الاستحكامات العسكرية فى مصر القديمة والروضة ولما عاد إلى بولاق بلغه مصرع الجنرال ديبوى فأصدر أمراً بتعيين الجنرال بون خلفاً له وكلفه بإجراء اللازم لإعادة النظام إلى المدينة .

هال الجنرال بون تفاقم الحالة فى العاصمة فكتب إلى نابليون فى الساعة العاشرة مساء من يوم الثورة يطلب اتخاذ إجراءات فى غاية الشدة والصرامة مع حى العرب حيث يوجد الجامع الأكبر (الأزهر) .

وفى صباح يوم ١١ جمادى الأولى ١٢١٣ (٢٢ أكتوبر ١٧٩٨م) بلغت حماسة الثوار مبلغاً عظيما حتى حاولوا ضرب الاستحكامات الفرنسية فى القلعة من مسجد السلطان حسن ، كما تمكنوا من قتل الكولونيل سلكوسكى فى معركة عند باب النصر .

وفى هذا اليوم أرسل نابليون الجنرال (برتييه) رئيس أركان حربه فى الساعة الثانية بعد الظهر ومعه أمر بضرب الأزهر بالمدافع سلمه للجنرال بون وقد أوصى نابليون بوضع المدافع فى أصلح المواقع ليكون تدميرها شديداً . كما أصدر أمراً إلى الجنرال (دومارتان) بالاستيلاء على جميع المنافذ المفضية إلى الأزهر ومما جاء فى هذا الأمر (وعليكم أن تقتحموه بجنودكم تحت حماية المدافع وأن تقتلوا كل من تلقونه فى المسجد وأن تضعوا فيه حرساً قويا من الجنود) .

وابتدأ الضرب من بعد الظهر حتى الساعة الثامنة مساء ، وأخذت رسائل الوحشية المقنعة بالمدينة تنهال فى صورة آلاف من القنابل على الأزهر حتى قال ريبو أوشك الجامع أن يتداعى من شدة الضرب فيدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة فيه وأصبح الحى المجاور للأزهر صورة من الخراب والتدمير . ولما وجد العلماء أن الاستمرار فى المقاومة سيفضى إلى كارثة محققة ، شرعوا فى مفاوضة نابليون لإيقاف الضرب .

محاكمة العلماء الثائرين :

فى ١٢ جمادى الاولى ١٢١٣ هـ (٢٣ أكتوبر ١٧٩٨ م) أصدر الجنرال (برتييه) أمراً باسم نابليون إلى الجنرال (بون) قومندان القاهرة بهدم الأزهر ليلا إذا أمكن ، ومن هذا نرى أن نابليون أراد أن يقضى على المقاومة الشعبية بهدم مركزها ؛ ثم عدل عن هذه الفكرة خوفاً من إثارة الحماس الدينى .

وفى ٢٤ أكتوبر توجه وفد من العلماء إلى نابليون يسأله العفو عن الأهالى ليسكن روعهم ، فطالبهم نابليون بإرشاده عمن تسبب فى الثورة من العلماء ، فلم يرشدوه إلى أحد فقال لهم : « نحن نعرفهم واحداً وحداً » .

قبض نابليون على ثمانين من أعضاء لجنة الثورة أعدموا سراً وألقيت جثثهم فى النيل أما الذين حوكموا رسمياً من المقبوض عليهم باعتبارهم زعماء الثورة فهم الشيخ إسماعيل البراوى والشيخ يوسف المصيلحى والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ سليمان الجوسق

شيخ طائفة المكفوفين والشيخ أحمد الشرقاوى وكلهم من العلماء وقد حكم عليهم بالإعدام ونفذ الحكم فى الساعة الثامنة صباحاً من ٢٣ جمادى الاولى ١٢١٣ ﻫ (٤ نوفبر ١٧٩٨ م).

وفى كتاب تحفة الناظرين للشيخ عبد الله الشرقاوى أن الفرنسيين قتلوا فى هذه الثورة ثلاثة عشر عالماً.

بين الأزهر والجنرال كليبر :

لم تكد تدوى مدافع معركة عين شمس فى ٢٣ شوال ١٢١٤ﻫ (٢٠ مارس ١٨٠٠م) حتى دوى فى القاهرة نداء الحرية فلبت العاصمة النداء مستمدة قوتها من إيمان أهلها وحماستها من وطنيتهم واستبسالها من تضحيتهم وهب السيد عمر مكرم والسيد أحمد المحروقى والشيخ السادات والشيخ الجوهرى وغيرهم من زعماء الثورة يحرضون الناس على القتال. ولما رجع كليبر بعد انتصاره على الجيش العثمانى فى معركة عين شمس وجد العاصمة أشبه ببركان ثائر لا يهدأ فاشتبك مع الثوار فى معارك طاحنة دامت أكثر من ثلاثين يوما دمرت خلالها بولاق تدميراً تاما. والمرة الثانية شرع العلماء فى مفاوضة الفرنسيين على أساس العفو عن جميع سكان القاهرة فوافق كليبر على هذا الشرط ولكنه سرعان ما نقضه وفرض على الأهالى غرامة فادحة قدرها (إثنا عشر مليونا من الفرنكات) وألزم الأهالى بتسليمه عشرين ألف بندقية وعشرة آلاف سيف. وكانت أشد الغرامات المفروضة غرامة الشيخ السادات وقدرها ثمانمائة ألف فرنك هذا فضلا عما تعرض له من التعذيب والإهانة إذ كان يجلد صباحا ومساء فى معتقله، وكانت غرامة الشيخ الصاوى (٢٦٠٫٠٠٠ من الفرنكات) والشيخ محمد الجوهرى وأخيه فتوح الجوهرى مثل ذلك.

مصرع الجنرال كليبر :

كان إسراف كليبر فى الانتقام وإهانته للعترة النبوية ممثلة فى شخص الشيخ محمد السادات من أهم الاسباب التى أدت إلى مصرعه فى ٢٠ المحرم ١٢١٥ ﻫ (١٤ يونية ١٨٠٠ م) بيد سليمان الحلبى، وسرعان ما اتجهت أنظار الفرنسيين نحو الأزهر فقاموا بتفتيشه وتفتيش أروقته وقبضوا على من ذكرهم سليمان الحلبى فى التحقيق كما قبضوا على العلماء المعروفين بقيادة الثورات الوطنية. ورأى كبار العلماء أن الفرنسيين سيتخذون من تفتيش الأزهر بين حين وآخر ذريعة للإيقاع بهم فتوجه الشيخ الشرقاوى والشيخ العداوى والشيخ المهدى

إلى الجنرال مينو واستأذنوه فى إغلاق الأزهر فأغلق فى ٢٧ المحرم ١٢١٥ هـ (٢١ يونية ١٨٠٠ م) . وكان هذا ما يريده الفرنسيون وقد استمر الأزهر مغلقاً حتى تم جلاء الفرنسيين عن مصر .

يقول تيير : « لو بقى كليبر حياً لاستمرت مصر خاضعة للحكم الفرنسى حتى انهيار نابليون على الأقل ، فقد ضاع أكبر قائد وأكفأ من يؤسس الاستعمار الفرنسى فى الشرق » .

وهنا لا بد من أن نقول كلمة عن المنشورات التى كان يصدرها الفرنسيون على لسان أعضاء الديوان من العلماء : إذ كان الغرض من هذه المنشورات تضليل الشعب وبث التفرقة بينه وبين زعمائه ، وأكبر دليل على براءة من اشترك من العلماء فى الديوان أنهم كانوا من المعروفين لدى الفرنسيين بقيادة الثورات والتحريض عليها .

الأزهر يحرض على قتال الحملة الإنجليزية الأولى :

فى المحرم ١٢٢٢ هـ (مارس ١٨٠٧ م) نزل الإنجليز الاسكندرية بقيادة الجنرال فريزر وما كادت تصل أنباؤهم إلى العاصمة حتى قام السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير يدعون الناس إلى الدفاع عن الوطن ، وحث الخطباء فى المساجد الناس على القتال ؛ فأقبل هؤلاء يتطوعون فى حماس نادر المثال وانضم إليهم جميع طلبة الأزهر والعلماء وكان المتطوعون يذهبون يومياً لضرب الاستحكامات خارج القاهرة تحت إشراف السيد عمر مكرم وكبار الشيوخ ، كما تطوع البعض الآخر للسفر ليشترك فى فك حصار الإنجليز لرشيد .

وأمام هذا التضامن الشعبي الرائع وجد الإنجليز أنفسهم عاجزين عن متابعة احتلال البلاد فقرروا الجلاء عن القطر المصرى فى ١٠ رجب سنة ١٢٢٢هـ (١٤ سبتمبر ١٨٠٧م) .

هذا هو الدور الذى قام به الأزهر فى معارك التحرير الأولى ؛ وقد كان لهذه المعارك أكبر أثر فى تكوين الوعى القومى الذى بدأ منذ ذلك الوقت يوجه تاريخنا الحديث ؟

أحمد عز الدين خلف الله

المدرس بمعهد دسوق

منهج البغدادي في خزانة الأدب

أوضح ما تتسم به مؤلفات العصر الحديث هو النزعة العلمية فى التأليف . وهى نزعة واعية تقوم على أساس قوى من طبائع الأشياء حين تجعل للبحث فى كل علم وفن منهجاً خاصاً يتحراه المؤلف ، وليس الأمر قاصراً على هذا المنهج الخاص وإنما هناك منهج فكرى عام يخضع له كل الباحثين فى كل العلوم والفنون ، وفى هذا المنهج العام تتضح القواعد الأساسية التى تشترط فى بحث ينزع منزعا علمياً .

والمقصود بالمنهج الخاص هو النظام الذى تفرضه طبيعة المادة المدروسة على الدارس : فنحن حين ندرس الأدب يلزمنا أسلوب غير ذلك الذى يلزمنا حين ندرس الفلسفة ؛ ومنهج دراسة الفلسفة يختلف عن منهج دراسة الكيميا ، وهكذا . فطبيعة الموضوع - كما قلنا - هى التى تفرض الأسلوب أو المنهج ؛ فأحيانا يستخدم الباحث أسلوبا تاريخياً - عندما يكون بسبيل الترجمة لشخصية أدبية مثلا - وأحيانا يستخدم أسلوباً تحليلياً - عندما يعنى بدراسة نص من النصوص - وفى حالات أخرى يستخدم أسلوبا وصفيا أو تقريرياً أو تركيبياً أو تجريبيا ، بحسب الموضوعات المختلفة التى يدرسها .

أما المنهج العام فهو تلك الشروط التى تكفل لنا تحقق أمرين فى كل عمل علمى وهما : دقة البحث ، بكل ما تنطوى عليه كلمة دقة من معنى ، ثم أصالة المادة وصدقها .

ولست فى مجال الإفاضة هنا فى هذا الذى تنطوى عليه الكلمتان ؛ وحسبى هنا أن أشير إلى مثالين . الأول ، ويختص بدقة البحث . فن القواعد الجوهرية الخاصة بدقة البحث ، وهى من القواعد العامة ، تلك القاعدة التى تقول :

« يجب ألا نستخلص نتيجة من نتيجة أخرى إلا بمنتهى الحذر » وكذلك تلك القاعدة :

« يجب أن نتصل مباشرة بالنص المدروس ذاته ؛ فلا نحل قط نصاً آخر محله » ، فنقول مثلا : « (ا) كتب (ب) ، ولكن (ب) هو نفس (حـ) . وإذا كان (ا) قد ألف (حـ) إذن . . . » ثم ننسى (ب) ونأخذ فى بحث (حـ) وهو النص المزيف الذى كوناه أو تناولناه بثقة مسرفة .

ثم نشير بمثال أيضاً إلى أصالة المادة ، فهناك قاعدة تقول : « لا تنقل عن محدث ما نقله عن قديم » ، و « لا تقتبس من محدث رأياً سبقه إليه قديم » ، و « لا تناقش محدثا فى رأى ما لم تقرأ كتابه من الجلدة إلى الجلدة » . . وهكذا .

ونسلك الآن إلى كتاب « خزانة الادب » للبغدادى ، لنتبين – على ضوء ما أسلفنا – مدى مسايرته المنهج العلمى الخاص والعام . وقد يكون من سبيل التعسف أن نتطلب فى كتاب قديم أسلوبا فى البحث لم يعرفه إلا المحدثون والمؤلفات العلمية الحديثة ، ولكننا نجد أنفسنا فى كثير من الأحيان فى غير ما حرج من تقرير تلك الصفة العلمية فى كثير من المؤلفات العربية القديمة ، فلا حرج عليك فى أن تتكلم عن مناهج المفسرين ، ولا عليك فى أن تبحث مناهج المحدثين ، ولك أن تتكلم عن غيرهذه وتلك من مناهج البحث والتفكير الإسلامى . ذلك أن تحرى الدقة واستقصاء الخبر والتقيد بالالتزامات القاسية لم تعهد كما عهدت فى رواية الحديث مثلا . وكل ما كان يتكبده العلماء من مشقات الرحلة والطلب لم يكن فى حقيقة أمره إلا صورة مبالغا فيها لخلاصة أهداف النزعة العلمية المحدثة كما بيناها .

« وخزانة الادب » من المؤلفات المتأخرة نوعا ما . ومعروف أنه فى هدفه الاصيل هو شرح شواهد شرح الرضى الاستراباذى على الكافية فى النحو لابن الحاجب . وقد اجتمع فيه « ما تفرق فى مئات الكتب من طرف النوادر العلمية والأخبار التاريخية ، تتخلله تحقيقات فى العربية لا يجدها القارىء فى غيره .

ويستطرد صاحبه إلى فنون من النقد الأدبى لو أفردت لكانت بنفسها من خير ما كتبه الكاتبون . زد على ذلك ما فيه من تراجم الرجال وفرائد الامثال ، وتفرده بنقل النصوص الجليلة من كتب لم تجتمع فى زمانه عند أحد غيره . . إلى غير ذلك من الفنون التى جعلت هذا الكتاب دائرة معارف أدبية وتاريخية لا يستغنى عنها مشتغل بالأدب العربى . . . »[1]

ويعنينا هنا تشبيهه بدائرة المعارف ، لانه فى الواقع لم يقف عند مجرد هدفه الاول وهو شرح شواهد شرح الكافية – كما ذكرنا – ولكنه جمع صنوفا شتى من المعرفة والثقافة العربية الاصيلة . والكتب التى لها هذه الصفة فى المكتبة العربية القديمة كثيرة ، ويكفى أن تذكر الامهات الاربع : الكامل للمبرد ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وأمالى القالى ،

(١) مقدمة الأستاذ محب الدين الخطيب ناشر الخزانة — ط السلفية .

والعقد الفريد لابن عبد ربه ؛ فهذه كل موسوعات للثقافة العربية الأصيلة أكثر منها كتبا تبحث موضوعات خاصة .

ولكن كتابنا « خزانة الأدب » قد حدد موضوعه منذ اللحظة الاولى ، وكل ما ورد به من ثقافة تاريخية أو أدبية أو تراجم للأعلام لم تكن إلا جزءا ضروريا لتصوير المادة التى يعرضها الكتاب تصويرا دقيقا ، ولكى نضع أيدينا على مصادر هذه المادة كيما نستوثق من أصالتها وصحتها . والكتاب بهذه المثابة تتكامل المادة فيه بحيث لا يمكن الاستغناء) عن جزء منها (كالترجمة أو الخبر أو الرواية .. الخ) والمشكلة الوحيدة التى تعترض الباحث فى الكتاب بصورته الاولية هى صعوبة الإفادة من هذه المادة الغزيرة إفادة مستقلة . فأنت تستطيع أن تفيد من الخزانة مادة طيبة فى ترجمة أبى الأسود الدؤلى مثلا ، ولكن كيف كنت تهتدى إليها لولا هذه الفهارس القيمة التى أصبحت فى الواقع جزءا لا يمكن الاستغناء عنه فى الكتاب . ولا شك أن عمل الفهارس عمل علمى ناهض فى العصر الحديث [1] وإذا كانت تلك الموسوعات القديمة ينقصها هذا العمل العلمى الذى يبرز قيمتها ويجعلها فى متناول يد الباحث فإن ألزم ما يلزم الآن هو إضافة هذا الجزء الحى إلى تلك الموسوعات . فإذا كان فى الخزانة — بصورتها الاولية — هذا النقص فإنه نقص عام لم تدع إليه الحاجة فى العصور الماضية . أما الآن فأنت تستطيع أن تهتدى الى كل جزئية من جزئيات هذه المادة الغزيرة .

ولنعد الآن إلى صلب الكتاب .

ماذا صنع البغدادى فى سبيل الحصول على مادة يمكن الوثوق بها ؟ إذا أردنا أن نجيب فى كلمة قلنا : الامتحان .

ومن أين استمد البغدادى هذه المادة ؟ الجواب : من المصادر الأصيلة .

أما مشكلة الامتحان فيطول شرحها . ولعلنا نصادف هذه اللفظة فى ميدان آخر من

[1] مجلة الازهر ـ لقد عنى العلامة المحقق أحمد تيمور رحمه الله بهذه الناحية فوضع لخزانة الادب فهارس عظيمة ورد وصفها فى مقدمة الناشر لهذه الطبعة من الكتاب .

ميادين البحث وأعنى به ميدان الرواية بخاصة رواية الحديث . ووسائل هذا الامتحان يمكن الوقوف عليها — فيما يختص برواية الحديث — فى كتب فن مصطلح الحديث . أما فيما يختص بمشكلة الخزانة فقد أخذ البغدادى بمبدأ أنه لا يصح الاحتجاج بشعر أو نثر لا يعرف قائله ، « وعلة ذلك مخافة أن يكون ذلك الكلام مصنوعا أو مولدا أو لمن لا يوثق بكلامه ، ولهذا — كما يقول البغدادى — اجتهدنا فى تخريج أبيات الشرح وفحصنا عن قائليها حتى عزونا كل بيت إلى قائله — إن أمكننا ذلك ، ونسبناه إلى قبيلته أو فصيلته ، وميزنا الإسلامى عن الجاهلى ، والصحابى عن التابعى وهلم جرا ، وضممنا إلى البيت ما يتوقف عليه معناه ، وإن كان من قطعة نادرة أو قصيدة عزيزة أوردناها كاملة وشرحنا غريبها ومشكلها ، وأوردنا سببها ومنشأها ؛ كل ذلك بالضبط والتقييد ، ليعم النفع ويؤمن التحريف والتصحيف وليوثق بالشاهد لمعرفة قائله ، ويدفع احتمال ضعفه » . هذا ما يصنعه البغدادى لتقديم مادة موثوق بها . وهكذا نرى أن ما يتطرق إلى ذكره من رواية تاريخية أو ترجمة أو نص من النصوص ليس فى الواقع إلا زيادة فى توثيق هذه المادة . وهذا يحمد له من الناحية العلمية . وتبقى مشكلة عامة هى مدى الثقة بمن يستشهد بكلامهم فى اللغة وهى مشكلة كان لا بد للبغدادى من مواجهتها . وهنا نجده يعرض لنا آراء العلماء السابقين فيها .

وهؤلاء السابقون قسمان : قسم يعتمد على الشعر ويستشهد به وقسم يعتمد على غير الشعر . والفريق الأول تواجهه مشكلة طبقات الشعراء ؛ فتراهم يقسمون الشعراء طبقات بحسب الثقة التى يمكن أن تمنح لكل . فطبقة الجاهليين وطبقة المخضرمين يستشهد بشعرهما إجماعاً . وتأتى الطبقة الثالثة وهى طبقة المتقدمين الذين عاشوا فى صدر الإسلام ، والصحيح صحة الاستشهاد بشعرها رغم اللحن الذى وقف عليه بعض العلماء فى شعر كثير من شعرائها . أما طبقة المولدين أو المحدثين فلا يستشهد بكلامها مطلقاً ، وإن كان الزمخشرى فى كشافه قد سن قاعدة جديدة فيما يختص بشعراء هذه الطبقة ، وهى استشهاده بشعر لأبى تمام ، وقوله : « أجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه » ، وكانت حماسة أبى تمام من أوثق مصادر علماء اللغة . ولعل توثيق شعر أبى تمام يرجع إلى تقسيم آخر لطبقات الشعراء يتفق مع التقسيم الأول فى أمر الطبقات الثلاث الأولى ولكنه يجعل المولدين طبقة ، وتليها طبقة المحدثين ،

كأبى تمام والبحترى ، ثم طبقة المتأخرين كأبى الطيب المتنبى . ولكن هذا الرأى يرجحه سابقه .

أما غير الشعر فهو القرآن والحديث ، والقرآن حجة فى متواتره وشاذه . أما الاستدلال بالحديث فقد اختلف العلماء حول الاستشهاد به نظراً لإمكان الرواية بالمعنى . ولكننا إذا ذكرنا التشديد فى الضبط والتحرى فى نقل الاحاديث عند النقلة والمحدثين جاز الاستشهاد بما يغلب على الظن صحته منه . وحتى ما يمكن أن يكون قد روى بالمعنى فقد روى فى زمن كانت اللغة فيه ما تزال فى مهدها نقية صحيحة [١] .

هذه هى المفهومات التى تطالعنا فى الخزانة حول توثيق المادة .

أما فيما يختص بالمصادر فقد ذكر البغدادى أجناس الكتب التى أفاد منها فى علم النحو وفى تفسير أبيات المعانى المشكلة وفى الدواوين والمجاميع الشعرية حتى طبقة المولدين والمحدثين ، كما أفاد من كتب الادب ، وكتب طبقات الشعراء ، وكتب فقه اللغة وكتب الامثال ، وكتب الاماكن والطبقات . وبنظرة فاحصة لهذه المصادر نتبين أنها هى المصادر الاولى والأساسية التى أمدت الخزانة بمادة غاية فى القيمة .

وهكذا نجد ما سميناه بالمنهج العام يتمثل فى نفس البغدادى بصورة أو بأخرى قبل أن يقدم على تأليف كتابه الضخم . وما تبقى من عناصر هذا المنهج ليس بشىء بجانب الثقة فى المادة والمصدر ، وهما متوافران ـ كما رأينا ـ بصورة كافية فى هذا الكتاب .

عز الدين اسماعيل
مدرس بكلية الآداب ـ بجامعة إبراهيم

[١] المجلة ـ لفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر تحقيق وذلك تضمنته مقدمته التى كتبها الكتاب [المغنى عن الحفظ والكتاب] ط . السلفية .

الأردن في أيام الحروب الصليبية

في أيام الحملات الصليبية اتخذ الصليبيون في منطقة البلقاء والأردن إمارة لهم في الكرك وما حولها جعلوها قاعدة حربية يهاجون منها البلاد الإسلامية والعربية في الحجاز ومصر وأنحاء سوريا حتى قضى عليهم صلاح الدين قضاء مبرما بعد انتصاره على الصليبيين في معركة حطين سنة ٥٨٣ هجرية .

ذكر وزير صلاح الدين الأيوبي القاضي بهاء الدين بن شداد في كتابه « سيرة صلاح الدين » ص ٤٩ : أن السلطان صلاح الدين سار من دمشق على رأس جيشه ، في يوم ٢٧ من ربيع الآخر سنة ٥٧٩ هجرية حتى أتى بيسان فوجد أهلها قد رحلوا عنها وتركوا ما كان من ثقيل الأقمشة والغلال والأمتعة ففتحها عسكر المسلمين وحرقوا مالم يمكن أخذه ، وسار السلطان وجيشه حتى أتى (عين جالوت) وهي قرية عامرة وعندها عين ماء نخيم بها ، وكان قد قدم عز الدين جرديك وجماعة من المماليك النورية وجاولي مملوك أسد الدين حتى يكشفوا خبر الإفرنج (الصليبيين) فاتفق لهم أنهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للإفرنج فوقع أصحابنا عليهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا زهاء مائة نفر وعادوا ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد . فاستبشر المسلمون بالنصر والظفر .

ثم إن صلاح الدين علم أن الإفرنج اجتمعوا في صفورية والفولة ، فتبعهم بالجيش ونازلهم ونال منهم بالقتل والأسر . وخرب قلعة عفربلا وقلعة بيسان وزرعين وهي من حصونهم . ثم عاد منصوراً مظفراً مسروراً حتى نزل الغور ، ثم عاد إلى دمشق في يوم ٢٧ من جمادى الآخرة سنة ٥٧٩ وأقام بها إلى ثالث رجب سنة ٥٧٩ وخرج مراراً نحو الكرك وأرسل إلى أخيه الملك العادل وهو بمصر أن يتقدم إليه بالاجتماع على الكرك ، فخرج العادل من مصر ومعه عدد كبير وذلك في رابع شعبان سنة ٥٧٩ . ا هـ ملخصا .

ثم ذكر ابن شداد في ص ٥٣ أن صلاح الدين خرج من دمشق في شهر ربيع الآخرة سنة ٥٨٠ قاصداً مهاجمة الكرك وتتابع وصول الجيوش الإسلامية إليه من كل حدب وصوب وتتابعت العساكر بالوصول إلى الكرك حتى أحدقوا بها وذلك في رابع جمادى

الأولى سنة ٥٨٠ هـ وركب آلات المنجنيق على المكان وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية ، ولما بلغ الإفرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم للدفاع عن الكرك وكان على المسلمين ضرر عظيم من وجود الصليبيين فى الكرك وما حوله اقطعهم الطريق عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمة الغفيرة ، فاهتم السلطان صلاح الدين بهذا الأمر ليكون الطريق سابلة إلى مصر .

ولما بلغ السلطان صلاح الدين خروج الإفرنج تعبأ للقاء ، وأمر العساكر بالخروج إلى ظاهر الكرك ، وكان الفرنج قد نزلوا فى موضع يقال له الواله وسار حتى نزل على قرية حسبان قبالة الفرنج ورحل منها إلى ماعين والإفرنج مقيمون بالواله ثم رحلوا قاصدين الكرك فسار بعض العساكر وراءهم فقاتلهم إلى آخر النهار ، ولما رأى السلطان تصميم الإفرنج على الكرك أمر العساكر أن يدخلوا الساحل لخلوه من عسكر الصليبيين فهاجموا نابلس وغنموا مافيها ولم يبق فيها إلا حصنها وأخذوا جنين والتحقوا بالسلطان فى رأس الماء ومعهم الأسرى من العدو ثم عاد صلاح الدين إلى دمشق وأعطى العساكر دستوراً «إجازة» .

وقد انتهت مهاجمات صلاح الدين للكرك وما حولها بعقد هدنة بينه وبين البرنس أرناط الذى لم يلتزم بشروطها بل نقضها واعتدى أثناء الهدنة على قافلة عظيمة للمسلمين غدراً ـ كعادة الفرنجة فى كل زمان وإلى هذا الزمان ، فهم لا يوفون بمعاهدة ولا يلتزمون بهدنة ، وإنما يخضعون ويطأطئون رءوسهم للقوة القاهرة التى ترغمهم على الإذعان . وهذا ما يجب أن يفهمه جيداً قادة المسلمين والعرب وأولياء أمورهم حتى يسهل عليهم حل مشاكلهم مع الدول الغربية حلا عملياً .

قال صاحب حماة تاج الدين شاهنشاه بن أيوب فى ص ٢٨٨ من منتخبات تاريخه فى حوادث سنة ٥٨٢ هـ ما نصه : « فى هذه السنة غدر البرنس صاحب الكرك وأخذ قافلة عظيمة من المسلمين وأسرهم ، فأرسل السلطان (صلاح الدين) يطلب منه إطلاقهم بحكم الهدنة التى كانت بينهم على ذلك فلم يفعل ، فنذر السلطان أنه إن أظفره الله به قتله بيده » .

وقد حقق الله نذر السلطان صلاح الدين حين هزم الصليبيين فى معركة حطين .

الصليبيون يهاجمون مدينة النبى ﷺ :

قال « تاج الدين بن شاهنشاه بن أيوب فى تاريخه الذى نشرت منتخبات منه بذيل سيرة

صلاح الدين لابن شداد ص ٢٧٨ مانصه : « ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمس مائة ٥٧٧ ﻫ وفيها عزم البرنس ، أرناط ، صاحب الكرك على السير إلى مدينة الرسول ﷺ للاستيلاء على تلك النواحى الشرقية . وسمع عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان بدمشق ، فجمع جموعا وقصد بلاد الكرك وأغار عليها وأقام فى مقابلة البرنس ، ففرق البرنس جموعه وانقطع عزمه عن الحركة » .

ثم قال تاج الدين فى صفحة ٢٧٩ « ثم دخلت سنة ٥٧٨ ﻫ وفى خامس المحرم منها سار صلاح الدين من مصر إلى الشام واجتمعت الإفرنج قريب الكرك ليكونوا على طريقه » .

أسطول صليبي يهاجم الحجاز وسواحل البحر الأحمر :

قال تاج الدين شاهنشاه ص ٢٨١ و ٢٨٢ « فى هـــذه السنة ، (٥٧٨) عمل البرنس صاحب الكرك أسطولا فى بحر أيلة « العقبة » وسير « فى البحر فرقتين فرقة أقامت على حصن أيلة « العقبة » يحصرونه وفرقة سارت نحو عيذاب » « شواطىء مصر » يفسدون فى السواحل ، وبغتوا المسلمين فى تلك النواحى فإنهم « أى المسلمين » لم يعهدوا بهذا البحر « البحر الأحمر » إفرنجيا قط بل كان بحرا إسلاميا « صرفا » ، وكان بمصر الملك العادل أبو بكر نائبا عن أخيه السلطان « صلاح الدين » فعمر أسطولا فى بحر عيذاب « بمصر » وأرسله مع الأمير حسام الدين لؤلؤ وهو متولى الأسطول بديار مصر وكان مظفرا شجاعا ، فسار لؤلؤ مجدا فى طلب الفرنج وأوقع بالذين كانوا يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرهم ثم سار فى طلب الفرقة الثانية وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى فسار لؤلؤ يقفو أثرهم فبلغ (رابغ) فأدركهم بساحل الحوار وتقاتلوا أشد قتال فظفره الله تعالى بهم وقتل لؤلؤ أكثرهم وأخذ الباقين أسرى وأرسل بعضهم إلى (منى) لينحروا بها وعاد بالباقين إلى مصر وقتلوا عن آخرهم » .

ثم ذكر تاج الدين فى ص ٢٨٩ خبر معركة حطين ، وحطين قرية بالقرب من طبرية : وخلاصة ذلك أنه فى سنة ٥٨٣ ﻫ جمع صلاح الدين العساكر وسار بفرقة منها وضايق الكرك خوفا على الحجاج من صاحب الكرك ، وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الأفضل فأغار على بلاد عكا وتلك الناحية وغنموا شيئاً كثيراً ثم سار السلطان إلى طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف ، ولما أخذ السلطان طبرية اجتمعت الفرنج وملوكهم بفارسهم

وراجلهم وساروا إلى السلطان والتقى الجمعان فى يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ ﻫ وإن جيوش المسلمين أحدقوا بالإفرنج من كل ناحية وأبادوهم قتلا وأسراً وكان من جملة من أسر ملك الإفرنج الكبير والبرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل وابن الهنفرى ومقدم الداوية وجماعة الاسبتارية .

ثم قال تاج الدين فى ص ٢٩٠ وما أصيب الإفرنج منذ خرجوا إلى الشام فى سنة ٤٩١ﻫ إلى الآن بمصيبة مثل هذه الواقعة ، ولما انقضى المصاف جلس السلطان ، صلاح الدين ، فى خيمته وأحضر ملك الأفرنج وأجلسه إلى جانبه وكان الحر والعطش به شديداً فسقاه السلطان ماء مثلوجا ، فسقى ملك الأفرنج منه البرنس أرناط صاحب الكرك ، فقال له السلطان : « هذا الملعون لم يشرب الماء بإذنى فيكون أمانا له ، ثم كلم السلطان البرنس ووبخه وقرعه على غدره وقصده الحرمين الشريفين ، مكة والمدينة ، ثم قام السلطان بنفسه فضرب عنقه ، فارتعدت فرائص ملك الافرنج ، فسكن جأشه . ثم عاد السلطان إلى طبرية وفتح قلعتها بالأمان . ثم كان فتح القدس واستخلاصها من الصليبيين بعد جهاد دام نحو مائة عام حتى كان النصر المبين فى يوم ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ وأعيدت القدس ومسجدها الأقصى وما حوله من ديار مباركة إلى حوزة المسلمين .

ويجب أن يعلم كل مسلم وكل عربى فى أنحاء هذا العالم أن الغاية التى تقصدها الدول الكبرى انجلترا وأمريكا وفرنسا وسواها من الدول الاستعمارية والجماعات المعادية للإسلام من صهيونية وتبشيرية وغيرها التى ساعدت على إقامة دويلة إسرائيل فى فلسطين على أطلال مدن المسلمين والعرب وقراهم وديارهم وتمكينها اليهود من فصل آسيا الإسلامية عن أفريقيا ومنع الاتصال بين بلاد العرب إنما تريد بذلك مقاومة الإسلام والمسلمين وتحقيق الغاية الرهيبة التى عجزت الحملات الصليبية خلال مائتى عام عن تحقيقها .

والواجب الدينى وواجب الشرف والكرامة يحتم على المسلمين والعرب كافة أن يوحدوا صفوفهم ويشحذوا عزائمهم ويعملوا يداً واحدة متعاونين على إنقاذ فلسطين وإعادتها إلى الحظيرة الإسلامية والعربية كما عمل آباؤهم وجدودهم المجاهدون ، وأن يعدوا ما استطاعوا فى قوة لهذه الغاية الشريفة ليغسلوا هذا العار اليهودى الجاثم فى أطهر بقعة فى وطنهم وديارهم التى جملت تربتها بدماء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ومن جاء بعدهم من المجاهدين فى مختلف العصور . والمرجو من الله تعالى أن يجعل ذلك اليوم قريباً ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز .

محمد صبرى عابدين
من علماء الأزهر الشريف

نظرات في الشريعة الإسلامية

بين التقدير العيني والتقدير النقدي

إذا استعرضنا طريقة المعاملات فى العصور البدائية نجد أنها كانت تقوم على أساس المبادلة . فكان الفرد يقوم بشراء ما يلزمه بواسطة ما يقدمه إلى الآخر من مواد . فالمزارع إذا أراد شراء شيء ما . لجأ إلى كمية من حاصلاته ليشترى بها ما هو فى حاجة إليه . وكان العامل إذا أراد شراء طعام أو قوت لأولاده يعرض نفسه على الراغبين فى استئجاره فى مقابل إعطائه ما هو فى حاجة إليه .

وهذه الطريقة البدائية المحضة وإن بدا فيها من المتاعب ، والحد من الحرية فى التبادل ، حيث تجعل الإعطاء محصوراً بين طائفة معينة ، من الذين توفرت لديهم هذه الطلبات ، إلا أنها كانت تسدى للحياة العامة خدمة جليلة تأتى بطريق غير مقصود . فقد كان من أثر ذلك أن منعت تضخم الأموال حيث امتنع وجود النقد . فكان كل شخص يقصر همه على إنتاج مقدار ما يستطيع أن يستهلكه فى قضاء رغائبه ، وسد حاجاته . فلم يكن هناك تضخم فى الانتاج ولم يكن — تبعا لذلك — تضخم فى الكنز أو فى الادخار .

وهذه الطريقة ظلت ردحا من الزمن . إلى أن اخترع النقد ، وأصبح هو الوسيط بين المتعاقدين ، وصار هو مصدر التقويم والتثمين . وأصبحت السلع تأخذ حظها من التقدير بمقدار ما يبذل فيها من نقد تبعا لقدرة الراغبين .

وطريقة التبادل وإن كانت قد انكمشت باختراع النقود ، إلا أن ذيولها ما تزال تطل علينا فى بعض الأحايين وفى بعض الاماكن . فلا تزال منها صور فى بعض المعاملات الصغيرة بالقرية حيث يلجأ الريفيون إلى شراء سلعهم ببعض الغلات الزراعية ، وإلى شراء الخضراوات بقليل من الحبوب أو بما يعطيه الدجاج من بيض . بل ما يزال « التشغيل » فى مقابل إعطاء منتجات معينة موجوداً أيضا : فما يزال الحلاق والنجار وقارئ القرآن وغيرهم يعملون طول العام فى مقابل مقدار من الحبوب يعطى لهم فى موسم الحصاد .

ولا تقف الطريقة التبادلية العينية عند هذا الحد . بل إن الدول فى معظم الأحايين تلجأ إليها ، وخاصة فى الأيام الأخيرة بعد أن فشل المستعمرون فى سل السيوف فى وجوه

الدول المنتجة ، فلجأوا إلى إعلان الحرب الاقتصادية عليها بفرض حصار تبادلى يقوم على التشكيك فى جدارة هذه الدول على الوفاء ، كى يهرب العملاء منها . وذلك مثل ما لجأت إليه انجلترا من فرض هذا التشكيك على الاقتصاد المصرى كى لا تجد مصر مشتريا لقطنها . وكان من نتيجة ذلك أن انخفض سعره ، وانخفض سعر الجنيه المصرى فى الأسواق الدولية .

ولا وسيلة لمصر من الفكاك عن هذا الحصار إلا بالعودة إلى النظام البدائى ، فتقوم بمبادلة منتجاتها بأخرى من الدول الراغبة فيها حسب اتفاق حر يعتمد بين الطرفين . وفى هذا ما فيه من الحد من الحرية بعدم فسح المجال للمشترين المنافسين ولكنه على كل حال ضمان لها من الكساد والبوار .

وبعد هذه اللمحة العارضة عن التبادل العينى والتبادل النقدى ، نرى أن كل نوع منهما لم يقم على فلسفة أصيلة ، بل على منفعة مرئية . ولهذا نراه تارة يكون خيراً وتارة يكون شراً . وتقوم التجارة الدولية على اهتبال الفرص الداعية للاستفادة من هذا الاختلاط العجيب ، فمن أدار العجلة بحكمة وفى حذق كان نصيبه الغنم والكسب . . ولقد انضم إلى هذه العوامل المؤثرة فى المعاملة عامل آخر هو وجود الأوراق المالية . فقد لجأت الدول إلى تغطية عجزها النقدى عن القيام بمستلزماتها إلى إصدار سندات مالية على خزائنها . وهذه السندات - تبعاً لظروف دولية - كثيراً ما تتهافت وتقل قيمتها فيصبح من العسير أن تنهض بالعبء الملقى على عاتقها . وكان من نتيجة هذا الاضطراب كله أن نتساءل : ما هى الوسيلة التقديرية فى الشريعة الإسلامية ؟

وسنجد الشريعة الإسلامية - وكأن الله تعالى قد ألهم نبيه هذا الاختلاط العجيب - تتخذ التقويم العينى فيما تقرره من مقدرات تقوم فى سبيل الصالح العام كما فى الزكاة أو فى الديات أو فى الكفارات وربطت التقدير على هذا الأساس حتى فى حالة الفقد والعدم يكون العدول إلى غيره باعتبار ما يساويه التقدير العينى ، كما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة من العدول فى زكاة الفطر من الحبوب إلى النقد على أساس قيمة الحبوب .

وعلى رغم ما يبدو فى التقدير العينى من متاعب ، ومن حد للحرية إلا أنه إذا قورن بالتقدير النقدى للقيمة العينية أصبح المستوى الاقتصادى ثابتاً . ولكى يبدو الأمر جلياً أضرب لك مثالا : فرض الله على المسلمين زكاة الفطر ، وقد قدرت بواسطة التقدير العينى

بمقدار صاع أو أقل ـ حسب الآراء ـ فلنفترض أن الشرع بدل أن يقدرها بصاع راعى ثمنها وقت التشريع ، أو لم يراع الثمن وقدر ابتداءاً مقداراً معيناً من الدراهم أو الدينار . فماذا يحدث ؟

يحدث أن الاسعار تتفاوت فترتفع تارة وتنخفض أخرى . فإذا ارتفعت الاسعار ثم أعطى الفقير هذا المقدار الثابت من الذهب أو الفضة كان فيه غبن عليه ، لانه لايستطيع أن يشترى به شيئاً ذا أهمية يكفيه . ولو انخفضت الاسعار وقد قدر على المعطى هذا المقدار عينه لغبن ، لانه يستنفد فى الحصول على هذا المقدار المعين من النقد كمية كبيرة من انتاجه نظراً لانخفاض الاسعار ، فيكون فى هذا غبن عليه .

أما فى حالة التقدير العينى فلا يخضع لهزات الاسعار المتأرجحة المضطربة . ثم عالجت الشريعة الاسلامية الحد من هذا التبادل العينى بأن أباح بعض الفقهاء تقويم العين بالنقد ثم استبدالها بالنقد . وهو منتظم فى سمط العدالة التى من أجلها شرع التقدير العينى !.

وإذا عرف أن الزكاة ما هى إلا نسبة من الانتاج تستهلك على العاطلين عن هذا الانتاج من الضعفاء والمرضى والمساكين ، تبين أن النسبة بهذا التقدير العينى ثم العدول عنه إلى التقدير النقدى ـ فى بعض الحالات ـ لا يجعل هذه النسبة تتغير بحال من الاحوال .

ولندع هذا المثال لنرى وجهاً آخر ، وهو ما جرت عليه الشريعة عند التقدير فى الديات وفى الجروح وفى غيرها من الأرش ، نجد أنها لجأت إلى التقدير العينى الذى ينتهى بالتقدير النقدى عند أبى حنيفة — وكنا ونحن فى مدرجات الكلية وما زلنا قليلى الخبرة بأسرار هذه الشريعة نتساءل : ما حكمة هذا التقدير بالإبل فى بلاد تنعدم فيها الإبل أو تقل كمصر مثلا ؟ ولماذا لا تكون الدية مقداراً معيناً ثابتاً من النقد يصدر به القاضى حكمه من غير ما تقويم أو تعديل ؟!

والجواب عن هذا التساؤل أننا لو نظرنا إلى ما ذكرته فى المثال السابق لوجدنا الحكمة هنا أيضاً بادية ظاهرة . فلو قدرت دية الرجل بجزء معين من النقد ، لكانت هذه الدية عرضة للتفاوت العجيب نظراً لتفاوت أسعار الذهب والورق بين حين وحين ، ولكثرته أو قلته فى أيدى الناس فى كثير من الاحايين . وفى جزيرة العرب نفسها حيث أصبح

الزيت مورداً ضخماً للنقود يظهر الفارق الشاسع بين حكمة التقدير العينى والنقدى فلو جعلت الدية مقداراً ثابتاً من الذهب لهان على سائق السيارة الذى يتقاضى مبلغاً كبيراً من النقد دفعها ، ولأصبحت الأرواح رخيصة هينة . ولكنك لا تجد هذا الهوان إذا رجعت إلى التقدير بالابل . . فإن السلع يطرد ارتفاع ثمنها اطراداً مناسباً مع وجود النقد . فكلما كثر النقد ارتفعت الاثمان . ولهذا أصبح ثمن الجمل فى الجزيرة العربية الآن أضعاف أضعاف ما كان عليه من قبل . فإذا رجع فى الديات إلى التقدير العينى كانت النسبة محفوظة وثابتة .

وعند التدقيق والبحث نرى أن أسعار الاشياء قد يعرض لها من الأسباب ما يجعلها تتأثر هبوطا أو صعوداً ، كما فى حالة نشوء وباء عام فى الحيوانات مثلا ، أو إصابة الارض بندرة المطر . وقد لاحظ كثير من الفقهاء هذه الظروف الاستثنائية ، واعتبرها حالات عارضة لا تصح أن تكون الحكم الفاصل ، بل رأى العود إلى الوسط فى كل شىء ، من الزمان والمكان ، حتى تتلافى هذه الظروف الطارئة .

ولعل فى تحديد الشرع الدية تحديدا واضحا ، لم يترك فيه للقاضى حرية التصرف تقديراً كبيراً لحرمة النفس البشرية ، وامتداداً للمساواة المطلقة التى جسمها الإسلام ، وجعلها القانون العام بين الناس جميعا . فلم يفرق بين دية الرجل العظيم أو دية الرجل البسيط كما نشاهد فى الشرائع الوضعية التى قد تمنح تعويضا لقتيل محترم عدة آلاف من الجنيهات ، بينما تضن على قتيل من الطبقة الدنيا بعـــدة مئات . ومن الطريف أيضا أن نشير إلى احترام الإسلام لقيمة النفس البشرية فلم يترك الدم يذهب هدراً كما نشاهد أحيانا فى مجتمعنا الحاضر ، بل لا بد للدم من ثمن . فهو فى حالة العمد القصاص إلا أن يعفوَ فالدية . وفى حالة الخطأ الدية على العاقلة (الإخوة ثم بنى الإخوة ثم العمومة ثم بنى العمومة) فإن لم يقدروا على الوفاء انتقل إلى بيت المـال . بل بالغ الإسلام فى مقابلة الدم بالجزاء حتى فى حالة جهـــل القاتل وعدم معرفته ، حيث شرع القسامة فأوجب بها على أهل كل محلة وجد بها قتيل أن يتحملوا ديته احتراما للنفس البشرية أن تذهب مع الريح بلا ثمن أو جزاء ! [1]

[1] بتفصيل وشروط مذكورة فى كتب الفقه .

ويمضي الشرع على سننه في جميع التشريعات التي يلاحظ فيها حاجة الفقراء فنراه يستعمل التقدير العيني في الكفارات المختلفة . فيبدأ في مراتبها بعتق الرقبة ، ثم بإطعام عدد معين من الفقراء أو كسوتهم ، ثم بالصيام . وذلك تبعا لنوع الكفارة وتفاوتها بين الشدة والتخفيف ، ولكنها على كل حال لا تخرج عن أن يكون التقدير العيني هو محورها ومركزها .

ولا ينتقل الشرع الحكيم من التقدير العيني إلى التقدير النقدي إلا في الجزية حيث إنها لا تنهض على أساس أنها نسبة معينة من المال ، بل على أساس أنه التزام محدد يقوم على عقد محترم ، فلهذا كان التقدير بالنقد هو مداره حتى لا يتعرض للاضطراب والخلاف . وكما لوحظ في الجزية ذلك لوحظ أيضاً في الخراج - عند بعض الفقهاء - لجعل التقدير فيها أيضاً بالنقد للمعنى السابق عينه .

وإذا كان الشارع قد لاحظ التقديرين عند ما تدعو الحاجة إلى استخدام أحدهما ، واستعماله دون الآخر ، فإننا نراه قد ألغى التقدير في الأشياء التي تتعرض للأخذ والعطاء والجذب والإرخاء ، وتتعرض للتفاوت في الأحوال والأزمان ، بل ترك تقديره إما للحكم عند القضاء ، أو للتراضي عند الاتفاق . فنراه ترك أمور النفقة والمهور وأجر الحضانة وغيرها من الأمور إما إلى حكم القضاء الذي يقدر الظروف والملابسات ، وإما إلى التراضي والاتفاق .

ولعلني بذلك قد وفقت إلى تجلية سر من أسرار الشريعة الإسلامية ، ذلك الكنز الزاخر بكل رائع وعجيب حينما استعملت التقدير العيني ، مما كان موضع تساؤل من بعض الواهمين .

السعيد الشربيني الشرباصي
مدرس بالمعهد الديني بالكويت

موقف الاسلام

من حوادث مراكش ومعاهدة ليبيا

حديث لفضيلة الاستاذ الاكبر

قال مندوب « الأهرام » :

أديت فريضة المغرب أمس مع فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر .

وعقب الصلاة اتجه إلى الله رافعاً يديه نحو السماء ، داعيا أن ينصر الله الإسلام ، ويحرر بلاد العرب من الاستعمار والمستعمرين ، ويخلصها من الأذناب الموالين للأعداء .

أذناب الاستعمار شر خلق الله :

ثم التفت فضيلته إلى ، وقال : إن شر ما تصاب به الأمم المستعمَرة أن يجد أعداء البلاد من بنيها أتباعا وأشياعا وأذنابا يخونون ربهم ووطنهم ، ويفقدون كرامتهم وإنسانيتهم فيعملون فى خدمة أولئك الأعداء على حساب البلاد التى نبتوا فوق أرضها واستظلوا بسمائها وشربوا ماءها ، وهؤلاء هم شر خلق الله ، وأبعدهم من رحمته ورضاه ، لأنهم منافقون : يقابلون مواطنيهم بوجه وطنى ، ويقابلون أعداء البلاد بوجه استعمارى ، لا يثقون فى أنفسهم ولا يؤمنون بوطنهم ، ويدعون إلى الهزيمة والخيانة : « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم » .

حوادث مراكش :

فسألته عن رأى الإسلام فى الأحداث الجارية فى مراكش وما تمخضت عنه من خلع سلطانها الشرعى .

فقال فضيلته : إن مراكش وبلاد المغرب الأقصى تعد من أعرق الدول الإسلامية فى التاريخ ، ولقد أخذت طريقها إلى مجدها ونهضتها من قديم ، حتى ضرب عليها الاستعمار الفرنسى حمايته قبيل الحرب العالمية الأولى وكاد لأهلها شراً ... وأبى الوطنيون المسلمون أن يخضعوا لهذه الحماية التى يأباها الإسلام وترفضها كرامة العروبة ... فسقط فى ميدان الجهاد كثيرون من أبنائها ، وشرد المجاهدون وسجنوا . وسجل الاستعمار وثيقة حمايته للبلاد قسراً ، وفرض عليها قيودا . وما من يوم مر بتاريخ هذه البلاد إلا سجل فيه الاستعمار خزيا جديدا ، واعتداء سافرا على حقوق الوطن والوطنيين فى تونس ومراكش . ولما أعيتهم الحيل لجأوا إلى أحدث أساليب الاستعمار فزقوا وحدة أبنائهما المسلمين ، وخلقوا منهم شيعا يضرب بعضهم رقاب بعض لصالح الاستعمار نفسه .

ووجد الخونة الذين يبيعون بلادهم بأبخس الأثمان للمحتلين ويعينونه على خلع السلطان الشرعى للبلاد ... ولا شك أن الإسلام يأبى الخضوع للمستعمرين ويطالب بتقليم أظافر المعتدين .

المعاهدة البريطانية فى ليبيا :

وسألت شيخ الأزهر عن رأيه فى المعاهدة الإنجليزية التى عقدتها ليبيا أخيرا .

فقال فضيلته : إن الاستعمار ملة واحدة .. والذى يقرأ نصوص المعاهدة الليبية يدرك تماماً أهداف المستعمرين من تثبيت قدم الاحتلال فى هذه المنطقة العربية ... ولقد صدر بيان هيئة كبار العلماء وحدد المسئولية الإسلامية بشأن هذه المعاهدة والأحداث الجارية فى مراكش .

الدول تنحرف كالأفراد :

ثم أضاف فضيلته قائلا : إن الدول تنحرف أحيانا كما ينحرف الأفراد ، وتعاقب على خيانة

العهد وموالاة الأعداء . . ومن نكد الدنيا وفساد الطبائع أن يجد أعداء الإسلام من أرباب المنافع الشخصية فى البلاد قوما يودونهم ويوالونهم ويعملون لدعم قواعد احتلالهم لأوطانهم ، وتحقيق أهدافهم الاستعمارية ، ومعاونتهم فى القضاء على الدين والدولة والأوطان ، إما جريا وراء نفع مادى ، وإما خشية سوء العواقب . وذلك على الحالين مرض فى القلب ، وخيانة لله والرسول ، ونفاق يأباه الشرع وتمقته المروءة ويرفضه القرآن الذى قال عنهم « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » .

لا مودة لأعداء الله والوطن :

واستطرد فضيلته فقال : لقد حرم الإسلام مودة أعداء الله ورسوله بالغة ما بلغت صلتهم بالإنسان ، حتى لو كانوا آباء أو أبناء أو أهلا أو عشيرة ، فما بالك بأعداء لا تربطنا بهم إلا أسوأ صلة هى صلة الاستعمار والاضطهاد . والله سبحانه وتعالى يأمرنا بالاستعداد دائما لمحاربتهم ومقابلة قوتهم بالقوة فيقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

ويجرد أنصارهم من الإيمان فيقول تعالى فى قرآنه العظيم : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم او إخوانهم أو عشيرتهم » .

وجوب التكتل لمواجهة الاستعمار :

وقد أمر الله المسلمين فى جميع بقاع الأرض بأن يتكتلوا وأن يواجهوا أعداءهم صفاً واحداً وأن يقلموا أظافر الخونة الذين يوالون أعداء الدين والوطن ، وأن لا يضعفوا أمام أية عاطفة فى سبيل جهادهم فقال تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

الإسلام ومعاهدة الأعداء:

وقلت لفضيلة الشيخ الأكبر إنى أطلب رأياً فى هذه المعاهدات التى تعقد بين هذه الدول الغادرة والبلاد العربية المنكوبة ، وهل هى نوع من ولاية الكافر على المؤمن ؟ وما هو رأى الإسلام فيمن يتولى عقدها مع هؤلاء الأعداء خشية بطشهم أو قصد الحصول على أمرالهم ، فى سبيل بيع حرية البلاد ويفضلهم على بنى جنسه وعروبته ؟!!

فقال فضيلته : لقد أجاب القرآن الكريم إجابة حاسمة عن كل هذا فى آية صريحة واضحة لا شبهة فيها ولا التباس فقال تعالى : « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً » .

قصيدة للأستاذ الأكبر :

وختم الأستاذ الأكبر حديثه بأن أنشد قصيدته الجديدة التى صاغها لمناسبة الأحداث الجارية فى مراكش وليبيا وتونس ، وقد جاء فيها :

لا تسامى كلما خضت غماراً ... وإذا رضت جواداً لا يجارى
هات من عزمك ما ترقى به ... أمة هيضت جناها وقفاراً
إن يصح العزم من قوم فلا ... يلتقى شأنهم إلا تباراً
ولقاء الموت فى ذودك عن ... ساحة يكسب ذكراك فخاراً
فاسأل المغرب كيف امتلكوا ... بعد الاستعمار زرعا وعقاراً
أبرموا العهد ولم يوفوا على ... أنهم لاقوا كراما وخياراً
ورعينا منهم الجار ولو ... أنصفونا حمدوا منا الجوارا
لا رعى الله عهوداً قد كوت ... بلظى الضيم صغاراً وكباراً

وختم الأستاذ الأكبر حديثه قائلا : « إننى أتمنى على الله أن أعيش حتى أشهد مصرع الاستعمار فى كل البلاد الإسلامية والعربية » .

فقلت لفضيلته : حياك الله . وأحياك حتى تبلغ مناك ، فهى منى جميع العرب والمسلمين .

نظرات في كتاب "الأموال ونظرية العقد في الفقه الإسلامي"

تأليف الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

نشر دار الكتب الحديثة ١٤ شارع إبراهيم باشا بعابدين . يقع في ٥٢٤ صفحة

— ٢ —

قدمت في جزء شوال ١٣٧٢ من مجلة الأزهر الغراء الجزء الأول من نظراتي في هذا الكتاب الجليل الذي يستحق كل ثناء ، والذي هو نمط جديد في دراسة الفقه الإسلامي ينبغي أن يحتذى ويمتثل ، وإن من الخير أن يقبل عليه طلاب الشريعة فيفيدوا منه معارف تبصرهم بالفقه على أحسن وجه ، بجانب الدراسة للفروع والنقاش في أدلتها .

واليوم أقدم الجزء الثاني . ومن قصر النظر أن يظن ظان أنها تغض من الكتاب أو تنال منه . وإنما هي أمور يختلف فيها النظار والباحثون ، وللمؤلف الفضل والفوق ، وله الذكر الحسن الجميل ، والكتاب آية في حسن التأليف ، ودقة النظر وسداد الأفكار .

٦ — يعرض المؤلف لعمل الصحابة الفقهي في عدة مواطن ، ويبدو في كلامه ما يستوجب النظر .

(ا) ففي ص ٤٨ يذكر أن كبار الصحابة كانوا لا يفتون في أحكامهم إلا بما يرجع للقرآن والسنة ، وأنهم يجنحون إلى الرأي والقياس إن لم يجدوا إلى غير هذا سبيلا . وفي ص ٤٤ يقول : « وهكذا نرى الاختلاف في عهد الصحابة يرجع إلى هذه الأسباب وأمثالها . ولا يكون إلا حيث لا يجدون نصاً محكما في القرآن أو سنة لا ريب فيها عند الرسول . وفي هذه الحالة يكون الاجتهاد بالرأي والقياس : كما يكون الأخذ بالمصالح المرسلة »

وانظر بعد هذا ما يقوله في ص ١٣٣ في الحديث عن المصالح المرسلة : « ومن ينظر في تشريعات الصحابة والتابعين ومن إليهم من الفقهاء المجتهدين يعرف يقيناً أن هذا الأصل قد روعي في كثير من تلك التشريعات . بل إن من هؤلاء من عمل على تأويل بعض النصوص

أو إهمال القياس رعاية لهذه المصالح المرسلة وتحقيقها ، قصداً إلى المصلحة العامة فيما سنوا من تشريعات » .

وقبل هذا فى نفس الصفحة يذكر أن من شرط المصالح المرسلة ألا تعارض دليلا من أدلة الشريعة .

وهنا يحس القارىء بعض الحيرة فى الأخذ بالمصالح المرسلة . فهى لا يعمل بها إلا عند فقد الدليل ، وهذا فى بعض المواطن من الكتاب . وفى بعض المواطن يؤول النص لأجلها ويهمل القياس . وعبارة تأويل النص عبارة مخففة ، قد تشمل إهمال النص ؛ فقد مثل المؤلف فى هذا المقام بعمل عمر فى الطلاق الثلاث وهو إهمال للدليل لا تأويل له ، وبمنعه المؤلفة قلوبهم من الزكاة مع الأمر بذلك فى القرآن . وانظر فى ذلك ص ١٢٤ .

ويجد القارئ بعض الحيرة أيضاً فى حديثه عن قسمة سواد العراق فنى ص٣٨ يذكر أن عمر امتنع من القسمة استناداً إلى آية الحشر . وفى ص ٨٦ يذكر أنه لم يجد له فى ذلك سنداً إلا المصالح المرسلة . ويقرر هذا أيضاً فى ص ١٣٤ .

(ب) والذى يجب الأخذ به البتة وعدم الحيدودة عنه تقديم الكتاب والسنة على ما عداهما من القياس والمصالح المرسلة ، ويكاد هذا يكون إجماع المسلمين ، وهذا ما قرره المؤلف فى أكثر من موطن ، والمهم التزامه فى تطبيق ما يؤثر عن الصحابة وتفسير أعمالهم على هذا الأصل .

وسآخذ فى ذكر بعض الفروع التى عرض لها المؤلف وفتاوى الصحابة فيها :

فمسألة قسمة سواد العراق ينبغى أن يجنب عمر فيه النظر إلى المصالح المرسلة ، مع وجود النص ، وللعلماء فى ذلك أوجه وأنظار ، فمنهم من حمل ذلك على استطابة عمر أنفس الغانمين فنزلوا عنها باختيارهم . وبعضهم يرى أن نص الغنيمة محمول على ما إذا أراد الإمام ذلك فإن رأى أن يقسم بطريق الفىء كان له ذلك . وقد بسط الكلام فى ذلك أبو عبيد فى الأموال . وقد حمل العلماء على هذا تنزيه عمر أن يقع فى مخالفة النص ، وقد كان وقافاً عند كتاب الله وسنة رسوله . ووصيته لأبى موسى معروفة وفيها تقديم الكتاب والسنة على الرأى ، أفكان يوصى غيره بأمر ويخالفه إلى سواه !

ومسألة الطلاق الثلاث إذا وقع بلفظ واحد أوردها المؤلف فى ص ٤٠ وذكر فيها حديث ابن عباس أن الثلاث كانت تعتبر واحدة فى زمن الرسول عليه الصلاة والسلام وأبى بكر وصدر عهد عمر . وأن عمر لم يرقه ذلك فأمضاه ثلاثا عقوبة للناس إذ أكثروا من الطلاق وتتايعوا فيه .

والفقيه فى مثل هذا عليه وزن الأخبار والتدبر فيها ؛ وإلا اختلط عليه الأمر وتدافعت الأصول فلا يدرى بأيها يأخذ ، ويعيا بالحكم وتفسد عليه السبل . وكذلك مؤرخ الفقه عليه أن ينظر إلى اعتبارات كثيرة ؛ وإلا زل فى حكمه وركب متن الشطط .

إنا إذا أخذنا بظاهر هذا الأثر كان لذلك من الآثار ما لا ينادى وليده . سنة صريحة جرى عليها العمل فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وعهد أبى بكر وسنتين أو ثلاثا من عهد عمر ، ويعمد عمر إلى هذه السنة فينقضها ، ويشرع للناس ما لم يأذن به الله ولم يأت به الرسول عليه الصلاة والسلام لمصلحة رآها عمر . وثالثة الأثافى أن يوافقه الصحابة ولا ينكروا عليه هذه المخالفة وهذا العدوان .

إن هذه المسألة أثارها ابن تيمية وابن القيم ولجا فيها ، وركبا فى ذلك ما كان خيراً لهما أن يجتنباه . إن الفقيه عليه أن يتروى كثيراً ويقيس الأمور ويرجح عند تعدد الأدلة ، وفى الأصول باب التعادل والترجيح ومن المقرر ألا يترك المقطوع به للمظنون . ومن المقطوع به ألا يخالف عمر سنة صريحة . وإذا أخذنا بظاهر حديث ابن عباس كانت مخالفة عمر أى مخالفة . وإذاً فلا بد من تأويل الخبر والنظر فيه ، وهذا ما فعله العلماء من قبل وعدلوا عن الأخذ به .

إن ابن القيم وابن تيمية غلبت عليهما فكرة فى هذا المقام فحشدا لها ما استطاعا من بيان وحجاج ، وأخرجتهما اللجاجة عن الهدوء وعن سنن البحث العلمى .

ففى هذا الموطن من إعلام الموقعين يذكر ابن القيم فى رواية حماد بن زيد أن ابن عباس أفتى بوقوع الثلاث واحدة ، وأفتى بوقوع الثلاث . وهو يسوى بين الفتويين عن ابن عباس

وليستا سواء . فرواية حماد بن زيد عن سنن أبى داود [1] ، وقد زيف أبو داود هذه الرواية وأثبت أن هذا قول عكرمة مولى ابن عباس لا قول ابن عباس ، وأن قول ابن عباس هو وقوع الثلاث .

ويذكر ابن القيم أن وقوع الثلاث واحدة إجماع قديم فيما ادعاه بعض أهل العلم - لعله شيخه - ولم تجتمع الأمة - ولله الحمد - على خلافه . ويقول بعد ذلك : « وعلم الصحابة رضى الله عنهم حسن سياسة عمر وتأديبه لرعيته فى ذلك فوافقوه على ما ألزم به وصرحوا لمن استفتاهم بذلك . » ألا تشبه هذه الموافقة الإجماع على خلاف الرأى السائد قبل عمر فى زعم ابن القيم .

وتدفع الرغبة والتعصب للرأى ابن تيمية أن ينحل مذهب أحمد هذا القول ، وأحمد ينكره بملء فيه ولا يأخذ به فى حين أنه روى خبر ابن عباس فى مسنده . ويسأل عن ذلك فيذكر أن ابن عباس كان يفتى بخلافه . ويحتج ابن تيمية أن من أصول مذهبه الأخذ بما يرويه الراوى وإن عمل بخلافه . وعلى ذلك فمقتضى هذا الأصل أن يكون مضمون حديث ابن عباس قولا فى مذهب أحمد . وهذا أخذ طريف واحتيال فالمظنون أن أحمد إذا كان هذا من أصل مذهبه أن يكون ذاكراً له ، وأنه اطلع على علة فى الحديث توجب طرحه .

ويذكر فى هذا المقام حديث ركانة ، فى بعض الروايات أنه طلق امرأته ثلاثا فى مجلس واحد فأمره الرسول عليه الصلاة والسلام بمراجعتها . وفى بعض الروايات أنه طلق امرأته مرة واحدة بلفظ (البتة) . والرواية الأولى تشهد لابن تيمية وابن القيم ، والرواية الثانية لا تؤيدهما . ويؤيد أبو داود الخبر الثانى ويرجحه لأنه مروى عن سلسلة من أهل ركانة ، وهم به أعلم ، وفى السلسلة الشافعى رضى الله عنه ، وهو من أهل بيت ركانة . فأما الخبر الأول فقد رواه ابن جريج ويقول أبو داود عن الخبر الثانى : « وهذا أصح من حديث ابن جريج أن ركانة طلق امرأته ثلاثا ؛ لأنهم أهل بيته وهم أعلم به ، وحديث ابن جريج رواه عن بعض بنى أبى رافع عن عكرمة عن ابن عباس » . وقد روى الخبر الثانى الذى فيه (البتة) الشافعى فى الأم ٦٩/٧ ، وبعد هذا يقول ابن تيمية عن الخبر الثانى : إنه رواه قوم مجهولون وضعفه فلان وفلان .

---

(١) انظر ص ب ٢٢٧ طبع الهند .

وقد كنت لا أحب أن أطيل الحديث فى هذا الموضوع الذى أثير فى عهد مضى لولا أن المؤلف عرض له وأورده فى معرض يقنع القارىء أن ماجرى عليه المسلمون فى دهرهم الطويل من وقوع الثلاث كان مخالفاً للسنة ، وأن عمر ومن لف لفه من جمهور المسلمين اتبعوا المصلحة العامة من تلقاء أنفسهم ، ونبذوا ما تعارفه المسلمون من قبل .

(ح) وأورد المؤلف ص ٤٣ مسألة التقاط ضوال الإبل . ومحصلها أن النبى ﷺ نهى عن التقاطها حتى إذا جاء عثمان أمر بتعريفها بعد التقاطها وكان عمر يجعلها مؤلة تتناتج لا يمسكها أحد كما فى الموطأ ، وحمل النهى عن الالتقاط على الالتقاط للتملك كما حمله بعض الفقهاء . وليس فى هذا أخذ بالمصالح المرسلة . بل هو فهم النص وتأول له . وفى الموطأ أن ثابت بن الضحاك التقط بعيراً فى زمن عمر فأمره بتعريفه ولم ينكر عليه الالتقاط وللفقهاء بحث فى الحديث . وأنظر الزرقانى على الموطأ ٣ / ٢٢٤ وما بعدها .

(د) وأورد فى ص ٤٧ مسألة المسروق إذا بيع . فقد كتب معاوية إلى بعض عماله أن من سرق منه متاع فهو أحق حيث وجده ، وقد عارض هذا أسيد بن حضير وذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم قضى فيه بغير ذلك ، فأصر معاوية على رأيه . وهذا الخبر رواه المؤلف عن النسائى (ج ٢ / ٢٣١ طبع الهند) ، وروى النسائى فى هذا المقام حديثا عن سمرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : الرجل أحق بعين ماله إذا وجده ، ويتبع البائع من باعه . والظن بمعاوية رضى الله عنه أن يكون قد بلغه هذا الخبر فأخذ به ولم يبلغه خبر أسيد . وكان من الخير ألا يقدم المؤلف لهذا بما يشعر القارىء بالقدح فى معاوية وأنه خرج عن سنن السلف الصالح ، وقد كان من جلة الصحابة وكتاب الوحى ، وله اليد فى توسيع الفتوح فى الإسلام .

(هـ) وأورد فى ص ١٣٤ مسألة حرمان عمر المؤلفة قلوبهم نصيبهم من الزكاة ، وأنه خالف بذلك القرآن ، وعمر تأول آية الصدقات على معنى أن يكون الصرف فى الأصناف الثمانية ولا يجب استيعابهم . وبهذا أخذ بعض الفقهاء .

٧ — فى ص ٣٨ فى الكلام على امتناع عمر من قسمة السواد ذكر أن عمر استند إلى آية الفىء فى الحشر ، وذكر المؤلف فى الحاشية أن المراد بالفىء هنا الغنيمة . وهذا يعكس

القضية ؛ فإن المعارضين للقسمة كانوا يحتجون بآية الأنفال فى الغنائم وفيها التقسيم ، وعمر صرف السواد عن الغنيمة إلى الفىء الذى لا يعطى أربعة أخماسه المقاتلة كما يكون الأمر فى الغنيمة . والفىء ما حصل عليه المسلمون من الخير من غير إيجاف خيل ولا ركاب ، والغنيمة بخلاف ذلك . وفى أموال أبى عبيد ٦٠ فى الحديث عن سفيان بن سعيد أنه كان يقول : « الخيار فى أرض العنوة إلى الإمام : إن شاء جعلها غنيمة ، فخمس وقسم . وإن شاء جعلها فيئاً عاماً للمسلمين ولم يخمس ولم يقسم » .

٨ — ورد فى ص ٤١ تفسير القرء وأن ابن مسعود يفسره بالطهر وزيد بن ثابت بالحيض . والأمر بالعكس

٩ — فى ص ٧٢ يذكر من كتب أبى يوسف اختلاف أبى حنيفة وابن أبى ليلى ، وهذا الكتاب نشر مع الأم للشافعى على أنه من كتب الشافعى ، وفيه تعقيب الشافعى على آراء الفقيهين ، ويعتمد الشافعى على أبى يوسف فى نقل آرائهما . والمفهوم أن الشافعى نقل ذلك من كتاب اختلاف الأمصار لأبى يوسف الذى ذكره صاحب الفهرست فى كتب أبى يوسف . وقد تبع المؤلف فى هذا الشيخ الخضرى رحمه الله .

١٠ — فى ص ١١٣ يذكر عن ابن حزم أن الزوج المعسر تجب نفقته على زوجته الغنية ، وأن هذا لا يخالف روح الشريعة . وكيف هذا مع قوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » .

١١ — فى ص ٩٩ يذكر عن الشيعة أنهم يرون أن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحاً للقادر عليه ؛ كما أنهم يرفضون القياس ما دام عندهم أئمتهم الذين لديهم علم الأحكام الشرعية بطريق الوصية . وكيف يكون الاجتهاد دون قياس ؟ ! وفى الخضرى ٢٧٦ أن الأحكام عند الإمامية لا تنال بالاجتهاد والرأى ، وإنما تنال من قبل الإمام المعصوم .

١٢ — فى ص ٧٥ فى نسب الإمام الشافعى يذكر عبد المطلب ، وإنما هو المطلب ، فالشافعى مطلبى لا هاشمى .

والكتاب بعد هذا يستحق كل إجلال وعناية ، ويستحق المؤلف كل حمد وثناء ؟

محمد على النجار

الأخلاق عند بنتام

(١) اتجهت فلسفة بيكون Bacon بالتفكير الانجليزى نحو الوقائع المحسة ، فتبعه هوبز Hobbes بمذهبه المادى ولوك Locke بنظريته الإحساسية وهيوم بشكه وبنتام بنفعيته ، فكانت كلها جوانب من فلسفة وضعت لتحس الحياة العملية .

ويعد بنتام الممثل الأول لمذهب اللذة فى العصور الحديثة ، فهو بالرغم من أنه يعد المؤسس لمذهب المنفعة إلا أنه لم يضع كلمة Utilitarianism بل تكلم عن Universalistic Hedonism أى مذهب اللذة العامة . قال جون ستيوارت ميل فى رسالته (مذهب المنفعة) إن جميع القائلين بمذهب المنفعة من أبيقور إلى بنتام لم يريدوا بالمنفعة شيئاً يخالف اللذة بل أرادوا اللذة نفسها والخلو من الألم ، ولم يقولوا ، إن الشيء النافع يضاد اللذيذ أو ما هو من قبيل الحلية والزينة بل قالوا إنه يشملهما ويشمل غيرهما ، ثم تطرق إلى تعريف مذهب المنفعة فقال ، إنه المذهب الذى يتخذ أساس الأخلاق المنفعة أو السعادة الكبرى فهو مذهب يرى أن الأعمال خير بقدر ما تجلب سعادة أكبر وشر بقدر ما تجلب العكس . والمراد بالسعادة هو اللذة والبعد عن الألم » .

نستنتج من هذا أن النظرية القائلة ، بأن الأعمال ليست لها قيمة ذاتية ، وإنما قيمتها بقدر ما تحصل من السعادة ، تسمى نظرية المنفعة ، فخيرية الفعل وشريته إنما تكون على أساس قربه من المنفعة أو بعده عنها . فالعلامة بنتام يرى أن الأنانية هى مبدأ يصدر منه الإنسان عن أفعاله ، وهو بهذا يقترب من هوبز . ولكن هل يظل الفرد أنانياً بعيداً عن المجتمع ولا يرى إلا صالحه الشخصى دون صالح الجميع ؟ يلخص بنتام رأيه فى ذلك قائلا إن المقصود هو ، أكبر سعادة لأكبر عدد ، وهكذا أصبحت أخلاق الأنانية أخلاقا سامية على يديه .

وضع بنتام نظريته هذه ثم حاول أن يقربها من المجال العملى فأحصى الخيرات والشرور معتمداً بذلك على قاعدة أسماها ، الحساب الأخلاقى ، وهى قاعدة يناقش كل فرد على أساسها أفعاله ، فيأخذ بالصالح منها ويترك الفاسد . فقبل أن يبدأ الفرد فى عمل ما يجب أن يسأل

نفسه عن نتائج هذا العمل ، فإذا كانت النتيجة تحقق منفعة فهى حسنة والعكس صحيح ولما كان العمل لا يعد حسناً من كل الوجوه ولا يعد سيئاً من كل الوجوه أيضاً ، فإن من المحتم أن يجمع الفرد النتائج الحسنة والنتائج السيئة ، ثم يطرح الكميتين بعضهما من بعض وينظر فى باقى الطرح فإذا كان حسناً كانت نتائج العمل حسنة ، وبذلك يقبل على هذا العمل بلا تردد ، أما إن كانت النتائج سيئة فيجب عليه أن يبتعد عن هذا العمل . ثم إن هناك شرطاً هاماً فى تلك العملية هى ان تراعى مصلحة المجموع ، أى الاسترشاد بمبدأ المنفعة والسير على هداه فمن يفعل ذلك يصل حتما إلى تحقيق منفعته الشخصية ومنفعة عائلته ومنفعة وطنه بل منفعة الإنسانية جمعاء .

فالسؤال الذى يجب أن يوضع دائما أمام الضمير هو : هل هذا العمل يحقق خيراً أو شراً للعائلة ؟ وإذا كان كذلك فما هو الذى يحققه للوطن ثم للإنسانية ؟ وهذا الحساب الذى يضعه الفرد نصب عينيه ويسير على مقتضاه عندما يشرع فى عمل من الأعمال أعطى لنظرية بنتام أهمية كبرى من الناحيتين القانونية والتشريعية ، فالقانون يمجد العمل الصالح ويعاقب على ما يضر المجتمع . ويخيل إلينا أنه توصل إلى فكرة المنفعة فى الأخلاق عندما اكتشف أن المنفعة العامة هى الموضوع الحقيقى الهام لكل تشريع قانونى ، ويقول فى ذلك « إن فكرة مبدأ المنفعة هى تيسير الوصول إلى السعادة عن طريق العقل والقانون » .

ويضع بنتام أصلا من أصول التشريع وهو العمل على إدخال الفضيلة ضمن فعل الضمير بدلا من فرضها بالقوة ، ووجوب أن يكون النهى والعتاب على الشىء الذى يضر بمصلحة المجموع لا على الشىء الضار فى ذاته .

ويرى بنتام أن الفعل السيء يجب أن يحكم عليه بأحكام مختلفة بالنسبة إلى من ارتكبه . فيجب مراعاة ما إذا كان مرتكب الفعل مالكا لكل قواه العقلية ، شاعرا بكل ما حوله أم لا ؟ وما إذا كانت عنده نية إصرار على ارتكاب هذا الفعل أم أن ارتكابه كان من قبيل الصدفة ؟ وإذا كانت النية متوفرة فما هو مبلغ قوتها ؟ لا بد من مراعاة هذه الاعتبارات ووضعها فى الحساب ، فلا يصح أن يعاقب رجلان أحدهما قوى العقل والآخر مخبول ، حين ارتكابهما لذنب واحد ، بعقاب واحد .

وهذه النظرية صحيحة من الوجهة العملية وإن لم ترتكز على أساس فلسفى متين من

الوجهة الأخلاقية ، وترجع صحتها - عمليا - إلى الأساس الذى يتخذه كل فرد فى سلوكه ويسير على مقتضاه وهو « أعظم قسط من السعادة لأكبر عدد ممكن من الناس » ، فإن من يتخذ هذا الشعار الجميل أسلوبا له فى الحياة . لا يمكن إلا أن يكون خيرا ، إذ هو سيتحرى الدقة فى بحثه واستقصائه عن آثار الفعل الذى سيفعله ، فإن أخطأ فى التقدير فإن ذلك سيكون من باب الخطأ غير المقصود الذى لا يعاقب عليه .

٢ - ولا شك فى عظمة مبدأ بنتام « أكبر قسط فى من السعادة لأكبر عدد ممكن من الناس » ولكن على أى أساس يعتمد هذا المبدأ حتى يكون شعارا للأخلاق ؟ أيعتمد على الواجب أم يعتمد على الانانية ؟ .

بالغ بعض المفكرين حين قالوا إن مذهب بنتام يتضمن - من ناحية التطبيق - أن كل فرد يفعل واجبه بحيث لا يتعارض مع الآخرين ، وحين رأوا أن هذا المذهب ينتهى بالتوافق مع مذهب الواجب .

فمذهب بنتام يعتمد على الأنانية ، إلا أنه حور نظرية المنفعة الشخصية وجعلها تنتهى بنظرية المنفعة العامة . مع انتفاء العلاقة المنطقية بين القول بمبدأ السلوك وفق المنفعة أى « اسلك واعمل لمنفعتك » وبين قول « اعمل وفق الواجب لمنفعة الجميع » . وكل ما هنالك هو تلاعب لفظى ، فنحن لانعرف كيف ولماذا تبدأ بالمنفعة الشخصية وتنتهى بالمنفعة العامة . ألا نستطيع القول - تبعاً لهذا - أن بنتام قد غير طريقه بلا شعور ، وأن من أخلص لمذهب هوبز واستقى منه أساس مذهبه يكون متناقضاً مع نفسه حين يهتم بالمنفعة العامة ، فهذه لا تتفق والانانية ، زد على ذلك أنها أقل وضوحا من المنفعة الخاصة .

ومن الطريف أن نذكر نقد سبنسر لهذه النظرية ، هذا النقد الذى وضعه فى حوار صغير بين بنتامى وأخلاقى وهو :

الأخلاقى : أتعتقد أن مبدأكم « أعظم قسط من السعادة لأكبر عدد من الناس » مبدأ حسن ؟

البنتامى : نعم .

الأخلاقى : إذا رأى تسعة وتسعون شخصاً خيرهم فى عمل معين ، ورأى مائة شخص شرهم فى ذلك العمل . ألا يكون هذا العمل شراً حسب مذهبكم ؟

البنتامى : يقينا .

الأخلاق : وسبب هذا هو زيادة شخص فى المجموعة الثانية عنه فى الأولى .
البنتامى : قطعا :
الأخلاق : أنتم إذن تفرضون المساواة بين الأشخاص بدليل ترجيحكم الكفة الثانية ؟
البنتامى : نعم .
الأخلاق : وكيف عرفتم ذلك والناس مختلفون أشـــد الاختلاف فى ثرواتهم وقوامم

وذكائهم وشجاعتهم ... الخ .
البنتامى : ولكنى متأكد من تلك المساواة وأشعر بها .
الأخلاق : إنى لا أطلب زيادة عن ذلك . إنكم قررتم كبدأ مساواة قيم الأشخاص وأنتم

بذلك تلاميذ مخلصون لكانت Kant ، وتدهشنى رقة تعاليكم وسموها فى حين
أنكم فيما تعتقدونه نافماً تخلصون لهوبز ، فكفوا إذن عن هذا الضلال .

سعيد زايد



ولاة الاسلام معلمون

خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى موسم الحج فقال :

« إنى والله ما أبعث إليكم عمالى ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكنى أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم ، وسنة نبيكم ، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلى ، فوالذى نفسى بيده لأقصنه منه » .

أحمد بن حنبل

١٦٤ — ٢٤١

نشأته — صفاته — منزلته

لقد كتب كثير من الكاتبين فى هذا الإمام العظيم فأكثروا . وجدير بمثل هذا الإمام أن يكثر الكاتبون فيه ، وأن يكتبوا بإسهاب . وجدير بمثله أن يقرأ القارئون عنه ، وأن يقرأوا باستيعاب . لكثرة نواحيه الطيبة وما خلف من ذكريات خصبة . وآساً حسنة كريمة .

وأما أنا فلا أعد وسبيلى هذه الكتابة عن هؤلاء الأعلام من لمس مواضع العبرة استثير بها ما فى نفوس كريمة من اعتبار وعظة ، وفى ذلك العون على الخير والرشاد المنشود على أن ثم مناسبة خاصة تحسن لها الكتابة عن هذا الإمام العظيم فقد كتبت بالعدد قبل هذا من مجلة الأزهر الغراء فى إمام مثله يشبهه فى عظيم القدر ، كان من الربانيين فى العلم ، الموصوفين بالحفظ ، المذكورين بالزهد ، وكان الناس يحبونه ويحفون به . ويقدمونه على الملوك كما قلت عنه .

وهذه الصفات فى الإمام أحمد بصورة أقوى وأظهر . على أن ما منحه الله ابن المبارك من سخاء فياض شكر الله على نعمة الثراء ، عوض الله عنه هذا الفقير الزاهد صبراً على الشدة واللأواء . فى ساعة يفجر فيها التقى ، ويفضل فيها المؤمن القوى . وقد أيد قتيبة هذا الشبه القوى بين الإمامين فى قوله خير زماننا ابن المبارك ثم هذا الشاب يريد الإمام أحمد . ذلك ابن حنبل عاصر ابن المبارك فى بعض الزمن فابن المبارك عباسى ولد سنة ١١٨ وتوفى سنة ١٨١ هـ وأحمد عباسى ولد سنة ١٦٤ وتوفى سنة ٢٤١ هـ .

الإمام أحمد بن حنبل من سلالة عربية ، والده محمد بن حنبل بن هلال بن أسد ينتهى إلى بنى مازن بن ذهل بن شيبان ، ومن الناس من يقول شيبان بن ذهل وهو خلاف لا يعنينا كثيراً وإنما يعنينا أنه عربى نزارى .

وقد قدمت به أمه بغداد وهي حامل به فولدته سنة ١٦٤ . ونشأ ببغداد يتيما فقد فارقه والده طفلا . ولكن عين الله رعته وتولته فصار يطلب العلم ، والحديث من شيوخ بغداد . ويترحل بين الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والجزيرة فيكتب عن علماء ذلك العصر . ولعل القارىء الكريم يعلم ما كان من إقبال على العلم في عهود أحمد التي تبتدىء في طلب العلم من عهد الرشيد وتنتهي بعصر المتوكل .

نشأ أحمد يطلب العلم في ذلك العهد الذهبي للعلوم الإسلامية وهو حافظ ذكي ومهذب موفور . وقد آثر بجهده وكده دراسة السنة النبوية فسمع من أعلامها أمثال حماد بن خالد الخياط [١] ومنصور بن سلمة الخزاعي [٢] والمظفر بن مدرك الخراساني [٣] وعثمان بن عمر ابن فارس [٤] وهاشم الكناني [٥] ومحمد بن إدريس الشافعي الإمام المعروف وغيرهم من أئمة الحديث والفقه ذكر منهم البغدادي ثلاثة وثلاثين شيخا ثم قال وخلق سوى هؤلاء يطول ذكرهم ويشق إحصاؤهم . ثم ذكر من حدث عن أحمد فذكر جماعة منهم بعض شيوخ الإمام ومنهم غيرهم كالبخاري ومسلم وأبي داود والبغوي . وقد بلغ الإمام من منازل الرضا في نفوس الناس على اختلاف صنوفهم وفرقهم ونحلها (عدا المعتزلة منذ عهد المأمون) منزلة ليس فوقها إلا منزلة الأنبياء حتى زعم بعضهم انه كان لايعد من البشر وإنما يعد من الملائكة .

وشهد أهل العلم من المنافسين أنفسهم للإمام وأخذ عنه بعض شيوخه كما ذكرت لك . فحا أثر من شهادة الرجال له ما نقله البغدادي والذهبي وغيرهم وإليك طرفا من ذلك .

---

(١) من تلاميذ الامام مالك . كان محدثا جليلا وإماما في السنة .

(٢) من تلاميذ مالك أيضا كان من أبصر الناس بالايام وبالرجال سنة ٢٠٩ .

(٣) من أئمة الحديث المؤلفين بخراسان سنة ٢٠٧ .

(٤) من محدثي البصرة قدم بغداد فحدث بها عن مالك أيضا . وكان أحمد اذا حدث عنه يقول رجل صالح ثقة .

(٥) من أئمة الحديث ببغداد . كان احمد يعجب به وأهل بغداد أو يفخرون بعلمه ودينه سنة ٢٠٧

قال إبراهيم الحربى [1] سعيد بن المسيب فى زمانه وسفيان الثورى فى زمانه وأحمد ابن حنبل فى زمانه . ونقلت عن قتيبة أقوال كثيرة فى الإمام . قوله لولا الثورى لمات الورع ولولا ابن حنبل لأحدثوا فى الدين . وقوله : إذا رأيت الرجل يحب أحمد فاعلم أنه صاحب سنة . وقوله خير زماننا ابن المبارك ثم هذا الشاب . وقوله أحمد ابن حنبل إمام الدنيا ولو أنه أدرك عصر الثورى والأوزاعى ومالك والليث لكان هو المقدم . وقال الطرخاباذى : أحمد بن حنبل محنة يعرف به المسلم من الزنديق . وأنشد فيه ابن عين :

أضحى ابن حنبل محنة مأمونه ... وبحب أحمد يعرف المتنسك
وإذا رأيت لأحمد متنقصاً ... فاعلم بأن ستوره ستهتك

وكان الهيثم بن جميل يقول : إن عاش هذا الفتى سيكون حجة على أهل زمانه . وقالوا إنه حرز من صلى على جنازته فكانوا ثمانمائة ألف من الرجال وستين ألف امرأة .

وزعموا أنه أسلم يوم موته عشرون ألفا من اليهود والنصارى وأن هذه الأصناف شاركت المسلمين فى النوح عليه وهذا شىء قد لا يخلو من المبالغة ولكنه يلقى ضوءاً على هذا الإمام وما كان له من كثرة المريدين والاتباع ، وأن العقيدة فيه بلغت مبلغاً عظيما . وقد عرف فى التاريخ ما كان للحنابلة بعد ذلك من خطر وقوة وكثرة أتباع فى بغداد مما يؤيد منزلة الإمام فى ذاتها . ويدل على طهر سيرته وقدسية محياه ومماته . وحسبك من رجل لم يتزوج إلا بعد الأربعين إنقطاعا للعلم وإقبالا على العبادة . وحسبك ما اشهر من شهادة الإمام الشافعى له . وأخذه عنه فى كتاب الأم ما يذكره بقوله (أخبرنا الثقة) . وأنه قال خرجت من بغداد فما خلفت بها رجلا أفضل ولا أعلم ولا أتقى من أحمد . وأنه (الشافعى) قال : رأيت ببغداد شابا إذا قال حدثنا قال الناس كلهم صدق .

فلعل فى أمثال هذه الشهادات الثابتة عن الإمام وغيره ما يلقى ضوءا على منزلة أحمد وما أمده الله سبحانه به من توفيق ونجح . على أن للذهبى نقولا أخرى قد ينظر إليها بعض الناظرين بمنظار من التحفظ لولا أنه إمام عظيم موثق ولولا أن سيرة الإمام العامة تصدق

---

(١) كان إماما فى العلم ورأسا فى الزهد عارفا بالفقه والاحكام انفق على الحديث اموالا طائلة وكان يقال لم يخرج من بغداد مثله سنة ١٨٥ .

جملة هذه الأخبار . فهو ينقل أن الإمام كان مورداً عذبا للناس على اختلافهم ينتجعون ساحته للدعاء والتبرك ، استوى فى ذلك المسلم والمسيحى .

وأنه كان — مع هذا كله — يؤثر العزلة عن الناس جميعاً ويبالغ فى إخفاء نفسه ولا سيما عن الحكام والملوك ، ويؤثر عنه فى ذلك كتابه إلى بعض العلماء :

« أما بعد فإن الدنيا داء . والسلطان داء . والعالم طبيب . فإذا رأيت الطبيب يجر الداء إلى نفسه فاحذره والسلام عليك » .

وأنه كان يقول : لو وجدت السبيل لخرجت حتى لا يكون لى ذكر . أريد أن أكون فى بعض الشعاب فى مكة حتى لا أعرف قد بليت بالشهرة حتى أنى لأتمنى الموت صباحا ومساء ، ويظهر أنه ترك الحديث فى آخر حياته ليقاوم الشهرة ، وليدفع بعض هذه المنزلة . كما يدل على ذلك ما نقل عنه : ما جاءنى الفرج إلا منذ حلفت أنى لا أحدث وليتنا نترك .

وبعد فيظهر من كل ذلك ومن سائر أخبار هذا الإمام العظيم إن الله سبحانه كتب له من التوفيق والسعادة برضا الله والناس حظا قل أن يتفق لأحد سواه . ذلك أنه كان خيراً محضاً ونصحا لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم وزهداً وإعراضاً عن الدنيا وما فيها من مال وجاه وسمعة . وحسبك أنه اتخذ الرسول إمامه فى كل شىء وأنه أخذ نفسه أن يعمل بكل حديث عرفه : حتى كان يقوم الليل دهره ويصلى بالليل كذا وكذا ركعة . وتأتيه الأموال من كل جانب فلا يقبل منها شيئاً . ويؤثر على ذلك أن ينسج التكك ويبيعها . وبلغ من متابعته للنبى ﷺ أنه قال : مر بى أن رسول الله ﷺ احتجم وأعطى أباطيبة ديناراً فأعطيت الحجام ديناراً حين احتجمت . ثم إنه محن فى آخر حياته محنة زادت منزلته قبولا ورضا عند الله وعند الناس ، حتى كانت الآلاف المؤلفة تحف به فى محنه مما أخاف منه الظلمة أن يحدثوا به ما أحدثوا بغيره من قتل : وحديث المحنة طويل نفرد له مقالا آخر مع بيان طريق الإمام ومسلكه فى أصول الدين وفروعه إن شاء الله وبالله التوفيق .

محمود النواوى

تاريخ الكتابة

افتتح فى مصر بالهيروغليفية وينتهى إليها بالعربية ! !

لقد تقدم العالم فى الحقبة التى نحن فيها تقدماً عظيما ، حتى أننا لنقول ، لو أن أجدادنا بعثوا وشاهدوا ما نحن فيه اليوم ، من هذه الأمور الميسرة لنا لدهشوا . فنحن اليوم ، نستطيع أن نسمع المتكلم فى أى بقعة من بقاع الأرض ، مهما بعدت عنا ، وفى نفس اللحظة التى يتكلم فيها ، ونستطيع أن نشاهد المتكلم أو الخطيب ، ولكن على أبعاد محددة ، وسوف لا يمضى وقت طويل ، حتى يتيسر لكل منزل ، وضع آلة ، يستطع صاحبه إذا حركها ، أن يرى الذى يقرع بابه بإشعاع خاص ، وأن ترى ربة المنزل مطبخها وطفلها ، وهى جالسة مع زوارها فى غرفة الاستقبال . وأما التنقلات السريعة فحسبنا أننا صرنا نسابق الصوت ! !

هذه خطوات بل وثبات مدهشة ، فى تقدم العلوم والفنون ، ومع ذلك فأننى أرى أن أجدادنا بدورهم قد خدموا الإنسانية والعلم ، خدمات تشكر لكم ، بل إن خدماتهم تلك ، هى التى كانت من أسباب تقدم العالم وحفظ تراثه . وأود هنا ، أن أذكر خدمة من تلك الخدمات ، ولتكن الكتابة ، فإن الكتابة التى جعلتنى أستطيع أن أخاطبك بها أيها القارىء الكريم ، وأستطيع أن أتابع بقراءتها تاريخ العالم وحوادثه ومعرفة ما يستجد فيه كل يوم ، بل كل ساعة ووقت ، وليست هذه الخدمة بالشيء اليسير ، بل إننا نعتبرها من أعظم المنن التى تيسر لأجدادنا تقديمها إلينا .

ويكاد يجمع المؤرخون للعلوم والفنون ، على أن أول من كتب أو وضع حروف الكتابة ، هم المصريون ، ولكن كتابتهم كانت تصويرية ، وكانت أدواتها وحروفها من الكثرة بحيث يتعذر على الإنسان حصرها واستخدامها ، وهذا ما جعل الفينيقيين يبرزون إلى الميدان بحروفهم الصوتية التى حصروها فى ٢٢ صوتا ورسموا لها مثلها من الحروف .

قال الأستاذ نوفل بن نعمة الله نوفل الطرابلسي فى كتابه « زبدة الصحائف فى سياحة المعارف » المطبوع فى بيروت سنة ١٨٧٩ فى الصحيفتين ٣٩ و ٤٠ : —

« وزاد مجد الفينقيين أيضاً ، باختراع حروف الهجاء ، عند ما كان المصريون يصورون صورة الأشياء ، أى يصطنعون لها علامات ، فاستنبطوا الطريق الأسهل الدارجة ، وجعلوا علامة لكل صوت أصلى ، تسمى حروفا . وحروفهم هذه صارت منشأ للحروف الافرنجية فإن اليونانيين أخذوا حروفهم منها ، ومن حروف اليونانيين استخرج اللاتينيون حروفهم التى هى حروف أهل أوربا الآن . وإنه ليوجد خلاف كلى بين المؤلفين على ذلك فبعضهم ينسبه إلى ممنون المصرى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وفى تاريخ الصين ، أن فوهى مؤسس مملكتهم سنة ٢٦٥٠ قبل الميلاد ، علم الأهالى الكتابة . ولعل تلك الكتابة ، هى الهيروغليفية عند المصريين ، وما ماثلها عند الصينيين ، غير أن المعلم اسحق نيتون قال إن الكتابة الأبجدية ، هى من اختراع الآدوميين ، وأكد غيره بأنها من اختراع الفينيقيين، وقال بعض المؤرخين إن قدموس الصورى ، الذى بنى مدينة طيوه فى بلاد اليونان سنة ١٥٥٠ ق . م ، هو الذى علمهم الكتابة بهذه الحروف ، وقال آخرون إن دخول الكتابة إلى بلاد اليونان كان فى ٧٥٤ ق . م ، وأما استعمالها فى مصر فقد كان فى سنة ٦٦٠ ق . م » .

وقال الأستاذ أحمد نجيب مفتش وأمين عموم الآثار المصرية ، فى كتابه « الأثر الجليل لقدماء وادى النيل » المطبوع فى المطبعة الأميرية سنة ١٣١١ هـ .

« وقد اتفق متأخرو الإفرنج ، على أن المصريين ، هم أول من خط بالقلم ، حيث كانت جميع الأمم غارقة فى بحر الجهالة ، هائمة فى أودية الخشونة ، ولم يكن لسوريا ولا لغيرها من البلاد إسم يذكر ، ولا خبر يؤثر ، وبقى القلم محصوراً فى مصر ، مستعملا بين الكهنة ، إلى آخر العائلة الرابعة عشرة ، أى إلى زمن إبراهيم عليه السلام ، وقد قالت الكهنة إنهم تعلموه من هرمس ، أى إدريس عليه السلام ، وهو مطابق للحديث الشريف (الذى نقله حضرته عن كتاب العقد الفريد ، وهو أن إدريس أول من خط بالقلم بعد آدم) . وبقى المصريون منفردين بمعرفته مدة ألف وثمانمائة سنة ، أعنى إلى مدة إغارة الرعاة عليها ، وكانوا أخلاطاً من همج الناس ، فتعلموا الكتابة ، واختارت طائفة منهم الأحرف الأبجدية ،

فأخذوها من القلم الدارج المصرى ، وتركوا جميع صور المقاطع الصوتية لصعوبتها فى الرسم ولما أجلاهم المصريون عن بلادهم ، سكنوا بلاد فينيقيا فعلموها لمن كان فيها قبلهم ، بعد ما نقحوها على حسب ما تقتضيه لغتهم .

والدليل على ذلك ، شدة المشابهة بين القلم الدارج المصرى ، والقلم الفينيقى أو السورى القديم . واشتق منها الخط التدمرى ثم العبرى ، ولما كان السوريون أو الصيداويون أصحاب تجارة واسعة ، احتاجوا لاستخدام عمال من كل جنس ، فعلموها لعمالهم ، ونشروها فى جميع الآفاق ، ونقحتها كل أمة حسب ما تتطلبه لغتها ، فانتشرت فى بلاد الهند والمغول وفرنسا وأسبانيا . وهذا هو المعتمد ، لعدم وجود خط قديم فى غير مصر قبل دخول العمالقة إليها .

ومما لا شك فيه ، أن الاستاذ أحمد نجيب ، يشكر على اعتداده بمصر وأثرها ، وفضل كتابتها على العالم كله ، ولكن المجمع عليه هو أن الفينيقيين ، هم الذين تعلموا من مصر ، ونقلوا علمهم إلى أطراف العالم ، ولقد نفعتهم تلك الكتابة فى تجارتهم الواسعة ، وتنقلاتهم العظيمة ، حتى لقد قال عنهم السفيور جويدى ، أول أستاذ للجامعة المصرية عند ما كانت شعبية فى (أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب) قال عنهم : —

« ولما منعتهم الجبال من توسيع مملكتهم فى البر ، ركبوا البحر ، وتعاطوا التجارة ، وانتشروا فى الجزائر والبلاد القريبة والبعيدة ، وكانوا فى القديم ، مثل الانجليز فى أيامنا هذه ، وكانت لغتهم تشبه لغة اليهود والعرب » . إلى أن قال : « ومن هذه الأحرف الفينيقية القديمة ، اشتقت أحرف اليونان والرومان وسائر أمم أوربا . فأصل الحروف كلها من الأحرف الفينيقية . واتخذ من هذه الأحرف العبرانيون المتأخرون ، وألفوا منها القلم المستعمل إلى الآن فى كتب اليهود ، ومنه كذلك قلم النبط وقلم العرب القديم » .

وأما الكتابة العربية ، فقد قال الإمام طاشكبرى فى بيان أول اللغات ، وبيان أول من وضع الخط العربى ، قال السهيلى فى التعريف والاعلام ، والأوضح ما رويناه من طريق أبى عمرو بن عبد البر ، يرفعه إلى النبى ﷺ قال « أول من كتب بالعربية إسماعيل عليه السلام » . وقيل لابن عباس أين تعلمتم الهجاء والكتاب والشكل ؟ قال علمناه حرب بن أمية وكان قد تعلم من أهل الحيرة ونقله إلى قومه .

وأول من كتب بالعربية اليمانيون قوم هود عليه السلام ، وكان خطهم يسمى الخط المسند . وكانوا يكتبون حروفهم منفصلة ، وكانوا يضنون على الناس بتعليمهم ذلك الخط الحيرى ، حتى إذا ماتعلمه ثلاثة من قبيلة طيء وغيروا فيه ثم علموه لأهل الانبار وسمى ذلك الخط بالجزم . عند ذلك انتشر الخط الجزم بأن أخذه عنهم أهل الحيرة . وأخذ حرب بن أمية خطهم لما زار الحيرة ونقله إلى الحجاز فعلمه لأهلها كما ذكره ابن عباس فيما تقدم .

وقال المؤرخون ، إن أهل الحجاز أخذوا الكتابة من الحيرة وأخذها أهل الحيرة من التبابعة والحيريين . وأكد ذلك فيلسوف التاريخ العربى ابن خلدون حيث قال .

« وكان الخط العربى بالغاً مبلغه من الاتقان والإحكام والجودة فى دولة التبابعة ، لما بلغت من الحضارة والترف ، وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة والمجددين لملك العرب بأرض العراق » .

ومعلوم أن النبى ﷺ استخدم كتابا لكتابة القرآن ، لما كان ينزل عليه الوحى ، ولكتابة رسائله إلى أمراء النواحى الذين دعاهم إلى الإسلام ، وحفظت بعض صور كتابات كتابه حتى اليوم والحمد لله .

ولقد جعل صلى الله عليه وسلم من جملة فداء الأسرى ، بعد غزوة بدر تعليم أطفال المسلمين الكتابة ، فكل أسير يعلم عشرة أطفال الكتابة يكون ذلك فداء له من أسره .

وبعد ذلك أنشأ سيدنا عمر بن الخطاب ديوان الخراج والجيش فى العراق والشام ، ولكن كتابه كانوا يكتبون بالفارسية إلى زمن عبد الملك ابن مروان وابنه الوليد عند ما كثر كتاب العربية وحسابهم ، وأول من نقل ديوان العراق إلى العربية هو صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج بن يوسف وكان بارعا بالعربية والفارسية .

ونقل ديوان الشام من الرومية إلى العربية سليمان بن سعد والى الأردن ، ووقف عليه كاتب عبد الملك ، ونقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية عبد الله بن عبد الملك بن مروان فى خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ ﻫ وعند ذلك صارت دواوين المسلمين كلها تكتب بالعربية .

وأول كتاب كتب بالعربية هو المصحف الشريف أو المصحف العثماني أو المصحف الإمام، وهو الذي كتب بإيعاز من الإمام عثمان وأرسل إلى عواصم الإسلام كلها توحيداً للقراءة والرواية، وكانت كتابته بالخط الجزم وقد سمي ذلك الخط بعد ذلك بالخط الكوفي بعد ما فتحت الكوفة. واستعمل ذلك الخط في عهد بني أمية ولكنه رقى بقدر ما وسعته حضارة بني أمية.

ومعلوم أن المصحف العثماني كتب من غير لفظ ولا شكل، حتى إذا ما جاء أبو الأسود الدؤلي في عهد معاوية وضع للمصحف علامات الإعراب ورقمها وجعل لها لوناً غير لون الكتابة، ثم تتابعت المحسنات الكتابية على اللغة العربية على أيدي الخليل بن أحمد.

وفي عهد العباسيين ظهرت محسنات الخط وظهر خط الثلث والثلثين والنصف، وفي عهد ابن مقلة ظهر الخط النسخ الذي تستعمله الكتب والصحف حتى اليوم. ولقد توفي ابن مقلة سنة ٣٢٨ وقال بعضهم إنه لم يخترع خط النسخ وإنما جوده رحمة الله.

وجاء بعد ابن مقلة أبو الحسن على بن هلال الكاتب المشهور فزاد الخط تحسينا وتجويداً وقد توفي سنة ٤٢٣ هـ.

ثم جاء بعد ابن هلال، عهد الترك، حيث قبضوا على زمام الخلافة الإسلامية، وكان لهم فضل تجويد الخط وطبع المصاحف المتقنة، وهي لا تزال تنطق بفضلهم حتى اليوم، ولكن مصر، تولت بعد زوال خلافة آل عثمان، زمام الزعامة العربية والإسلامية، وتولت طبع المصاحف المتقنة فصارت هي موضع الثقة في العالم الإسلامي والعربي، حتى أن الحجاز لما طبعت مصحفها في سنة ١٣٦٩ هـ وسمته، مصحف مكة المكرمة، لم تشأ أن تخرجه، إلا بعد أن ختمته بقولها: إن الشيخ على محمد الضباع شيخ القراء والمقارىء أشرف على تصحيحه وختمه بختمه.

وفي مصر اليوم من الخطاطين من يشار إليهم بالبنان أمثال الأساتذة حسني وسيد إبراهيم. وهواويني. وعلى ذلك تكون الكتابة بدأت بمصر في العصور الخوالي وختمت بمصر في عصرنا هذا، وهو فضل من الله على كنانته؟

محب الدين رضا

تأويل الخوارق في القرآن

أذاعت محطة الإذاعة المصرية حديثا دينياً لأحد أصحاب الفضيلة العلماء فى الكلام على قول الله تعالى (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال الله لهم موتوا ثم أحياهم) الآية . ذهب فيه صاحب الحديث إلى أن موتهم وحياتهم مجازى يراد بهما الذل والحرية ، أو الاستعباد والاستقلال أو نحو هذا .

والذين قرأوا القرآن من حين نزوله إلى الآن يفهمون القصة على الحقيقة وهى الأصل وعلى من يعدل عنها إلى المجاز أن يأتى بالقرينة الصارفة عن الحقيقة إلى المجاز . فإذا كان مع الأستاذ المحدث قرينة غير الاستبعاد المتسرب عن مادية الغرب القائلة بأن العالم آلة ميكانيكية تسير بسنن طبيعية لا يمكن تخلفها ولا دخل لإرادة فاعل مختار فيها وصرح فيلسوفهم غوستاف لوبون فى كتابه (المعتقدات) بقوله « أننا لو آمنا بالخوارق والمعجزات لرجعنا إلى زمن الخرافات ، وإن تسلسل الأسباب والمسببات ينتج نفى فاعل مختار خلق العالم » إلى آخر هذا الهذيان . وغفل عما لا يخلو منه العالم من الخوارق ، والذين استحيوا من مكابرة إنكارها سموها شواذ الطبيعة ، والمؤمنون برب العالم زادتهم إيمانا بإرادته واختياره وحكمته .

ولست فى مقام البيان عن بهت المادية وإدحاضها فقد تولى ذلك أكابر عقلاء هذا القرن مثل جنز الانكليزى فى كتابه (الكون الغامض) . وإنما الذى يعنيني وأدعو الله مخلصاً أن ينقذ تفكيرنا ويطهره من أوضار الفلسفة المادية وفضلات الأفكار الدهرية ومخلفات القرن التاسع عشر فى محادة الدين والأنبياء ومعجزاتهم وما جاءت به كتب السماء واتفقت عليها الأديان السماوية .

لعل المحدث الفاضل عند ما يقرأ سورة البقرة التى تحدث عن قصة من قصصها يرى فيها عدة قصص تشير إلى إحياء الله تعالى للموتى رداً على المستبعدين لذلك :

(١) من ذلك قصة البقرة التي أمر بنو إسرائيل بذبحها وضرب قتيلهم ببعضها ليحيا فأحياه الله تعالى وسميت السورة سورة البقرة .

(٢) قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها فقال أنى يحيي هـذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه الخ .

(٣) ومنها طلب الخليل من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى فأمره الله بأخـذ أربعة من الطير وأن يقطعهن ويجعل على كل جبـل منهن جزءاً ثم يدعوهن ، ففعل فأتينه سعيا وعلم أن الله عزيز حكيم .

وقصة إحياء عيسى بن مريم الموتى يؤمن بها المؤمنون كما ذكر القرآن عنه ، بله عصا موسى التي تتحول من حين إلى آخر حية تسعى إلى غير ذلك مما جاءت به كتب الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم .

وأخيراً فإما إيمان بالله ورسله وكتبه وما جاء فيها من خوارق ومعجزات ، وذلك هو الكفر بمادية القرن التاسع عشر ودهريته وإلحاده وزندقته وسخافاته .

وإما تقليد أعمى لتلك المادية المظلمة الظالمة الفاجرة ، وذلك هو الخروج على دين الله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فليسلك العاقل أي النجدين شاء ، والسلام على من اتبع الهدى وصدق المرسلين .

محمد عبد الرزاق حمزة

من كلمات الصديق خليفة رسول الله

- العجز عن درك الإدراك إدراك .
- انظر ما تقول ، ومتى تقول .
- إن عليك من الله عيونا تراك .
- أهدم الكفر بعضه ببعض .

تكتيكات الاستطلاع فى سرية عبد الله بن جحش

تحدثت عن محمد رسول الله ﷺ قائد جيش الإسلام ، وسأتناول أول تجربة لهذا القائد العظيم فى مقدمات الحرب وسنرى أنه اجتازها على خير ما ينتظر من القائد العبقرى .

كانت هذه التجربة فى سرية عبد الله بن جحش فى السنة الثانية للهجرة ، ولم تكن هذه التجربة إلا عملا من أعمال الاستطلاع كما يسميه العسكريون . وهو يهدف إلى جمع كافة المعلومات عن العدو قبل قتاله ، فإن العدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون ، فى حمى من الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية فى الوقت الضرورى ، ويحول من ثم دون الانتصار عليه .

ولقد حدثنا التاريخ عن قادة فشلوا لأنهم أهملوا الاستطلاع ، أو لم يعنوا به ، وترتبت على ذلك خسائر فادحة فى الأرواح ، وخير دروس التاريخ التى يحدثنا بها فى هذا الباب درس واحد وقع فيه قائدان عظيمان هما نابليون وهتلر ، فكلاهما هجم بجيوشه على روسيا ثم أخفق . أخفق نابليون لأنه لم يستطلع أحوال روسيا جيداً فكان يعتقد أن القيصر سيطلب الصلح بعد أسابيع من هجومه عليه ، فأودى به الواقع إلى هزيمة منكرة ، وكذلك لأنه لم يعن باستطلاع حالة روسيا الجوية قبل الهجوم عليها ، فكان الشتاء القارس من أهم عوامل هزيمته . . كذلك أخفق هتلر . لأنه أخطأ فى استطلاع أخبار روسيا السياسية ، إذ كان يظن أن الشعب الروسى يتحفز للثورة ، ويترقب الإغارة عليه ليتخلص من حكامه .

ومحمد عليه الصلاة والسلام لم يتعلم من علوم الحرب وأنظمة الجيوش ما تعلمه نابليون وهتلر ، ولكنه لم يقع فيما وقعا فيه ، فكان عليما بمزايا الاستطلاع معنياً به غاية العناية ، فقد رأى أنه لابد مقاتل قريشاً فى يوم قريب ، وأراد أن يستطلع أحوالهم قبل أن يلتقى بهم فى أولى معارك الإسلام وهى غزوة بدر ، ولقد كانت أخبار التجارة والمال أهم ما يستطلع فى ذلك الحين ، فقد كان المال — ومازال — عماد القوة فى كل شىء ، وقد عرفه قادة الحروب الحديثة بأنه عصب الحرب ، إيمانا منهم بالدور الكبير الذى يقوم به فى بناء القوة العسكرية .

ولقد فطن الرسول ﷺ إلى ما فطن له العسكريون بعده بثلاثة عشر قرناً .

والاستطلاع كما ذكرنا محله قبل المعركة ، وقد قام به قائد جيش الإسلام على خير ما يكون الاستطلاع ، وطبقاً لأحدث النظم الحربية التي يدرسها العسكريون في العالم أجمع .

ففي شهر رجب من السنة الثانية للهجرة ، وقبل غزوة بدر بشهرين ، بعث الرسول عبد الله بن جحش ومعه جماعة من المهاجرين لاستطلاع أخبار قافلة قريش ، ودفع إليه كتاباً أمره ألا ينظر فيه إلا بعد أن يسير يومين ، وكان مضمونه : « سر حتى تأتي بطن نخلة على اسم الله وبركته ، ولا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك ، وامض فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم » .

ومعنى هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر قائده أن يأخذ هذه الرسالة ، وألا يفتحها إلا بعد أن يسير يومين ، ويأمره ألا يكره أحداً على الخروج معه ، وأن يصطحب من يرغب في ذلك ، حتى إذا بلغ بطن نخلة وقف يترصد قافلة قريش ليجمع المعلومات عنها من حيث عدد رجالها وجمالها وحمولتها .

وإذا نحن عرضنا ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم على مسرح البحث والتحليل ، لاحظنا أنه عليه الصلاة والسلام قد وضع عدة مبادىء هامة لا يزال يعمل بها في الحرب الحديثة ، وهذه المبادىء هي : —

أولا : كتمان الخبر ، والمحافظة على سريته :

وقد انتهج الرسول لذلك وسيلة بارعة ، وهي أمره لعبد الله بن جحش بألا يفض الرسالة وينظر فيها إلا بعد أن يسير يومين ، أي حين يكون قد بعد عن المدينة وعن أهلها ، ليضمن ألا يتسرب النبأ . وأمثلة ذلك في التاريخ البعيد والقريب كثيرة ، فإن كثيرا من قواد الجيوش والحملات المرسلة للغزو ، كانوا يخفون أسرار حملتهم عن جميع مرءوسيهم ، إلا عن هيئتهم الخاصة القليلة العدد ، وهي هيئة أركان الحرب التي تقتضي ضرورة وضع الخطط وترتيب العمليات أن يكونوا على علم بها . وقد تصدر إلى قواد الجيوش أو الأساطيل أوامر مختومة ، ليفتحوها في مكان معين بعيد عن القاعدة ، سواء على الأرض أو في عرض البحر ، ويتضمن في أثناء هذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعاً على السر بينما يجهله جميع

رجاله ، حتى إذا بقى على الحركة المقصودة ساعات معدودات تصدر الأوامر صريحة تحمل المفاجأة وتدعو للاسراع فى العمل الواقع

ومن أمثلة ذلك ما حدث فى الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ من أن الحملة الحربية التى أرسلت بحراً من الهند لغزو العراق لم يعرف رجالها وجهتهم إلا فى عرض البحر وكان ذلك بقصد إخفاء نبأ هذه الحملة عن الأعداء .

وقد حدث مثل هذا فى الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ — ١٩٤٥ ، وتعددت أمثلته وكانت فى الغالب فى عمليات الغزو البحرى .

ولرسولنا الكريم حكمة فى كتمان خبر تلك السرية عمن يحيطون به ، فليس ببعيد أن يكون منهم جاسوس من قبل قريش ، ولا أن يكون منهم من يبوح بالخبر فى سذاجة ، لا يريد به السوء ، أو لا يدرك ما فى البوح به من الخطر المحظور ، ولا يبعد أن يكون فيهم ضعيف النفس ، يفشى السر بتأثير مال أو ضغط ، وفى هذا تحقيق كامل لقوله صلى الله عليه وسلم : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » .

وهكذا يقرر الرسول أن استطلاع أحوال العدو يجب أن يحاط بالسرية التامة ، وهذا حق إذ أن العدو إذا أحيط علما بذلك فسوف يستعد استعداداً تاما لحرمان هؤلاء الذين سوف يقومون بالاستطلاع من الحصول على ما يريدون من معلومات عنه ، وبذلك لا يتحقق الغرض من الاستطلاع ، فضلا عن ما ينتظر حدوثه من خسائر مؤكدة فى أرواح هؤلاء الرجال ، أو من وقوعهم فى الأسر . وهذا هو المعمول به فى الحرب الحديثة ، فإن دوريات الاستطلاع تقوم بعملها فى الغالب ليلا تحت ستار الظلام ، وأى عمل من أعمال الاستطلاع يتم نهارا يجب ان يحاط بالكتمان الشديد والحذر المتناهى .

ثانياً : أن يقوم بالاستطلاع الراغبون فيه :

فقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم قائده عبد الله ألا يكره أحدا من المسلمين على المسير معه ، فقد يخرج الرجل مكرها على القتال فيقاتل لأنه مهدد بالموت المؤكد ، سواء فى القتال أو إذا حاول الفرار ، ولكنه إذا خرج للاستطلاع مكرها فلا يمكن أن يستفيد من استطلاعه من أرسله ، بل ربما يحرف الأخبار عمدا أو يتلقاها بغير عناية أو يطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم عنه غافلون .

وهذا الشرط ، أن يقوم بالاستطلاع الراغبون فيه ، معمول به فى الحرب الحديثة ، فإنه إذا تطلب الأمر إرسال داورية لاستطلاع أمر ما ترك لقائدها الحرية فى اختيار مرافقيه ، ومن المؤكد أنه سيختار من يرغب فى الخروج معه ، ومن يثق بهم وكذلك الحال فى أى عمل يحتاج إلى جرأة وإقدام وغيرة ، مثل أعمال الفدائيين الذين يكلفون بمهمة شاقة خطيرة تتعرض فيها حياتهم لموت أكيد وهلاك محقق ، فإذا كان هؤلاء يخرجون لمهمتهم مرغمين أمكننا أن نحكم على مبلغ الفائدة التى تعود على من بعثهم ، وإن الفائدة تتوقف على العقيدة القوية وحسن النية ، فهى تستلزم أن يكون الرجل فدائيا غيورا متحمسا رقيبا على نفسه ، فليس أيسر له إذا هو وجد نفسه منفردا بعيدا عن الرقباء ، ولم تكن فى العمل رغبة أن يسلم نفسه لأعدائه ليعيش مرتاحا فى الأسر إلى نهاية الحرب ، ثم إذا وجد من يحاسبه اعتذر بما شاء من العلل . وبذلك تتجلى حكمة النبى ﷺ فى قوله : « ولا تكرهن أحدا من أصحابك على المسير معك » . .

ولقد شاء الله أن تحدث فى هذه السرية أمور لم تكن فى الحسبان . أضافت إلى موضعنا دروساً جديدة تتصل به ، فإن عبد الله بن جحش مضى بمن معه لأداء مهمته ، غير أن بعيرا لسعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان ضل ، فذهبا يطلبانه فأسرتهما قريش ، فلما وصل الركب إلى نخلة ، مرت بهم قافلة قريش تحمل تجارة ، وكان ذلك فى آخر شهر رجب ، فتشاوروا فى قتال أهل القافلة لأن قريشا كانت حجزت أموال بعض المسلمين ، منهم بعض من فى السرية ، ولكنهم حاروا فيما يصنعون : إن القتال محرم فى الأشهر الحرم التى لم يبق عليها إلا هذه الليلة ، وهم يريدون ألا تفوتهم هذه الفرصة دون أن يستعيدوا ما أخذت قريش من أموالهم . . . وغلبت عليهم الرغبة فى ذلك فاندفعوا للقتال الذى انتهى بقتل عمرو ابن الحضرمى شيخ قبيلة قريش ، وأسر المسلمون رجلين هما عثمان بن المغيرة والحكم ابن كيسان .

وعاد عبد الله بن جحش ومن معه إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقد حجزوا له الخمس من غنيمتهم ، فأباه عليه السلام وقال لهم : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » . وعاتبهم زملاؤهم لهذه المخالفة ، وساءت لقياهم بين أهل المدينة ، واتخذ أعداء الإسلام هذا الحادث وسيلة لدعايتهم ، وتنادت قريش أن محمداً وأصحابه قد استحلوا القتال فى الأشهر المحرمة ، وأخذوا الأموال وأسروا الرجال . . . وضاق الأمر على عبد الله وأصحابه فأنزل الله الآية التى أراحت القلوب : - (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير وصد

عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) يعنى إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام ، فقد فعلوا ما هو أشنع : صدوا عن سبيل الله وكفروا به وبالمسجد الحرام وأخرجوكم منه وأنتم أهله وفتنوا الناس فى دينهم والفتنة أكبر من القتل ، ثم هم يقيمون على أشد من ذلك وأعظم غير تائبين ولا هائبين . وفى هذا قطع لاعتراضاتهم لأن المتلبس بكثير من الشرور ليس له أن يكثر الكلام فى زلة قد ارتكب هو أشنع منها .

ولما نزل القرآن بهذا الأمر ، وفرج الله عن المسلمين ما كانو فيه من الخوف ، قبض الرسول العير والأسيرين ، فطلبت قريش فداءهما ، فقال عليه الصلاة والسلام : ـ لانفديكموهما حتى يقدم صاحبانا فإنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم . .

ثالثاً : الاستطلاع دون قتال :

وأول ما يطالعنا مما حدث هو إنكار القتال على عبد الله بن جحش ورفاقه ، فإن أمر النبى صلى الله عليه وسلم فى رسالته له كان واضحاً وهو « فتعلم لنا من أخبارهم » ولا يفهم من هذا أنه يأمره بقتالهم ثم أنه أرسله فى شهر حرام والقتال محرم فيه . فلما علم الرسول أنه قاتل القافلة قال « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » .

وفى الحرب الحديثة تخرج دوريات الاستطلاع للحصول على المعلومات وتعود دون قتال إلا دفاعا عن النفس . وهذا مبدأ آخر يمكن أن يضاف إلى ما سبق من مبادىء فى (أولا) و (ثانياً) وهو أن يتم الاستطلاع دون قتال . والسر فى ذلك أن المكلفين بالاستطلاع قليلو العدد فى الغالب ، فلا يقدرون على القتال لأنهم جزء صغير بعيد عن القوة الأساسية ، وعليهم أن يؤدوا مهمتهم فى صمت ثم يعودون ، دون تورط فى قتال . على أنه فى بعض الأحيان لا يتم الحصول مع المعلومات إلا بالقوة ، وهنا تكون القوة مجهزة تماما من قبل على هذا الأساس .

والرسول الكريم لم يأمر عبد الله بالقتال ، والدليل على ذلك أنه أرسله فى شهر حرام القتال محرم فيه ، وكذلك قوله عليه السلام عندما علم بأنه قاتل القافلة : ـ

ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ، فإذا كان عبد الله قد قاتل فقد كان فى هذا مخالفا لأوامر النبى ﷺ .

رابعاً : تبادل الأسرى :

وأما مسألة قبض العير والأسيرين حتى يقدم الأسيران المسلمان ، فمسألة يرضى بها القانون الدولى المعمول به فى عصرنا الحاضر : أسيران بأسيرين ، وقد شاهدنا كثيراً من عمليات تبادل الأسرى فى الحرب الأخيرة بين الدول المتحاربة على أيدى المحايدين .

ولقد كانت مشكلة تبادل الأسرى هى العقبة العظمى فى سبيل نجاح مفاوضات الهدنة بين الشيوعيين ورجال هيئة الأمم المتحدة فى الحرب الكورية ، لأنهم كانوا لا يريدون التسليم بهذا المبدأ الواضح بلا قيد أو شرط .



محمد جمال الدين محفوظ
يوزباشى أركان حرب

السياسة

• أرادوا مرة امتحان السياسيين فى بلاغة السياسة ، فطرحوا عليهم هذا الموضوع : سرقت حقوق أمة ضعيفة ، فاكتب كيف تشكرها على هديتها .

• قالوا نظم الصقر قصيدة من الغزل فى عصفور جميل مصبغ الريش فكان مطلعها :
« ما ألذ » ريشك أيها العصفور

• لو سئل السياسى العظيم : أى شىء هو أثقل عليك ؟ لقال : إنسانيتى ؟

الرافعى

أصل البهائية وحقيقتها

قرأت فى (الأهرام) كلمة بعنوان «الذكرى المئوية لمؤسس البهائية» ظاهرها إدعاء ذيوع البهائية فى شيكاغو وباطنها الدعاية لهذه الفرقة وتضليل القراء عن حقيقتها ؛ فرأيت من الخير أن أبين لإخوانى المسلمين أصل البهائية وكيف وجدت وما هى حقيقتها ، ليكونوا منها ومن دعاتها على بينة .

كان من رزايا القرن الثالث عشر الهجرى ظهور رجلين فى الأوساط الشيعية بإيران والعراق ، يدعى أحدهما أحمد الاحسائى (١١٥٧ — ١٢٤٢) والآخر كاظم الرشتى (١٢٠٩ — ١٢٥٩) .

وظاهر من اسم الأول أنه منسوب إلى الأحساء من سواحل الخليج الفارسى ، والآخر إلى مدينة رشت من أعمال جيلان فى إيران على مقربة من سواحل بحر الخزر . ومن علماء الشيعة من يشك فى نسبة هذين الرجلين إلى هذين البلدين ويقول : إن أصلهما قيسان أعدهما الاستعمار لمهمة من مقاصده وخططه البعيدة ، حتى لقد قيل إن التقارير والأوراق السرية التى أذاعتها روسيا عقب سقوط القيصرية سنة ١٩١٧ تؤيد ذلك . ونحن لا يهمنا إن صح هذا أو كان وهما ، فالنتيجة واحدة وهى أن الاحسائى والرشتى رتعا ولعبا فى البيئات الإيرانية ، وتوسلا بما فى تلك البيئات من مبادىء وعقائد وعواطف على طريقة الغلو التى لهم فيها سلف كثيرون هناك . ومن ذلك — على سبيل التمثيل — قولهما للناس :

كما أن العناصر أربعة وهى التراب والماء والنار والهواء ، فكذلك العقائد أربعة ، وهى الله والنبى والأئمة الاثنا عشر والركن الرابع ، وهو أحمد الاحسائى . ثم ما لبث أحمد الاحسائى أن هلك سنة ١٢٤٢ وزعموا أنه دفن فى البقيع بالمدينة ، فقام بدعوته كاظم الرشتى وبث دعاته فى إيران ، ومنهم على محمد الشيرازى (١٢٣٥ — ١٢٦٦) ، وكريم خان الكرمانى ، ومحمد شفيع . وكان أكثرهم نشاطا على محمد الشيرازى الذى نشر الدعاة من

تلاميذه ومنهم ميرزا محمد على المازندرانى الملقب بالقدوس وكانت إقامته فى مشهد ، ومنهم ملا على البسطامى الذى أرسله سنة ١٢٦٠ إلى الكوفة والنجف وكربلاء وكان والى بغداد يومئذ نجيب باشا فقبض عليه وحبسه بعد أن صار له فى العراق أتباع منهم الشيخ بشير النجفى والشيخ سلطان الكربلائى ومحمد شبل الكاظمى وغيرهم . وفى سنة ١٢٦٣ جاءت من إيران إلى العراق داعيتهم التى تسمى (قرة العين) فأقامت فى بغداد بمنزل محمد شبل الكاظمى ، وزعمت لزوارها أنه « قد نزل الرب الودود ، وظهر الموعود » فأمرتها حكومة بغداد بأن تقيم فى منزل الشهاب الألوسى صاحب التفسير المشهور ، وكانت خبيثة جدا وبارعة فى التقية ، حتى أن السيد الألوسى فى مناقشاته معها لم يستطع أن يكتشف من عقائدها إلا أنها شيعية فقط . وكان يتردد عليها من تلاميذ ملا على البسطامى دعاة متعددون دخلوا فى البابية ، منهم إبراهيم المحلاتى وصالح الكريمى وأحمد اليزدى ومحمد البايكانى وسلطان الكربلائى .

وهكذا استفحل أمر على محمد الشيرازى بواسطة دعاته الكثيرون فى إيران والعراق ، وقد استغل عقيدة من عقائد الشيعة عن وجود (واسطة) بين الإمام الثانى عشر المهدى الذى ينتظرونه وبين شيعته وقد اصطلحوا قديما على تسمية هذا الواسطة (الباب) فانتحل على محمد الشيرازى لقب (الباب) ، وكان ظهور نشاطه فى زمن الشاه ناصر الدين وتسبب عن نشاطه سفك دماء وفتن كثيرة إلى أن هلك سنة ١٢٦٦ . فظهرت بعده مطامع تلميذه وأحد دعاته المسمى حسين على المازندرانى الذى سمى نفسه (بهاء الله) وإليه تنسب البهائية ، وهو معبودهم الدينى ، وهو الذى يعنونه فى فواتح كتبهم وأعمالهم حيث يقولون « بسم ربنا البهى الأبهى » كما كانوا يؤلهون سلفه على محمد الشيرازى الملقب بالباب ويقولون عنه « بسم ربنا العلى الأعلى » . فالبهائية قائمة على تأليه البهاء حسين على المازندرانى ، كما كانت البابية قائمة على تأليه شيخه الباب على محمد الشيرازى ، أو على تعبيرهم « ظهور الله فى الباب » و « ظهور الله فى البهاء » .

وجاء بعد البهاء حسين على المازندرانى إبنه عباس ، فانتقل إلى فلسطين وأقام فى (عكا) المجاورة لثغر (حيفا) وسمى نفسه « عبد البهاء عباس أفندى » ونقل جيفة الباب من إيران ودفنها فى عكا . وكان عبد البهاء ذكيا واسع الاطلاع ولا سيما فى المعانى والموضوعات التى

تحوم حول ضلالتهم فيكلم فى ذلك زواره بفصاحة وأساليب وعبارات خلابة واتخذ لنفسه فى شكله وهيئته مظهراً خداعا زاده أتباعه بما أحاطوه به من وسائل التهويل والتضليل .

إن العقيدة التى ينشرها البهائيون قائمة على التظاهر لليهود والنصارى والمسلمين باحترام (عناوين) الديانات السابقة ، لكنهم يزعمون أنها نسخت بديانتهم . ولذلك نرى البهائى إذا مات له صديق من اليهود يمشى فى جنازته إلى الكنيس ويصلى فى الكنيس كما يصلى اليهود وكذلك يفعل فى كنائس الطوائف المسيحية على اختلافها ، وفى مساجد المسلمين . وهو كذاب فى ذلك كله ، يخادع الجميع بأنه معهم ، وبذلك استمال البهائيون فى شيكاغو وأمثالها من استمالوه .

حدثنى رئيس تحرير هذه المجلة الأستاذ محب الدين الخطيب أنه فى سنة ١٣٢٧ (١٩٠٩) زار مع شيخه الشيخ طاهر الجزائرى رحمه الله المكان الذى كان يجتمع فيه داعية البهائية فى مصر أبو الفضل الجرفادقانى ، وكان ذلك فى ربع بخان الخليلى ، فوجد عنده رجلا كان يعرف أنه أرمنى يسمى « كركور أفندى » وقد عرفه فى المدرسة الإعدادية العثمانية بدمشق وكان كركور فى السنة النهائية من القسم الثانوى والأستاذ الخطيب فى السنة الأولى من القسم الابتدائى ، فقال له الأستاذ الخطيب : ألست أنت كركور أفندى الذى كنت فى دمشق ؟ فامتعض لونه وقال له : أنا الآن بهائى ، واسمى « فائق » . وقد تبين فيما بعد أن الذين ينضمون إلى البهائية إما أن يكونوا من أصل غير إسلامى وانضموا إليها كيدا للإسلام ، أو أنهم إيرانيون ممن لهم نزعة مجوسية . والبهائيون الذين احتفلوا فى شيكاغو بالذكرى المئوية لمؤسس البهائية لا يخرجون عن أحد هذين الفريقين .

إن حقيقة الدعوة البهائية قائمة على أساسين هما : —

١ — أن الله بعد ظهوره فى الأئمة الاثنى عشر ظهر فى شخص الركن الرابع أحمد الإحسائى ثم فى شخص الباب محمد على الشيرازى الذى يسمونه (حظرت أعلى) ، ثم فى شخص حسين على المازندرانى الذى سمى نفسه (بهاء الله) ، ولابنه عباس نصيب من الحلول الشيطانى ودعوى المظهرية . ويزعمون أن كل واحد من هؤلاء هو المظهر الإلهى الذى يتجلى على خلقه ليوحى إليهم الحقائق التى توصلهم إلى حظيرته القدسية .

٢ ـ إطلاق العنان لتأويل الكتب المقدسة بما يوافق أهواءهم ، فإذا قرأوا ما ورد فى الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام : « إنى ذاهب إلى أبى وأبيكم ليبعث إليكم الفارقليط الذى ينبئكم بالتأويل » قالوا : إن المراد بالفارقليط هو بهاء الله .

ويؤلون الكلمات القرآنية مثل : يوم الحسرة ، ويوم التلاق ، ويوم القيامة ، والساعة بيوم نزول روح القدس وقيام مظهر أمر الله وهو البهاء فى زعمهم .

وتدعى البهائية أنها جاءت بأصول جديدة كاتحاد الأديان ، وترك التعصب ، واتحاد الأجناس ، ومساواة المرأة بالرجل ، والسلام العام . ونظنهم اقتنعوا بإفلاس دعواهم فى اتحاد الأديان ، لأن أهل الأديان كلها علموا بأن البهائية فاسدة العقيدة بالله واليوم الآخر ، ولذلك لم يقبل عليها إلا حثالة الناس ممن فى قلبهم إحنة للإسلام ورغبة فى إفساده ، وهم أعوان المستعمرين وجواسيسهم فى العالم الإسلامى ، فظلوا إلى الآن أقلية تافهة فى وسط الأقلية التى انفصلوا عنها فى البداية .

ولا ريب أن الدعوة إلى دين الله الحق ، وعدم التفريق بين رسل الله جميعا هى دعوة الإسلام التى استجابت لها الأمم وانضوت إليها الممالك والأقطار فى عشرات السنين الأولى لظهورها حتى زاد أتباعها الآن على خمسمائة مليون ، وإذا أحسن المسلمون عرضها والعمل بها كانت هى شريعة الإنسانية كلها ، لأنها أصح الديانات عقيدة بالله وتوحيداً له وتنزيها عن سخافات الحلول والاتحاد .

فالإسلام هو الذى كرم رسل الله ، ودعا إلى العمل برسالات الله ، وهو الذى أقام وحدة الدين والجنس بالفعل ، ودعوته هى دين المستقبل .

أما سخافة البهائية فقد زادت الضلالات ضلالة جديدة ووقفت عند ذلك فكانت من مظاهر التفريق لا من مظاهر الاتحاد .

ودعوى ترك التعصب أكذب من دعوى اتحاد الدين والجنس ، فدينهم قام على الإحنة والكيد للإسلام ، ولا يزالون الآن كما كانوا أيام الشاه ناصر الدين دعاة فتنة وفساد .

والدعوة الصادقة إلى ترك التعصب تتلألأ كالشمس فى قول الله عز وجل « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ومع ذلك فكل حق فى الدنيا إذا لم يؤيده أنصاره بالتى هى أحسن كان ذلك ذما لهم وليس من الفضائل . وفرق كبير بين تأييد الحق كما هى الحال فى الإسلام وبين التعصب الذميم كما هى عليه دعوة البهائية منذ قامت لأول مرة باسم البابية .

ودعواهم التسوية بين الرجل والمرأة ، فإن الإسلام هو الذى سوى بينهما فى كل ما لا يصطدم مع اختلاف تكوينهما وتوزيع العمل الإنسانى بينهما ، وتفاصيل ذلك معروفة وقد ألفت فيها الكتب ، وبين وجه الحق فيها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر فى بياناته المتعددة . أما معارضة الطبيعة فى تسوية ما اختلف فيه الجنسان فى تكوينهما ومراهبهما ونوع اختصاصهما ، فذلك من السخافات التى تؤدى إلى فساد المجتمع .

وأسخف من دعوى تسويتهم المرأة بالرجل دعوتهم إلى السلام العام ، والجانب الإنسانى الموافق للحق والمصلحة فى هذه الدعوة قد سبق الإسلام إليه ، بل الإسلام بنفسه دين السلام ولكن طغيان البشر الذى لا يزال متأصلا فى طبائع أهل المطامع منهم هو الذى عالجه الإسلام بقول الله عز وجل « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

وأخيراً يحرص البهائيون على إخفاء تعاليم ديانتهم وجعلها سرية فيما بين الحثالة الضئيلة من أتباعها ، وقديما قيل :

السِّتر دون الفاحشات ولا يلقاك دون الخير من ستر

ومن مظاهر تسترهم فيما ينشرونه على الناس استعمالهم الألفاظ والتعبيرات الخلابة القابلة للتأويل ، وبها يحاولون أن يتصيدوا أهل الغفلة والعوام . ومع ذلك فشلوا فى جميع محاولاتهم ، والله لا يهدى كيد الخائنين ؟

السيد كمال الشورى
مأمور الشهر العقارى

نظام المجتمع فى الاسلام

١ — أسس النظام الاجتماعى فى الإسلام :

قامت الدعوة الإسلامية تهدف إلى تأليف القلوب وتوحيد الأهداف وجمع الناس على عبادة الله وحده ، فاتحدت بها الغاية واجتمع بها الناس على هدف لا يختلفون عليه ولا يجادلون فيه « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات » « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » .

وسبيل الدعوة إلى ذلك حجة واضحة وقول حسن وأدب جميل « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » ذلك بأن طبيعة الدين لا تتفق وروح القهر والإرهاب ، إذ يخالط أول مايخالط القلب ويخاطب أول مايخاطب العقل ، ولم تكن القوة والإرهاب يوما من الأيام سبيلا إلى إقناع أو إيمان ، وهكذا وضعت الدعوة منهجا فى الحياة يكفل للإنسان حرية النظر والرأى والفكر والاعتقاد « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وإلى جانب الغاية الواحدة التى وحدت بين الناس وجعلتهم إخوة متحابين ، والوسيلة المهذبة التى جعلتهم يحكمون العقل وينأون عن اللجاج ، جاءت الدعوة الإسلامية تقر الإخاء والمساواة بين الناس « الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وإذ يسوى ذلك النظام الإسلامى بين الناس ليقيم مجتمعاً متماسكا متحداً لا يعترف بسيادة جماعة على جماعة ولا باستغلال طبقة لطبقة ، بل يستوى فيه السادة كأبى بكر وعمر وعثمان وأبى عبيدة ، والمستضعفين كعمار وبلال وصهيب ؛ وأكثر من هذا يرفع الإسلام المستضعفين بالعمل حتى يفوقوا السادة ، وقد كان العمل من قبل يضع العاملين فأصبح فى النظام الجديد أساس

الفضل والتقدم «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون» ولدوام هذه الوحدة الإنسانية وإقرار النظام الاجتماعى يدعو الدين إلى التعاون الإنسانى العام على البر والخير والتقوى، وينهى عن التعاون الخاص بين الطبقات المتماثلة فى الأقطار المختلفة التعاون الخاص على الإثم والعدوان الذى يهدف إلى إرهاق الطبقات المخالفة بالاستغلال والتسخير، وينهى عن التعاون الخاص بين السلالة الواحدة على الإثم والعدوان الذى يثير العصبية القبلية والعصبية القومية التى تستهدف الفتن والحروب والاستعمار، بل إن التعاون على الإثم والعدوان يحرمه الإسلام حتى لو اجتمعت الإنسانية كلها متعاونة فى القسوة على الحيوان «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا».

ولكن كيف يتحقق التعاون فى المجتمع الإنسانى والحسد يملأ قلوب الجائعين والجشع يسيطر على نوازع السادة المترفين؟!

إن النظام الاجتماعى فى الإسلام لا يدع الفقير للجوع يضنيه، ولا يدع الغنى للترف يتخمه، بل يأخذ من هذا حقا لذاك لا منا ولا تصدقا ولكن حقاً يفرضه «وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم» «واعلموا أن ما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله» «والله لا يؤمن من بات شبعان وجاره جائع» ولكن هل يقتصر خير الجماعة المسلمة على نفسها فتؤلف عصبية مذهبية لا نظاما اجتماعيا يقوم على الدعوة للخير والسلم؟

وفى قصة اليهودى الذى فرض له عمر من بيت مال المسلمين ما يقيم حياته ويكفيه مشقة العمل وهو شيخ كبير، وفى قصة الصبى القبطى الذى سبق ابن عمرو حين سابقه فى مصر فضربه وهو يقول: أتسبقنى وأنا ابن الأكرمين؟ وقد شكا القبطى حاكم مصر العام إلى أمير المؤمنين عمر، فاستقدم الوالى على مصر وأنصف الغلام منه. فى هذه القصص، وأمثالها لا يحصى ما يقطع بأن الخير والبر والمعروف والعدل كان عاما فى الإسلام، فتألف به نظام اجتماعى يهدف إلى الصالح العام بلا تفريق.

ومع أن الدين لا يمنع الفرد أن يملك ما يشاء، إذ الحرية أساسه الأول الذى قام يدعو إليه، فإن القاعدة الثابتة فى نهجه أنه يحرم ما أضر بالصالح العام، فى سبيل تناسق النظام

الاجتماعى وبقاء وحدته يحرم ما أصله الحل ، ويمنع ما أصله الإباحة فيمنع التملك إن أدى إلى الاحتكار ، ويمنع من التملك ما يضر بنظام المجتمع . المحتكر ملعون والجالب مرزوق ، ومن كلام عمر ، من احتكر على الناس أرزاقهم ضربه الله بالجذام ، والاقطاع لون من الاحتكار تقصر فيه منافع الأرض على القلة من المجتمع ، وتستغل فيه جهود الكثرة لصالح القلة من الاقطاعيين .

ولئن كانت أسباب الفتن والأحقاد والحروب فيما مضى إقطاعا فهى اليوم احتكار فى (الخامات) والإنتاج ، والأساس فى بناء المجتمع الإسلامى ، لا ضرر ولا ضرار » .

ومع أن الدين لا يتعرض للطبقات التى تقوم على أسس من المال أو الجاه فإنه يمنع ذوى المال من الاحتكار فى الاقتصاد ، ويمنع ذوى الجاه من الاحتكار فى السياسة ، وفى الوقت نفسه لا يجعل لهذا أو ذاك حقا زائدا أو فضلا خاصا ، بل يفرض للمال والجاه واجبات زائدة يتحقق بها التقارب والتعاون بين الطبقات ، والأمر لا يخفى . أحل الله البيع وحرم الربا .

٢ — أثر هذه الأسس فى إقبال الناس على الإسلام وإقرار التضامن بين المسلمين :

ولقد أسرعت هذه الأسس الاجتماعية بالناس نحو الدين الجديد فأقبل عليه المستضعفون يجدون فيه النظام الذى يحفظ لهم حقوق الإنسان فيؤمنهم من خوف ويرفعهم من ضعة ويخلصهم من جهل ويطبهم من مرض ويستخلفهم فى الأرض ، وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » .

وكما أسرع المستضعفون فقد أسرعت النساء إلى ذلك الدين تجد فيه النظام الذى يمنع عنها العدوان فيحرم وأد البنات ، وتجد فيه النظام الذى يجعل لها حقوقا فى التصرف والملك ورأيا فى الزواج والحياة . وإذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت ، « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، « الثيب تستأمر والبكر تستأذن » .

وكما وجد المستضعفون والنساء فى الإسلام نظاما يسوى بين الناس ويقر العدل والإنصاف والخير فقد وجد فيه السادة منهجا يوافق العقل ويقوم على الحجة والبرهان ، فأسلموا له إلا من أعرض تكبرا وعنادا .

ولئن ساعدت هذه الأسس الدينية على إقرار الإسلام دينا فى الأرض وأسرعت بالناس إليه فقد حققت مع ذلك وحدة المجتمع وانسجامه، وأبعدت عنه شبح التنافر والأحقاد، فوحدة الغاية وأدب الدعوة وتحرير الفكر والمساواة بين الناس والتفاضل بالعمل والتعاون على الخير والتقارب الطبقى وإيثار الصالح العام، كل هذه المبادىء أفضت إلى مجتمع متلائم متضامن متكافىء لا يعتريه تفكك أو انحلال «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم»، «مثل المسلمين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له جميع الأعضاء بالسهر والحمى».

وفى سبيل حماية هذا النظام من التفرق والانحلال يوجب الدين الإسراع بالإصلاح بين الناس فيقرر «أن الصلح خير»، وأن «السعى بالنميمة شر»، و«أن الفتنة أشد من القتل».

وأن «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»، وفى سبيل حفظ هذه الوحدة أيضا يوجب الإسلام على المسلمين أن يقفوا موقفاً إيجابيا من طوائف المسلمين التى يؤدى الخلاف بينها إلى القتال، وذلك بدعوة الطائفتين أو الطوائف إلى الصلح، فإن رفضت الصلح إحدى الطائفتين أو الطوائف أو أخلت به فبغت، فعلى المسلمين جميعاً أن يقاتلوا الطائفة الباغية حتى تفىء إلى السلم وإلى أمر الله. «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله».

وهكذا يستقر بهذه المبادىء الحب والتضامن والصفاء والوحدة فى مجتمع المسلمين.

٣ — إقرار السلم وحماية النظام الاجتماعى من العدوان:

وقد انشرحت بالإسلام صدور واطمأنت إليه قلوب، فأرهب ذلك المشركين فى مكة أولا فأسرفوا فى الكيد والعدوان على الرسول وعلى المسلمين، ومع ذلك ظل أسلوب الدعوة قائماً على دفع اللجاج بالحجة ومقابلة السيئة بالحسنة، فأغرى ذلك الرفق السفهاء والمشركين بالدعوة والدعاة حتى بلغ بهم الأمر أن ائتمروا بالرسول ليقتلوه، فانتقل إلى قوم غير القوم عله يجد عندهم آذانا تصغى وقلوبا تعى. ومع أنه تركهم فى مكة وترك لهم مكة فلم يتركوه ينجو بنفسه وبدعوته، بل أسرفوا فى طلبه، فلما أعياهم إدراكه وقد بلغ المدينة تحزبوا مع القبائل وعقدوا الأحلاف يبغون بها حصر الدعوة فى المدينة لا تخرج منها حتى لا تصل إلى الناس.

لقد كان الأمر مع الرسول أنه يريد أن يبلغ رسالته إلى الناس برفق فى الجدل وبحسن فى القول ، ويهدى إلى الحق لا يكره الناس على الإيمان « لا إكراه فى الدين ، من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

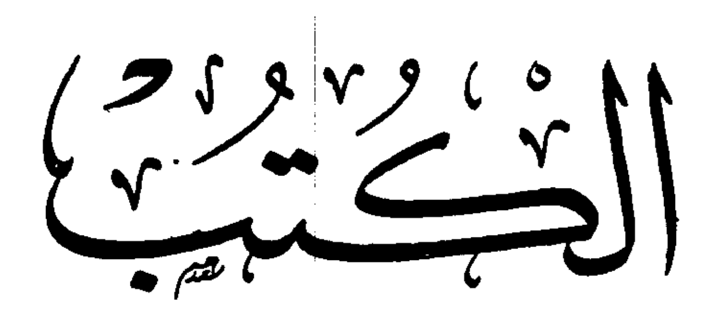
وكان الأمر مع المشركين أنهم يعرضون عن الإسلام تكبرا وجهلا ويصدون عنه الناس رهبة وخوفا ويمنعون الرسول عن دعوته حقداً وعنادا ، وفى سبيل ذلك أسرفوا فى الكيد وشرعوا الحراب وسلوا السيوف ، يمنعون الداعى عن دعوته يردون الدعوة عن الناس ويردون الناس عن الدعوة .

عند ذلك أذن الله لجماعة المسلمين أن ترد عدوانا يقع وتدفع ظلماً ينزل « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » وفى هذه الآية ، وهى أول ما نزل فى القتال ، ما يقطع بأن الإسلام يبغى السلم غاية ، ويستهدف السلم منهجاً فى الدعوة لا يخرج عنه إلا أن تقضى بذلك ضرورة قاهرة ، يشير إلى ذلك ما تعبر به الآية الكريمة من الإذن الذى يقتضى الإباحة من منع ، والحل من حرمة ، ومع ذلك لا يعدو الأمر قتال من يقاتل دفعاً لعدوانه « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، فإن وضع المقاتلون السلاح فلا إسراف فى القتل ولا عدوان « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

بهذا يمنع الدين العدوان ويشرع القتال والحرب رعاية للسلم ، بل إنه ينبذ الحرب ويحذر من العدوان ويأمر بالسلم حتى لو طلب السلم من أهدره ، وفى سبيل رعاية عهد السلم يدعو الإسلام إلى إعداد القوة التى ترهب من يميل إلى العدوان فلا يجنح إليه « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » ، رهبة ترد الظلم وتمنع عدوان المعتدين ، وحين يتصل الأمر بالفتنة التى تهدد الجماعة فى وحدتها والعالم فى سلمه ، فإن الإسلام يوجب القتال الذى يقضى على منابع الفتنة ليعيد الوئام إلى الجماعة وليحفظ السلم بين الناس « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » .

وهكذا يشرع الإسلام القتال ليضع به حدا للعدوان وإثارة الحروب ، وليقر به فى المجتمع الإنسانى العدل والخير والسلام .

عبد اللطيف عبد النبى خليف
المدرس بمعهد طنطا الدينى



شرح منازل السائرين — للفركاوى

بتحقيق الأب س دى لوجييه دى بوركى الدومنكى - ١٥٣ ص متن ٤٤ ص مقدمتان وفهارس

رسالة (منازل السائرين إلى رب العالمين) لشيخ الإسلام أبى إسماعيل عبد الله ابن محمد الأنصارى الهروى الحنبلى (٤٠١ — ٤٨١) من أنفس ما كتبه المسلمون فى تربية النفس الإسلامية وسلوكها إلى منازل العبودية لله والاستعانة به وحده (إياك نعبد وإياك نستعين) . وقد رتب فيها أحوال السلوك بثلاث رتب : أخذ المريد فى السير ، ودخوله فى الغربة ، وحصوله على المشاهدة الجاذبة إلى عين التوحيد .

وقد عرف المسلمون قدر هذه الرسالة ورفعوها إلى المكان اللائق بها ولا سيما عندما شرحها الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية بكتابه الجليل (مدارج السالكين) فى ثلاثة مجلدات كبيرة ، ولعله يصح أن يتخذ مرآة للتصوف الإسلامى الذى لا تشوبه نزعات أجنبية : لا برهمية ، ولا من حماة الحلول . أو إنكار وجود الواجب بدعوى وحدة الوجود .

وبين أيدينا الآن شرح آخر لرسالة شيخ الإسلام الهروى ألفه محمود بن حسن بن محمد الفركاوى القادرى فى أواخر القرن الثامن الهجرى ، وكانت توجد منه مخطوطة فذة فى خزانة كتب لاله لى (رقم ١٤٢٧) بالقسطنطينية تاريخها شهر صفر سنة ١٠٢٩ .

ومما يدل على غنى سلف المسلمين بالرجال أن مؤلف هذا الشرح (محمود بن حسن الفركاوى) لا تعرف له ترجمة فى الكتب المتداولة فى الأيدى الآن ، مع بلاغته وفضله وتجويده لصناعة التأليف كما يدل عليه هذا الشرح . غير أن الناشر الأب دى لوجييه استنتج من قول المؤلف إنه كان موجوداً فى سوق العبى بدمشق لما احترق سوق القطانين والدقاقين أن ذلك كان سنة ٧٥٦ لأن الحافظ ابن كثير ذكر هذا الحريق فى البداية والنهاية (١٤ : ٢٥٣) . وللفركاوى غير شرحه على منازل السائرين كتاب آخر اسمه (النور الأسنى فى شرح معنى

الأسماء الحسنى) توجد منه نسخة فى دار الكتب الظاهرية بدمشق (رقم ٣٩ تصوف) كتب فى آخرها : « وكان الفراغ فى رياضة الخميس ٢٨ جمادى الأولى سنة ٧٩٥ بتعليق مؤلفه » وقد يكون هذا التاريخ للأصل المنقول عنه مخطوط دار الكتب الظاهرية . ويستنتج الناشر من قرائن متعددة أن الفركاوى ولد فى العراق غالباً حوالى سنة ٧٢٥ وكان يقرىء الايتام بدمشق بعد سنة ٧٥٠ بقليل ، وكانت وفاته بعد تأليف (النور الأسنى) أى بعد سنة ٧٩٥ .

وشرحه على منازل السائرين وصفه هو بقوله : « وهذا الشرح قد جمعنا فيه بين التشرع والتحقق ، ولم أطل خيفة الملل » وقال أيضاً : « هذا الشرح ما استضاء عليه بكتب ، وإنما كان فتوحا : نصفح كل مقام ، ونحل كل رمزه ، ونكشف حقيقته . ولم أورد الحكايات والأخبار فيه خيفة الملل والتطويل » . وقال : « تارة نشرح متتابعاً للدرجات وتارة بالعكس ، وذلك بحسب طاقتنا فى الوقت » . وأكثر ما يهتم به فى الشرح ثلاث مقامات : الاستقامة ، والصبر ، والصدق ، وهذه الثلاثة روح الأخلاق الإسلامية ، ومن دعائم أركان الإيمان الإسلامى .

والفركاوى يصف نفسه بأنه مريد عبد القادر الكيلانى (٤٧٠ - ٥٦١) وبينهما نحو ثلاثة قرون فلعله يريد أنه اقتبس علمه من علم الشيخ عبد القادر ، وهو لا يريد علم الفقه فالشيخ عبد القادر حنبلى والفركاوى شافعى ، ولكنه أراد العلم الذى نجده فى شرحه لمنازل السائرين . ونسبة هذا الشرح إلى مدارج السالكين كنسبة ما بين علم الفركاوى وعلم الإمام ابن القيم وهو فرق بعيد جداً .

وقد عنى الآب دى لوجييه بإخراج هذه الطبعة وتحقيقها عناية عظيمة يشكر عليها . ومما نلفت إليه أنظار مقلدى الغربيين - وأكثر حملة الأقلام عندنا مقلدون حتى فى الشكليات للغربيين - أن الآب دى لوجييه يضع الخطوط على سطور المتن من فوقها كما هى عادة المسلمين والعرب فى كتبهم فى جميع العصور . فنحن كما نكتب من اليمين إلى الشمال بعكس الغربيين ، نضع الخطوط على السطور من فوقها بعكس الغربيين أيضا . والآب دى لوجييه والسواد الأعظم من المستشرقين إذا نشروا كتب العرب والمسلمين يتبعون سنن العرب والمسلمين وذلك هو اللائق بهم . أما مقلدة الإفرنج من كتابنا وعلمائنا فلا يعرفون سنن العرب والمسلمين فى كثير من الأمور .

وشرح منازل السائرين مطبوع بمطبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة . ووعد الناشر بمواصلة نشر مؤلفات شيخ الإسلام الهروى وما يتصل بها من شروح وأبحاث .

فحولة الشعراء للاصمعى

بتحقيق الاستاذين محمد عبد المنعم خفاجي وطه محمد الزينى ، ٩٨ ص جابر

كتاب (فحولة الشعراء) لأبى سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى (١٢٢ - ٢١٦) أحد شيوخ الأدب والنقد فى القرن الثانى للهجرة يرويه عنه الإمام أبو حاتم السجستانى (المتوفى سنة ٢٥٥) وكان أبو حاتم يسأل الاصمعى عن كل فقرة من موضوع الكتاب فيجيبه الأصمعى عليها ويسجلها أبو حاتم . عثر الاستاذان الفاضلان الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي والشيخ طه محمد الزينى على مخطوطة منه قديمة فى دار الكتب الأزهرية (بالمجموعة رقم ١١٨١ مجاميع أباظة - ٧٣٢٣) فعارضاها بمخطوطة حديثة فى الخزانة التيمورية منقولة عن الاصل الذى فى مكتبة الأزهر ، واستفادا من معارضه هذه الرسالة بالمروى عن الأصمعى فى كتاب (الموشح) للمرزبانى . وهذه الرسالة فوق أنها من أقدم المؤلفات فى تراث الأدب العربى فإن صدورها عن الأصمعى ورواية أبى حاتم السجستانى لمسائلها عن هذا الشيخ القديم من شيوخ الأدب يزيدان فى أهميتها . وهى تبدأ من الصفحة ١٢ وتنتهى فى ص ٤٠ وقبلها كلمة الناشرين عن الرسالة ومؤلفها وراويها . ولما كان (الموشح) للمرزبانى حافلا بالنقول عن الأصمعى فى نقد الشعراء والتحدث عنهم وعن شعرهم ، وفيه أكثر مما فى هذه الرسالة ، فقد ذيلها الناشران بهذه الزيادات عن الموشح وبما عثرا عليه فى بعض الكتب الأخرى . وألحقا بذلك مجالسا من مجالس الأصمعى الأدبية بين يدى الرشيد نقلاه عن العقد الفريد ، كما نقلا عن أمالى المرتضى وزهر الآداب شاهدين من روايات الأصمعى ، وقطعا من ترجمة الأصمعى عن القاضى ابن خلكان فى الوفيات والسيوطى فى البغية والشريشى فى شرح المقامات فشكراً للناشرين الفاضلين على هذه الطرفة الأدبية .

دائرة المعارف الاسلامية

من العدد ٧ إلى ١٢ من المجلد التاسع - نشر لجنة ترجمة الدائرة

أهديت إلينا هذه الأعداد الستة (٧ - ١٢) من المجلد التاسع لدائرة المعارف الإسلامية مترجمة بأقلام الاساتذة أحمد الشنتناوى ، وابراهيم زكى خورشيد ، وعبد الحميد يونس .

وقد راجعها من قبل وزارة المعارف الدكتور محمد مهدى علام . وتبدأ هذه الأجزاء الجديدة من مادة (دعان) وتنتهى بمادة (الرامى) . وقد حفلت بالكلام على الأعلام التاريخية والجغرافية التى لها فى نظر مؤلفى الدائرة أهمية ملحوظة فى تاريخ المسلمين مما يبتدىء بحرف الدال بعد كلمة دعان وجميع حرف الذال ثم حرف الراء إلى كلمة الرامى . ولا شك أن مؤلفى الدائرة من مستشرقين ومن استعانوا بهم من شرقيين وفوا هذه المواد حقها من البحث والتحقيق من وجهة نظرهم وبحسب اقتناعهم ، فكانت لذلك مما لا يستغنى عربى ولا مسلم عن الاطلاع عليه . وإن كانوا كثيراً ما لا تتفق أنظارهم واقتناعاتهم مع أنظار المسلمين واقتناعاتهم . ولحضرة الدكتور محمد مهدى علام تعليقات قيمة فى هذه المواطن ، وكانوا فيما مضى يعهدون إلى طائفة من العلماء باستيفاء هذه الملاحظات ، ومواد الدائرة جديرة بذلك وبأكثر منه .

السودان من ١٨٤١ إلى ١٩٥٣

أصدرته رآسة مجلس الوزراء ، فى ٤٥٥ صفحة كبيرة ، المطبعة الأميرية بالقاهرة

أهدت إلينا رآسة مجلس الوزراء هذه المجموعة العظيمة من الوثائق الرسمية عن تاريخ السودان من ٢١ ذى القعدة ١٢٥٦ (١٣ فبراير سنة ١٨٤١) وهو الفرمان السلطانى من الدولة العثمانية لمحمد على عن مقاطعات نوبيا ودارفور وكوردوفان وسنار إلى الوفاق المعلوم سنة ١٨٩٩ ، ومنه إلى معاهدة سنة ١٩٣٦ ، ثم وثائق السودان بعد تلك المعاهدة ، والسودان أمام مجلس الأمن ، والسودان بعد مجلس الأمن ، وأخيرا السودان فى العهد الجديد من المذكرة المصرية فى ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٢ إلى اتفاق الأحزاب السودانية فى ١٠ يناير سنة ١٩٥٣ . فمباحثات الرئيس محمد نجيب واستيفنسون من ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٥٢ إلى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ . فهو كتاب جمع كل ما تحت يد مصر من وثائق رسمية عن السودان فى جميع هذه العهود ووضعها بين يدى أمة النيل لتكون على علم بها ومحيطة بكل ما طرأ على السودان من أطوار . وختم الكتاب بنص اتفاق الحكومتين المصرية والبريطانية فى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ بشأن الحكم الذاتى وتقرير مصير السودان والخطابات المتبادلة بين الحكومتين ونظام الحكم الذاتى الصادر فى ٢١ مارس سنة ١٩٥٣ فشكراً للحكومة المصرية على هذا العمل الجليل الذى فيه خدمة للعلم والوطن .

القاديانية

الأستاذ أبي الحسن على الندوى — طبع الهند

الأستاذ أبو الحسن الندوى معروف لقراء العربية ، بمؤلفاته الكثيرة المنتشرة ، والعنوان الكامل لهذه الرسالة (القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والإسلام) وهذا المعنى مستعار من مقال للشاعر الأعظم محمد إقبال . وهو يوافق ما أعلنه مؤسس القاديانية غلام أحمد ونشرته جريدتهم الرسمية (الفضل) بتاريخ ٣٠ يولية ١٩٣١ وهو قول غلام أحمد القادياني « إننا نخالف المسلمين في كل شيء : في الله ، في الرسول ، في القرآن ، في الصلاة ، في الصوم ، في الحج ، في الزكاة ، وبيننا وبينهم خلاف جوهري في كل ذلك » . ويقول مؤسس القاديانية في صفحته ١٠ من الطبعة السادسة من ملحق كتابه (شهادة القرآن) :

« لقد ظللت منذ حداثتي وقد ناهزت الآن الستين أجاهد بلساني وقلمي لاصرف قلوب المسلمين إلى الاخلاص للحكومة الانجليزية والنصح لها والعطف عليها ، وأنفي فكرة الجهاد التي يدين بها بعض جهالهم والتي تمنعهم من الإخلاص لهذه الحكومة » .

هذه الحقائق يجدها القارىء المسلم بنصوصها وتعيين مراجعها في هذه الرسالة الوجيزة للأستاذ أبي الحسن الندوى . لجزاه الله عن الإسلام خيراً .

أدب الأخوة

للأستاذ السعيد الشربيني الشرباصي - ١١٧ ص - مطبعة دار الكتاب العربي

هو كتيب لطيف مملوء بالنقول والمختارات وحسن التوجيه عن أدب الأخوة في الإسلام بدأه بفصل عن المودة والقربى ، ثم عقد فصولا لاختيار الإخوان ، وحقوقهم في المال والمعاونة بالنفس واللسان وتناسي الهفوات ، والإخلاص والوفاء . وترك التكلف وعدم التكليف . وختمه بخطاب عنوانه « يا أخي » ناجى فيه كل مسلم أن يعرف موضعه في البشرية فينزل المغرور من علياء سمائه الوهمية إلى دنيا الأخوة وميدان سعادتها ، ويرتفع المستعبد من حضيض العبودية إلى دنيا الأخوة وميدان سعادتها . فإن لكلمة «أخي» عذوبة في الآذان ووقعا في الجنان ، بما تولده من ثقة بين المتخاطبين والمتعاونين فتجعل الكبير لا يحس بأنه فوق والصغير لا يشعر بأنه تحت .

فكتيب « أدب الأخوة » كتاب أدب وأخلاق وحسن توجيه ، فنلفت أنظار الشباب إليه .

نظام الحكم فى الاسلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ صادق عرجون ، ٩٦ ص ، مكتبة وهبة بالقاهرة

هو بحث ممتع لفضيلة الأستاذ الشيخ صادق إبراهيم عرجون شيخ معهد أسيوط الدينى ألقاه على أساتذة ذلك المعهد وطلبته وعلى أهل الفضل والمكانة فى عاصمة الصعيد ، وبناه على بيان أن ما نحن فيه الآن من تقصير عن الأخذ بنظام الحكم فى الإسلام إنما هو نتيجة خطة رسمها الاستعمار لنا فى غفلة المسلمين عنه ، وقد بدأ الاستعمار رسم خطاته هذه بعد وقوف غلادستون رئيس الوزارة الإنجليزية فى مجلس العموم وإعلانه أنه ما دام القرآن قائماً بين المسلمين فلن يتم للغرب عمل بينهم . قال فضيلة الأستاذ المحاضر : وهو لا يعنى طبعاً بقيام القرآن بين المسلمين هذا اللون التعبدى بتلاوة القرآن ، ولكنه يعنى قيامه بينهم قياماً عملياً بجعله دستورهم الذى يوجه سياستهم ويصرف شئونهم العملية فى الاجتماع والاقتصاد والتربية والتعليم .

ثم تناول قضية فصل الدين عن السياسة وبين أن ذلك ينطبق على غير الإسلام ، وأن من خير الإنسانية أن تستنير فى سياستها بهدى الإسلام ، وأن فى ذلك علاج الأمم كلها من أوصابها التى تئن منها الآن أنيناً ، ولو عرفت كيف تستنير بالإسلام فى سياستها وأنظمة حكمها لوجدت فى ذلك سعادتها كاملة .

والمحاضرة التى استغرقت ٩٦ صفحة مليئة بأنصع البراهين على صحة هذه الحقيقة ، لو شئنا أن نقتبس منها كل ما فيها من حق لكان حتما علينا أن ننقلها كلها . فعلى كل أزهرى وعلى كل أخ مسلم أن يقرأ رسالة (نظام الحكم فى الإسلام) لفضيلة الأستاذ الشيخ صادق عرجون ثم يعيد قراءتها أكثر من مرة ، لا ليتمتع ببلاغها وما فيها من حقائق وحسب ، بل ليؤمن بما فيها من تلك الحقائق وليعرف طريق الهدى الذى شرعه الإسلام المجتمع الإسلامى والإنسانى .

التقرير السنوى

عن أعمال قسم الانكلستوما والبلهارسيا

أهدى إلينا قسم الإنكلستوما والبلهارسيا تقاريره السنوية عن أعماله الإنسانية المشكورة من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٤٩ وفيه إحصائيات دقيقة عن الأعمال التى قام بها هذا القسم

فى كل عام ، فى أقسامه الخارجية وأقسامه الداخلية ، والوحدات الجديدة التى لا يزال ينشئها تباعاً ، والتحسينات فى أنظمة العمل . ولما كانت الانكلستوما والبلهارسيا من أخطر الأمراض التى تفتك بالعدد الأكبر من جمهور الشعب المصرى ، فإن العمل لمقاومتهما من أعظم ما تقوم به وزارة الصحة العمومية فى مصر .

خواطر فى الأدب

ودراسة نصوصه ونقدها

للأستاذ أحمد مظهر العظمة ، ٧٤ ص قالبين ، مطبعة الترقى بدمشق

الأستاذ أحمد مظهر العظمة رئيس تحرير رصيفتنا مجلة (التمدن الاسلامى) بدمشق ، وعضو لجنة التربية والتعليم فى وزارة المعارف السورية ، وقد سبق لنا التنويه بكتابه (مذاعات فى الاسلام) فى جزء رمضان من العام الماضى . وبين أيدينا الآن هذا الكتاب (خواطر فى الأدب) من مؤلفاته . وهو ينطوى على فصول : الأدب وإصلاح المجتمع ، ملاحظات على أدبنا الحديث ، جمال الأسلوب ، دراسة النصوص الأدبية ، البحترى يصف الإيوان ، ابن الرومى يرثى البصرة ، موازنة بين نكبة البصرة ونكبة دمشق ، النقد الأدبى ، الذوق والنقد الأدبى . فنلفت إليه الأنظار .

اليمامة

صحيفة أدبية نفيسة صدرت من الرياض عاصمة نجد ، وهى الصحيفة الأولى فى تاريخ هذا القطر العربى الصميم ، لمديرها ورئيس تحريرها الأستاذ الشيخ حمد الجاسر أعلم من نعرفهم اليوم بأنساب العرب وجغرافية البلاد العربية ولا سيما الشمالية منها . وقد اطلعنا على الجزء الأول منها لشهر ذى الحجة المنصرم فرأيناه حافلا بالفصول الممتعة والتحقيقات القيمة مما يعز مثله فى الأقطار العربية العريقة فى الصحافة . وإذا استمرت هذه المجلة فى طريقها كما يريده لها منشئها الفاضل ، فإنا نرجو أن تكون إن شاء الله من مفاخر الثقافة فى جزيرة العرب .

الأدب والعلوم فى شهر

المؤتمر العلمى العربى

انعقد فى أواخر شهر ذى الحجة المنصرم المؤتمر العلمى العربى الأول فى الاسكندرية وعرضت عليه بحوث علمية بلغت نيفاً وستين بحثا قال عنها الدكتور مصطفى نظيف رئيس المؤتمر إن فيها ابتكاراً وفيها إضافات جديدة للعلم لا يقل مستواها عما ينشر فى المجلدات العلمية الغربية . وقد أثبتت شعبة البحوث المبتكرة أن فى الأمم العربية بداية حركة علمية صحيحة تبشر بمستقبل زاهر . وسوف تنشر فى سجل أعمال المؤتمر باللغة العربية .

وألقيت فيه من المحاضرات خمس فى تاريخ العلم عند العرب . ووردت ست محاضرات أخرى لم يتسع الوقت لإلقائها .

وعالج المؤتمر هذه المشكلات الأربع :

المصطلحات العلمية .

التأليف والترجمة والنشر .

إعداد مدرسى العلوم .

العلم والاقتصاد القومى .

وكل مشكلة من هذه المشكلات لاتزال محتاجة إلى أن تتهيأ الفرصة الكافية لدراستها دراسة كاملة .

وقد اتفق الرأى فى اجتماع الرؤساء والوفود ومقررى اللجان والأمين العام المساعد للجامعة العربية ومدير الإدارة الثقافية على أن يتقدموا إلى المؤتمر باقتراح إنشاء (اتحاد علمى عربى) يكون هو الجهاز العملى الذى يتحقق بواسطته التعاون العملى بين أبناء العروبة ، تتولى تأسيسه هيئة تؤلف تحت إشراف الإدارة الثقافية للجامعة العربية . وستبذل الجهود الممكنة لإنشاء هذا الاتحاد على أسس وطيدة ، ويسعى لدى مؤتمر وزراء المعارف العرب الذى سيعقد فى الأسبوع الثانى من المحرم للحصول على المساعدات الأدبية والمادية لمشروع الاتحاد العلمى العربى

أصل النيل :

كان المعتبر أن أصل النيل من بحيرة كبرى فوق الهضبة الاستوائية أطلق الإنجليز عليها اسم (فكتوريا نيانزا) . وقد تبين بعد ذلك أن فى تنغانيقا نهرين يطلق الوطنيون عليهما إسمى (زوفوفو) و (كاجيرا) يلتقيان فى غابة كثيفة بالقرب من (رواندة) ويؤلفان الأصل الأول للنيل عند انصبابهما فى بحيرة فكتوريا نيانزا ويكون منهما حينئذ شلالات رائعة قلما يوجد نظير لها فى بقاع أخرى .

وقـــد وصل أخيرا العالم الجغرافى مستر لوملى إلى هـذه الشلالات ولمح فى جذع شجرة تواجه هذا المكان تجويفا وضعت فيه جرة من زجاج ذات غطاء لولبى ، فلما فتحها وجد فيها ورقة موقعا عليها فى أوقات مختلفة بخمسة أسماء لرحالين من الألمان تاريخ أقدم توقيع منها سنة ١٨٩٠ ويقول صاحبه إنه أول رجل وصل إلى منبع النيل . وقـد أضاف لوملى توقيعه فى هذه الورقة وأبقاها فى مكانها .

مكتبات المدارس المصرية

شكا كاتب فى الأهرام (٩ ذى الحجة) من أن الاعتراف بالمكتبات فى المدارس المصرية لا يعدو أن يكون رمزاً ، والغالبية العظمى منها عبارة عن مخازن للكتب يسوء الباحث فيها ما بها من إهمال وسوء نظام ، وليس لها دستور غير « لائحة المخازن » التى لا تطلب من أمين المكتبة إلا سلامة « العهدة » أما إدراك الأغراض التى تنشأ من أجلها المكتبات ، وتيسير تدريب التلاميذ على استعمال الكتب والإفادة منها ، وتوفير المادة التى تثير رغبات التلاميذ وتشبع ميولهم خارج نطاق المنهج الدراسى ، وإعداد الأطفال لفهم نظم المكتبات العامة ، وغرس الميل إلى القراءة فى نفوس التلاميذ . فهذه أمور لا حظ لها من العناية والاهتمام فى مكتبات المدارس المصرية .

الخوف من الجامع على الجامعة

فى إحدى الصحف اليومية ركن يزعم أنه يريد الاتجاه « نحو النور » ولكنه يريده من غير نور الله ، ولذلك يخطىء القصد كثيراً ويتعثر الناس بما فيه من ظلمة . وقد أحس هذا الركن فى تلك الجريدة بأن جامعة القاهرة تنوى أن تنشىء مسجدا ، لأن المصلين كثروا جدا بين طلبتها وصار المسجد حاجة من حاجاتهم ، فانبعث من ذلك الركن فى تلك الجريدة صوت يقول « لسنا نحب أن يختلط الأمر علينا فيصبح حرم العلم المحرر من كل قيد للبحث والرأى ، المطلق من ارتباطه بدين من الأديان أو معتقد من المعتقدات ، وكأنه مخصص لدين معين أو معتقد معين » .

وقد سمعنا طلبة من جامعة القاهرة يقولون عندما وقع نظرهم على هـذا الكلام : إن الجامعة اليوم زاخرة بطلبة يرون حاجتهم إلى المسجد لا تقل عن حاجتهم إلى قاعة الدراسة ، بل حاجتهم إلى المسجد أعظم . وكاتب « نحو النور » عندما يرسل مثل هذه الصيحات يرسلها من ركن مظلم ، ولو أنه خطا خطوات أخرى نحو النور لعلم أن الجامعة اليوم غير الجامعة التى كان يعرفها لما كان طالبا

عميد كلية الحقوق
يتكلم عن نظام الإسلام

سأل مندوب إحدى المجلات الأسبوعية الدكتور عثمان خليل عثمان عميد كلية الحقوق

عن رأيه فى فصل الدين عن الدولة فى العصر الحديث ، فأجابه « أنا شخصياً لم أشعر فى يوم - وأنا بصدد التفكير فى مواد الدستور - أنى أفكر فى الأمر كمسلم ، إلا فى لحظات محدودة حدثنى فيها بعض الأشخاص عن هذا الموضوع . واعتقادى الشخصى أن النص على أن دين الدولة هو الإسلام لا ينفع مسلماً ولا يضر غيره . وأملى أن يبحث هذا الموضوع من ناحية مصرية فقط ، ثم قال « إن الإسلام لم يفرض على الناس نظاماً معيناً للحكم : وإنما فرض أساسين هما الشورى والعدل . فكل نظام يتفق مع الزمن ومقتضياته يعتبر صحيحاً من الناحية الإسلامية ما دام يحقق الأساسين السابقين أما ما يخالف الشرائع أو ما قد يبدو أنه يخالفها من أحكام تفصيلية فهذا مرده إلى القوانين العادية لا إلى الدستور » .

وقد توخينا نقل هذه الجمل من كلام عميد لكلية حقوق مصرية لنسجل ناحية من نواحى التفكير عند ذوى المكانة العلمية فى الفقه والتشريع من أبنائنا . وليفكر العلماء بالتشريع الإسلامى فى مبلغ انطباق هذا الكلام على دين الأمة المصرية . ثم أليس من مهمات الدستور فى أمة مسلمة أن ينص على وجوب تحرى وجهة الإسلام فى الشورى والعدل ، وعلى اشتراط مبادىء تلائم دين الأمة عند سن قوانينها .

تنظيم الأزهر

تألفت لجنة عليا برآسة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر لإعادة تنظيم الأزهر وتنقيح مناهجه ، وتكوين الطالب الأزهرى تكوينا يعده للاضطلاع برسالة الإسلام فى خلقه وتوجيهه الإسلامى وتجهيزه بالعلم النافع الذى يعينه على مهمته السامية بعد إتمام دراسته .

وقد اختار حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر لعضوية هذه اللجنة العليا أربعة من أعضاء جماعة كبار العلماء وهم أصحاب الفضيلة الدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج ، والدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز ، والشيخ محمود شلتوت ، والشيخ عبد اللطيف محمد السبكى ، وصاحبى الفضيلة الشيخ محمد البسيونى زغلول شيخ معهد دسوق ، والشيخ طه محمد الساكت المفتش بالأزهر ، وحضرة الأستاذ محمد أحمد الغمراوى أستاذ الكيمياء فى كلية الطب بجامعة القاهرة سابقا ، والأستاذ محب الدين الخطيب رئيس تحرير هذه المجلة الذى تولى سكرتارية اللجنة العليا .

وقد افتتح عمل اللجنة بتلاوة تقرير مطول كتبه رئيس تحرير هذه المجلة عن مواطن الضعف فى المناهج الحاضرة وضرورة إعادة النظر فيها لتتمشى مع حاجة العالم الإسلامى الحاضرة ولتكون أكثر استجابة

لمقاصد الإسلام وتحريا لأهداف رسالته .

وقد أخذت اللجنة العليا فى دراسة هذه الأمور من أسسها ، وستمضى فيها بعزيمة وحكمة بقدر ما ييسر الله لها من أسباب النجاح والتوفيق .

العربية بالبنك الأهلى

أصدر الأستاذ أمين فكرى محافظ البنك الأهلى قراراً بعد عيد الأضحى بأن تكون العربية اللغة الرسمية للبنك وفروعه وتوكيلاته فى أنحاء الجمهورية المصرية فتكتب بها دفاتره ومراسلاته وتكون بها معاملاته وأعماله .

العربية

فى مؤتمر هيئة الأغذية والزراعة

فى مستهل الجلسة الخامسة للمؤتمر الإقليمى الثالث لهيئة الأغذية والزراعة وقف رئيس وفد المملكة العربية السعودية السيد أحمد عبيد مدير الزراعة وقال إنه يلاحظ - مع الأسف والدهشة - أن اللغة السائدة فى مداولات المؤتمر هى اللغة الإنجليزية ، رغم وجود سبع دول عربية ممثلة فى المؤتمر . فقال رئيس المؤتمر : هذه المسألة كانت محل بحث فى جلسة سابقة ، أى قبل حضور السيد أحمد عبيد وتوليه رياسة الوفد السعودى ، ورأى أن تكون هناك لغة موحدة يفهمها جميع أعضاء المؤتمر . ولهذا وقع الاختيار على اللغة الإنجليزية . فعاد مدير الزراعة السعودى وقال إنه لا يسعه إلا أن يطلب العودة إلى مناقشة هذه المسألة بمناسبة حضوره أول جلسة للمؤتمر عقب وصوله من بلاده ، وأضاف قائلا : إن وجود سبع دول عربية فى المؤتمر كان خليقاً أن يجعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية لمداولات المؤتمر ومناقشاته ، وإن عدم الأخذ بذلك واختيار لغة أجنبية كاللغة الإنجليزية لتكون وسيلة التفاهم بين الأعضاء فى مداولاتهم أمر يتنافى مع المنطق والواجب والكرامة ، وعلى أثر ذلك ، اتخذ المؤتمر قراراً بأن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى المناقشات .

مدينة جامعية بدمشق

صدر مرسوم تشريعى بإنشاء مدينة جامعية فى دمشق تضم أبنية لإيواء الطلبة ، وأندية ، وملاعب ، ومطاعم وقد أبيح للدول العربية وللهيئات أن تنشىء فى هذه المدينة أجنحة للطلبة بموافقة وزير المعارف السورية .

مدرسة عربية فى القدس :

تبرع سمو الأمير سعود ولى عهد المملكة السعودية بمائة ألف جنيه لإنشاء مدرسة ابتدائية فى القدس تتسع لخمسمائة تلميذ يتلقون تعليمهم الإبتدائى مجانا ويقدم لهم الطعام واللوازم المدرسية ، وقد تبرع بمائة ألف جنيه أخرى لنفقات المدرسة .

أنباء العالم الإسلامي

ميثاق الضمان الجماعي العربي

من الميزات العسكرية لميثاق الضمان الجماعي العربي أنه جعل من الجيوش العربية جيشا واحدا . وسيجعل كل جيش عربي منفردا في نوع خاص من الأسلحة يتمشى وطبيعة جنوده وإن اللجنة العسكرية تراقب التطورات الخاصة بذلك بوسيلة عملية عندما تجرى الجيوش العربية مناوراتها المشتركة .

وقد رسم الميثاق الطرق أمام الدول العربية في تحالفها مع الغرب بأن لا تسلك أية دولة في علاقاتها الدولية مع الدول الاخرى مسلكا يتنافى مع أغراضه .

أما ميزات الميثاق من الوجهة الاقتصادية فأهمها أنه جعل من الدول العربية (وحدة اقتصادية) يكمل بعضها البعض الآخر . وسيترتب على ذلك أن تمنع الدول العربية كل تدخل أجنبي في اقتصادياتها الكثيرة المتنوعة ، وتقيم سداً في وجه الغرب الذي كثيرا ما عبث باقتصاديات الشرق .

المغرب وجامعة الدول العربية

استعرض مجلس جامعة الدول العربية الحالة العامة في كل من مراكش وتونس والاحداث الخطيرة التي تسود أرجاء هذين القطرين الشقيقين .

وقد أحيط المجلس علماً بما أقدمت عليه السلطة الفرنسية من خلع سلطان مراكش سيدي محمد بن يوسف ونفيه وأسرته إلى جزيرة كورسيكا .

وإن جامعة الدول العربية - التي تعتبر القضية المراكشية قضية عربية تهدف إلى الحرية والاستقلال - تستنكر أشد الاستنكار هذا العدوان على السيادة المراكشية ، ويرى مجلس الجامعة أن هذا التدبير الجائر يتجافى مع ميثاق الامم المتحدة ، فضلا عما فيه من انتهاك صريح المعاهدات الدولية الخاصة بمراكش .

وأن دول الجامعة العربية التي تحرص على رعاية الأماني الوطنية للشعب المراكشي الشقيق ، تعلن أنها لا تعترف بأي حال من الاحوال بالاوضاع غير الشرعية التي فرضتها السلطات الفرنسية في مراكش وقد كانت دول الجامعة العربية تأمل أن تحترم فرنسا القرارات التي أصدرتها الامم المتحدة بشأن

تونس ومراكش . وتسلك سبيل المفاوضه السياسية للوصول إلى حل سلمى عادل يقوم على أساس ميثاق الأمم المتحدة . ولكن فرنسا قد تجاهلت مشيئة الأسرة الدولية .

من أجل هذا رأى مجلس الجامعة ، كخطوة أولى ، أن تواصل الوفود العربية وإلى جانبها بقية وفود المجموعة الآسيوية الافريقية لدى الأمم المتحدة الجهود السياسية لبسط ظلامة هذين القطرين الشقيقين أمام الجمعية العامة فى دورتها الحاضرة . وتعبئة جميع الجهود الدولية فى أروقة الأمم المتحدة لتحقيق الحرية والسيادة لهذين القطرين الشقيقين .

ومجلس الجامعة إذ يرقب الحالة فى مراكش وتونس بالمزيد من الاهتمام والعناية يواصل تأييده لمراكش وتونس فى كفاحهما الباسل لنيل الحرية والسيادة والاستقلال .

ويأمل مجلس الجامعة أن تستطيع الجمعية العامة فى دورتها الحاضرة حمل فرنسا على تلبية الأمانى المشروعة فى مراكش وتونس تجنباً لاتخاذ (تدابير معينة) يلح الرأى العام العربى فى اتخاذها .

رد الطعن لفرنسا

تساءل الدكتور محمد صلاح الدين فى مقال كتبه لإحدى الصحف الاسبوعية فى القاهرة ماذا تفقد مصر لو قررت قطع العلاقات السياسية بفرنسا : وأجاب : انها لا تفقد شيئا ، ولذلك يجب ألا تخشى شــيئا .

وتساءل : ماذا يخسر الشعب المصرى لو قرر مقاطعة فرنسا اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا وأجاب : انه لن يخسر شيئا ، إلا بعض مظاهر المتعة والترف - إذا صح أن يعتبر هــذا خسرانا - وهو مع ذلك يستطيع أن يستبدل بها متعا أخرى يستوردها أو يسعى إليها فى غير فرنسا .

ثم قال : وما ينطبق على مصر حكومة وشعبا ينطبق كذلك على العراق والمملكة السعودية والمملكة الأردنية واليمن المتوكلية ، بل على سوريا ولبنان اللتين تخلصتا بحمد الله من نير فرنسا . ومن الخير أن يكون خلاصهما منه شاملا كاملا لاتشوبه أية شائبة من أى سبيل .

الحق أننا نستطيع أن نرد على اللطمات المؤلمة التى يوجهها الاستعمار الفرنسى إلينا بلطمات مؤلمة مثلها دون أن نخشى شيئا . بل أنا أعتقد مخلصا أن مقاطعة فرنسا رسميا وشعبيا ، سياسيا واقتصاديا وثقافيا واجتماعيا ، هو أحسن السياسات لخير القضايا العربية كلها .

ولاية كشمير

الأستاذ الأكبر يدعو إلى استفتاء أهلها

أذاع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر البيان التالى يوم ٧ ذى الحجة ١٣٧٢ (١٧ / ٨ / ٥٣) :

« اطلعنا على الأنباء الواردة عن الحالة في ولاية كشمير .

« ولما كان هذا القطر إحدى الولايات التي كان يترأسها الأمراء ، وترك لها - عند تقسيم الهند إلى هندستان وباكستان - حق تقرير مصيرها ، ثم أيد مجلس الأمن هذا المبدأ وقرر بواسطة لجانه المعينة لدراسة هذه المشكلة تسويتها عن طريق استفتاء حر نزيه ، والشعب الكشميري نفسه يرى لنفسه حق تقرير المصير .

« لذلك نسدي خالص النصح لكل من لهم علاقة بهذا الأمر بأن يبادروا حالا إلى حل هذه المشكلة بإجراء استفتاء حر نزيه في جميع أنحاء ولاية كشمير عن رأيها وإرادتها في تقرير مصيرها ، إبقاء على المودة والتعاون في القارة الهندية والشرق الناهض ، ولإعادة الطمأنينة والاستقرار في هذه البقعة العزيزة على الجميع ، وعملا بالحق الذي أعطى لهذه الولاية عند تقسيم الهند إلى هندستان وباكستان ، ولا يمكن التحلل منه إلا بتحقيقه في الحال ، ونعتقد أن في ذلك مصلحة الجميع ، وبذلك يتفرغ الشرق إلى واجباته نحو نهضته التي نرجو من الله لهم فيها كل توفيق ونجاح » .

إيران

طال أمد التنافس على الاستئثار بالحكم في إيران بين الشاه ورئيس وزارته الدكتور مصدق ، حتى وصلت الحال في البرلمان الإيراني بين أنصار مصدق ومعارضيه إلى المهاترة والضرب وما لا يستطاع وصفه .

فأجرى مصدق استفتاء عاما لحل هذا المشكل كانت نتيجته خذلان أنصار الشاه وانتصار مصدق بتأييد حزب تودة انتصاراً جارفا .

وقيل إن مؤامرة دبرت لإحداث انقلاب عسكري لصالح الشاه . ولكن سرعان ما أحبطها مصدق يوم ٦ ذي الحجة (١٦ أغسطس) وقبض على زمام الموقف وفر شاه إيران إلى العراق ومنها إلى أوربا .

وما لبث أنصار الشاه أن استأنفوا نشاطهم وقاموا بمظاهرات لحقت بها الفصائل العسكرية التي استطاع الجنرال زاهدي تعبئتها بسرعة ، فأخذ مصدق على غرة ، وسقطت حكومته ، وقبض عليه ، وعاد شاه إيران إلى بلاده .

ومن ثم ارتفعت أسهم الشركة البريطانية للبترول الإيراني ، واستبشر الأمريكيون خيراً ، ولا يزال مصدق معتقلا تحت يد حكومة الجنرال زاهدي . وقد أعلن الشاه أن خزانة الدولة الإيرانية خاوية ، وأنه يرحب بالعون من أية دولة لإنقاذ البلاد .

إيران ودولة إسرائيل :

كانت دولة إيران قد اعترفت في سنة ١٩٤٨ بدولة إسرائيل ، ثم سحب الدكتور محمد مصدق هذا الاعتراف في عهد حكومته الأولى .

ولما سقطت حكومة مصدق الآن توقعت الأمة العراقية المجاورة لإيران أن تعود إيران للاعتراف بدولة اليهود، فأرسل علماء العراق برقية مستعجلة إلى الحكومة الإيرانية يحذرونها من الوقوع فى هذه الزلة، ثم تألف وفد من كبار رجال الدين وبعض الشخصيات العراقية لزيارة طهران ومقابلة الشاه والجنرال زاهدى رئيس الوزراء والمداولة معهما فى هذا الأمر الذى لا يليق بحكومة تنتسب إلى الإسلام

والظاهر أن حكومة العراق أيضاً كتبت إلى حكومة إيران تلفت نظرها إلى هذا الأمر وتحذرها منه. فأجاب الجنرال زاهدى على ذلك بأن هذه المسألة لم تكن موضوع بحث، ووعد بأن لا تعترف إيران باسرائيل.

تقدم مصر العسكرى

قال رئيس الجمهورية المصرية لمراسل وكالة اسوشيتد برس لمناسبة مرور عام على توليه رآسة لوزارة: لم يزد الجيش المصرى وحداته المقاتلة بإضافة جديد إليها كجنود المظلات فحسب، ولكنه توسع أيضاً فى التدريب الفنى وقطع شوطاً بعيداً فى إنشاء المصانع العسكرية التى ستزود الجيش عما قريب بما هو فى حاجة إليه من أسلحة وعتاد.

تكتل العرب العسكرى

خطب رئيس أركان حرب الجيش المصرى فى (مؤتمر رؤساء جيوش العرب) المنعقد فى القاهرة فى منتصف ذى الحجة (٢٦ أغسطس) فقال:

« لقد انتهى وقت العمل الفردى، ولم يعد جهد الدولة بمفردها — مهما عظم — مجديا. فلابد من التكتل والتكاتف. ولقد اجتمعنا اليوم لوضع أسس ذلك. لقد رسم لنا (ميثاق الضمان الجماعى للدول العربية) خططه وأساليبه، وحدد لنا ولممثلينا أعضاء (اللجنة العسكرية الدائمة) واجبات وحدوداً. فعلينا نحن العسكريين أن ندرس هذه الواجبات والاختصاصات دراسة وافية، لإصدار التوصيات، ولتوجيه اللجنة العسكرية الدائمة ثم دراسة مقترحاتها. لنتقدم بها إلى (مجلس الدفاع المشترك). ورائدنا فى ذلك أن نتقدم إلى هذا المجلس الموقر بما يزيد جامعة الدول العربية قوة ويرفع من شأنها ويؤيد كلمتها. وإنى أقدر بعد نظر واضعى المعاهدة، فلم يقصروها على المواضيع العسكرية، بل أضافوا إليها مسائل (التعاون الاقتصادى)، وكانا يعلم أهمية الاقتصاد والحرب الاقتصادية فى الحروب العصرية، وكانا يقدر ما للعلاقة بين السياسيين والعسكريين من أهمية. والواقع أن كسب الحرب يتطلب تكاتف السياسى والاقتصادى والعسكرى، فالأول يفكر، والثانى يهيء ويعبد، والثالث يدعم ويؤيد.

فعلينا أن نتحقق من أن تكون دراستنا مبنية على الفهم الصحيح للأوضاع السياسية والاقتصادية حتى تزف الدول العربية نشيداً قويا تسير على خطاه القوات النظامية وشباب العروبة أجمعين بخطا قوية في طريق النصر والقوة .

فرق للرماية بالمدارس

صدر قرار وزارى من وزارة المعارف المصرية بإنشاء فرقة للرماية بكل مدرسة ثانوية وما فى مستواها والمعاهد العالية . ويبدأ تنفيذ هذا المشروع من أول العام الدراسى القادم .

اليمن يستعين بالغرب :

قال الأمير سيف الاسلام الحسن رئيس وزراء اليمن لمندوب الاهرام : أجرينا منذ سنتين اتفاقا مع إحدى شركات الزيت الألمانية لاستغلال البترول الموجود فى أراضينا ، ثم توقفت الأبحاث بسبب التعويضات الألمانية لاسرائيل . وبعد أن اتضح موقف الدول العربية من ألمانيا بصورته الاخيرة أتممنا ما بدأنا البحث فيه ، فأكملنا الاتفاق الخاص باستغلال البترول ، وستتحمل الحكومة اليمنية نفقات التنقيب ، على أن تتولى الشركة - من بعد - جميع الأعمال الخاصة باستخراجه ، بشرط أن تنال الحكومة اليمنية ٧٥ ٪ من الارباح وللشركة الباقى إلى أن تستوفى أموالها التى أنفقتها . ومدة الاتفاقية ٩٠ عاما . وتركنا الباب مفتوحا بشأن إنشاء معمل تكرير إلى أن نحصر الأماكن التى يوجد فيها البترول وكميته . والاتفاق حدد الأماكن التى سيدور التنقيب فيها ، وللحكومة اليمنية مطلق الحرية فى الاستعانة بشركات أخرى للتنقيب فى مناطق أخرى .

ولقد اتفقنا مع شركة كروب لاستغلال الفحم والحديد ، وستبدأ الشركة عملها بعد شهر واحد .

واستعانت اليمن ببعض الضباط الاتراك والعراقيين لتدريب الجيش اليمنى .

واستعنا بالخبراء الايطاليين فى تشييد مصنع للأسمنت ، وستتألف شركة مساهمة من الايطاليين واليمنيين لإنشاء المصنع المذكور .

واستعنا كذلك ببعض الايطاليين للتنقيب عن الفحم فى بعض المناطق التى لم تعط للخبراء الألمان ، فاذا ثبت وجود الفحم أمكن حينئذ الاتفاق مع الشركة الايطالية .

احياء الصحراء الغربية :

يقوم عدد من ضباط الجيش المصرى والخبراء فى المدة الأخيرة بإحياء ستة آلاف فدان من الصحراء فى منطقة (فوكه) بمعاونة

« النقطة الرابعة » . وقد أخذت الجرارات والهراسات والمحاريث الميكانيكية والآلات الزراعية الحديثة تشق الأرض هناك وتبث فيها البذور والمياه لزراعة أنواع معينة من النباتات التى تصلح للمراعى . وقد كانت هذه الجهات أرضا زراعية فى زمن الرومان ، وكانت فيه أهراء الحبوب التى تغذى أوربا . ولما أهملت زراعتها فى أواخر الدولة الرومانية جرفت السيول الطبقات الخصبة من التربة إلى البحر فتحولت هذه الأرض إلى صحراء معطلة . ولقيام هذا المشروع الإحيائى الآن استعين بواسطة النقطة الرابعة ببعض الخبراء الامريكيين الذين مارسوا مثل هذا العمل فى صحراء أريزونا الأمريكية وبالآلات الصالحة لهذا العمل . وتدل التجارب على أن هذا المشروع سيكلل بالنجاح ، وستربى فى هذه المنطقة أنواع جديدة من الأبقار المكسيكية المهجنة لتوفير كمية كبيرة من اللحوم الجيدة .

صندوق الزكاة :

قام قسم التشريع بمجلس الدولة بصياغة مشروع قانون يقضى بإنشاء صندوق للزكاة بوزارة الشئون الاجتماعية يتلقى أموال الزكاة على أن تتولى لجنة عليا الإشراف على صرف الأموال المتجمعة من الصندوق فى أوجهها الشرعية .

افلاس نظام الاستعمار :

أعلن مسيو بيير منديس فرانس (أحد السادسة الذين كانوا مرشحين لرئاسة الوزارة الفرنسية) فى بيان نشرته صحف باريس الحقائق الآتية :

« ان نظم القرن التاسع عشر الاستعمارية قد عفى عليها الزمن . ومحمياتنا ومستعمراتنا القديمة فى حاجة إلى تغيير . وكلما كانت حكوماتنا تحاول تعديل سياستنا فى هذه المناطق - ولو تعديلا يتسم بالجبن - كانت تقف فى وجهها معارضة قوية لم يمكن التغلب عليها حتى الآن » .

وبعد أن ذكر فشل فرنسا فى الهند الصينية قال « إن لنا أن نتساءل : هل أفدنا من هذا الدرس ؟ وها ان أخطاءنا فى شمال أفريقيا تنجلى عن عواقب أوخم » .

سخاء بريطانى !

منحت حكومة الاستعمار البريطانى فى كينيا خمسة وعشرين جنيها لجندى وطنى من جنود البوليس مكافأة له على قتله شقيقه من رجال جماعة ماو ماو !

بترول ساحل الخليج العربي

بدأ استنباط البترول من طبقات الأرض السعودية قبل الحرب العالمية الثانية بسنة ، ولم يكن غزيراً وواسع النطاق ، فلم يصل إلى مليون طن مترى إلا فى سنة ١٩٤٤ . ثم ارتفع فجأة إلى ١٢ مليون طن فى سنة ١٩٤٧ وبلغ ٢٦ مليونا سنة ١٩٥٠ وقفز إلى ٣٧ مليونا سنة ١٩٥١ وإلى ٤٣ مليونا فى يونية سنة ١٩٥٢ .

وفى سنة ١٩٤٦ بدأ إنتاج البترول فى الكويت حتى إذا حلت سنة ١٩٥١ بلغ فيها ٢٨ مليون طن وفى سنة ١٩٥٢ بلغ ٣٧ مليونا وهو فى ازدياد .

وفى مقاطعة قطر قدر انتاج البترول بنحو ٣ ملايين طن وربع ولوحظ أن الأنابيب تتسع لأربعة ملايين ونصف مليون . ويستخرجون البترول فى قطر من آبار فى اليابسة وفى البحر .

أما فى جزر البحرين فلا يزيد انتاج البترول منذ بضع سنين على مليون ونصف مليون طن .

ويقدرون عدد العمال الذين يعيشون من صناعة البترول فى المملكة السعودية والكويت وقطر والبحرين بنحو خمسين ألف عامل .

الانجليز والفرنسيون فى ليبيا

فى حكومة ليبيا ٢٧٤ موظفاً انجليزيا يتقاضون مرتبات سنوية قدرها ٢٣٢ ألف جنيه و ٢٧٣ جنيها فى حين أن الإعانة البريطانية لليبيا لم تكن تزيد على مليون و ٢٠٠ ألف جنيه .

ولفرنسا فى منطقة فزان ٢٥ موظفاً تبلغ مرتباتهم ١٦٧٦٥ جنيها فى حين أن الإعانة الفرنسية لا تزيد على ٦٢ ألف جنيه ، وتريد فرنسا أن تعرض بقاء قواتها فى فزان لقاء هذه الإعانة التى يصرف جزء كبير منها للموظفين الفرنسيين .

الأمريكيون فى البلاد الاسلامية

أعلن السناتور دوجلاس فى مجلس الشيوخ الأمريكى أنه يرى أن يفعل سفراء امريكا فى البلاد الإسلامية ما يفعله المسلمون ، أى أن يمتنعوا عن شرب الخمر . وسيطالب خفض الاعتمادات المخصصة للحفلات الدبلوماسية بمقدار مئة ألف دولار ، على أن لا يصرف شىء من هذه الاعتمادات فى شراء مشروبات كحولية للسفارات والمفوضيات الأمريكية فى الدول الإسلامية .

وحبذا المجاملة فى حقوق الأوطان كالمجاملة فى آداب المجتمع .

مؤتمر إسلامي في نيروبي

دعت جماعة حماية الإسلام في نيروبي علماء المسلمين وزعماءهم في أفريقية الشرقية إلى مؤتمر يتداولون فيه الرأي للوصول إلى أحسن الوسائل لنشر الثقافة الإسلامية في تلك المنطقة فانعقد المؤتمر في أيام ٢٠ و ٢١ و ٢٢ من شهر ذي القعدة برياسة الشيخ عبد العليم الصديقي وقرر :

١ — تأسيس مركز للدعوة الإسلامية تذكارا للعلامة السيد عبد الله شاه رحمه الله وتقديراً لجهوده الموفقة لخدمة الإسلام في تلك الجهات .

٢ — إنشاء مدرسة تسمى (دار العلوم الإسلامية) لتخريج الدعاة للإسلام في أفريقية الشرقية .

٣ — إنشاء مكتبة علمية إسلامية .

٤ — نشر معاني القرآن الكريم وأحكامه وآدابه باللغة السواحلية .

٥ — تأسيس مكتب للتأليف والطبع والنشر بمختلف اللغات .

٦ — وضع رسالة تبين الأخطاء والدسائس في ترجمة القرآن باللغة السواحلية التي وضعتها جماعة الغلام القاديانى وتحذير المسلمين منها .

٧ — إنشاء بيت لإيواء المهتدين إلى الإسلام .

٨ — إنشاء بيت لكفالة الأيتام ورعاية المعوزين .

٩ — إنشاء مستوصف لمعالجة الفقراء

١٠ — شكر الملك عبد العزيز آل سعود على ما بذلته حكومته من التسهيلات لدفن الداعية الإسلامي السيد عبد الله شاه في جنة البقيع .

١١ - شكر سلطان زنجبار لإنشائه (المعهد الإسلامي) ورجاء العناية بتوسيعه وزيادة المدرسين والطلاب .

١٢ - شكر مشيخة الأزهر الشريف لإرسالها البعوث إلى إريتريا ومقديشو مما كان له أطيب النتائج في نشر الثقافة الإسلامية .

١٣ - اقتراح إنشاء معاهد دينية في أوغندة وتنغانيقا ونيروبي على غرار المعاهد الأزهرية .

١٤ - رجاء حكومة كينيا العدول عن ذبح المواشي بضربها على جبهتها وتحذير المسلمين من تناول لحوم هذه الذبائح اتقاء للشبهة .

١٥ - شكر الجوالة الإسلامية على جهودها والإهابة بها أن تزيد عدد رحلاتها إلى القرى والأرياف لخدمة المواطنين وتحبيب الإسلام إليهم .

فهرس

الجزء الأول — المجلد الخامس والعشرون

مجلة الأزهر

تصدر عن مشيخة الأزهر

في أول كل شهر عربي

سنويا عشرة أعداد

متعهدو المجلة في الخارج

شركة فرج الله	
دار الكتب العربية الشرقية بجاكرتا	
محمد خوجة	في تونس
محمد علي بقعيقص	« بني غازي
مصطفى الدراج	« طرابلس الغرب
مكتبة المؤيد	« المنامة ــ البحرين
المكتبة العربية والمكتبة الوطنية	« الرياض

وفي السودان من :

زكي إفلاطوس	« الخرطوم
ناصر محمد	« الدويم
مكتبة ديورة	« العطبرة
مكتبة الصحافة	« [illegible]

رئيس التحرير
محب الدين الخطيب
العنوان
إدارة الجامع الأزهر بالقاهرة
تليفون ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعية
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

الاشتراك السنوي
٥٠ في مصر والسودان
٣٠ للطلبة في مصر والسودان
٦٠ في الخارج
٤٠ للطلبة في الخارج
ثمن الجزء ٥

الجزء الرابع - القاهرة في غرة ربيع الآخر ١٣٧٣ - ٨ ديسمبر ١٩٥٣ - المجلد الخامس والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

صور لطلاب العلم :

يتيم من مصر العتيقة

... وكان الطفل يوم مات عنه أبوه في رجب ٧٧٧ هـ لم يكمل السنة الرابعة من عمره ، وكانت مصر العتيقة - التي ولد فيها الطفل ونشأ بين بيوتها - كأنها الشمس بعد غروبها ، لأن العبيديين جنوا على الفسطاط - في أول عهدهم - بانصرافهم عنه إلى القاهرة سنة ٣٥٨ ليسدلوا سجف الإهمال والنسيان على البقعة التي حمل إليها أصحاب رسول الله ﷺ نور الهدى ودين الحق فسطعت أشعته وانتشرت من وادي النيل إلى إفريقية فجبال الأطلس حتى استنارت بها لجج بحر الظلمات . واجتاز قبس منها مضيق الزقاق إلى أوربا ، فتبلج في آفاق الأندلس أبهج أضوائها . ولولا خدعة من خدع الأراجيف صدرت عن جواسيس شارل مارتل لجازت على الأبطال المجاهدين تحت ألوية عبد الرحمن الغافقي لكانت العربية لغة فرنسا وأوربا الآن ، ولكان نظام الإسلام العادل الرحيم هو نظام الأوربيين والأمريكيين جميعاً . كل ذلك بفضل أشعة النور الأولى التي انتشرت من هذا الفسطاط الأعظم الذي تحول عنه العبيديون إلى القاهرة في عهدهم الأول ، ثم ختموا في عهدهم الأخير جنايتهم على هذه البقعة المباركة بإحراقها سنة ٦٦٤ ، فاستمرت ألسنة الحريق تلتهم من عمرانها

رئيس التحرير
محب الدين الخطيب
العنوان
ادارة الجامع الأزهر بالقاهرة
تليفون ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

الاشتراك السنوي
٥٠ في مصر والسودان
٣٠ للطلبة في مصر والسودان
٦٠ في الخارج
٤٠ للطلبة في الخارج
ثمن الجزء ٥

الجزء الرابع ـ القاهرة في غرة ربيع الآخر ١٣٧٣ ـ ٨ ديسمبر ١٩٥٣ ـ المجلد الخامس والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

صور لطلاب العلم :

يتيم من مصر العتيقة

... وكان الطفل يوم مات عنه أبوه في رجب ٧٧٧ هـ لم يكمل السنة الرابعة من عمره ، وكانت مصر العتيقة ـ التي ولد فيها الطفل ونشأ بين بيوتها ـ كأنها الشمس بعد غروبها ، لأن العبيديين جنوا على الفسطاط ـ في أول عهدهم ـ بانصرافهم عنه إلى القاهرة سنة ٣٥٨ ليسدلوا سجف الإهمال والنسيان على البقعة التي حمل إليها أصحاب رسول الله ﷺ نور الهدى ودين الحق فسطعت أشعته وانتشرت من وادي النيل إلى إفريقية لجبال الأطلس حتى استنارت بها لجج بحر الظلمات . واجتاز قبس منها مضيق الزقاق إلى أوربا ، فتبلج في آفاق الأندلس أبهج أضوائها . ولولا خدعة من خدع الأراجيف صدرت عن جواسيس شارل مارتل لجازت على الأبطال المجاهدين تحت ألوية عبد الرحمن الغافقي لكانت العربية لغة فرنسا وأوربا الآن ، ولكان نظام الإسلام العادل الرحيم هو نظام الأوربيين والأمريكيين جميعاً . كل ذلك بفضل أشعة النور الأولى التي انتشرت من هذا الفسطاط الأعظم الذي تحول عنه العبيديون إلى القاهرة في عهدهم الأول ، ثم ختموا في عهدهم الأخير جنايتهم على هذه البقعة المباركة بإحراقها سنة ٥٦٤ ، فاستمرت ألسنة الحريق تلتهم من عمرانها

ومن معالم الإسلام فيها مدة أربعة وخمسين يوما بلياليها ، إلى أن ذهبت النيران بما لا يمكن أن تتصوره العقول من مساجد ومدارس ومؤلفات قديمة نفيسة فى علوم الشريعة والعربية والأدب والتاريخ والتراجم وسائر فنون العرب والإسلام مما لا متسع للتحدث عنه فى هذا المقال. ومن بعد هذا الحريق الرهيب تسربلت أطلال الفسطاط بسرابيل الكآبة والحزن ، ثم أفاقت من غشيتها بعد عشرات السنين ، فأخذت تسترجع وعيها ، وتقيم على ذكريات العزة والمجد منازل متواضعة حول أول مسجد أقيم للإسلام تحت سماء مصر ، فعاد العمران الحزين يطل بأعناقه مرة أخرى فيما بين النيل وتلول عين الصيرة ممتداً نحو الشمال ، حتى إذا انطوى بعد هذه الفاجعة قرن آخر من تاريخ الإسلام فى مصر صارت عروس « الفسطاط » الأولى تعرف عند الناس فى شيخوختها باسم « مصر العتيقة » ، وفيها ولد هذا اليتيم الذى أحببت أن أتحدث عنه إلى طلاب العلم فى موسم افتتاح الدراسة هذا العام ، لتكون لهم فى سيرته أسوة ، وليكون لهم من الطريق الذى سلكه إلى أهدافه طريق يسلكه خيارهم ونجباؤهم إلى أهدافهم ، بل لتكون لهم من حياته صورة مشرقة تحبب إلى كل ذى نفس غالية عليه من طلبة هذا العام أن يحاول بعزيمة صادقة ونفس راضية السير فى طريق « يتيم مصر العتيقة » . ولا أذيع سراً إذا قلت لهم إن هذا اليتيم كان يدعى : أحمد ابن حجر العسقلانى (٧٧٣ — ٨٥٢) .

قلت فى صدر هذا المقال إن أحمد فقد جناح رحمة الأبوة ، فغدا يتيما من سنة ٧٧٧ ولما يكمل السنة الرابعة من عمره. فلما مر على موت أبيه الحول الأول حضر إلى بيته وصيه الشيخ زكى الدين الخروبى فأخذ بيده وذهب به إلى الكتاب ليتعلم القراءة والكتابة ويحفظ كتاب الله . وكان الشيخ زكى الدين يتعهده - مع الزمن - بجميل الوصايا ، ومنها أن يحب العلم لله ليحبه الله ، وأن يكون صادق العزيمة فى حفظ كتاب الله الحكيم ، وقد حدثه بما لذلك من عظيم المثوبة عند الله فى الدنيا والآخرة ، ولا سيما إذا أخلص نيته فى ذلك لله عز وجل . وقد نصح له بأن يوجه مداركه كلها إلى ما تصل إليه يده من زاد الحكمة ونعمة العلم ليكون عما قريب رجلا وجيها عند الله وعند الناس . وما كاد أحمد يتقن القراءة والكتابة وتتفتح مواهبه للحق والخير حتى عاهد ربه على كل ما كان ينصح له به وصيه الشيخ زكى الدين الخروبى . وروى المؤرخون الذين زينوا كتبهم بباقات عطرة من زهور سيرته أنه حفظ سورة مريم — وهى ثمان وتسعون آية — فى يوم واحد . ولما بلغ التاسعة من عمره

(سنة ٧٨١) كان قد أتم حفظ كتاب الله وبعض متون الشريعة وقواعد العربية وغيرها ومنها العمدة فى أحاديث الأحكام للحافظ عبد الغنى المقدسى، والحاوى الصغير فى فقه الشافعية للنجم القزوينى، ومختصر ابن الحاجب فى أصول الفقه، وملحة الإعراب للحريرى منشىء المقامات، وغير ذلك. وفى أواخر سنة ٧٨٤ بدا له أن يقصد بيت الله الحرام ليحج فى موسم الحج وليلبث بعده مجاوراً فى مكة فيتلق العلم عن علمائها. وبالفعل استمر فى مكة سنة ٧٨٥ وبعض سنة ٧٨٦ وشرع فى تلقى الحديث النبوى فسمع صحيح الإمام البخارى من عفيف الدين عبد الله بن محمد النشاورى (٧٠٥ — ٧٩٠) وأخذ عن عالم الحجاز محمد بن عبد الله ابن ظهيرة المخزومى (٧٥٠ — ٨١٧) ، وأدى فى مكة امتحاناً عملياً فى حفظ كتاب الله فصلى به التراويح من أوله إلى آخره ليالى شهر رمضان سنة ٧٨٥ تجاه الكعبة المشرفة. وعاد فى سنة ٧٨٦ إلى مصر ليواصل طلب العلم على شيوخها بالهمة العالية التى وطن عليها نفسه وظهرت للناس آثارها حتى ذلك الحين ولما يبلغ الحلم.

وها هو ذا الآن فى بيته بمصر العتيقة، وقد بلغ الرابعة عشرة من عمره. لقد وجد نفسه واقفا على مفترق الطرق يسترجع بذاكرته ما مر عليه فى الحجاز، وما تلقاه عن علمائها من معارف لم يكن له عهد بها، وما اكتسبه قبل ذلك من أشياخ طفولته وصباه، وما كان ينصح له به نحوه من نصائح بدا له صدقها وعظيم نفعها فى تجارب سنواته القليلة التى تذوق فيها حلاوة العلم، وتمتع فى خلالها بمراقبة أخلاق العلماء المنقطعين للعلم والذين يبتغون به وجه الله وحده.

إن قليلا من التفكير السليم فى مثل هذه السن الطاهرة التى بلغها أحمد بن حجر، سيهديه - بلا شك - إلى طريق السلامة والعافية والسعادة، ليكون إن شاء الله من أهل الخلود.

لقد عول فتانا على أن تكون مهمته فى الحياة الإلمام بتركة الإسلام التى توارثتها ثمانية قرون مضت، فرسم خطته للاتصال بكل من أظلتهم سماء مصر من العلماء والأدباء والإخصائيين، ليأخذ عنهم خير ما عندهم، وليروى عنهم كل ما تفردوا بإتقانه من علومهم وما ورثوه عن شيوخهم من أمهات كتب الشريعة واللغة والأدب والتاريخ. حتى إذا استوفى ذلك وأتى منه على أقصى ما تستريح إليه نفسه، فإنه سيقوم بعد ذلك برحلات علمية إلى الأقطار الإسلامية ليستكمل ما عند أئمتها وأعلامها. لذلك رأيناه بعد أوبته

من الحجاز يغشى أبواب المدارس المصرية التي اشتهرت بنضوج علمائها ونشاط تلاميذها، وينتقل بين حلقات الدروس في المساجد الكبيرة، ويلازم كبار العلماء وأساطين المعرفة لينظر إلى أهدافه بعيونهم، ويسدد خطواته في طريقه على نور هداهم وتجاريبهم. قال معاصره الحافظ ابن فهد المكي (٧٨٧ - ٨٧١): «أول ما كان نظره في الأدب والتاريخ ففاق في فنونهما، وقال الشعر الحسن، وطارح الأدباء». ثم أخذ الحديث عن الحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي (٧٢٥ - ٨٠٦) وشهد له بأنه أعلم أصحابه في الحديث. وتفقه على جماعة منهم شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني (٧٢٤ - ٨٠٥) وهو أول من أذن له بالإفتاء والتدريس. وتتلمذ للشيخ سراج الدين عمر بن علي بن الملقن (٧٢٣ - ٨٠٤). وأخذ الأصول عن العز عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن جماعة الكناني، كما أخذ اللغة عن صاحب القاموس المحيط مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي (٧٢٩ - ٨١٧).

وفي تمام سنة ٨٠٠ ازداد شعوره بحاجته إلى وقته، وكان يضيع عليه منه شطر ثمين في كل يوم بالانتقال فيما بين مصر العتيقة والقاهرة، فتحول إلى مزدحم أقدام الطلاب، تاركاً وراءه في خطط الفسطاط ذكريات صباه وشبابه، وذكريات صبا الإسلام وشبابه في مصر، واتخذ لنفسه منزلا في القاهرة ليكون على مقربة من حلقات الدرس وخزائن الكتب ومعاهد العلم والعلماء.

وفي سنة ٨٠٢ — وكان قد ناهز الثلاثين — رأيناه قائماً برحلة في ديار الشام، فأدرك في دمشق بقية من تلاميذ محدث الشام الطبيب المؤرخ العالم القاسم بن مظفر ابن عساكر (٦٢٩ — ٧٢٣)، وتتلمذ هناك للعلامة زين الدين عمر بن محمد البالسي (٧٣٢ — ٨٠٣)، ولفاطمة بنت علي بن محمد بن المنجا التنوخية، وقد نوه بها في كتبه وقال إنه أكثر الأخذ عنها، ومع أنها شيخته عاشت بعده بضعا وعشرين سنة. وأخذ كذلك في دمشق عن فاطمة بنت محمد بن عبد الهادي المقدسية (٧٢٢ — ٨٠٣)، وقد أدركها قبل وفاتها بسنة واحدة، وقال: قرأت عليها الكثير من الكتب والأجزاء في صالحية دمشق بسفح قاسيون ونعم الشيخة كانت، وأخذ عن أختها محدثة دمشق عائشة (٧٢٣ — ٨١٦) وقرأ عليها كتبا عديدة، وقال عنها: إنها تفردت بالسماع من الحافظ

الحجاز ، وكانوا يسمونه « مسند الآفاق » ، ولبث ابن حجر بدمشق فى تلك الرحلة سبعين يوماً يستفيد فى كل يوم بل فى كل ساعة من علمائها ويفيد شبابها وطلابها ، حتى قيل إنه قرأ فى تلك المدة الوجيزة قريباً من مائة مجلس أو أزيد ، ورحل أيضا إلى بيت المقدس فأخذ فيها عن شمس الدين القلقشندى وبدر الدين بن مكى ومحمد المنبجى ومحمد بن عمر بن موسى ، وزار الخليل وأخذ فيها عن صالح بن خليل بن سالم ، ومر بالرملة فتلاقى فيها عن عالمها أحمد ابن محمد الأيكى ، وقصد غزة ليروى عن أحمد بن محمد الخليلى ، ولعل وصوله إلى هذه المدن الفلسطينية كان وهو فى طريق رحلته إلى دمشق ، أو عند عودته منها . ثم تعددت رحلاته إلى الحجاز ، وبلغ فى بعض ذلك إلى اليمن ، ولا غرض له فيها إلا لقاء العلماء والأخذ عنهم وربط صلته بشيوخهم وأسلافهم والاطلاع على مالم يكن اطلع عليه من المصنفات المهمة والنادرة .

وقد سجل روابطه بشيوخه وعلماء عصره فى مصر وسائر الأقطار بكتب ألفها وكانوا يسمونها « المعاجم » و « الفهارس » ثم صارت تسمى « الأثبات » . وهذا من آثار عناية السلف بالرواية ، وبيان مصدر كل فقرة من فقرات العلم ، وتسمية الشيخ الذى وصلت منه إلى تلميذه . وذلك لأن العلم فى الإسلام أغلى على أهله من المال ، وكما أن قاعدة « أنى لك هذا ؟ » يهتم لها البشر فى أمر المال ، فإن هذه القاعدة نفسها يهتم لها علماء المسلمين فى أمر العلم ، والعلم عندهم عبادة ودين ، وبهذه الطريقة يفتضح الكذبة الذين يأتون بالعلم المزيف ، والتاريخ الممـوّه ، والحديث الموضوع ، لأنهم مطالبون بأن يردوه إلى مصادره المحترمة والموثوق بها ، فإن لم تكن لهم هذه المصادر المحترمة بان للعلماء عوار بضاعتهم ، وتحاماها الناس ، واشتهرت فى سوق العلم بالتمويه والغش والتزييف . والرواية عند علماء المسلمين ولا سيما عند علماء الحديث كالأنساب للناس ، وكما أن فى الأطفال لقطاء لا يعرف الناس آباءهم ، فكذلك فى أخبار التاريخ ومرويات الحديث ومسائل العلم أخبار ومرويات ومسائل لا يعرف أصلها ، أو تلصق كذبا بأصول لا [illegible] لها بها ، وذلك من صنع الكذبة الوضاعين أصحاب الأغراض والأهواء والمذاهب الف[illegible] . ولكن علماء الإسلام وأعلامه من ورائهم يفضحون أغراضهم ويميزون الطيب من ا[illegible] بقواعد وقوانين ودراسات فى النقد دونوها وألفوا فيها الكتب . ولذلك صار كل عالم [illegible] لى أن يسمى شيوخه ، ويبين مصادر علمه . ومن خواتيم هذه العناية الكتب التى ذ[illegible] سمونها المعاجم والفهارس والأثبات . وللحافظ ابن حجر كتب يذكر فيها شي[illegible] كتاب (المجمع المؤسس ، بالمعجم

المفهرس) وهو فى مجلدين وتوجد مسودته بخط ابن حجر فى مكتبة الجامع الازهر ، وفى مكتبة الازهر كتاب آخر له فى مجلدين أيضا ، والظاهر أنه غير الاول واسمه (المعجم المفهرس) ، وله غيرهما (فهرس المرويات) وكان هذا الكتاب معروفا عند معاصريه والذين جاءوا من بعدهم .

ومن الاخلاق التى عرفت عن الحافظ ابن حجر فى سنوات طلبه للعلم ، وقد ذكرها معاصره الحافظ ابن فهد المكى ، أنه « كان فى حالة طلبه للعلم مفيداً فى زى مستفيد ، إلى أن انفرد فى شبابه بين علماء زمانه بمعرفة فنون الحديث لا سيما رجاله وما يتعلق بهم » . وهذا الخلق فى طالب العلم - أى أن يكون مفيداً فى زى مستفيد - هو من أخص آداب طلب العلم فى الإسلام ، وقد علموا بالتجربة أن « من تواضع لله رفعه » والكبرياء لا تجتمع مع العلم فى نفس واحدة . فإذا لقيت العالم وأنت لا تعرف منزلته فى العلم فانظر إلى تواضعه وكبريائه ، فكلما كان أكثر تواضعاً كان أكثر علماً ، وكلما كان صاحب كبرياء كان ذلك دليلا على فقره فى العلم . ولأن علماء المسلمين نشأوا على التواضع بارك الله لهم فى جهودهم وفى أوقاتهم ونفع الناس بمؤلفاتهم وعلومهم واستطاع الواحد منهم أن يؤلف عشرات الكتب ، وإن من علمائنا مئات ومئات تجاوز عدد مؤلفات الواحد منهم المائة بل المئات ، وهذا يتيم مصر العتيقة الذى نستعرض هذه الصورة الجميلة من حياته استطاع بالتواضع والمثابرة والصبر أن يكون نابغة مصر والعالم الإسلامى ، ولم يفارق هذه الحياة الدنيا إلا بعد أن زاد عدد مؤلفاته على مائة وخمسين ، والكتاب الواحد منها قد يكون فى بضعة عشر مجلداً وقد يكون فى بضع مجلدات وقد يكون فى مجلد ضخم . هذا مع ولايته القضاء أكثر من عشرين سنة ، ومع رحلاته المتعددة [illegible] سوريا وفلسطين والحجاز واليمن ، ومع إلقائه الدروس اليومية على الطلبة الذين صار [illegible] [illegible]ماء ، ثم على الذين صاروا علماء من بعدهم ، حتى قيل إن من تلاميذه الجد والأب وا[illegible] [illegible]ـر زمان بعد وفاة الحافظ ابن حجر لا يكاد الإنسان يجد فيه منتسباً إلى العلم [illegible] إلا وهو من تلاميذ يتيم مصر العتيقة أو من تلاميذ تلاميذه . فتى يا ترى وجد [illegible]ل الوقت الكافى لتأليف مائة وخمسين كتاباً مليئة بالاحاديث المنصوصة بأ[illegible] بالاقوال المعزوة إلى الأئمة والعلماء ، وبالتحقيقات النفيسة التى هى نتيجة [illegible] فضلا عن التراجم المحررة عن الرواة

والعلماء والحفاظ ، وكل كلمة فيها تحتاج إلى مراجعة وتنقيب وتثبت ؟ إن وقت أمثال الحافظ ابن حجر قد بارك الله فيه ، لأن صاحبه كان متخلقاً بأخلاق يرضى الله عنها ، ولذلك مكنه من جمع هذه الثروة العلمية لأمة بعث الله فيها رسوله بالعلم والهدى .

وبعد أن اجتزنا مع الحافظ ابن حجر هذه المرحلة من حياته نلقاه الآن وهو يناهز الاربعين ، والاربعون هى سن النضوج والحكمة ، فلا غرو إذا رأيناه مشمراً عن ساعد الجد لجرد تركة الإسلام والإحاطة بكنوزها ، وأثمن كنوزها ما حفظه سلفنا من أقوال بانى هذه الأمة وهاديها إلى الحق والخير صلوات الله وسلامه عليه وما صح عنه من أعمال . وابن حجر بدأ صلته بالحديث النبوى من رحلته الأولى إلى الحجاز سنة ٧٨٤ وكان لا يزال فى الثانية عشرة من عمره . فلما بلغ أشده واستوى اتصل بالحافظ زين الدين العراقى الذى شهد له بأنه أعلم أصحابه فى الحديث . ويقول الجلال السيوطى إن ابن حجر كان يحفظ ما يزيد على عشرين ألف حديث . ويقول مترجمو الحافظ ابن حجر إنه تولى تدريس الحديث فى خانقاه بيبرس نحوا من عشرين سنة وأملى ما يزيد على ألف مجلس فى الحديث من حفظه ، ونيط به التدريس فى المدرسة الجمالية ، وفى دار الحديث الكاملية بين القصرين ، ودرس التفسير فى المدرسة الحسينية ، وفقه الإمام محمد بن إدريس الشافعى فى المدرسة الخروبية البدرية ، ودرس مختلف العلوم فى القبة المنصورية ، وفى المحمودية ، والشريفية الفخرية ، وفى الشيخونية ، والصالحية النجمية ، والمؤيدية ، وفى الصلاحية المجاورة لإمامه الشافعى رحمه الله ورضى عنه . وهذه المدارس كانت يومئذ أعظم عناية بالعلم وتحقيقه والتعمق فيه من أرقى كليات هذا العصر . وسبب ذلك أنهم كانوا يطلبون العلم للعلم ولمرضاة الله عز وجل وعلى أنه عبادة ، أما فى زماننا المادى فالغالب على طلاب العلم أن يطلبوا به الدنيا ، وهم يشتغلون منه بما له سوق رائجة . وشتان ما بين القصدين ، وبين الثمرتين . ومن الحكم التى تعزى إلى السيد المسيح سلام الله عليه قوله « من ثمارهم تعرفونهم » . ولم يكتف ابن حجر بالقضاء والتدريس بل إنه تولى الإفتاء أيضاً بدار العدل ، وتولى الخطابة بالجامع الأزهر ثم بجامع حامل رسالة الإسلام إلى مصر سيدنا عمرو بن العاص رضوان الله وسلامه عليه . ولمحبة ابن حجر للكتب ورغبته فى مجاورتها تولى - فى جملة ما تولاه - خزن الكتب فى المدرسة المحمودية ، فكانت مكتبتها الكبيرة الثمينة كأنها مكتبته الخاصة يطالع فيها ويراجع ويؤلف ما شاء الله له أن يؤلف .

ولو لم يقم الحافظ ابن حجر بخدمة الإسلام غير تأليفه كتاب (فتح البارى) لكان ذلك كافياً لتخليده . وما كاد يتم تأليفه حتى تزاحم أعلام العلماء ونجباء الطلبة على استنساخه واقتنائه ، وبيعت النسخة منه فى حياة مؤلفه بثلاثمائة دينار ذهبا . وذهب المثل يومئذ بين علماء الحديث بأنه « لا هجرة بعد الفتح » لأن فتح البارى يغنى متدبره عن الانتقال عنه إلى غيره . وقد بلغ هذا الكتاب فى طبعاته المتعددة ثلاثة عشر مجلدا ، وكان الأقدمون يجزئونه فى ضعف هذا العدد ، ولو أنه طبع طبعة دراسة وتحقيق وعناية ومقارنة لخرج فى أربعين مجلداً وأكثر .

ولفتح البارى مقدمة فى مجلد كبير اسمها (هدى السارى) جمع فيها الحافظ ابن حجر جميع مقاصد فتح البارى .

أما الأحاديث النبوية التى هى من أدلة الأحكام فى التشريع الإسلامى فكان بين أيدى أهل العلم منها فى طفولة يقيم مصر العتيقة كتابان متداولان أحدهما مختصر صغير للحافظ وهو (العمدة) للحافظ عبد الغنى المقدسى وقد تقدم فى هذا المقال أن الحافظ ابن حجر كان يحفظه من طفولته . والكتاب الآخر مطول للدراسة وهو (المنتقى من أحاديث الأحكام للإمام مجد الدين بن تيمية جد شيخ الإسلام تقى الدين . وقد رأى الحافظ ابن حجر أن يجمع فى أحاديث الأحكام كتابا وسطا بينهما حتى إذا حفظه الطلبة كانت مادتهم فى أحاديث الأحكام أغزر ، ولذلك ألف كتابه الشهير (بلوغ المرام) . وإن الإنصاف العلمى والمذهبى الذى كان يغلب على أخلاق الحافظ ابن حجر فى فتح البارى وغيره من مؤلفاته كان مما أثر فى بعض نوابغ علماء اليمن فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ونرى أثر ذلك فى شرح السيد محمد بن اسماعيل الصنعانى (١٠٥٩ - ١١٤٢) لكتاب بلوغ المرام ، كما نجد مثل هذا الأثر فى شرح القاضى الشوكانى (١١٧٢ - ١٢٥٠) لكتاب المنتقى من أدلة الأحكام ، حتى لا يكاد قارىء الكتابين يشعر بأن مؤلفى الشرحين من كبار علماء الزيدية مع أن مؤلفى المتنين من كبار أئمة أهل السنة . وبمثل هذه الأخلاق ، ولا سيما خلق الإنصاف مضافا إلى خلق الإخلاص ، يكون التقريب المعقول بين أهل المذاهب ، لأن الإنصاف والإخلاص يجمعانهم جميعاً على احترام ما صح من سنة رسول الله ﷺ وإجلال حفظتها من الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان .

وهذا ما توافر فى كتاب (سبل السلام ، للسيد محمد بن اسماعيل الصنعانى وكتاب (نيل الأوطار) للقاضى الشوكانى . أما أن يأتينا رجال ينكرون السنة الصحيحة ويروجون الأحاديث المكذوبة ، ويبغضون الصالحين من أصحاب رسول الله ﷺ وتابعيهم وصادق الرواة عنهم ، ويدافعون عن شانئيهم والذين يفترون الكذب عليهم ، ثم يدعون الناس إلى التقريب ، فأى تقريب هذا بين الطيب والخبيث ، وبين الحق والباطل ، وبين الإسلام وضده ؟!

ومن كتب الحافظ ابن حجر فى الحديث (تسديد القوس ، فى مختصر مسند الفردوس) يوجد الجزء الأول منه فى مكتبة الأزهر بخط الحافظ .

ومن أوائل كتبه فى الحديث (تعليق التعليق) ، وقد عنى فيه بوصل ما ذكره الإمام محمد بن إسماعيل البخارى فى صحيحه معلقا ، ويوجد من هذا الكتاب فى المكتبة الأزهرية مخطوطة فى ستة أجزاء بمجلد واحد وعليها خط المؤلف . وقد اختصره المؤلف بكتاب سماه (التشويق) ، ثم اختصر هذا المختصر بكتاب (التوفيق بتعليق التعليق) .

ومن خدمته للحديث تأليفه كتاب (إتحاف المهرة بأطراف العشرة) وهو فهرس للأحاديث المدونة فى الكتب المشهورة ، وله فهرس خاص بمسند الإمام أحمد سماه (المسند المعتلى بأطراف المسند الحنبلى

ومن كتبه فى الحديث (المطالب العالية ، فى الزوائد الثمانية) ، و (تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة) ، و (تبصير المنتبه بتحرير المشتبه) .

وقد عنى بتخريج أحاديث الكتب المشهورة ككتابه (تخريج أحاديث الأربعين النووية) ، و (تخريج أحاديث كتا الأذكار للنووى) ، وله (تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب فى الأصول) وهو فى : ، و (تخريج أحاديث الهداية فى فقه الحنفية) الذى ألف فيه الزيلعى كتاب نصب ، ومن هذا الباب كتابه (التخليص الحبير فى تخريج أحاديث شرح الوجيز الرافعى) فى فقه الشافعية .

وله فى مصطلح الحديث (نخبة مصطلح أهل الأثر) وشرحه (نزهة الفكر فى توضيح نخبة الفكر) .

وكتبه فى تراجم رواة الحديث كتب وأعظمها ، منها (تهذيب التهذيب) طبع فى حيدر أباد الدكن بالهند فى ٢ هذب به كتاب « تهذيب الكمال فى أسماء

الرجال ، لمحدث الشام الحافظ المزى . ثم لخصه فى (نهاية التقريب) ، واختصره بعد ذلك فى (تقريب التهذيب) ، وكل منها نافع فى بابه وضرورى للمشتغلين بعلم السنة .

ومن تمام التعريف برواة الحديث العناية بالمطعون فيهم من الرواة ، وكان الحافظ الذهبى قد ألف فى ذلك (ميزان الاعتدال) فى ثلاثة مجلدات ، فنقحه الحافظ ابن حجر وزاد عليه وأخرج من ذلك كتابه (لسان الميزان) فى ستة مجلدات ، وقد طبع فى حيدر أباد الدكن بالهند .

وكما وفى الرواة حقهم ، فإنه قام بمثل ذلك لأئمة الرواة ورءوسهم وطليعتهم الأولى وهم أصحاب رسول الله ﷺ ، فبعد أن كان المتداول قبله فى هذا الباب كتاب (الاستيعاب) لحافظ الأندلس ابن عبد البر وكتاب (أسد الغابة) لابن الأثير الجزرى ، أخرج الحافظ ابن حجر كتابه الوافى الحافل وهو (الإصابة) فى أربعة مجلدات كبيرة فأصبح هو العمدة فى هذا الباب .

ولأنه كان قاضى قضاة مصر ترجم لأسلافه من قضاة مصر فى كتاب (رفع الإصر) وهو من أنفس الكتب .

وترجم لأهل القرن الثامن الذى عاش فيه ، وذلك فى كتابه (الدرر الكامنة ، فى أعيان المائة الثامنة) وقد طبع فى حيدر أباد الدكن فى أربعة مجلدات .

وترجم لأقرانه ولداته فى كتاب استمر على تأليفه إلى سنة ٨٥٠ ، وهو كتاب (إنباء الغمر ، بأبناء العمر) ، ومسودته بخط الحافظ ابن حجر فى دار الكتب الظاهرية بدمشق ، وكانت هذه المسودة إلى وقت طفولتى ضائعة فى ... مهمل بتلك المكتبة ، حتى قام شيخنا الشيخ طاهر الجزائرى رحمه الله فى رمضان ... ا (على ما أذكر) بتنظيم ، زكائب ، ذلك الدشت واستخرج منها مخطوطات أ ... ومنها مسودة الحافظ ابن حجر لهذا الكتاب ، وهى الآن معروضة للمطال... فى مكتبة العاصمة السورية .

إن الحافظ ابن حجر كان يتوقع ـ ق ... علمه فى الحديث النبوى ومعرفة رواته وتراجمهم وطبقاتهم ـ أن يكون أد ... شعر ويتفنن فى منثور القول وتدبيج الرسائل . غير أن إيمانه بضرورة جرد ... تنظيم نصوصه وتيسير فهمها وتمييز صحيحها من مريضها ، أنساه الشعر والأد ... سل . إلا أن ملكة البيان بقيت

متأصلة فيه ، فكان إذا سنحت له سوانح المعانى صاغها عفواً فى لطائف من الشعر تؤثر عنه ويتناقلها الناس . وأكتفى - بعد أن طال هذا المقال - بمثال واحد لهذه الناحية من مواهب هذا الرجل العظيم :

فى أواخر سنة ٨٢٠ مالت منارة جامع المؤيد التى بنيت على البرج الشمالى بباب زويلة وكادت تسقط ، واشتد خوف الناس من سقوطها ، فتحولوا من حواليها ، وكان المهندس الذى بناها يسمى ابن البرجى ، فأمر الملك المؤيد بأن تنقض ، فنقضت بالرفق إلى أن أمنوا شرها ، فنظم الحافظ ابن حجر فى هذه الواقعة هذين البيتين :

لجامع مـولانا المؤيد رونق منارته بالحسن تزهـو وبالزين
تقول وقد مالت عن القصد أمهلوا فليس على جسمى أضر من العين

وبلغ ذلك معاصره الشيخ بدر الدين العينى ، فظن أن ابن حجر عرض به ، فاستعان بالنواجى الأبرص - وكان شاعراً - فنظم له بيتين معرضاً بابن حجر ونسبهما العينى لنفسه وهما :

منارة كعروس الحسن إذ جليت وهدمها بقضاء الله والقـدر
قالوا أصيبت بعين ، قلت ذا غلط ما أوجب الهدم إلا خسة الحجر

وبلغت الكلمتان مسامع تقى الدين ابن حجة فقال :

على البرج من بابى زويلة أنشئت منـارة بيت الله والمعبد المنجى
فأخنى بهـا البرج الخبيث أمالها ألا صرحوا يا قوم باللعن للبرجى

والبرجى هو الذى كان قائماً على عمارة المنارة قبل أن تميل . ومثل هذه المطارحات كانت من اللطائف التى يتبادلها العلماء والأدباء على سبيل الفكاهة ، ويكون لهـا جميل الوقع فى المجالس والسهرات فى تلك الايام التى لم يكن فيها للناس صحف يتحدثون بمـا يرد فيها .

وبعد فإن الإلمـام بأعمال يقيم مصر العتيقة ، وما اتسعت له حياته المباركة من درس ، ومطالعة ، وتفكير ، وتأليف ، وتدريس ، ورحلة فى الاقطار - مضافا ذلك كله إلى ولايته القضاء الأعلى فى القاهرة ، والقضاء يومئذ واحد يشمل قضايا القطر - ليس ممـا تتسع له هذه الصفحات . وقد حاول تلميذه محمد بن عبد الرحمن السخاوى صاحب الضوء اللامع فى تراجم أعيان القرن التاسع أن يفرد ترجمة شيخه الحافظ ابن حجر فى كتاب مستقل لجاءت فى مجلدين اثنين ، ولو شاء رجل من أهل عصرنا أن يدون ما فى كتاب السخاوى بأسلوب يستوفى به

ظروف الوقائع ويجلوها لقرائه حتى يكونوا كأنهم معاصرون لها ومشاهدون لتطوراتها ، لجاء من ذلك كتاب أوسع وأبسط من كتاب السخاوى ، لأن ترجمة رجل كالحافظ ابن حجر هى تاريخ لعصره فى سياسته وثقافته وأخلاق عظمائه وآداب مجتمعه ومستوى طبقاته وأمانى الناس فيه وآمالهم ونواحى قوتهم ومواطن ضعفهم ، ولا بد لأمتنا أن تتعرف إلى رجالها فى العلم والسياسة والحرب والمال والأدب - من صدر الإسلام حتى الآن - على هذه الطريقة ، ليكون كل عصر من عصور تاريخنا الإسلامى نابضاً بحيويته أمام أنظارنا ، معلنا لفضائله ونقائصه بأصولها ونتائجها ، لتتم لنا العبرة بذلك ، ونعرف كيف وبماذا كنا من أهل الخير ، وبماذا ضاع منا ذلك الخير ، فصرنا ضعافا حتى سهل على المستعمرين الاستيلاء علينا ، والتصرف فى أوطاننا وعقولنا وقلوبنا وأذواقنا وأخلاقنا ، إلى أن صرنا كما أرادوا لنا أن نكون ، لا كما أراد لنا قائدنا الأعظم ﷺ أن نكون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ولو أن هذا اليتيم كان فى طفولته وصدر شبابه ضعيف العزيمة متوسط الهمة ، أو كان يطلب العلم ليعيش منه ، لذهب فى قافلة الموتى خاملا منسيا ، ولاضمحلت صورته فى ظلام الماضى كما تضمحل صور الموتى الخاملين فى كل يوم وفى كل ساعة ثم لا يذكرهم أحد بخير . بينما الرجل العظيم الذى يستعمل حياته القصيرة فى هذه الدنيا بما ينفع أمته ، ويوفر لها أسباب عظمتها فى الأخلاق وحسن التوجيه حتى تكون عظيمة بفضائلها وثرواتها الأدبية والمادية فإنه يبقى حيا مع الأجيال الآتية بعده كما كان حيا مع جيله ، ويذكره الناس بالخير ، ما تمتعوا بما خلف لهم من مآثر الخير .

أيها الطالب النجيب :

ها أنت الآن فى بداية سنة جديدة من حياتك فى طلب العلم ، فإما أن تكون نفسك عزيزة عليك فتقف جهودك كلها على طلب العلم للعلم وحده ، ولوجه الله وحده ، كما كان يفعل يتيم مصر العتيقة منذ كان يتيما إلى أن صار فتى وشابا ورجلا وشيخا جليلا ترفرف القلوب من حوله بمحبته وإجلاله ، وحينئذ ستجد نفسك سائرا فى طريق مفخرة الزمان ، زين الحفاظ قاضى القضاة شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلانى ، وأحسبنى قد أخذت بيدك منذ ساعة فسرت بك من ورائه خطوة خطوة ، حتى عرفته من بداية أمره يوم ولد فى سنة ٧٧٣ إلى أن ختم الله له بالحسنى بعد ثمانين سنة قمرية ، وأزيدك الآن أن مصر كلها


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

نفحات القرآن

— ١٠ —

سحر هاروت وماروت

[وما يعلمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر]

١ — تمهيد — من القضايا التي اتسعت لها جوانب القرآن ، وتناولها سياقه في غير موضع : قضية السحر والسحرة .

وما كان القرآن ليغفل ظاهرة عدية ـ كظاهرة السحر ـ أخذت مجراها على مسرح الحياة ، حتى اتصلت بالعقيدة ، وكانت مثار الجدل ، بل مبعث اللجاج بين فريقين يختصمان حول الحق والباطل ، وينقسمان حول الدعوة الدينية في بعض أزمنة النبوة .

والمتصلون بالقرآن يعلمون ما شجر من خلف صاخب بين فرعون وسحرته وبين موسى عليه السلام ، ويعلمون ما كان للسحر على فرعون وبطانته من تأثير ، ثم ما كان لموسى عليهم من الغلب : إذ بطل السحر ، وألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين . فكان من نفحات القرآن أن يبصرنا بتلك الظاهرة التي باتت مزلة للعقيدة ، وفتن بها خلق كثيرون .

ولكن . . من أي ناحية يعرض القرآن للسحر ، وله جوانب عدة ؟ ؟

عهدنا بالقرآن أن يعنى بجانب الموعظة والإرشاد ، ويسوق من الآيات ما يتصل بهدفه ، وينير المحجة لاتباعه ، ويقيم الحجة على مخالفيه .

أما ما بعد ذلك من غايات أخرى ـ كتاريخ السحر ، ووسائله ، وتطوراته ، وأنواعه ، وتفصيل آثاره ـ فقد لا يذكرها القرآن ، أو لا يذكر بعضها إلا عرضا ولتمام الفائدة . . وهو يدعها لبعدها عن مقصوده الأول ـ العظة ـ أو لأنها غير محدودة : فهي تختلف باختلاف الأزمنة ، وتتفاوت في تقديرها العقول .

وحديث القرآن عن السحر يتصل بموسى ، ويتصل بسليمان بن داود عليهم السلام ، ويتصل كذلك بهاروت وماروت من الملائكة المكرمين .

وقد ارتضيت أن أختار - سحر هاروت وماروت - مطلعاً للحديث لأن زمنهما أسبق من زمن موسى ، ومن زمن سليمان ، إذ كانا فى زمن إدريس ، وزمن إدريس قبل الطوفان ، وأما موسى وسليمان فهما من ذرية إبراهيم ، وبديهى أن إبراهيم وبنيه بعد الطوفان ، وسلام الله عليهم أجمعين .

ونظرة إلى الآيات « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان - إلى قوله تعالى عطفاً على ما ذكر - وما أنزل على الملكين ببابل : هاروت وماروت » توهم أن زمن سليمان أسبق تاريخاً لتقدمه فى الذكر ، وذلك فى بادىء الرأى يخالف ما أسلفت .

ويدفع هذا الوهم أن العطف بالواو - بين قضية سليمان وقضية هاروت وماروت - لا يفيد ترتيباً فى الزمن ، وإنما هو لمطلق الجمع فى السياق ، ولو كان المعطوف أسبق حدوثاً من المعطوف عليه - وذلك شأن مفروغ منه ، سيما أن القرآن الكريم لا يتقيد برعاية التاريخ ، فذلك غير ما يعنيه ، وما كان يغض من روعة القصة أن تكون على ترتيب الزمن فيبدأ فيها بذكر هاروت وماروت على ذكر سليمان .. ولكن الشأن فيما يبدو لنا يقضى بورودها على النمط الذى جاءت به . لأن سليمان رسول .. وقد لصق به السحرة من الأباطيل ما فيه كفر ، والله يغار على رسله من سفه أعدائه ، وأعدائهم ، وأعداء الحق .

فكانت الحكمة السامية أن تبادر الآيات إلى تبرئة سليمان عليه السلام مما عزى إليه « وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا » .

ولنا بعد هذا التمهيد أن نواجه الموضوع .

٢ — من تدبير الله فى ملكه أن يفضى إلى الملائكة بما كان غيباً ثم حان وقته فلم يعد غيبا ، وللملائكة فيما بينهم مناجاة بما ألقى إليهم من شئون كونية ، وكانت للشياطين جولات علوية تمكنهم أن يسترقوا السمع مما يدور بين الملائكة ، ثم تهبط الشياطين بما تلقفته ، وتخلط حقاً بباطل ، فتضيف إلى ما سمعت كثيرا من الأكاذيب الشيطانية ... وينتهون بذلك كله إلى أناس من الأشرار نصبوا أنفسهم للضلال «واتخذوا الشياطين

أولياهم ، فأصبح شياطين الجن وشياطين الإنس أعوان فتنة ودعاة إفساد « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ، ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » .

ثم ظهرت موالاة أناس للجن بشكل واضح فى عهد إدريس عليه السلام ، وكان علم السحر فاشيا حينئذ بين الناس ، فاستطاع السحرة أن يستعينوا بما يأخذون عن الشياطين : « شياطين الإنس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » ، وكانت وسيلة هؤلاء المفسدين إلى السحر تجارب وهمت لهم ، وصيغا حفظوها من كتب لا ندرى مصدرها ، كما كانت المنكرات وسيلتهم فى التقرب إلى الشياطين ، فهم يرددون ما يوسوس إليهم مردة الجن ، ويفعلون من الكفريات ما يعجبهم ، ويستهينون بما لا يقدم عليه إلا من خبثت نفسه ، وفسدت طويته وطاب له أن يمعن فى الشر قولا ، وعملا ، وعقيدة ليرضى شهوته وشيطانه .

راجت أباطيل السحرة بأرض بابل - بالعراق - فجرف الناس تيار السحر ، وفتنتهم تخيلاته ، حتى التبس عليهم الحق بالباطل وزعموا أو زعم كثير منهم ، جواز الأخذ به على الإطلاق فى غير حرج ، وتزعزعت عقيدة الناس فى كثير من الحقائق الدينية ، فظنوا أن السحرة يعلمون الغيب ، ويخبرون بالمستقبل ، وأن مقام السحرة أشبه بمقام الأنبياء ، وهكذا .

وكان من مرحمة المولى بخلقه من أهل تلك الديار أن يبعث إليهم من ملائكة السماء - هاروت ، وماروت - ليعلما الناس أن الشائع بينهم سحر ، بل ليعلماهم نفس السحر ، حتى يتبينوا أنه صناعة تكتسب بالتعلم ، وليس علما سماويا ، وأنه يستعان فيه بالوسائل المادية كالعزائم ، والرقى ، وأن محاولات السحر - وهى عمل إنسانى - قد تصح ، وقد لا تصح . وليس كذلك ما يكون من علم السماء .

إذا عرف الناس ذلك فقهوا وفطنوا إلى الصواب ، واهتدى من فيه صلاحية للهداية ، وكان من أمانة الملكين - كما عهد الله إليهما - أن ينصحا كل أحد من الناس قبل تعليمه ، فيقولا له [إنما نحن فتنة - ابتلاء - فلا تكفر] فلا تغتر بتعلمك السحر ولا تعتقد حله ، فتستبيح به المحظور .

وبهذا يتضح سبيل الرشد من سبيل الغي ، فمن انتصح واجتنب السحر من أولئك عقيدة وعملا - فهو المؤمن الثابت . ومن تطوع للشيطان فهو غوى من الغاوين ، فكأن تعليم هاروت وماروت امتحان من الله لعباده ، ليتبين لهم ما لا يعرفون من خبايا أنفسهم ، ولله سبحانه - أن يختبر خلقه بما يشاء ، حتى ينفي الخبث عن دينه ، ويبعد الزيف عن خلصائه [أحسب الناس ان يتركوا : أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم] .

ومع تحذير الملكين لمن ينصحانه لم تكن النفوس كلها خيرة : ففريقا هدى ، وفريقا حقت عليهم الضلالة ، واتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، وأصبح السحر لديهم مفسدة مستباحة ، يلحقون به الأذى بمن شاءوا ، ويغوون به من يركن إليهم ، ويفرقون به بين الصاحب وصاحبه ، بل بين المرء وزوجه . وبقي السحر ظاهرة فاشية ، يتوارثها من الخبيثين خلف عن سلف ، والشياطين يتعهدونهم بالإمداد من أكاذيبهم ، وإغوائهم ، إلى أن جاء عهد سليمان عليه السلام .

٣ — وهنا يرد على الخاطر سؤال : هو أن الطوفان فصل بين سابق ولاحق ، وذهب بالأشقياء ، ونجى الله منه نوحا ومن آمن معه ، فمن أين جاء الأشرار الذين يستحوذ عليهم الشياطين ، ويجددون على أيديهم بواعث الفساد حتى يصلوا إلى عهد سليمان من بعد ؟

والجواب الذي نحاوله : هو أن الطوفان كان عقوبة لأولئك الذين أسرفوا في كفرهم حتى تمردوا على نوح عليه السلام ، ولم تتحول به الدنيا إلى جنة مطهرة من الخبث والخبائث بل هي الدنيا على حقيقتها ، والشياطين فيها إلى أن يقضي الله فيها قضاءه .

ومعقول جداً : أن يكون في الناجين مع نوح من يكون عالما بالسحر لا ليستخدمه في الفساد فإذا تجددت الحياة ، واستأنف الناس فيها مذاهبهم ، ووجد فيهم من يتعلم السحر حديثاً فسيعود فيهم طراز من غواة الفساد ، ولو من ذرية نوح نفسه ، ومن ذرية المؤمنين به .

وما دام الشياطين على ما ألفنا منهم ، والمفسدون على ما عهدنا فيهم ، والدنيا دار امتحان وبلاء ، فلا غرابة أن تكون للسحر وللسحرة نشوة أخرى في عهد سليمان ، وأن يعود الفساد سيرته الأولى . وهذه سنة الله في دنياه ، وتعالت حكمته عن الريبة .

٤ — كانت معجزات سليمان عليه السلام : أن يركب الريح ، وأن تجرى بأمره ، وأن يتحكم في الجن ، ويستخدمها في الأعمال على اختلافها ، ويحضرها ، ويصرفها ، ويطلق

بعضها ، ويقيد بعضا ، وأن يجمع الطير إذا شاء ، ويرسلها إذا ما أحب ، وهكذا مما طلبه وأجيب إليه ، وحدثتنا عنه الآيات فى قوله سبحانه ، قال رب اغفرلى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب ، فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الأصفاد ، هذا عطاؤنا ، فامنن ، أو أمسك ، بغير حساب ، وفى قوله تعالى : « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ، وكذا فى قوله : « وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد ، أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذابا شديدا ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين . . الآيات » .

فى ضوء من هذه المعجزات نشط السحر ، وكثرت أباطيله ، ودأب الساحرون على إفكهم ليقاوموا هذه المعجزات ويكذبوها فى اعتبار الناس ، ويصوروا لهم أن سليمان لا يأتى بمعجز ، ولا يختص بتأييد من الله ، حتى تأثر بذلك جمهرة من البسطاء ، وحسبوا أنه لا فرق بين ما يصدر عن دعاة السحر وما يأتى به سليمان ، وأدى بهم ذلك إلى أن يزعموا للناس أن كتبهم التى يعتمدون عليها فى التعاويذ ، والرقى ، والأبخرة ، واستخدام الجن ، هى نفسها من كتب سليمان ، وكأنهم نجحوا أو كادوا فى إقناع أفراد من القوم بأن الكفر الذى يجرونهم إليه هو من دعوة سليمان التى جاء بها .

وغنى عن الإيضاح أن هذا نقض للرسالة من أصلها ، وأنه غاية ما يصدر عن المخالفين من خيانة لله ، وكيد خبيث لرسله ، والله لا يهدى كيد الخائنين . وإنما يبتلى بعض عباده .

« ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا ، فيجعله فى جهنم ، أولئك هم الخاسرون » .

٥ — ونحن الآن فى نقاش مع اليهود ، وما أكثر النقاش معهم !!

فكتابهم التوراة جاءهم بالحق من عند الله ، وكشف لهم من أمور الغيب ما يجب الإيمان به : من أحداث ، وأحكام ، ونبوات متجددة ، وليس فى كتابهم ، ولا فيما توارثوه عن أنبيائهم ، ولا فيما حدثهم به أحبارهم الأمناء . أن كتابهم آخر الكتب ، ولا أن النبوة تنتهى فيهم .

بل فيه تبشير بأن لله أنبياء منتظرين من غير بنى إسرائيل ، وفيه تمهيد للقرآن ،

وللنبي العربي الذى تنتهى به الرسالات . . فكان سهلا عليهم أن يطمئنوا ، ويعتقدوا فى غير ريبة ، وألا يجعلوا الأنانية سبيلا إلى المعتقدات الدينية .

ولكن مع استقرار أنباء التوراة فى وعيهم ، كلما حان الخبر من أخبار السماء أن يتحقق سارع أحبارهم إلى التكذيب ، وحفزتهم نزعة الأثرة إلى التبديل فى التوراة ، ونفضوا أيديهم من سابق علمهم الحق ، وركنوا إلى عماية الجهل المصطنع (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) .

فكان من شأنهم مع المسيح بن مريم - عليه السلام - ما لا يطيب لذى عقل وحساسية أن يقول به فى إنسان من جمهرة الناس : فضلا عن نبي مؤيد بكتاب مقدس من عند الله .

ولما جاء محمد - صلوات الله عليه - ووجدوا كتابه مصدقا لأنباء التوراة عن نبى العرب ورسالته زادهم حنقاً والتواء ، حتى أنكروا ما عرفوا ، وتجهموا للتوراة فيما حدثتهم به ونبذوا الأخذ بها فيما تطابق عليه القرآن والتوراة (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب - كتاب الله وراء ظهورهم : كأنهم لا يعلمون) ويكفى فى ترك التوراة أن يتركوا بعضها ، إذ الإيمان لا يتجزأ .

وبعد نبذهم للتوراة . اعتاضوا عنها — وواضح أن تارك الحق لا يجد عوضاً عنه إلا بباطل ، ضرورة أن الحق لا يتعدد . (فماذا بعد الحق إلا الضلال) ؟ ؟

كذلك كان — اعتاض المارقون من التوراة بالسحر ، فاتخذوه علماً وعملا وشعاراً ، ووجدوا فى ضروب السحر وآثاره مشتهاهم من السيطرة على الأوهام ومن جمع الأموال ، وإفساد العلائق ، وكل ما تبتغيه نفوس منهومة لا تعرف التريث فى سبيل غاياتها وإن جمحت أو تجاوزت الجموح .

وإذ كان السحر بالغا أشده فى عهد سليمان ، ومن قبله فى عهد إدريس منسوباً إلى الملكين لمز القرآن اليهود بإعراضهم عن الحق الصراح ، ولجوئهم إلى الباطل البواح ، فقال الله تعالى [واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان - على عهده - وما كفر سليمان - بعمل السحر - ولكن الشياطين كفروا : يعلمون الناس السحر - وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما

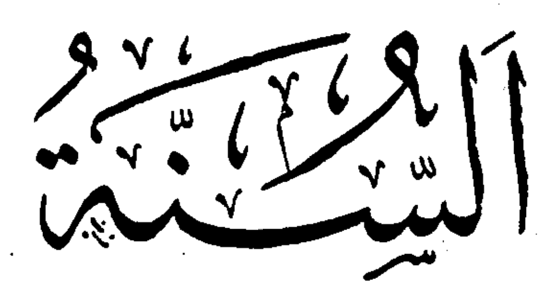
ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ـ اختاره علما وعملا ـ ما له فى الآخرة من خلاق] من نصيب . فاليهود هم الآخذون بالسحر الموروث عن عهد سليمان ، وعن الملكين من قبل ، التاركون للقرآن . وقد ظل السحر إلى يومنا هذا بابا من أبواب الشر ، ووسيلة من وسائل الضلال ، حتى ليتخذه بعض الغاوين وسيلة عيشهم ، وسبيلا إلى مخادعة الناس عن الدين وتعاليمه الحقة ، ويضاف إلى ذلك أن أغلب مدعيه جهلة بوسائله ، فهم يخوضون فى المنكر عن معرفة بأساليبه المرذولة مرة ، وعن جهل بها مرات .

بل يبلغ من تبذلهم وسفههم أن يوهموا على الناس بأنه آيات من القرآن ، وصيغ مشروعة ، وقد يصادف أن يتحقق شىء مما يعملون له فتتأصل الفتنة ، ويتركز الضلال [وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ، إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون] .

وبعد — فإن لله حكمة بالغة فى أن يكون بنو إسرائيل أصحاب الموقف البارز فى كل فتنة ثائرة ، وأصحاب محاولات ماكرة فى الفرار من الحق ، واللياذ بالباطل ، حتى لو لم يجدوه لاختلقوه ، فإذا وهن موقفهم ، ولم تسعفهم المعاذير نشطوا فى المراوغات كما كانوا ينشطون إلى قتل أنبيائهم : مبالغة فى تجافى الهداية ، وتأبيهم السمع والطاعة ، ولئن كان لهم نشاط فى عمارة الدنيا ، وإنهاض بعض الصناعات ، فإن ذلك وأضعاف ذلك لا يغير من نفسيتهم ، ولا يرفع من خسيستهم ، بل كلما برزوا فى الميدان الاقتصادى بانت لهم شرور كانت مكبوتة وابتدعوا رذائل كانت مجهولة ؛ فإن أفادوا فى جانب فهم يضرون فى جوانب ، ولعل الضرر منهم يرجح على نفعهم ، فإن شرف الأفراد والجماعات إنما ينهض على القيم الأدبية ، ويقاس بالمعنويات : أكثر مما ينهض على القيم المادية ، أو يقاس بالثروات .

وليت شعرى ! ! لو لم يكن من صنع الله أن تكون يهود كما عهدناها . . أكانت دعوات الأنبياء تتعثر بمثل ما تعثرت بهم ، أو كانت الجماعة الإنسانية تتصدع بمثل ما يصيبها على أيديهم ؟ ؟ ولكن الله أراد ...

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء



خصومة الأكابر

الخصومة من طبيعة البشر - موقف الإسلام من الخصومة - أنبل خصومة عرفها التاريخ - شذرة من مناقب العمرين - فضل الصديق على الفاروق - درس نبوى عظيم - درس إلهى أجل وأعظم - شعار الخيرين بعد الدرسين .

عن أبى الدَّرداء رضى الله عنه قال : كنت جالساً عند النبى ﷺ إذ أقبل أبو بكرٍ آخذاً بطرَف ثوبه حتى أبدَى عن ركبته ؛ فقال النبى ﷺ : أمَّا صاحبُكم فقد غامر . فسلَّم وقال : يارسولَ الله ، إنه كان بينى وبين ابن الخطَّاب شىء ، فأسرعتُ إليه ثم ندمتُ ! فسألتُه أن يَغفرَ لى فأبى علىَّ ! فأقبلتُ إليك . فقال : يغفر اللهُ لك ياأبا بكرٍ ! ثلاثا . ثم إنَّ عمرَ ندِم فأتى منزلَ أبى بكر فسأل : أثَمَّ أبو بكر ؟ فقالوا : لا ، فأتى إلى النبى ﷺ فسلم عليه ، فجعل وجهُ النبى ﷺ يَتمعَّرُ ! حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال : يارسول الله ، أنا كنت أظلمَ ! مرتين . فقال النبى ﷺ : إن الله بعثنى إليكم فقلتم : كذبتَ ! وقال أبو بكر : صدق ! وواسانى بنفسه وماله ؛ فهل أنتم تاركو لى صاحبى ؟ مرتين . فما أوذى بعدها .

رواه البخارى .

* * *

غامر : دخل فى غمرة الخصومة ، والمغامر : هو الذى يرمى بنفسه فى الأمر العظيم ، وأصل الغمرة : الماء الكثير .

يتمعر : يتغير وتذهب نضارته من أجل الغضب ، والظاهر أنه من قولهم : مكان أمعر إذا لم يكن به خصب ؛ وفى نسخة : يتمغر : أى يحمر ، كأنه صبغ بالمغرة .

واسانى ، وفى رواية : آسانى بالهمز ، وهى الأصل ، وعليها يقتصر بعض أهل اللغة ، والحديث حجة عليه : والمواساة : المعاونة .

تاركولى صاحبى ، بحذف نون الإضافة ، وفى رواية بإثباتها وهى الأصل ، ولذا قال أبو البقاء إن الحذف من خطأ الرواة ، أفلا يبلغ رواة البخارى عنده مبلغ رواة النحاة ؟! مع أن لمثل هذا الحذف بين المضافين فى العربية وجها وجيها وشاهدا .

* * *

الخصومة من طبيعة البشر فى هذه الحياة الدنيا ، لا معدى لهم عنها ولا محيص لهم منها ، ما داموا يختلفون ويتجادلون « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » . « وكان الإنسان أكثر شىء جدلا » .

بيد أنها تختلف قوة وضعفا ، ورفقا وعنفا ، وقصدا وسرفا ، تبعا لاختلاف الطبائع والميول ، والآراء والعقول ، وكبر النفوس وصغرها ، وعلو الهمم وسفلها .

ولا يؤاخذ الإسلام أحداً باختلاف أو خصومة فى سبيل الحق والجهاد فيه والعمل له ما دام سليم القصد حسن الطوية ، نزاعا إلى الخير ، ولو أخطأ فى بعض أحيانه قصد السبيل ، بل ربما يدعو الإسلام إلى الهجرة – وهى توءم الخصومة – إذا كانت سبيلا إلى التربية والتأديب . وفى هجرته ﷺ نساءه شهراً أبلغ حجة وأبين دليل .

كما لا يؤاخذ الإسلام أحداً كذلك بالنزغة ينزغها الشيطان فى مخاصمته لأخيه ، إذا استغفره أو استغفر الله له ، معترفا بذنبه ، عائذاً من الشيطان بربه ، غير مصر على ما فعل ، ولا مجادل فى الحق بعد ما تبين .

* * *

على هذا النحو من النبل فى الخصومة – إن لم يكن بد منها – كانت خصومة أصحاب رسول الله ﷺ فيما شجر بينهم ، وعليه تكون خصومة الذين جاءوا من بعدهم « يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم » .

وفى هذا الحديث مثل من أروع الأمثال فى شرف الخصومة ونبلها ، يضربه لنا الصديق والفاروق بين يدى الرسول الأكرم ﷺ فنرى فيه من أعاجيب الفضل والنبل والسودد

ثم من أساليب التربية والتزكية والتعليم، ثم من الاعتراف بالجميل لأهله، ما يجل عن وصف الواصفين.

* * *

كان بين الصاحبين الكريمين رضوان الله عليهما محاورة ومعاتبة، أسرع فيها الصديق إلى الفاروق فأغضبه.. انصرف عمر غضبان أسفاً! واتبعه أبو بكر نادما معتذرا! يسأله أن يتقبل عذره فلم يقبل، ويتوسل إليه أن يغفر له فلم يفعل، بل تحرز بعد الفرار منه بداره، وأغلق بابه فى وجهه! إنها الكبيرة، وسابقة جد خطيرة، ليس لها أن ترفع، إلا إلى الشفيع المشفع صلوات الله عليه وسلامه...

أقبل رضوان الله عليه، والرسول ﷺ ينظر إليه، وقد كشف عن ركبته، وأخذ من ثوبه بحاشيته، حتى سلم وجلس، وقص ما كان بينه وبين صاحبه لم يظلم منه شيئا، وما إن فرغ من شكاته، حتى طمأنه الرسول الكريم بدعوته: أن يغفر الله له، ثلاث مرار يكررها...

* * *

كان الفاروق رضى الله عنه فى هذه الأثناء راجع نفسه فندم على ما كان منه لأحب الناس إليه بعد رسول الله ﷺ، فليسرع إذاً إلى بيته ليغفر له ويتقبل معذرته، بل ليستغفره ويعتذر له! فلما لم يجده بمنزله أسرع إلى النبى ﷺ.. ومن خير المربين تلقى درساً شديداً قاسيا، غير أنه كان عظيم النفع، حميد العاقبة.

لم يكن درساً لعمر وحده، بل كان درساً للأمة كلها فى شخص عمر، ذلك الذى أعز الله به الإسلام، وفرق به بين الحق والباطل، وأعده لأمر عظيم هو أحق به وأهله، بعد أفضل الناس وأحبهم إلى رسوله وأولاهم به، ذلكم ثانى اثنين الله ثالثهما، ذلكم الصديق أبو بكر رضى الله عنه.

فليجلس عمر إذاً من الرسول ﷺ مجلس التلميذ من معلمه، ولا بأس إذاً بأن يعرض عنه صلوات الله وسلامه عليه مراراً، لأنه كان صاحب حق فأضاعه وصار مدينا، وليذكر - إن كان نسى - من هو أبو بكر؟ صاحب الأيادى البيضاء التى ذكرها أعرف الناس للصنيعة وأذكرهم لها صلوات الله عليه وسلامه، فقال فيما قال من فضائله التى لم يشرك فيها

أحداً غيره : إن من أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر ولو كنت متخذاً خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر [1] وقال : ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه بها ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة ، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر .

* * *

وبينا النبي ﷺ يؤنب عمر ويعتب عليه أن لم يقبل عذر أبي بكر ولم يغفر له بعد أن استغفره ، وكان الظن به ألا يحوجه إلى اعتذار أو استغفار ـ أشفق أبو بكر على عمر أن يناله من رسول الله ﷺ ما يكره ، فيبرك على ركبتيه معتذراً آسفا ، ويقسم للنبي ﷺ مرتين أنه كان أظلم ، لأنه هو الذي بدأ صاحبه بالإساءة ! وهنا يكف النبي ﷺ عن تأنيب عمر وتوبيخه ، ثم يذكر بعض مآثر أبي بكر ومناقبه وسبقه إلى التصديق برسالته ، ومؤاساته له بنفسه وماله ، ثم يختم حديثه عن أولى الناس به من صحابته بهذه الكلمة المدوية الجامعة : « فهل أنتم تاركو لي صاحبي ، ؟ ويكررها مرتين أو ثلاثا كما في بعض الروايات ، تلك الكلمة التي كانت فصل الخطاب ، في فضل مقدم الأصحاب ، فلم ينله من الصحابة رضوان الله عليهم مكروه بعدها .

* * *

وإذا أثمرت هذه الخصومة الكريمة بين العمرين ذلك الدرس النبوي العظيم ، فثمت درس إلهي أجل وأعظم ، لا يعنينا أن كان لاحقاً أو سابقاً ، ولكن يعنينا أنه تأديب رباني للناس كافة ، ولأولي الأمر منهم خاصة ، وفي مقدمتهم الإمامان الخيران : أبو بكر وعمر .

ففي صحيح البخاري وغيره أنه لما قدم على النبي ﷺ ركب من بني تميم قال له أبو بكر رضي الله عنه . أمّر عليهم القعقاع بن معبد ؛ وقال عمر رضي الله عنه : بل أمّر الأقرع ابن حابس : فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي ، وقال عمر : ما أردت خلافك . فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، ونزل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ، إلى قوله « عظيم ، فما كانا يكلمان رسول الله ﷺ بعد ذلك إلا سرارا .

اختصما في الخير والمصلحة للأمة ، ولكنهما افتاتا على رسول الله ﷺ ، إذ لم يكن

(١) رواه الشيخان والترمذي ، وروى الذي يليه الترمذي .

استشارهما ، ثم عزب عنهما أن مجلسه أجل وأرفع من أن يكون فيه تنازع أو صخب . وهما الأسوة الحسنة بعد رسول الله ﷺ ، فكان في هذه الآيات التأديب الإلهي الرائع ، الذي يملأ النفوس إجلالا وإكباراً للرسول الأكرم ، ويقى المراجعة أو المجادلة مما يشوبها من كدر الخصومة ولجاجها .

وكذلك كان هذا الأدب الرفيع شعارهما فيما يختلفان فيه بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وهما يقلبان وجوه الرأى ، لا وجهة لهما إلا الخير والمصلحة ، وسرعان ما يتفقان على ما هو أهدى سبيلا ، ومن ذلك اختلافهما في قتال مانعى الزكاة وكان رأى أبى بكر أن يأخذهم بالسيف حتى يؤدوها كاملة ، ورأى عمر مسالمتهم وتألفهم خشية أن يكون القتال نكبة على الإسلام والمسلمين ! ولكن عزم الصديق وهو الرفيق اللين ، غلب سلم الفاروق وهو المقدام الصنديد ! ومن ذلك اختلافهما في جمع القرآن كما أشار عمر وتحرج أبى بكر أن يفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ، فلم يزل يراجعه حتى شرح الله صدر أبى بكر للذى شرح له صدر عمر

* * *

هذا مثل من أمثال كثيرة في خصومة أولى الفضل والنبل ينادينا ألا تلغوا ولا تخاصموا فإن لم يكن بد من لغو أو خصام ، فحسبكم أن تمروا عليه مرور الكرام .

طه محمد الساكت

الهدم والبناء

قيل للخليل بن أحمد : استفساد الص[ديق] أهون من استصلاح العدو . فقال : نعم ، كما أن تخريق الثوب أهون من نسجه .

مَولدُ رَسُولٍ مَولدُ رِسَالة

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

أذاع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر السيد محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر الكلمة الآتية فى صباح يوم ١٢ ربيع الأول من دار الإذاعة المصرية :

يحتفل المسلمون الآن بمولد خير الخلق، المبعوث بالهدى ودين الحق .

إنه مولد الإنسان الكامل ، الذى ولدت بمولده رسالة الإنسانية الكاملة .

والإنسان الكامل الذى نحتفل بذكرى مولده ، قد تمكن - فى ثلاث وعشرين سنة هلالية قضاها فى حياته النبوية على الأرض - من أن يقدم للتاريخ أنموذجا للأمة المثالية يعرضه على الأجيال منذ نحو أربعة عشر قرنا ، لتقوم حجة الله على الناس فيما ينبغى لهم أن يأخذوا به ، وما ينبغى لهم أن يتحرجوا منه فيكونوا هم أيضاً صورة أخرى من صور الأمة الكاملة التى صنعها الله بيدى حامل أكمل رسالاته ، فإن فعلوا كانوا من أهل الهدى ودين الحق ، وفتح الله لهم كنوز السعادة ينعمون فيها بنعمة الطمأنينة والرضا ، إلى أن يلقوا الله راضياً عنهم وهم راضون عنه .

إن هذا المولود الكامل صلوات الله وسلامه عليه لم يكن فى زمن مضى ولا فى زماننا هذا بحاجة من الإنسانية إلى تخليد ذكراه ، فإن الله قد رفع له ذكره ، منذ شرح صدره للهدى والحق ، وقرن اسمه إلى اسمه عز وجل فى شهادة الملايين له آناء الليل وأطراف النهار بأنه أدى رسالة الله كاملة ، واعترفت له الأمم اختلاف العصور بأنه صنع من أمته أمة لا يعرف تاريخ الإنسانية أمة بلغت شأوها ثلها وأقدار ساداتها وعظمة عظمائها .

إن هذا المولود العظيم صلوات الله وسلا ن فى حاجة إلى إحياء ذكراه وتخليدها ، فإن الدهر يفنى ولا تفنى ذكراه الطيبة الخ كننا نحن معاشر المسلمين المنتسبين اليه ، المغتبطين بأننا من أهل الإجابة لدعوته ، و ة لأن يذكر بعضنا بعضاً بأن سعادتنا وهناءنا وكرامتنا وقوتنا وصدق انتـ هذه الذكرى - كل ذلك موقوف

على أن نعود إلى الأخذ برسالته وأنظمتها : فى أنفسنا وبيوتنا وأسواقنا ، ومجتمعاتنا ، ومحاكمنا ودور حكمنا ، فى كل ما اشتملت عليه هذه الرسالة الكاملة من أغراض ومبادىء وأخلاق وأحكام ومقاصد .

علينا أن نحتفل اليوم بإحياء ذكرى (رسالة الإسلام) فى عمومها وشمولها . وأول المظاهر فى إحياء هذه الذكرى أن نتخذ الأسباب للعمل بها ، وأول العمل بها أن يعمل بها كل مسلم فى ذات نفسه ، وفيما بسط الله عليه سلطان مسئوليته وولايته من أهل وولد ، أو أمة وبلد .

إن الرسالة التى بعث الله بها صاحب هذه الذكرى - سلام الله ورحمته عليه - تنحصر فى كلمتين اثنتين هما : « الحق » و « الخير » ، وإن وراء هاتين الكلمتين من مدلولات المعانى والأمانى ما لا آخر له ، ومجموع ذلك هو الإسلام الذى بعث الله به صاحب هذه الذكرى ﷺ . ولا نعرف أحداً يخاف الحق والخير أو ينهض منهما ويعارض فى إقامتهما وظهورهما ، إلا أن يكون مبطلا أو شريراً . ولذلك كانت رسالة الإسلام عامة إلى جميع الأمم فى كل زمان ومكان . وجدير بكل من يحب الحق والخير أن يتدبر رسالة الإسلام وما اشتملت عليه منهما ليعمل بما انطوت عليه من حق وخير بقدر ما يرى فيها من مواتاة الحق والخير ، وأن يصلى ويسلم عند ذلك على صاحب هذه الرسالة لأنها رسالة الإنسانية الكاملة ، والإنسان - من حيث هو إنسان - جدير به أن يؤمن بها ، وأن يكون من أوليائها ، وأن يحيى عليها إلى أن يموت عليها .

أيها المسلمون ، إذا كان الإنسان - من حيث هو إنسان - جديراً به أن يتدبر الرسالة التى ولدت بمولد هذا الرسول الكريم ، وأن يعمل بها ، وأن يصلى ويسلم من أعماق قلبه على المختار من الله لحملها والدعوة إليها وطبع أمم الأرض بطابعها ، فأنتم أجدر الناس بأن تعاهدوا الله فى هذه الذكرى المباركة بأن تجعلوا تدبر رسالة الإسلام أعظم أعمالكم ، وأن تؤمنوا بكل ما انطوت عليه من حق وخير ، وأن تعيدوا إليها جمالها بما يراه الناس من ذلك فى أعمالكم . وهذا العهد أو فى العهود لذلك ، ولا سيما فى ذكرى مولد خير الخلق ، المبعوث من الله بالهدى والحق ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه وكل من عمل برسالته . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ديوان مجد الإسلام

من بدائع الشاعر الإسلامي الكبير أحمد محرم رحمه الله

بتعليق الأستاذ إبراهيم عبد اللطيف نعيم

غزوة أحد

كانت فى شوال من السنة الثالثة ، وأحد جبل من جبال المدينة ـ لما أصاب قريشاً يوم بدر ما أصابها ، مشى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية إلى أبى سفيان ، وإلى من كان له تجارة فى العير التى كانت سبباً للموقعة ، وكانت لا تزال موقوفة فى دار الندوة ، يحرضون على الحرب ، وأن يجعل ربح التجارة لتجهيز الجيش . فقال أبو سفيان : أنا أول من يفعل ، وبنو عبد المناف معى ، ورضى القوم ، وكان الربح خمسين ألف دينار ، وقيل خمسة وعشرين ألفا ، وفى ذلك نزلت : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » .

* * *

أدأبك أن تريد المستحيلا ؟ تأمل أيها المولى قليلا

لبثت تعالج الداء الدخيلا وتضمر فى جوانحك الغليلا

وما يجديك لا يجديه فتيلا

أما تنفك تذكر (يوم بدر) وما عانيت من قتل وأسر

وراءك إنما الأقدار تجرى بنصر (للنبى) ووراء نصر

وكان الله بالحسنى كفيلا

(أبا سفيان) دع (صفوان) يبكى و (عكرمة) يطيل من التشكى

وقل للقوم فى بر ونسك نهيت النفس عن كفر وشرك

وآثرت المحجة والسبيلا

أراك أطعتهم وأبيت إلا   سبيل السوء تسلكه مدلا [1]
تريد (محمداً) وأراه بسلا   رويدك يا (أبا سفيان) هلاّ
أردت لقومك الحسن الجميلا ؟

(قريش) لم تزل صرعى هواها   و (عير الشؤم) لم تحلل عراها
أجل عينيك وانظر ما عساها   تسوق من الجنود إلى وغاها ؟
فقد حملت لكم أسفاً طويلا

دعا (صفوان) شاعره [2] فلبى   وكان يسومه شططاً فيأبى
أحل له الهجاء ، وكان خبا [3]   أحب من الخيانة ما أحبا
يريد العيش محتقراً ذليلا

يذم (محمدا) ويقول نكرا   ولولا لؤمه لم يأل شكرا
تغمد حقه [4] وجزاه شرا   وأمسى عهده كذبا وغدرا
ولاقت له منقلباً وبيلا [5]

ألم يمنن عليه إذ الأسارى   تكاد نفوسها تهوى حذارا ؟
تطوف به موطنة حيارى   تود لو انها ملكت فراراً
وهل يعطى عدو الله سولا ؟

---

(١) المدل الواثق بنفسه وبما لديه .

(٢) قال صفوان لأبي عزة : يا أبا عزة إنك رجل شاعر فأعنا بلسانك ، ولك على إن رجعت أن اغنيك ، وإن أصبت أجعل بناتك مع بناتي . قال : إني عاهدت محمدا حين أطلقني فيمن أطلق من أسارى بدر ألا أظاهر عليه أحدا . فقال صفوان : بل أعنا بلسانك يا أبا عزة . فخرج هو ومسافع يستنفران الناس .

(٣) الخب : الخداع .

(٤) تغمد حقه : أنكره واصل المعنى ستر الشيء وإخفاؤه .

(٥) ظفر به النبي صلى الله عليه وسلم في وقعة حمراء الأسد فأمر عاصم بن ثابت بقتله ، وحمل رأسه إلى المدينة .

(جبير[1]) أكان عمك حين أودى (كعم محمد) شرفاً ومجدا ؟
أ (حمزة) أم (طعيمة) كان أهدى ؟ رويدك يا (جبير) أتيت إدا
وإن قضاء ربك لن يحولا

أراد فما (لوحشى) محيد ولا لك مصرف عما يريد
أليس (لحمزة) البأس الشديد ؟ فما يغنى فتاك ، وما يفيد ؟
تبارك ربنا رباً جليلا

تولوا بالكتائب والسرايا[2] وساروا بالحرائر والبغايا[3]
منايا قومهم جلبت منايا فسيرى فى سبيلك يا مطايا
ولا تدعى الرسيم ولا الذميلا[4]

ويا خيل اركضى بالقوم ركضا وجوبى للوغى أرضاً فأرضا
لعل الناقم الموتور يرضى نشدتك ، فانفضى البيداء نفضا
ووالى فى جوانبها الصهيلا

ويا (هند[5]) اندبى القتلى ونوحى وزيدى ما بقومك من جروح
وراءك كل منصلت[6] طموح تهيج بأسه ريح الفتوح
وراءك فتية تأبى النكولا[7]

---

(١) جبير بن مطعم بن عدى دعا غلامه وحشيا ، وقال له : اخرج بحربتك مع الناس ، فانك إن قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمة بن عدى (وكان قتله حمزة رضى الله عنه فى وقعة بدر) فأنت عتيق .

(٢) كان عددهم ثلاثة آلاف رجل .

(٣) خرجت النساء مع المشركين بالدفوف ، ويقول ابن الجوزى : وساروا بالقيان والدفوف وللمعازف والخمور والبغايا .

(٤) الرسيم والذميل نوعان من سير الابل ، والاول أسرع .

(٥) هند زوج أبى سفيان كانت ممن خرج مع الجيش من النساء يبكين قتلى بدر ويحرضن على القتال وترك الفرار .

(٦) المنصلت هنا : الماضى فى الأمور .

(٧) النكول : النكوص والجبن .

وراءك نسوة للحرب تزجى ترج دفوفها الأبطال رجا
وتلك خمور عسكرك المرجى وكان الغى بالجهلاء أحجى [1]
كذلك يطمس الجهل العقولا

رأيت الرأى شؤماً أى شؤم وما تدرى يمينك أين ترمى
لعمرك إنه لرسيس هم [2] تغلغل منك بين دم ولحم
فيا (ابنة عتبة) اجتنبي الفضولا

أعن جسد الرضية (بنت وهب) يشق القبر يا امرأة (ابن حرب) ؟
ويقطع بالمدى فى غير ذنب ؟ ليفـــدى كل مأسور بإرب
فياعجبا لقول منك قيلا [3]

هى الهيجاء ليس لها مرد فمن يك هازلا فالأمر جد
لبأس الله يا هنــد أشد له جند ، وللكفار جند
وإن الجند البطش المهولا

سيوف (محمد) أمضى السيوف وأجلب للمعاطب والحتوف
إذا هوت الصفوف على الصفوف وأعرض كل جبـــار مخوف
مضت ملء الوغى عرضاً وطولا

أرى (السعدين)[4] قد دلفا وهذا (على) بالحسام العضب لاذا

---

(١) أحجى بمعنى أخلق .

(٢) رسيس الهم وغيره ما يثبت منه .

(٣) لما بلغ المشركون الأبواء أشارت هند عليهم بنبش قبر أم النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخذ جثمانها ، قالت : فان أسر منكم أحد فديتم كل أسير بارب من آرابها [الارب الجزء] ، فأبوا ، خيفة أن ينبش بنو بكر قبور موتاهم .

(٤) سعد بن معاذ وسعد بن عبادة .

و (حمزة) جد ممتزما ، فماذا ومن للقوم إن أمسوا جذاذا [١]
وطار حماتهم فمضوا فلولا

وفى الأبطال [٢] فتيان رقاق بأنفسهم إلى الهيجا اشتياق
لهم فى الناهضين لها انطلاق دعا داعى الجهاد فما أطاقوا
بدار السلم مثوى أو مقيلا

أعادهم (النبى) إلى العرين شبولا سوف تصلب بعد لين
يضن بها إلى أجل وحين رعاك الله من سمح ضنين
يسوس الأمر يكره أن يعولا [٣]

وقيل (لرافع) نعم الغلام إذا انطلقت لغايتها السهام
تقدم أيها الرامى الهمام إذا الهيجاء شب لها ضرام
فأمطرها سهامك والنصولا [٤]

ونادى (سمرة) أيرد مثلى ويقبل صاحبى ، وأنا المجلى ؟ [٥]
أصارعه ، فإن أغلب فسؤلى وكيف أذاد عن حق وعدل ؟
وأمنع أن أصول وأن أجولا ؟

---

(١) صار الشيء جذاذا أى قطعا .

(٢) عرض النبى جيشه بعد أن عسكر بالشيخين ـ جبلان أو أطمان ـ فوجد فيه جمعا من الفتيان لم يبلغوا الخامسة عشرة ، وقيل الرابعة عشرة ، فردهم وأجاز رافع بن خديج من دونهم ، لما قيل له إنه يحسن الرماية ، وقال سمرة بن جندب لزوج أمه : أيقبل رافع وأرد ، وأنا أصرعه ؟ فبلغت مقالته النبى فقال : تصارعا ، فصرع سمرة صاحبه فأجازه .

(٣) عال فى الحكم جار ومال عن الحق ، وعاله الأمر : شق عليه وثقل .

(٤) نصل السهم : حديدته ، والنصول جمع .

(٥) المجلى : الأول من خيل السباق .

وصارعه ، فكان أشد أسراً [1] ... وأكثر فى المجال الضنك صبرا

وقيل له : صدقت ، فأنت أحرى ... بأن ترد الوغى فتنال نصرا

ألا أقبل ، فقد نلت القبولا

(أعبد الله) مالك من خلاق [2] ... فقد بالناكفين ذوى النفاق

كفاك من المخافة ما تلاقى ... ومالك من قضاء الله واق

وإن أمسيت للشعرى نزيلا

أبيت على (ابن عمرو [3]) ما أرادا ... وشر القوم من يأبى الرشادا

نهاك ، فلم تزد إلا عنادا ... ألم يسمع فريقك حين نادى

أطيعوا الله واتبعوا الرسولا ؟

يقول : نشدتكم ، لا تخذلوه ... وموثق قومكم لا تنقضوه

(رسول الله) إلا تنصروه ... فإن الحق ينصره ذووه

ألا بعداً لمن يبغى الغلولا [4]

تجلى نور ربك ذى الجلال ... وهز الشعب صوت من (بلال)

بلال الخير أذن فى الرجال ... فهبو للصلاة من الرحال

وقاموا خلف (سيدهم) مثولا [5]

---

(١) الأسر : الخلق بخاء مفتوحة ، وشدة الأسر من صفات القوة .

(٢) عبد الله بن أبى [ابن سلول] رجع ومن معه من المنافقين ، وكانوا ثلثمائة رجل ، وهو يقول : عصانى وأطاع الولدان ومن لا رأى له ، سيعلم . لا ندرى علام نقتل أنفسنا ؟ ارجعوا أيها الناس — الخلاق : النصيب الوافر من الخير ، وقيل ما يكسب الانسان هذا النصيب من أفعاله الممدوحة .

(٣) عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر رضى الله عنهما ، انطلق فى أثر المنافقين يريد ردهم ويقول لهم : ياقوم أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم . فلم يطيعوه . فقال أبعدكم الله ، سيغنى الله تعالى عنكم نبيه . (٤) الغلول : الخيانة .

(٥) مضى صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشعب من أحد فصف المسلمين . وحانت صلاة الصبح والمسلمون يرون المشركين فأذن بلال رضى الله عنه الصلاة ، وصلى النبى بأصحابه ـ الرحال جمع رحل وهو هنا بمعنى المثوى ، أو المنزل ، أو ما يكون مع الرجل من الاثاث ، ومثول : جمع ماثل أى قائم .

علا صوت الأذين فأى معنى لمن هو مؤمن أسمى وأسنى ؟
إله النـــاس فرد لا يثنى تأمل خلقـــه إنساً وجنا
فلن تجد الشريك ولا المثيلا

أجل الله أكبر لا مراء فهل سمع الألى كفروا النداء ؟
أظن قلوبهم طارت هباء فلا أرضا تطيق ولا سماء
جلال الحق أورثهم ذهولا

سرى الصوت المردد فى الصباح فضج الكون - حى على الفلاح -
تلقى صيحة الحق الصراح فقام يصيح من كل النواحى
يسبح ربه غب (١) ارتياح وبحمده بألسنة فصاح
تعطفت الجبال على البطاح وكبرت المدائن والضواحى
وأوبت (٢) البحار مع الرياح وصفق كل طير بالجناح
كتاب الحق ، ما للحق ماح يرتل فى الغدو وفى الرواح
فقل للناس من نمل وصاح شريعة ربكم ما من براح
فمن منكم يريد بها بديلا ؟

ألا طابت صلاتك إذ تقام وطاب القوم إذ أنت الإمام
أقمها يا (محمد) فهى لام (٣) تساقط حولها الجنن العظام (٤)
بها يتخطف الجيش اللهام وليس كمثلها جيش يرام
قضاها الله ، فهى له ذمام وذاك نظامها ، نعم النظام
يوطد من بنى ، وهى الدعام ويصعد بالذرى وهى السنام

(١) غب : بمعنى بعد .
(٢) التأويب هنا : ترجيع الصوت [ياجبال أوبى معه] .
(٣) اللام [جمع لامة] : وهى الدرع .
(٤) الجنن [جمع جنة] : وهى هنا ما يتقى به من السلاح .

نهضت لها ، وما هب النيام   وبادرها الميامين الكرام
مقام ما يطاوله مقام   ودين من شعائره السلام
يصون لواءه جيلا لجيلا

(هدى الأجيال) يخطب فى الهداة   ويأمر بالجهاد وبالصلاة [(١)]
وبالأخلاق غــرا طيبات   ملقى الوحى والإلهام هات
وصف للناس آداب الحياة   وكيف تكون دنيا الصالحات
وخذهم بالنصائح والعظات   مضيئات للعالم مشرقات
شعوب الأرض من ماض وآت   عيالك ، فاهدهم سبل النجاة
إذا ضلت دهاقين [(٢)] الثقات   وأمسى الناس أسرى الترهات
وخف ذوو الحلوم الراسيات   فأصبحت الممالك راجفات
أقمت الأرض تكره أن تميلا

ألا برز (الزبير) فأى وصف   (حوارى الرسول) يفى ويكفى ؟
برزت (لخالد) حتفاً لحتف   تصد قواه عن كر وزحف
وتدفعه إذا انبعث الرعيلا [(٣)]

ألم تره و (عكرمة) استعدا ؟   فإما جدت الهيجاء جدا

---

(١) خطب صلى الله عليه وسلم أصحابه عند صلاة الصبح يحثهم على الجهاد والصلاة ، ومن قوله فى هذه الخطبه : « ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم الى النار إلا وقد نهيتكم عنه ، لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها لا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله ربكم ، وأجملوا فى طلب الرزق ، لايحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله، وللمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد إذا اشتكى تداعى اليه سائر جسده ، والسلام عليكم .

(٢) الدهاقين : الذين لهم قوة التصرف من كبار الرجال .

(٣) أقبل خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل فى طليعة خيل للشركين ، فامر الزبير بن العوام أن يذهب على رأس قوة من المسلمين فيقف بإزائه ، وأرسل جماعة من أصحابه ليكونوا فى جانب اخر وقال : لاتبرحوا حتى أوذنكم ، ولا يقاتلن أحد منكم حتى آمره بالقتال . والرعيل : القطعة من الخيل .

بنى لها (رسول الله) سدا . ومثلك يعجز الأبطال هدا
ويترك كل ممتنع مهيلا (١)

لمن يرث الممالك ، لا سواه أعد (القائد الأعلى) قواه
وبث الجيش أحسن ما يراه تعالى الله ، ليس لنا إله
سواه ، فواله ودع الجهولا

(رماة النبل) ما أمر (النبى) فذلك ، لا يكن منكم عصى (٢)
إذا ما زالت الشم الجثى (٣) وكان لها انطلاق أو مضى
فكونوا فى أماكنكم حلولا

(رماة النبل) ردوا الخيل عنا وإن نهلت سيوف القوم منا
فلا تتزحزحوا ، فإذا أذنا فذلك ، أن للهيجاء فنا
تلقنه الجهابذة الفحولا (٤)

تلق (أبا دجانة) باليمين حسامك من يد (الهادى الأمين) (٥)

---

(١) المهيل من الرمل ونحوه : ما انهال .

(٢) كان الرماة خمسين رجلا ، أمر النبى عليهم عبد الله بن جبير ، وقال له : انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، واثبت مكانك إن كانت لنا أو علينا ، وفى رواية - إن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ، ارشقوهم بالنبل فان الخيل لا تقدم على النبل . إنا لانزال غالبين ما مكثتم مكانكم ، اللهم إنى أشهدك عليهم .

(٣) الجبال الرواسى كأنها فى صورة من يجثو أى يجلس على ركبتيه أو يقوم على أطراف أصابعه .

(٤) الجهابذة [جمع جهبذ] : وهو الناقد البصير .

(٥) أخرج النبى صلى الله عليه وسلم سيفا مكتوبا فى إحدى صفحتيه :

فى الجبن عار ، وفى الاقبال مكرمة والمرء بالجبن لاينجو من القدر

ثم قال : من يأخذ هذا السيف بحقه ، فقام اليه رجال فأمسكه عنهم ، وكان من جملتهم على بن أبى طالب قام ليأخذه فقال : اجلس ، وعمر فأعرض عنه ، والزبير [وطلبه ثلاث مرات] فكذلك ، وقام أبو دجانة فقال : ما حقه يا رسول الله ، قال : تضرب به فى وجه العدو حتى ينحنى ، قال : أنا آخذه بحقه ، فدفعه اليه .

وخذه بحقه في غير لين لتنصر في الكريهة خير دين
يرف على الدنا ظلا ظليلا

أصيبك نلته من فضل رب قضاه لصادق النجدات ضرب [١]
تخطى القوم من آل وصحب فكان عليك عضباً فوق عضب
تبختر، وامض مسنونا صقيلا [٢]

(أبا سفيان) لا يقتلك هما ولا يذهب بحلمك أن تذما [٣]
أحين بعثتها شرا وشؤما أردت هوادة، وطلبت سلما ؟
مكانك، لا تكن مذلا [٤] ملولا

من الداعي يصيح على البعير : أمالي في الفوارس من نظير ؟ [٥]
أروني همة البطل المغير إلى فما بمثلي من نكير [٦]
أنا الأسد الذي يحمي الشبولا

تحداه (الزبير) وفي يديه قضاء خف عاجله إليه
رمى ظهر البعير بمنكبيه وجرعه منيته عليه
فأسلم نفسه وهوى قتيلا

---

[١] الضرب من الرجال : الماضي في الأمور .

[٢] كان أبو دجانة يختال عند الحرب، وقال النبي صلى الله عليه وسلم وقد رآه بين الصفين : إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا للوطن .

[٣] نادى أبو سفيان عند اصطفاق القوم : يا معشر الأوس والخزرج، خلوا بيننا وبين بني عمنا وننصرف عنكم، فشتموه أشد الشتم .

[٤] المذل : القلق الضجور .

[٥] خرج رجل من المشركين على بعير يدعو البراز فأحجم عنه الناس، وقام إليه الزبير فوثب حتى استوى معه على البعير، ثم عانقه فاقتتلا فوق ظهره، فوقع المشرك ووقع عليه الزبير فذبحه، فأثنى عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وقال : لكل نبي حواري، وإن حواري الزبير، وقال : لو لم يبرز إليه الزبير لبرزت إليه .

[٦] نكر الرجل الآخر نكيراً : جهله ولم يعرفه .

ألا بعداً (لطلحة [١]) حين يهذى فيأخذه (على) شر أخذ
أصيب بقسورى البأس فذ يعد لكل طاغى النفس مؤذ
يعالج داءه حتى يزولا

أمن فقد إلى فقد جديد ؟ لقد أضحى اللواء بلا عميد
بصارم (حمزة) البطل النجيد هوى (عثمان) إثر أخ فقيد [٢]
وأم الكفر ما برحت ثكولا

أبى شر الثلاثة [٣] أن يريما [٤] فخر على يدى (سعد) صريعا
ثلاثة إخوة هلكوا جميعاً وراح (مسافع [٥]) لهم تبيعا
رمت يد (عاصم) سما نقيعا تورد [٦] جوفه فجرى نجيعاً [٧]
وجاء (أخوه [٨]) يلتمس القريعا فأورد نفسه ورداً فظيعاً
أ (عاصم) أنت أحسنت الصنيعا فعند الله أجرك لن يضيعا
وإن لربك الفضل الجزيلا

(١) طلحة بن أبى طلحة – من بنى عبد الدار – حامل لواء المشركين ، طلب المبارزة وجعل يهذى بكلام منه : يا أصحاب محمد ، زعمتم أن قتلاكم إلى الجنة وأن قتلانا إلى النار ، وفى رواية – إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة ، فهل أحد منكم يعجلنى بسيفه إلى النار ، أو أعجله بسيفى إلى الجنة ؟ كذبتم واللات والعزى – خرج إليه على بن أبى طالب فقتله .

(٢) لما سقط لواء المشركين بعد قتل طلحة أخذه أخوه عثمان فحمل عليه حمزة فقطع يده وكتفه حتى انتهى إلى مؤتزره .

(٣) لما قتل عثمان بن أبى طلحة أخذ اللواء أخوه أبو سعيد بن أبى طلحة ، فرماه سعد ابن أبى وقاص فأصاب حجزته فقتله .

(٤) يريم : بمعنى يرجع .

(٥) مسافع بن أبى طلحة الذى قتله على بن أبى طالب كرم الله وجهه – أخذ اللواء بعد أبى سعيد فرماه عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح فقتله .

[٦] تورده بمعنى ورده .

[٧] النجيع : ما كان إلى السواد من الدم ، أو هو دم الجوف .

[٨] أخو مسافع الحارث بن طلحة أخذ اللواء بعد أخيه فرماه عاصم فقتله . والقريع هنا المقارع .

رميتهما فظلا يزحفان يجران الجراح وينزفان [1]
وخلفهما من الدم آيتان هما للكفر عنوان الهوان
ترى الرأسين مما يحملان على الحجر المذمم يوضعان
أمن ثديي (سلافة) يرضعان ؟ تقول وقلبها حران عان
على الجود بالمائة الهجان [2] لمن يأتى بهامة من رمانى
فواظمأى إلى بنت الدنان تدار بها على فودعانى

وموتا ، إن للقتلى ذحولا [3]

دعاة (اللات والعزى) أنيبوا فليس لصائح منكم مجيب
وليس لكم من الحسنى نصيب لرب الناس داع لا يخيب
ودين الحق يعرفه اللبيب وما يخفى الصواب ولا يغيب
رويداً إن موعدكم قريب وكيف بمن يصاب ولا يصيب ؟
سليب النفس يتبعه سليب أما يغنى الطعين ولا الضريب ؟
لواء ليس يحمله (عسيب) [4] عليه من منايا كم رقيب

كفاكم ، ياله حملا ثقيلا

رمى بالنبل كل فتى عليم فرد الخيل دامية الشكيم [5]
بنضح مثل شؤبوب الحميم يصب على فراعنة الجحيم

---

[١] كان كل واحد من مسافع والحارث بعد أن رماه عاصم يأتى أمه سلافة ويضع رأسه فى حجرها فتقول : يا بنى من أصابك ، فيقول سمعت رجلا يقول : خذها وأنا ابن الأقلح ، فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر ، وجعلت لمن يجىء به مائة من الإبل .

[٢] الهجان : الخالصة .

[٣] جمع ذحل : وهو الثأر .

[٤] اسم جبل ، وقد تتابع القتل فى حملة اللواء ، فتمزق المشركون .

[٥] حملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مرات وهى تنضح بالنبل فترجع مفلولة ، وحمل المسلمون عليهم فحمى القتال ـ الشكيم (جمع شكيمة) : وهى حديدة اللجام فى فم الفرس .

وصاحت (هند [١]) فى الجمع الأثيم تحرض كل شيطان رجيم
ألا بطل يذب عن الحريم ؟ ويضرب بالمهند فى الصميم ؟
فهاجت كل ذات حشى كليم تبث الشجو فى الهذر الذميم
وتذكر (طارقا) دأب المليم يسىء ويدعى [٢] لأب كريم
وأين مكانهن من النعيم ؟ ومن جرثومة الحسب القديم ؟
زعمن الشرك كالدين القويم لهن الويل من خطب عميم

رمى الأبناء وانتظم البعولا

من البطل المعصب [٣] يختليها [٤] رقابا ما يمل الضرب فيها ؟
بأبيض تتقيه ، ويعتريها وتكره أن تراه ويشتهيها
لها من جده وال يليها وتنتزع الحكومة من ذويها

---

[١] قامت هند زوج أبى سفيان فى النسوة اللاتى معها لما حميت الحرب فأخذن الدفوف يضربن خلف الرجال ويقلن :

ويها بنى عبد الدار • ويها حماة الأدبار • ضربا بكل بتار

ثم ينشدن :

نحن بنات طارق • نمشى على النمارق • مشى القطا النوازق
والمسك فى المفارق • والدر فى المخانق • إن تقبلوا نعانق
ونفرش النمارق • أو تدبروا نفارق • فراق غير وامق

وكان النبى إذا سمع ذلك يقول : « اللهم بك أحول ، وبك أصول ، وفيك أقاتل . حسبى الله ونعم الوكيل » .

[٢] ينتسب .

[٣] أبو دجانة كان له عصابة حمراء يعصب بها رأسه فى الحرب فسميت [عصابة الموت] جعل لا يلقى أحداً إلا قتله بالسيف الذى أخذه من رسول الله ، وكان يشحذه بالحجارة كلما كل ، فما زال يضرب به حتى انحنى وصار كأنه المنجل .

[٤] يجزها أو ينزعها ، تشبيها لها بالخلا الرطب إذا فعل به ذلك .

برزت (أبا دجانة) إذ تريها ... وحى الموت [1] تطعمه كريها
صددت عن (السفيهة) [2] تزدريها ... وتكرم سيفك العف النزيها
تولول للمنية تتقيها ... فإيها يابنة الهيجاء إيها
نجوت ولو رآك له شبيها ... مضى العضب المشطب يقتضيها
حياة مناجز ما يبتغيها ... إذا شهد الكريهة يصطليها

فأرسلها دماً ، وهوى تليلا [3]



أصدق وصف للمرأة

فى مسند الإمام أحمد من حديث أبى هريرة :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تستقيم لك المرأة على خليقة واحدة ، وإن تركها تستمتع بها وفيها عوج » .

---

[١] الوحى : السريع

[٢] هند سمها أبو دجانة تحرض على القتال أشد التحريض فحمل عليها بسيفه يظنها رجلا فولولت فأعرض عنها ، إكراما لسيف رسول الله .

[٣] التليل الصريع .

نظرية الدفاع الهجومي

بعد انتصار المسلمين في بدر

كانت هزيمة قريش فى بدر ضربة شديدة لكبريائها وعظمتها ، فكان من الطبيعى أن تفكر فى الثأر ، وهذا أبو سفيان كبير قريش ، ينذر بعد بدر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً . .

وما كان ذلك ليخفى على محمد رسول الله ﷺ قائد جيش المسلمين ، فلم يلهه النصر عن التفكير فى عواقبه ، وكان فى تفكيره بصيرا واعيا . . .

فقريش تلك الأمـــة العربية القديمة ، كانت تعيش — فى جاهليتها — عيشة ترضاها كانت قوية الشوكة ، كبيرة المقام بشيوخها وزعمائها ، وبسواعد رجالها الشبان الذين كانوا يردون عنها كل عادية ، ويصدون عنها كل غارة ، ويدفعون عنها كل شر . وكانت سعيدة ترفل فى رغد من العيش ، وبسطة من الرزق : تجارتها العظيمة فى الشام تأتى لها كل عام بالوفير من موارد الخير ووسائل الحياة ، ثم يجىء رجل منهم من أوساطهم يدعى نبوة ، ويحمل رسالة ، فيقوم بأداء واجبه بالدعوة سرا ثم جهرا ، ويعيب عليهم ما يعبدون من أصنام ، فيقاومونه بشتى وسائل التعذيب فلا يلتنى ، ولا يزداد إلا إيمانا بدعوته ، ويصدونه عن سبيله بكل ما أوتوا من قوة فلا يرجع ، ولا يزداد إلا إمعانا فى رسالته ، حتى إذا ما فشلت محاولاتهم يناصبونه العداء ، ويعبئون رجالهم عليه ويقاتلونه فى بدر ، فتكون الدائرة عليهم ، وتنزل بهم الهزيمة على الرغم من قلة رجاله ، وضعف عدته ، بل ويهلك فى ذلك خير زعمائهم ، وصفوة رجالهم .

ولم يغفل الرسول أمر يهود المدينة ، فقد كان هذا حالهم أيضا ، وهم قد كانوا من قبل يناهضون المسلمين ، وزادت أحقادهم حين رأوا هذا الأجنبى الذى جاءهم من مكة منذ عامين ، يزداد سلطانا وبأسا حتى ليكاد يكون صاحب الكلمة فى أهل المدينة جميعا ، ولولا أنهم عاهدوه ألا يحاربوه لحدث بين اليهود والمسلمين قتال وحوادث جسام .

وهكذا خاص محمد من تفكيره ذاك إلى أن موقفه من عداء قريش واليهود أصبح يقتضيه الحذر المستمر، واليقظة الدائمة، وأنه من الواجب أن يكون على تمام الأهبة وكامل الاستعداد للقتال فى أية لحظة وفى أى مكان .

والأمر الجدير بالملاحظة والتقدير هنا أن محمدا لم يقنع بالوقوف موقف المدافع الذى ينتظر حتى يغير عليه أعداؤه ، فيقوم لدفعهم ، بل استن خطة بارعة فى الدفاع ، بأن يخرج للقاء أعدائه فور علمه بجمعهم له ، وبذلك يتسنى له القضاء عليهم فى عقر دارهم ولما يكمل استعدادهم .

هذه الخطة الحكيمة طبقها النبى ﷺ عدة مرات فى الغزوات القصيرة التى حدثت فى الفترة بين بدر وأحد مثل غزوة بنى سليم ، وغزوة بنى قينقاع ، وغزوة السويق ، وغزوة غطفان ، وغزوة بحران . . .

وهذه الخطة الحكيمة التى وضع أصولها وطبقها قائد جيش الإسلام منذ ثلاثة عشر قرنا هى بعينها نظرية الدفاع الهجومى ، وهى نظرية حديثة تتبعها اليوم جيوش العالم ويلقنها رجالها فى المعاهد العسكرية .

فإن النصر فى الحروب إنما يأتى نتيجة للأعمال الهجومية ، وهى وحدها التى تقرر مصير أحد الفريقين ، وليس الدفاع إلا وسيلة مؤقتة قد يضطر الطرفان لاتباعها لغرض كسب الوقت حتى يتسنى لكل منهما أن يعد عدته لاستئناف الهجوم .

ونظرية الدفاع الهجومى هذه تتلخص فى أن المدافع الذى يضطر لاتخاذ وضع الدفاع يجب عليه ألا يستكين فى مواقفه الدفاعية انتظارا لهجوم عدوه عليه ، بل عليه أن يقوم بحركات هجومية تتصف بروح العدوان تسمى فى العرف العسكرى بالأعمال التعرضية ، ومنها إرسال دوريات القتال عبر الأرض الحرام الواقعة بينه وبين عدوه لمناوشته أو إزعاجه أو قتل بعض رجاله ، أو أخذ بعض أعدائه أسرى أو تدمير شىء من تجهيزاته .

ولنظرية الدفاع الهجومى المزايا الآتية :

١ — إحباط خطط العدو فى مهدها .

٢ — حرمان العدو من ميزة المفاجأة وحرية العمل أو المبادأة كما يطلق عليها فى العرف العسكرى وترجمتها (Initistive)

٣ — رفع الروح المعنوية للجنود المدافعين ، لأن الانتظار يورث فى النفوس الملل والضعف ، وتسوء حالة الجند المعنوية بمرور الأيام ، وتقل بذلك رغبتهم فى القتال ، والروح المعنوية فى الدفاع معناها الرغبة فى القتال التى لا تتولد إلا باتباع نظرية الدفاع العدوانى ، وبدون الروح المعنوية قد تفشل أحسن الخطط الدفاعية التى يضعها أكبر القادة حنكة وبراعة .

وهكذا أثبت لنا الرسول الكريم ﷺ أنه قائد عسكرى غير منازع ، ولا أدل على ذلك من أنه خرج لغزوة بنى سليم ولما يمض عليه فى المدينة بعد بدر إلا سبع ليال !

وفى هذه الغزوة خرج بعد أن استعمل سباع بن عرفطة الغفارى على المدينة ، وسار حتى بلغ بئراً تسمى الكدر ، فأقام هناك ثلاث ليال ، ولم يخرج أحد لقتاله لأن بنى سليم لما علموا بخروجه هربوا وتركوا وراءهم خمسمائة بعير غنمها المسلمون وعادوا بها إلى المدينة .

وكانت غزوة السويق بعد شهرين من عودة المسلمين من بدر ، فإن أبا سفيان أراد أن يبر بيمينه الذى أقسم فيه أن يغزو محمداً وألا يمس النساء والطيب حتى يبر بقسمه ، فجمع من قريش مائتى رجل راكبين ، وغادر مكة وسار حتى وصل إلى جبل يقال له (ثيب) بالقرب من المدينة فتوقف وعزم على المبيت فى هذا المكان .

وفى جوف الليل ترك رجاله وسار صوب المدينة حتى دخل حياً من أحياء اليهود لبنى النضير ، وقصد إلى بيت حيي بن أخطب وهو من رؤساء بنى النضير فأوجس حيي من زيارته خيفة فلم يفتح له ، فانصرف وجاء إلى سلام بن مشكم وهو سيد بنى النضير فطرق بابه ففتح له وأكرمه . ثم سأله أبو سفيان عن أخبار المسلمين وسرهم فأجابه .

ورجع أبو سفيان إلى أصحابه بالجبل ، فبعث بعضاً منهم إلى المدينة فحرقوا نخلا كثيراً فى ناحية منها تسمى العريض ، ووجدوا رجلا من الأنصار هو معبد بن عمرو ورجلا آخر حليفاً للأنصار فقتلوهما ثم قفلوا راجعين إلى الجبل .

وسرعان ما ذاع الخبر فى سائر المدينة وبلغ رسول الله ﷺ فجمع مائتين من المهاجرين والأنصار وخرج على رأسهم ، وكان ذلك فى الخامس من ذى الحجة قاصدا أبا سفيان . .

ولما أحس أبو سفيان بخروج المسلمين لاذ بالفرار بعد أن خفف من أحماله حتى يمكنه

الفرار بسرعة. وكان أكثر ما تركه طعاما يسمى السويق [١] وبذلك سميت الغزوة (غزوة السويق)، أما المسلمون فقد غنموا ما ترك أبو سفيان وعادوا إلى المدينة.

وفى الثانى عشر من ربيع الأول سنة ثلاث من الهجرة علم الرسول ﷺ أن بنى ثعلبة ومحارب اتفقوا على الإغارة عليه بقيادة غورث بن الحارث، فجمع من المسلمين ٤٥٠ رجلا وخرج إليهم، فلما سمعوا بمجيئه هربوا فى رءوس الجبال ... فعاد الرسول وكانت تلك الغزوة غزوة غطفان.

وفى السادس من جمادى الأولى من نفس السنة اتفق جمع من بنى سليم على شن غارة على المدينة، فاجتمعوا فى بحران لهذا الغرض، فبلغ ذلك الرسول عليه السلام فجمع ثلاثمائة من أصحابه، وسار مسرعا حتى بلغ بحران، وكان قبل وصوله إليها لقى رجلا منهم وأخبره أن القوم قد تفرقوا فحبسه النبى حتى يتبين صحة قوله، فلما وصل إلى بحران وجدهم قد تفرقوا لما شعروا بخروجه فأطلق الرجل، وعاد إلى المدينة فى السادس عشر من نفس الشهر، وسميت تلك الغزوة غزوة بحران.

هذه الغزوات، وإن كانت صغيرة ولم يحدث فيها قتال، إلا أنها دليل واضح على أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مستعدا فى كل لحظة للخروج للقتال، وهو فى هذه الغزوات قد خرج فعلا، أما أنه لم يقاتل أحداً فلأن من خرج لقتالهم هربوا.

تلك نظرية الدفاع الهجومى بأجلى معانيها، فلا يسلم المدافع بحرية التصرف والمفاجأة لعدوه، وإنما يخرج له، ويفسد خطته وهى فى المهد، وبذلك يحافظ على هيبته ويرفع الروح المعنوية لرجاله المدافعين.

محمد جمال الدين محفوظ
يوزباشى أركان حرب

---

[١] السويق. هو أن تحمص الحنطة أو الشعير ثم تطحن، وتؤخذ فى السفر وعند استعمالها تمزج باللبن والعسل والسمن أو الماء وهى تشبه ما نسميه [الفريك].

العالم فى ظلال المذاهب البشرية

تدخلت الأديان السماوية فى كل شأن من شئون الفرد لذاته ، وباعتباره عضوا فى الجماعة الإنسانية ، وفى كل شأن من شئون الدنيا والآخرة ، كما تدخلت فى شئون الجماعات ونظمت هذا التدخل فى صورة شرائع من عقائد وعبادات ومعاملات وآداب وأخلاق ، ولاحظت استعداد الجماعات لهـذه الشرائع فتدرجت بها فى التكاليف كما يتدرج المربى الماهر فى تربية الناشئة وتأديبهم وأخذهم فى كل مرحلة بما يطيقون ، وتوافقت جميع الأديان على ذلك ، فلم يمتحن رسول من الرسل أمته بما يعلو عن مداركها ، ويخفى على عقولها وجه الحكمة والرشاد فيه ، وإذا تعرضت الأديان لما لابد من التعرض له مما يعجز العقل عن استكناهه والوصول إلى حقيقته تجلى فيها الرفق والرحمة بهذا العقل الضعيف ، فإذا عرضت للآخرة والجنة والنار والحساب ، وحال الموتى فى قبورهم وكيفية البعث وما إلى ذلك طلبت إلينا أن نصدق بذلك إجمالا وأعفتنا عن التفاصيل ، فالعقل البشرى أعجز من أن يستبطن أسرارها ويدرك أغوارها ، وإذا اقتحم ذلك عرض له الشك والإنكار ، وتاه فى عباب من الحقائق لا يصل إلى شاطىء السلامة فيه .

ذلك شأن الأديان عامة مع بنى الإنسان ، وما يجده الإنسان أحياناً من معميات وطلسمات وطقوس فى العقائد والعبادات يباهى بمعرفتها طائفة من الناس ، فليس ذلك من حقائق الأديان فى شىء ، بل هى أصداء تراكمت فوقها على مر العصور ، وفى غفلة من أولى الأمر لأغراض دنيوية زائلة سيتولى الله جزاء مقترفيها كما قال تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » .

وكان خاتمة الأديان الدين الإسلامى ، فقد أكمل الله به الأديان السابقة ، واستوفى حاجات البشرية عامة ونظم شئون الأفراد والجماعات وعلاقاتهم بالله وبالناس تنظيما دقيقاً واضحاً يكفل لهم الاستقرار والرضا والطمأنينة والسعادة ما استقاموا عليه ولم يكلهم إلى أنفسهم ، فمن وكل إلى نفسه تضافرت عليه عوامل الهم والقلق والعذاب النفسى ، فيضطرب

عقله ويختل تفكيره ويضعف إنتاجه ، وتضطرب لذلك شئون الجماعة وتسودها الفوضى ، ولا تستطيع أن تصل إلى غاية من غايات الإنسانية الرشيدة .

ولقد جاءت الأديان بأصول العقائد والآداب والأخلاق والعبادات لتطهر النفوس وتربط الأفراد بعضهم ببعض ، وتربط الجماعات كذلك ، وإن اختلفت أديانهم بأسباب المحبة والتعاون ، فلا يطمع قوى فى ضعيف ، ولا يبغى حاكم على محكوم ، ولا يفضل جنس جنسا ، يسير الجميع فى ظلال هذه التعاليم إلى غايتهم ، فالأديان مستقر السكينة ومهبط الطمأنينة ، وهى القوانين الصالحة لسياسة الجماعات تعصمها من الزيغ والضلال .

وقد عاشت أكثر الأمم فى ظلال الأديان السماوية قرونا طويلة رخية العيش ناعمة البال تسعى إلى شئون الحياة فى قناعة ورضا ، يرضى أفرادها بما قدر لهم من رزق ، ويقنع كل بما يسر له فيشكر الغنى ويرضى الفقير .

فالأديان وبخاصة الدين الإسلامى تقوى فى الفرد نوازع الخير والحق والعدل والفضيلة والقيام بالواجب ومراقبة النفس واحترام حقوق الغير والتضحية والتعاون على البر التقوى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وتحول بينه وبين الارتكاس فى الآثام والمنكرات ، وتشد فيه عزيمة التضحية والدفاع عن الوطن ، وتصرفه عن حياة العبث والمجون إلى حياة الجد والوقار .

وظلت الأديان قوانين الأمم المقدسة ودساتيرها المحترمة : يزن الأشخاص أعمالهم بموازينها ، ولا يعترفون بغيرها ولا يرون السعادة إلا فى ظلالها ، وظلت علاقات الأفراد بعضهم ببعض وعلاقات الجماعات علاقة سلم وتواد واحترام ، لا علاقة تحاسد وتباغض وانتقام . وكانت حياة الأمم فى ظلال الأديان حياة سهلة رتيبة فى كل شأن من شئونها السياسية والقضائية والإدارية والاجتماعية والمعاشية ، ولم يكن فيها هذه الإدارات المتعددة ولا هذه القوانين المتلاحقة المتزاحمة التى لا تكاد تصدر حتى يلاحقها الفسخ والتعديل والتنسيق والتحوير ، فقد كان يقوم مقام ذلك الضمير الحى الطاهر الذى يزع النفوس عن مزالق المطامع والأهواء ، ويعصمها عن مهاوى الفسق والفجور والطغيان والظلم . وإذا استيقظ فى الإنسان ضميره وصفت نفسه فلن يصدر عنه إلا ما هو خير لنفسه ولجماعته .

وفى أواخر القرن التاسع عشر وطوال هذه الحقبة من القرن العشرين وتحت تأثير

عوامل مختلفة من الثقافة والاقتصاد واشتداد الظلم والاضطهاد فى بعض البلاد اشتدت الدعوة إلى التحلل من الأديان بدعوى أنها عوائق فى طريق تقدم الرقى الإنسانى ، وأنها كانت دعوات إصلاحية مؤقتة استنفدت أغراضها ، وأنها لم تعد تلائم العصر ولا تساعد على التقدم الذى تنشده البشرية . والنفس البشرية أمارة بالسوء ، والتكاليف الدينية قيود لها ، سرعان ما تحاول التفلت منها إن دعا إلى ذلك داعى الهوى والشيطان . وقد استجاب لهذه الدعوة ذوو النفوس الضعيفة وتهافتوا عليها كما يتهافت الفراش على النار .

وقد كان القائمون على تلك الدعوات ذوى مكر ودهاء : فنشطوا فيها ، وتسلحوا لها بأخطر الأسلحة ، وتوسلوا إليها بوسائل تتصل بعواطف الناس وأطماعهم ، وزخرفوها بأغشية براقة خلابة ، فجعلت تلك الدعوات تشتد ويكثر أشياعها حتى اكتسحت العالم ونجحت فى بعض الشعوب نجاحا كاملا ، كما نجحت فى الشعوب الأخرى بنسب مختلفة ، وما زالت تجد وتجد حتى زحزحت القيم الدينية عن منزلة القداسة فى نفوس الناس إلى الموضع الذى أرادوه لها ، وأحالوهم فى مجموعهم إلى أنواع من الجماعات لها صور الأناسى وسماتهم وليس لها نفوسهم وعقولهم ، ينظرون إلى الأمور بعين الهوى والمصلحة واللذة العاجلة ، وما الفاصل بين الإنسان والحيوان إلا ما يمتاز به من القيم الروحية والأخلاقية .

وإن من المغالطة والتغاضى عن الواقع أن يزعم زاعم أن الشعوب ما تزال على شىء من التدين إن لم يبلغ حد الكمال فهو تدين على كل حال ، لأن الواقع أن كثيراً من شعوب العالم قد كفرت بالأديان وبتعاليمها ، وظل بعضها مستمسكا برواسم الأديان ومظاهرها دون حقائقها وجواهرها ، ومن التسامح أن يسمى ذلك تدينا . فليس التدين رسوما ومظاهر وإنما هو إيمان يخالط النفوس وتبدو آثاره فى الواقع أعمالا نافعة ، وفضائل حميدة ، ومراقبة لله فى كل شأن من الشئون .

تلك هى المرحلة الأولى التى قطعها دعاة الإلحاد ، أما المرحلة الثانية ، فهى أنهم حاولوا أن يسدوا الفراغ الذى أحدثوه بنجاحهم فى الدعوة إلى التحلل من الأديان ، فأرادوا أن يضعوا نظما تقوم مقام الأديان ، والأديان مجموعة من النظم والقوانين الإلهية سياسية واقتصادية وإدارية وقضائية وغيرها ساس الله بها البشر ، وأنقذهم من أواصر الأوهام والخرافات ، وحمل تبليغها عن الله ، ملائكة أصفياء ورسل أوفياء ، فبلغوها من حضرهم ، ووصلت إلى من بعدهم بالطرق الموثوق بها من العلماء - وكان الفراغ كبيراً فاعتصروا

عقولهم فى وضع القوانين التى تحل محل الأديان فى النواحى التى أشرنا إليها ، وتقود العالم إلى الكمال ، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً : فجماعة شيوعية ، وثانية اشتراكية ، وثالثة ديمقراطية ، ورابعة نازية ، وخامسة وسادسة إلى جماعات كثيرة مما نعرف وما لا نعرف ، هدف الجميع واحد هو إسعاد البشرية وإن اختلفت وسائلهم ، وتركز اهتمامهم فى الناحية الاقتصادية ظناً منهم أن المادة هى سبيل السعادة ، وأن ارتفاع مستوى المعيشة وإلغاء الفوارق بين الطبقات كفيل بالقضاء على أسباب الشر والقلق فى العالم .

وقد وضعوا النظم والقوانين التى حسبوها تسد الفراغ الذى أحدثوه برفضهم للقوانين الدينية : وضعوا نظما اقتصادية واجتماعية وسياسية إقليمية وعالمية ، فأسفر التطبيق عن الفرق بين قوانين الخالق وقوانين الخلق ، أسفر التطبيق عن فشل هذه القوانين فى الوصول إلى الغايات التى قدروها ، فبعد قرابة نحو قرن فى تجارب القوانين البشرية ، نرى العالم قد استحالت حاله ، وخابت فى قادته آماله ، ومل العيش به نساؤه ورجاله . ونرى السعادة التى كانت تسوده فى ظلال الأديان قد خبا نورها وذهبت بهجتها ، وأصبحت الحياة كالحة عابسة تنقبض لها الصدور ، وتضيق بها النفوس ، وعمت الشكوى وتفاقمت البلوى ، وأنى توجهت ألفيت نيراناً مستعرة ، ومشاكل مستعصية ، ومظالم ليس لها من دافع ، وحقوقاً مضيعة ليس لها من ولى ولا ناصر ، وساد قانون القوة كل شىء ، وفتن العالم بالمادة فصارت معبوده المطاع ، يخضع لسلطانها فى سائر شئونه ، وكفر بالأخلاق والآداب والمثل العليا للإنسانية الراشدة . وأفلس كل ما وضع من قوانين لإصلاح العالم كما زعموا وقدروا .

أفلست قوانين السياسة ففقدت الثقة بين الأمم ، واستحكم فيها سوء الظن ، وتربصت كل بالأخرى ، وانصرف نشاط الأمم واقتصادها إلى الإعداد الحربى ، واستنفدت ميزانيات الحروب أكثر ميزانياتها ، وانكمشت أبواب المشروعات الإنتاجية والإصلاحية ، وانخفض مستوى المعيشة ، وثقلت الحياة على الأفراد فى كثير من الأمم ، وتجاوبت أصداء الشكوى فى بقاع العالم . وأفلست قوانين الاقتصاد ، وعم الكساد ، وأدرك الناس زمان صار الغذاء فيه بالأوقيات والدراهم ، وتهددت المجاعات شعوباً بالفناء رغم أن الناحية الاقتصادية هى التى تركزت فيها جهود العلماء وأفكار المصلحين . وأفلست قوانين القضاء والإدارة فكثرت الجرائم وافتن المجرمون فيها وأصبحوا لا يبالون بقانون ولا يرهبون العقاب ، وطمع الناس بعضهم فى بعض واعتدى بعضهم على حقوق الآخرين ، وغصت المحاكم بالقضايا

والمتقاضين والمدافعين ، وتعددت جماعات الشرط وتنوعت اختصاصاتها وما أغنى ذلك شيئا وما وقى من شر وما دفع من ضر . فقد أولع الناس بالخصومات إذا اضطربت أعصابهم وضاقت بهم سبل العيش حتى هانت عليهم نفوسهم وشاع الانتحار فيهم . وأفلست قوانين الأخلاق . وإن أشد ما يعانيه العالم اليوم هو الفوضى الخلقية التى فشت فى جميع النواحى فقد تمزقت أثواب الحياء والعفة فى النساء والرجال ، وبدت عوراتهم الخلقية كما بدت عوراتهم الجسمية تؤذى العيون وتصك الأسماع ، وتردى كثير من الأمم فيما يشبه الإباحية الحيوانية ، وقد ألبست هذه الإباحية أثوابا براقة من المدنية والرقى والذوق واللياقة وما إلى ذلك من ألفاظ ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب ، وفسدت الذمم والضمائر ، وغاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت مسافة الخلف بين القول والعمل ، فلا اعتداد بين الناس بالعهود والمواثيق إلا أن يساقوا إلى ذلك بسياط القانون والقوة ، وأولع الناس بالمال يجمعونه من وجوهه المشروعة وغير المشروعة ، وأصبح الغش فى الصناعة والتجارة مهارة ، والصدق والأمانة خيبة وخسارة . ويضيق المقام عن الاسترسال فى تصوير ما يعانيه العالم من بؤس وشقاء وبلاء وعناء ، ونكتفى بهذه الصورة الموجزة ، وإنها لصورة قاتمة الظلال كالحة الألوان ، قد يتهمنى بعض الناس بالغلو فى تصويرها والخطأ فى اختيار ألوانها ، ولكنها فيما أرى صورة صادقة انتزعت ألوانها من واقع الأمور فى الشعوب ، يراها المنصف بالعين المجردة دون معاناة أو تعب ، وها هى ذى صحف العالم ومذياعاته . وكلاهما مرآة الأمم فى هذا العصر - فليقرأها وليستمع إليها من شاء ، ولن يقرأ ولن يسمع فى جميع أنحاء العالم إلا أحاديث عن مشاكل يأخذ بعضها برقاب بعض ، وكلما عولجت مشكلة بدت أخرى أشد استعصاء على الحل من سابقتها حتى كاد زعماء العلماء يستيئسون من الإصلاح والعلاج .

وبالأمس القريب خطب زعيم من أكبر زعماء العالم ، فقال : إن العالم يعيش الآن فى حالة من الارتباك المزعج ، ومن الصعب أن تجد فى أى جزء من العالم جماعة من الأقوام لا تحاول العمل على مناوأة جماعة أخرى ، ولقد فكر جماعة من ساسة العالم وقادته فى أن يصلحوا من شئون العالم وينتشلوه من وهدته وينهضوه من كبوته ويعيدوا إليه ما فقده من أمن وطمأنينة ، واجتمعت آراؤهم على تأليف جماعة دولية تنظر فى مشاكله وتصف ما تراه من علاج ، فألفت جماعة ثم جماعة تعلقت بهما آمال العالم ، وأضاءوا الشموع لمولدها

ولكنها قضت نحبها قبل أن تنقضى هذه الشموع ، وكان الحزن فى ساعة الموت أضعاف السرور فى ساعة الميلاد ، وإنما فشلت هذه الجماعات لأن نجاحها كان يستدعى عنصرين مهمين : هما الإخلاص ، والتطبيق العملى من القائمين عليها ، ولم يتوافر لها ذلك ، وظل العالم على حالة من القلق والانزعاج تتزايد يوما فيوما وعاما فعاما . كالغريق تتقاذفه الأمواج فى سواء البحر ، وتتقطع به أسباب الرجاء ولا منقذ ولا مجير .

قد يعجب بعض الناس للحالة التى صار إليها العالم ويقول : كيف ذلك والعلم يطير إلى الكمال بجناحين حتى سمى عصرنا عصر العلم والسرعة ولا تكاد تنقضى للعلم دهشة من مخترع عجيب حتى تفجأه دهشة أخرى تكاد تذهله عن وجوده ، فلماذا لم يحقق العلم للعالم أحلامه فى الأمن والرخاء والسلام ، وقد ينقضى عجبه إذا علم أن العالم قد تقدم بالعلم حقيقة ، ولكن فى الناحية التى تتصل بغرائز الإنسان الحيوانية ، وهى غرائز البطش والقوة والمتاع الحسى ، تقدم فى صناعة الدبابات والطيارات وصناعة السينما والراديو والكهرباء والتلفزيون ، واكتشف للناس أنواعا لا تحصى من الأدوية تقى الناس شرور الأمراض وتعالجهم منها واكتشف لهم المخصبات الزراعية المختلفة إلى مكتشفات كثيرة تتصل بشئون حياتهم المادية ، وما زال العلم يجد ويدأب ويظفر فى كل يوم بجديد مفيد ، إلا أن العلم مع اهتمامه بالناحية المادية أهمل الناحية الإنسانية والمعنوية فى الإنسان كالإيثار والرحمة والتعاون والتضحية واحترام الحقوق ولم يعرها اهتمامه فرجع العالم فيها القهقرى ، وأصبح الإنسان قاسى القلب غليظ الوجدان ، وتحكمت المادة فى كل تصرف من تصرفاته خوف الفقر والحذر من المستقبل فتضاعفت عليه همومه وتنغصت حياته مع توافر أسباب السعادة المادية من حوله .

لقد كان تقدم العلوم فى الناحية المادية ، وجمودها فى النواحى الخلقية والروحية سببا من أسباب الشقاء الذى يعانيه العالم ، إذ فتح عليه تقدمه فى الناحية المادية أبوابا من الشر يحاول جاهداً أن يتفاداها ، وأصبح أبغض شيء إلى نفوس الناس هذا النوع من العلم الذى يرتاع لذكر تفاصيله وآثاره حين تدعو ضرورة الحرب إلى تطبيقه واستعماله ، والعلم الذى كان مناط الرجاء فى إصلاح العالم وإسعاده غدا من أهم أسباب الشقاء الذى يعانيه ، والعالم الآن يعانى ألوانا من الآلام الجسمية والنفسية لاعهد له بمثلها فى عصور التاريخ .

لقد تحدث أحد علماء الذرة فقال : « إن العالم يجتاز طريقا قد يؤدى إلى القضاء على المدنية ، والكوكب الذى نعيش عليه قد يصبح قريباً جزءاً من الجحيم ، مالم نتخير الطريقة

المؤدية إلى الحياة فيه ، وإننى واثق أننا لم نصل بعد إلى هذا الحد . ثم قال : إن فى متناول البشرية الآن وسائل الاستئصال الجنسى البشرى » .

لقد أفلست المذاهب البشرية إذن فى تخفيف آلام العالم وطمأنينته وقيادته إلى ذرى العز والمجد والسعادة ، ووصل العالم بهذه المذاهب إلى ما وصفنا ، وقد شغل ذلك قادته وزعماءه ومفكريه . ورأى كثير منهم أن لاسبيل إلى ما ينشد العالم من استقرار واطمئنان إلا أن يستهدى بهداية الأديان ، فالأديان وحدها هى التى استكملت المقومات الضرورية لسعادة العالم وصلاحه وأمنه واطمئنانه ، وهى التى قدرت نواحى النفس الإنسانية العقلية والوجدانية ، والعاطفية والمادية فوضعت لكل ناحية مقتضياتها من المبادىء والتعاليم ، وما أفلست المذاهب البشرية إلا لعنايتها ببعض ذلك دون بعض .

لقد نشطت الدعوة إلى الأديان فى كثير من الشعوب ، وتجاوبت أصداء الدعاة إليها من رجال الدين والسياسة والاجتماع ، وأخذ اعتقادهم يزداد شيئاً فشيئاً بأنه لا صلاح للعالم ولا علاج له من علله التى ألحت عليه إلا بتعاليم الدين ، ولم تقتصر هذه الدعوة على هؤلاء بل نشطت فى البيئات الفنية والأدبية ، حتى ما كان يظن أنها أبعد الناس عن الأديان وأزهدهم فيها ، فقد اتجهت الروايات السينمائية إلى الموضوعات الدينية وأخذت تستلهمها فى كثير من موضوعاتها ، وقد أغرى نجاح الروايات الدينية مؤلفى تلك الروايات إلى العناية بالموضوعات الدينية وازدياد الاقتباس منها وأخذ المتتبع لتلك الحركة يشعر بحسن أثر ذلك الاتجاه وحسن نتائجه فى أخلاق العامة وسلوكهم ، وأخذ كثير من الأدباء ممن كادت تفتنهم المدنيات المعاصرة وتوقعهم فى مزالق الشكوك والريب يؤمن بضرورة دعوة الشعوب إلى الأديان كوسيلة من وسائل الإصلاح فنشطوا إلى التأليف فى الحوادث الدينية التاريخية التى كان لها أثر فى تاريخ الشعوب وفى سير أبطالها ، ولاقت مؤلفاتهم رواجا زاد من نشاطهم ومجهوداتهم . والمتتبع للحركات الفكرية فى العالم بوجه عام يلاحظ اهتماما بالأديان والمباحث الدينية وانتعاش الروح الدينية فى كثير من الأمم ، وإذا قدر لهذه الحركات أن تسير قدما فى طريقها فستصل الشعوب إلى غايتها المنشودة فى الاستقرار والرخاء والسلام . فالأديان بما انطوت عليه من أسباب ذلك سبيل السعادة ، ولن تسعد الشعوب إلا إذا استنارت بنورها فى ظلمات الحياة ؟

أبو الوفا مصطفى المراغى
مدير المكتبة الأزهرية

الرباط في الإسلام

١ — مناسبة البحث :

نحن فى عصر مكافح مجاهد ، تتألب علينا فيه قوى الشر والبغى من كل جهة ، ونحتاج فيه إلى إعداد ما يستطاع لرد العدوان والخلاص من الطغيان ؛ والعدة قد تكون حسية كالمدفع والطائرة ، وقد تكون معنوية كالإيمان والشجاعة ؛ ومن أقوى الأسلحة المعنوية وأمضاها ، إحياء روح الجهاد والتضحية فى نفوس الجماهير ، والتذكير بمبادىء الثبات والإقدام ، وعرض الصور الرائعة للبطولات الخالدة ، والتنبيه على الأصول الحية التى تتكون منها العقيدة الثابتة ، والتى لها اتصال بناحية الحرية وإباء الضيم والتحريض على الاستجابة لكريم التعاليم والتوجيهات التى تحث على الإعداد والاستعداد ، بالعدد والأعداد .

ولمحاولة المشاركة فى هذا المقصد نتحدث عن « الرباط فى التنزيل المجيد » مصورين ما هو الرباط أولا ، وعارضين مواطن استعمال القرآن الكريم لكلمة « الرباط » ثانيا ، ومشيرين إلى المعنى العام المشترك لهذا الاستعمال ثالثاً .

٢ — الرباط فى اللغة :

ونبدأ أولا باستنباء اللغة عن « الرباط » : ما هى مادته ؟ وما معناه ؟ وما هى ألوان الحقيقة والمجاز فيه ؟ تكلم القاموس المحيط عن مادة (ربط) فذكر وجوها من معانيها واستعمالاتها ، ومما قاله : « ربطه يربطه ويربُطه شده فهو مربوط وربيط ، والرباط ما ربط به جمعه ربط ، والفؤاد ، والمواظبة على الأمر ، وملازمة ثغر العدو كالمرابطة ، والخيل الخمس منها فما فوقها ، وواحد الرباطات المبنية ، أو المرابطة أن يربط كل من الفريقين خيولهم فى ثغرة ، وكل معد لصاحبه . فسمى المقام فى الثغر رباطاً . والربيط الراهب والزاهد والحكيم ، ظلف نفسه عن الدنيا كالرابط فى الثلاث »[1] .

---

(١) والربيط أيضا لقب الغوث بن مر بن طابخة ، لان أمه كانت لا يعيش لها ولد ، فنذرت لئن عاش هذا لتربطن برأسه صوفة ، ولتجعلنه ربيط الكعبة ، فعاش ففعلت وجعلته خادما للبيت حتى بلغ فنزعته ، فلقب الربيط [القاموس] وهناك ربيط بنى إسرائيل الذى قال : زين الحكيم الصمت ، وهو زاهدهم وحكيمهم الذى ربط نفسه عن الدنيا أى شدها ومنعها [النهاية] .

وجاء الزمخشرى فى (أساس البلاغة) فبين الأصل فى المرابطة فقال : « ورابط الجيش أقام فى الثغر ، والأصل أن يربط هؤلاء وهؤلاء خيلهم ، ثم سمى الإقامة فى الثغر مرابطة ورباطا ، والغزاة فى مرابطهم ومرابطاتهم وهى موضع المرابطة ، ووقف ماله على المرابطة وهى الجماعة التى رابطت ، ومنهم : اللهم انصر جيوش المسلمين ومرابطاتهم ، ومن المجاز ربط الله على قلبه : صبره » .

وفسر النووى فى (تهذيب الأسماء واللغات) رباطة الجأش فقال : « وفلان رابط الجأش وربيط الجأش أى شديد القلب ، قال الجوهرى : كأنه يربط نفسه عن الفرار » .

وتعرض ابن الأثير فى (النهاية) للمادة ، وأراد أن يبين العلاقة بين استعمالها اللغوى واستعمالها النبوى حينما سئل الرسول عن أفضل الأعمال فقال : « إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط » . الرباط فى الأصل الإقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل وإعدادها ، فشبه به ما ذكر من الأفعال الصالحة والعبادة . أى أن المواظبة على الطهارة والصلاة والعبادة كالجهاد فى سبيل الله ؛ فيكون الرباط مصدر رابطت أى لازمت .

وقيل : الرباط ها هنا اسم لما يربط به الشىء أى يشد ، يعنى أن هذه الخلال تربط صاحبها عن المعاصى وتكفه عن المحارم .

وتعرض الأصفهانى فى (مفردات القرآن) للمرابطة بلونيها الحسى والمعنوى فقال : « . . . فالمرابطة ضربان : مرابطة فى ثغور المسلمين ، وهى كمرابطة النفس البدن ، فإنها كمن أقيم فى ثغر ، وفوض إليه مراعاته ، فيحتاج أن يراعيه غير مخل به ، وذلك كالمجاهدة ، وقد قال عليه السلام : « من الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة » ؛ وفلان رابط الجأش إذا قوى قلبه » .

٣ — فضل الرباط فى الحديث النبوى :

وردت أحاديث كثيرة فى فضل الرباط والحث عليه ، وإذا تذكرنا أن الرباط لون من ألوان الجهاد عرفنا أن كل تمجيد للجهاد فى السنة يعد تمجيداً للرباط ، وقد استفاضت السنة المحمدية بأحاديث الجهاد مما يحتاج إلى مؤلفات لا مقالات ؛ ومن أحاديث الرباط الحديث المتفق عليه : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط

أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها . والروحة يروحها العبد أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها » . وعن عثمان بن عفان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل » . وعن سلمان الفارسى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله ، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتّان » (الشيطان) . وعن عثمان بن عفان قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « حرس ليلة فى سبيل الله أفضل من ألف ليلة بقيام ليلها وصيام نهارها » . وعن ابن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » . وعن فضالة بن عبيد أن الرسول قال : « كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فى سبيل الله ، فإنه ينمو عمله إلى يوم القيامة ، ويؤمن من فتان القبر » .

٤ ـ الرباط عند الفقهاء :

تطلق كلمة الرباط ـ كما فهمنا ـ عند علماء الإسلام على إقامة المجاهدين على الحدود وفى ثغور البلاد ومداخلها ، لحراستها والدفاع عنها ، وهم أثناء ذلك يقومون بربط خيولهم وخدمتها ، ويسمون بالمرابطين ، وهذا الرباط فرض كفاية ، إذا قام به البعض وكفوا سقط عن الباقين فرضا ، وإن استحسنه الإسلام وحث عليه فى كل زمن قدرة ، ولكن إذا هاجم العدو أرض المسلمين وتعرضت كلمة الإسلام للخطر وجب النفير العام على كل مستطيع . وتحديد وقته ومدته يخضع للظروف والملابسات .

وجاء فى كتاب (المغنى) لابن قدامة [1] : « فإن الرباط يقل ويكثر ، فكل مدة أقامها بنية الرباط فهو رباط ، قل أو كثر ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : (رباط يوم ، ورباط ليلة) . قال أحمد : يوم رباط ، وليلة رباط ، وساعة رباط . وقال عن أبى هريرة : ومن رابط يوما فى سبيل الله كتب له أجر الصائم القائم ، ومن زاد زاده الله . وروى سعيد بن منصور بإسناده عن عطاء الخراسانى عن أبى هريرة : رباط يوم فى سبيل الله أحب إلى من أن أوافق ليلة القدر فى أحد المسجدين ، مسجد الحرام أو مسجد رسول الله

[1] المجلة ـ الامام موفق الدين ابن قدامة من كبار علماء فلسطين زمن الحروب الصليبية . هاجر إلى دمشق هو وأسرته ، واشترك فى محاربة الصليبيين هو وأخوه الأكبر الشيخ أبو عمر وتلاميذهم وكان لهم خيام فى معسكر صلاح الدين فى حملات الحروب الصليبية وفتح بيت المقدس ومعركة حطين .

صلى الله عليه وسلم ، ومن رابط أربعين يوما فقد استكمل الرباط ، وتمام الرباط أربعون يوما ، روى ذلك عن أبي هريرة وابن عمر ، وقد ذكرنا خبر أبي هريرة . وروى أبو الشيخ في كتاب الثواب بإسناده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : تمام الرباط أربعون يوما . وروى عن نافع عن ابن عمر أنه قدم على عمر بن الخطاب من الرباط ، فقال له : كم رابطت ؟ قال : ثلاثين يوما . قال : عزمت عليك إلا رجعت حتى تتمها أربعين يوما ؛ وإن رابط أكثر فله أجره كما قال أبو هريرة : « ومن زاد زاده الله »[1] اهـ .

٥ — الرباط في القرآن الكريم :

وقد ذكر « الرباط » و « الربط » في التنزيل المجيد في خمسة مواضع ، اثنان منها وردت فيهما المادة بصيغة الأمر وهما قوله تعالى في سورة آل عمران . « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » آية ٢٠٠ . وقوله في سورة الأنفال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » آية ٦٠ .

والثلاثة الباقية وردت فيها المادة بصيغة الإخبار وبمعنى الشد والتثبيت ، وهي قوله تعالى في سورة الأنفال : « وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » ١١ . وقوله في سورة الكهف « وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض » آية ١٤ . وقوله في سورة القصص : « إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » آية ١٠ .

ويلاحظ مع التأمل وشيء من التعميم المعنوي أن استعمالات القرآن الكريم لمادة « الربط » يشملها معنى واحد عام ، هو ما يفيد الشد والتماسك ، سواء أكان هذا التماسك ملموساً محساً كما في الأشياء المادية الظاهرة ، أم كان معقولا مدركا كما في الأمور العقلية المعنوية ؛ ففي الآية الأولى نسمع الحق تبارك وتعالى يقول : « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . والمعنى : يا من صدقوا الله ورسوله وأيقنوا بهما وبأمرهما ، اصبروا على التكاليف ، واحتملوا المصائب والمتاعب ، واصبروا على طاعة الله والزموها ، واصبروا عن معاصيه وابتعدوا منها ، وصابروا أي جاهدوا أعداءكم واصبروا في جهادهم كما يصبرون في جهادكم وعداوتكم ، ورابطوا الكفار في سبيل الله ، بأن تعدوا لهم من رباط الخيل ما يكون كفاء ما أعدوا لكم ورابطوا .

---

[1] المغني ج ١٠ ص ٣٧٦ طبعة المنار .

وعبارة الزمخشري فى كشافه : « (اصبروا على الدين وتكاليفه (وصابروا) أعداء الله فى الجهاد ، أى غالبوهم فى الصبر على شدائد الحرب ، ولا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتا ، والمصابرة باب من الصبر ، وذكر بعد الصبر على مايجب الصبر عليه تخصيصاً لشدته وصعوبته (ورابطوا) وأقيموا فى الثغور مرابطين خيلكم فيها ، مترصدين مستعدين للغزو » .

وهذه الآية شاملة جامعة لأنواع الأوامر تكليفا ونهيا ، لأن الصبر يشمل لزوم الفرائض والعبادات ، مع اجتناب المنهيات والمحرمات ، والمصابرة تشمل مجاهدة الغير من الإنس والجن والنفس ، والرباط يدخل فيه الجهاد فى سبيل الله والدفاع عن وطن الإسلام وجماعته والدفاع عن الملة ، ثم تأتى تقوى الله فتفيد تعميم الانتهاء عن جميع المناكر والائتمار بجميع الأوامر ، فيكون من وراء ذلك كله النجاح والفلاح [1] .

والمرابطة هنا تفيد المعنى العام للمادة وهو الشد والتماسك ، لأن المسلمين لا يستطيعون مجاهدة أعدائهم متفرقين ، ولا يستطيعونها متراخين أو مستنيمين ، بل لا بد لهم من أن يشدوا شدة القوى ، وأن يتماسكوا تماسك المجتمعين المتعاونين ... ولذلك جاء فى التنزيل : « قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد » ، « واجعل لى وزيراً من أهلى ، هارون أخى ، اشدد به أزرى » ، « وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » ، « حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق » ، « قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » ، « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » ... الخ . وجاء أيضاً : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » ، « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » ، « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى » ، « فاستمسك بالذى أوحى إليك » الخ .

وفى الآية الثانية نسمعه سبحانه يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لاتعلمونهم ، الله يعلمهم ، وماتنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » .

فالله يأمر عباده فى الآية الكريمة بأن يهيئوا جميع الوسائل والأسباب التى تجعلهم فى قوة ومنعة وشدة ، وأن يبذلوا فى سبيل ذلك كل ممكن وكل مستطاع ، وأن يحرسوا حدودهم

---

(١) انظر تفسير مجمع البيان .

ومداخلهم وثغورهم بقوات الفرسان المدربة الفتية الشديدة ، حتى تكون تلك القوات جيشا مستعدا دائما للدفاع وصد هجمات الأعداء ؛ وما أبلغ الآية حين تستعمل كلمة « القوة » الشاملة لأنواع من السلاح وألوان من العتاد والإعداد ؛ وما أبلغها حين تشير إلى الأعداء المعلومين لله وللناس ، والأعداء المجهولة من الناس المعلومة من الله ... إذن فالاستعداد يجب أن يكون على غايته ، وفى كل وقت ومكان ، وبكل حيلة ووسيلة ، لأن الأعداء ظاهرون وباطنون ، ومعلومون ومجهولون ، وحاضرون وغائبون ؛ « ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » .

ومن الجلى الواضح أن هذا الإعداد وتلك الألوان من القوى والأسلحة لا تتهيأ ولا تدوم إلا إذا كانت فى المسلمين قوة وشدة ، وكان فى جمعهم تماسك وتكاتف وتساند ؛ كما أنه قد يكون من الواجب أن نشير إلى أن « المرابطة » لا تقتصر على ذات الخيل ، وإن ذكرتها الآية لمناسبة ما كان موجودا ، بل علينا أن نرابط الأعداء بمثل عدتهم وأسلحتهم ووسائلهم .

والآية الثالثة تقول : « إذ يغشيكم النعاسَ أمنةً منه ، وينزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » .

وقد نزلت هذه الآية ضمن الآيات التى نزلت فى غزوة بدر ؛ وهنا يتحدث الحق تبارك وتعالى عن النعم التى أنعم بها على المجاهدين الأولين ، فقد كانوا قلة وأعداؤهم كثرة ، وهذا يثير الخوف فى القلة ، والخائف لا ينام وإن رغب فى النوم ، فأنزل الله النعاس على المسلمين تطمينا منه وتأمينا وإذهابا للخوف عنهم ، وإراحة لهم حتى يستعدوا للمعركة القادمة ، وكذلك أنزل الله عليهم ماء فى وقت جاف ومكان مجدب وساعات كلها ظمأ وحاجة إلى التطهر والاغتسال ... فتطهروا وأزالوا وسوسة الخناس عن نفوسهم ، وثبت الله أقدامهم بهذا الغيث إذ صارت الأرض الرملية اللينة صلبة متماسكة ، لا تلين فيها الأقدام ، بل تقوى وتشتد .

والقلوب إذا ارتبطت قويت واشتدت وجرؤت ، كما أن الأقدام لا تثبت إلا على أرض متماسكة صلبة ، فكأن الربط على القلوب هنا - وإن كان معنويا - يفيد الشدة والتماسك أيضا .

والآية الرابعة تقول : « وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها ، لقد قلنا إذن شططا » . وقد نزلت فى فتية الكهف الذين كفروا

بالوثنية والأصنام ، وآمنوا بالله الخالق للسموات والأرضين ، والله يحدث عباده فى قرآنه عن نعمته على هؤلاء الفتية حين قواهم باليقين والصبر ، وشد قلوبهم وجعلها متماسكة لا تتزعزع ، بل تقوى على هجر الأوطان والنعيم ، والفرار بالدين إلى الكهف ، وتقوى على مجاهرة الطاغين والجبارين ومصارحتهم بكلمة الحق ، ولو لاقوا فى سبيلها الأذى والعنت ؛ فقد قاموا بين يدى الجبار (دقيانوس) دون خوف أو مبالاة ، وأظهروا إيمانهم ، وأصروا على هجر عبادة الأصنام ، لأن عبادة غير الله إفراط فى الظلم والضلال .

والقلوب الضعيفة تكون خائرة متداعية تطير شعاعا عند كل صيحة ، وأما القلوب المؤمنة المرتبطة بأسباب الله ، المترابطة فى سبيل الله ، فإنها تكون شديدة فى حقها وصدقها ، متماسكة فى إقبالها على دعوتها ومجاهدتها لأعدائها .

والآية الأخيرة تقول : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ، إن كادت لتبدى به ، لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » . وقد نزلت هذه الآية فى شأن أم موسى عليه السلام ، حين صنعت له التابوت ، وألقته فى اليم ليلتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، وقد خافت أم موسى على وليدها ووحيدها خوفا شديدا ، حتى تناهبت قلبها المخاوف والهواجس فأصبح فارغا متبددا ، وقاربت أن تكشف سترها وتعلن سرها ، ولكن الحق جل جلاله « ربط » على قلبها ، فجمع منه ما كان مشتتا ، وشد منه ما كان متداعيا ، فصار فى امتلاء واشتداد واستمساك .

وهكذا نرى أن الاستعمال القرآنى الكريم لمادة «الرباط» و«الربط» يشعر بالشدة والتماسك ، والشدة قوة لا تكون إلا ببذل المجهود لتحقيق المقصود ، والتماسك لا يكون إلا بالتكتل والتجمع والتعاون « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » ، « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

٦ — إهابة :

يا بنى الإسلام . . . إن « الرباط » فى سبيل الله شعيرة من شعائر الملة ، وفريضة من فرائض الكتاب ، وسنة لا يقطعها إلا جاحد أو جاهل ، وقد كتب الله الجهاد والقتال كما كتب الصيام والصلاة ، « ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين » ، « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

أحمد الشرباصى
من علماء الأزهر الشريف

ليس للمرأة شرعاً أن تمارس السياسة

لأن درء المفاسد المترتبة على ذلك مقدم على ما فيه من مصالح

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

قال مندوب « الأهرام » .

كان فضيلة الأستاذ الأكبر أمس عاكفاً على دراسة طائفة من المراجع الفقهية التي تحدثت في استفاضة وإبانة عن حقيقة موقف المرأة في نظر الشريعة الإسلامية ، وقد ذكر لي فضيلته أنه سوف يضع مذكرة مدعمة بالأدلة والبراهين القاطعة التي لا تدع مجالا لقائل بأن المرأة أن تمارس شأنا من شئون السياسة العامة ، وسوف يفرغ من هذا البحث في خلال أيام قليلة .

الإسلام دين الفطرة :

ومضى الأستاذ الأكبر فقال : لست أريد بهذا البحث أن أدخل في جدل حول موقف المرأة نفسها ، ولكني سأتحدث عن حكم الشريعة الإسلامية بوجه عام .

ومن الحقائق الدائرة على الألسنة ، المقررة بين علماء الإسلام ، أن الإسلام دين الفطرة وكان ذلك من أسباب سرعة انتشاره ، واستمرار حيويته ، وازدياد الإقبال عليه في كل العصور ، ولو أتيح له أن يعرف كما هو ، لكان هو نظام الإنسانية كلها .

ومن مظاهر كون الإسلام دين الفطرة أنك مهما استقصيت أوامره ، لا تجده يأمر إلا بما فيه مصلحة عامة ، ومهما أحصيت نواهيه ، لا تجده ينهى إلا عما فيه مفسدة ، والإسلام يترك غير المسلمين يتحاكمون إلى أهل ملتهم ، وإذا تحاكموا لدى القاضي المسلم حكم بينهم أو بينهم وبين المسلمين بالعدل ، فإن العدل تابع للتحاكم لا للإسلام ، وذلك شأن دين الفطرة وقد توصل علماء الإسلام إلى أن يستخرجوا من مجموع نصوص الشريعة وأحكامها قواعد عامة . كاستخراجهم قاعدة — الضرر يزال — من مثل قوله صلى الله عليه وسلم « لا ضرر ولا ضرار » ويتفرع على ذلك أحكام لا تحصى في الفقه والقضاء .

ثم قال : إن القواعد شأنها أن تؤخذ من موارد متعددة فى الشريعة ، ولهذا كانت فى نفسها قطعية ، وإنما الظن القوى فى تطبيقها ، وذلك كاف فى حق المجتهد .

وقد يرى واضع القانون الضرر الصغير فى الواقعة فيمنعه ، ويبيحه الشارع لأنه وقاية من ضرر كبير . ومن هذا نشأت قاعدة « ارتكاب أخف الضررين » ومن أصولها قول الله عز وجل « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » فإن عيب السفينة ضرر ، لكنه أخف من أخذها غصبا .

وينظر بعضهم إلى مصلحة تظهر من شيء ، ولا تقع أنظارهم على المفاسد التى تنجم عنه ، فيظهر لهم أنه أحكم من منعه نظرا إلى مفاسده ، ومن هنا نشأت فى الشريعة قاعدة « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » ، ومن ذلك ما يدعيه القائلون بإعطاء المرأة حقوق الرجل السياسية ، فإنهم نظروا إلى ما فى المرأة من مزايا ، وغفلوا أو تغافلوا عما يترتب على ذلك من مضار تشاهد فى كل مكان ، فدفع المضار مقدم على ما يذكرون من المزايا .

ثم تحـــدث الأستاذ الأكبر مبينا ما فى الشريعة الإسلامية من النصوص والبراهين المؤيدة لهذا فقال :

من قواعد التشريع الإسلامى قاعدة « العادة محكمة » أى أنها تجعل حكما فى إثبات الأحكام إذا لم يعارضها نص ، وابتنى عليها قولهم : « الممتنع عادة كالممتنع حقيقة » وقولهم : « المعروف عرفا كالمشروط شرطا » وقولهم : « التعيين بالعرف كالتعيين بالنص » وقولهم « لا ينكر تغير الأحكام بتغير الزمان » أى أن الأحكام التى كانت مبنية على عرف طرأ عليه التغير تتغير بتغير ذلك العرف ، فتبنى دائما على العرف الذى لا يخالفه نص .

ثم قال : إن القواعد كما قلنا مأخوذة من النصوص ، والنصوص لا تأتى إلا للمصلحة العامة ، والمصلحة العامة تتمشى دائما مع الفطرة الإنسانية وسعادتها ، فإذا لم تجز الشريعة للمرأة أن تمارس حقا من حقوق السياسة فإنما قصدت بذلك الخير الشامل للمجتمع الإنسانى ، فإن وظيفة المرأة الأولى أن تكون أما ، وأن تكون ربة بيت ، وقد أبيح لها أن تمارس الوظائف التى تتمشى مع طبيعتها ، فإذا هى أرادت أن تتعداها فإنما تكون قد خرجت عن الطريق التى رسمت لها والتى تتفق مع طبيعة تكوينها ، وفى هذا مضرة بها ، ومضرة بالمجتمع ، وشر بالإنسانية جمعاء يجب أن نتكاتف على دفعه ، والله الموفق .

الرّقُ وآثارُه

فى التشريع الإسلامى والمصرى

---

١ — كاد إجماع الأمة فى الفقه الإسلامى يكون منعقداً على أن الرق من موانع الإرث، حتى لقد حكى الإجماع على ذلك فى أكثر المصادر المعتبرة لهذا الفقه [١]. وقد كان مشروع قانون الميراث (٧٧ لسنة ١٩٤٣) - كما قدمته لجنة الأحوال الشخصية - مشتملاً على النص على الرق باعتباره مانعاً من الإرث، بيد أنه رؤى حذف هذا النص، بسبب الحظر القانونى للرق وزوال نظامه؛ إذ أنه من الجرائم المعاقب عليها منذ ستين عاما، ومن أجل ذلك قضى بأنه ليس ثمة فائدة من الناحية العملية من جراء إيراد نص فى قانون الميراث يعتبر الرق مانعاً من موانع الإرث [٢]. وصدر قانون الميراث، وقد خص موانع الإرث بالمادتين ٥، ٦ منه، وذكر فيهما ثلاثة موانع هى: القتل، واختلاف الدين، واختلاف الدارين فى حالة خاصة، ولم ينص على الرق مانعاً من الميراث [٣].

٢ — بيد أن المادة الخامسة صيغت بحيث تشعر بأن ما ورد فيها من موانع، ليس على سبيل الحصر بل على سبيل التمثيل؛ إذ ابتدأت عبارتها بالقول «من موانع الإرث ...» وهذا تعديل أجرته عليها (لجنة الشئون التشريعية بمجلس النواب) وأكدت فى تقريرها عن مشروع قانون الميراث، أن السبب فى ذلك هو جعل المادة المذكورة بحيث تكون أوضح فى الدلالة على أن النص وارد على سبيل التمثيل لا الحصر [٤].

---

(١) انظر: الاستاذ أحمد إبراهيم (بك) فى «المواريث علما وعملا» سنة ١٩٤٢ — ص ٧٢

(٢) انظر: المذكرة الايضاحية لقانون الميراث فى (مجموعة القوانين، الوقف والوصية والميراث) جمع وترتيب محمد الغريب — الطبعة الثانية — ص ١٤٤.

(٣) انظر: المادة ٥٨٠ من الأصل (كتاب الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية) لقدرى باشا، إذ نصت على أن مانع الارث الأول هو «الرق وافراً كان كالقن والمكاتب أو ناقصاً كالمدبر وأم الولد؛ لأن الرق ينافى أهلية الارث لأنها بأهلية للملك رقبة».

(٤) انظر: المذكرة الايضاحية لقانون الميراث فى (السالف) — ص ١٣٨

٣ — وأوردت المذكرة الإيضاحية فى تعليقها على نص م ٥ السبب فى جعل هذه المادة غير دالة على حصر موانع الإرث بقولها :

« حتى لا يظن أنه قصد بالحذف تغيير حكم شرعى أجمع عليه المسلمون »[١] .

٤ — وتعديل لجنة الشئون التشريعية لنص م ٥ لم يكن له لزوم فى نظرى ، بالرغم من السبب الذى أوردته المذكرة الإيضاحية ؛ إذ يترتب على جعل موانع الإرث فى القانون واردة على سبيل التمثيل إباحة إدخال موانع أخرى ، لم يكن المشرع يقصد بحال إدخالها ، ولقد كان الأصل ـ الذى كان معمولا به قبل صدور قانون الميراث ـ موفقا إذ حصر موانع الإرث بشكل لا يدع مجالا لإمكان دخول غيرها من الموانع المختلف فيها[٢] .

٥ — ثم إن المعروف هو أن القواعد المتعلقة بالتوريث وأحكامه المعتبرة شرعا ، ـ ومن هذه القواعد والأحكام موانع الإرث ـ هى من النظام العام L'orde public ، وقد قررت ذلك أحكام القضاء ؛ إذ قيل بأن أحكام الإرث من كون الإنسان وارثا أو غير وارث وكونه يستقل بالميراث أو يشاركه فيه سواه إلى غير ذلك من الأحكام ، وكذلك الأحكام المتعلقة بتعيين الورثة وانتقال الحقوق فى التركات عن طريق الوراثة للمستحقين شرعاً ، مخالفة كل هذا باطلة لمخالفتها للنظام العام ، يحكم ببطلانها القاضى من تلقاء نفسه فى أية حالة عليها الدعوى ولا تصححها إجازة من أحد[٣] .

٦ — ومن هذا يفهم أن كل شخص قابل للإرث ، إذا توافرت فيه شروط التوريث ، وانطبقت عليه أحكام الباب الثانى من قانون الميراث الخاصة بأسباب الميراث ، ولم يكن فى

---

(١) انظر : المرجع السابق — ص ١٤٤

(٢) انظر : المواد من ٥٨٥ — ٥٨٨ من الأصل (كتاب الأحكام الشرعية) السالف الذكر .

(٣) انظر : حكم القضية رقم ٢ سنة ٤ قضائية فى (مجموعة القواعد القانونية) ﺣ ١ ص ٤٤٩ ، وجاء فيه أنه باطل كل اتفاق قبل وفاة شخص ما على شىء يمس حق الارث عنه ، لأن مثل هذا الاتفاق يخالف النظام العام ـ وانظر كذلك حكم محكمة استئناف مصر (٢٠ نوفمبر سنة ١٩٤٦) فى (المحاماه) س ٣٠ ص ٧٥٢ رقم ٣٧٣ ، إذ يستفاد منه أن قواعد التوريث وأحكامه من النظام العام والتحايل عليها ممتنع لذلك .

حالة حجب مما هو منصوص عليه فى الباب الثالث ، إلا أن يكون ممنوعاً من الإرث ، فهذا المنع إذن من قبيل الاستثناء ، وفتح باب المادة الخاصة به (م ٥) لدخول موانع جديدة ليست معروفة لدينا خاصة بعد إلغاء الرق قانونا وحذفه باعتباره مانعا من الإرث ، وبعد ثبوت أن ليس فى القانون المصرى الوضعى على وجه العموم مانع من الإرث غير الموانع الثلاثة المذكورة فى قانون الميراث ، أقول إن هذا الفتح يعتبر من قبيل اللغو الذى كنا ننزه الشارع عن الوقوع فيه من الناحية الشكلية [١] .

٧ — أما السبب الذى أوردته المذكرة الإيضاحية . فلست أفهم بصدده ما وجه الظن بتغيير حكم شرعى أجمع عليه المسلمون ، مادام الرق قد ألغى فى مصر ولم يعد موجوداً ؟ ! ، بل إن (الرق) فى حد ذاته كان فى الإسلام نظاماً اقتضته ظروف مؤقتة خاصة به ، يدل على ذلك عدم تسجيل القرآن الكريم له ، وإنما سجل العتق ووسع فى أسبابه حتى يتسنى إلغاؤه والقضاء عليه ، حتى لقد قيل : إن أسباب العتق التى وضعها القرآن ، لو نفذت كلها ، فإنه لا يبقى رقيق فى دار الإسلام أكثر من عام واحد [٢] .

٨ — على أن دعوى الإجماع التى استندت إليها المذكرة مردودة وغير صحيحة على

[١] قد تتصور فكرة دخول موانع أخرى للميراث فى المادة ٥ ، إذا لاحظنا أن ثمة عدداً وافرا من هذه الموانع موجود عند الفقهاء على اختلاف ، ومثال هذه الموانع ، مانع الزنا ومانع اللعان ومانع التبرؤ من الولد ومانع عدم الاستهلال ومانع الشك فى الموت ومانع استغراق التركة بالدين ومانع الفقد ومانع الزواج المنقطع [المتعة] عند الشيعة الامامية إلا إذا اشترط أحد المتناكحين الميراث . الخ راجع فى هذه الموانع ، أحمد ابراهيم — السالف — ص ٩١ وما بعدها .

[٢] انظر . الاستاذ محمد أبو زهرة فى بحث [شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله] — فى [المسلمون] س ١ ص ٣٥ بند ١٠ — ومما هو جدير بالذكر أنه على الرغم من اعتراف الاسلام بشرعية الرق ، فانه كان يبيح للعبد أن يسلم مع بقائه عبدا ، ويقول البعض بأنه لو حدث يوما ما أن كان كل الناس مسلمين فان مصدر الرق ما كان ليبقى له وجود نتيجة لذلك ، ويوضحون ذلك بأن وضع العبد فى المجتمع الاسلامى كان فى العادة حسنا جدا ، وإعتاقه من سيده كان بابا مفتوحا لهذا الاخير ، يستطيع عن طريقه أن يكفر عن المعاصى والسيئات التى وقعت منه فى مواجهة الديانة الاسلامية ، وبصرف النظر عن هذا الغرض الخاص من الرق وهو التكفير ، فالعتق فى حد ذاته كان مندوبا ومطلوبا من الاسياد — انظر .

L'islamisme, par O. Haudas, Paris, 1904, p. 219

إطلاقها [١] ؛ وذلك لوجود خلاف ليس قليل الأهمية ، فى شأن الرق واعتباره مانعاً ؛ إذ وجد فقهاء كثيرون قالوا باعتباره غير مانع من الإرث [٢] .

٩ — ومن أجل كل هذا لا أرى معنى للتحفظ والخوف من الظن بتغيير حكم شرعى أجمع عليه المسلمون ؛ لأن هذا الظن وهم وخيال من جهة ، ومن جهة أخرى لأن هذا الإجماع المردود من المسلمين ، ليس عيباً خروج المشرع المصرى الحديث عليه ، ما دام بشأن مسألة خاصة ، رأينا أنها سلمت فى التشريع الإسلامى لوجود محلها الذى هو انتشار الرق فى بدء نشوئها ، ثم ما كان من محاولة هذا التشريع القضاء عليه ، بحثّه على العتق ، وإيراده للأسباب الكثيرة لتشجيع هذا الأخير .

١٠ — ويلاحظ أن قانون الميراث لم يتخلص البتة من آثار الرق ، يتبين ذلك من اعتباره (العصوبة السببية) سبباً ثالثاً للإرث بعد الزوجية والقرابة (م ٧) ، ويقصد بهذه العصوبة الميراث بولاء العتاقة وفق هذا القانون [٣] ، وصورة ولاء العتاقة هذا أن

---

[١] انظر . أحمد ابراهيم — السالف — هامش ص ٥٧

[٢] راجع فى ذلك . [القواعد ومفتاح الكرامة] و [حاشية الفنارى] و [ابن حزم] و [الروضة الندية وشرحها للشوكانى وصديق خان] و [الاهلية وعوارضها] و [نظام النفقات] لأحمد ابراهيم — عن : أحمد ابراهيم فى — السالف — ص ٧٢ وما بعدها

(٣) عرف الرومان ولاء العتاقة والتوريث على أساسه ، إذ كان لديهم نظام العتق ، وكان العتيق بمقتضاه يكتسب صفة الحرية والصفة الوطنية معا ، ولكنه لا يصير حراً على إطلاق ، إذ وضع القانون الرومانى عدة قيود تحد من حريته كى يعتبر فى مرتبة أدنى من مرتبة الاحرار الأصليين ، وخاصة ما يتعلق من هذه القيود بالحقوق المالية Bona ، ويهمنا هنا من هذه الحقوق : الحق الذى كان يخول السيد إذا أعتق ، والذى بمقتضاه يرث عتيقه إذا مات من غير وارث وبدون أن يترك وصية — انظر . الدكتور محمد عبد المنعم بدر والدكتور عبد المنعم البدراوى فى (القانون الرومانى) ص ١٥٢ ، ومفهوم أن القانون الرومانى قد عرف الرق واعتبره مانعا من الارث — انظر . السالف ص ١٤٣ ، كما عرف نظام الموت المدنى Capitis Demininutis انظر بيانا موجزا عن هذا النظام وتاريخه فى موجز القانون الرومانى لجيفار — طبعة ١٩٣٤ جـ ١ ص ٣٠٩ — ٣١١ . وجاء هذا النظام La mort ciuil إلى القانون الفرنسى ونص عليه فى ق سنة ١٨٠٤ — ثم ألغى بقانون سنة ١٨٥٤ انظر فى ذلك Code Civil annoté d'aprés la doctrine et la jurisprudence, par, H. Bourdeaux, p. 33, وانظر - Prof. Gaston Stefani, Les successions ab intestat et testamentaire en droit grançais comparé au dr. egyptian, Rev. Al-Ianoun Wal Iqtisad, xx1 eannéc, No 1, p. 47.

يعتق الرجل عبداً أو أمة له ، فيترتب على ذلك أن يصبح العتيق منسوباً إلى المعتق بالولاء ، ومن أجل هذا أطلق على هذا الولاء (ولاء النعمة) ، وبمقتضاه يرث المعتق من العتيق دون العكس ، وسواء فى ذلك أحدث العتق من المعتق لوجه الله تعالى أم لوجه الحاكم أو السلطان ، وسواء أعتقه سائبة أم شرط ألا ولاء عليه ، كما أنه يستوى العتق بجعل أو بغير جعل أو بطريق الكتابة [١] .

١١ — والرأى الذى أخذ به القانون فى شأن ولاء العتق هو رأى الجمهور ، فهم الذين يعتبرونه سبباً من أسباب الإرث ، ويستندون فى ذلك إلى حجج يمكن تلخيصها فى سندين :

أولهما : سند قرآنى : إذ قال تعالى : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون » وقد فسروا « الموالى » فى الآية على أنها العصبات ، ومولى العتاقة يعتبر عصبة ، ومن أجل ذلك يرث . ويرد على ذلك بأمرين :

(الأول) أن كلمة الموالى فسرت أيضاً على أنها الورثة ، وبذلك تفتقر إلى دليل يدل على أن مولى العتاقة من هؤلاء .

(والثانى) أن المتوفى ليس والداً ولا قريباً لمولاه المعتق ، وهنا يتبين أن مولى العتاقة خارج عن الصورة الواردة فى الآية [٢] .

وثانيهما : سند نبوى : ويتفرع فرعين :

(الأول) خاص بقول الرسول صلى الله عليه وسلم إن « الولاء لحمة [٣] كلحمة النسب لا يباع ولا يوهب » إذ يدل هذا الحديث فى نظرهم على أن الولاء كالنسب (القرابة) سبب للإرث . وهذا القول مردود كذلك لاعتبارات ، منها أن هذا الحديث معلول [٤] ، ومنها أن الولاء إن كان كالنسب ، فليس كل نسب سبباً فى الإرث عند من يقول بعدم توريث ذوى الأرحام ، ومنها أن وجه الشبه الوارد فى الحديث بين الولاء والنسب هو الخاص بالبيع والهبة فقط لا المتعلق

---

(١) انظر : شمس الدين السرخسى فى [المبسوط] جـ ٣ ص ٣٨ .

(٢) انظر . أحكام القرآن لأبى بكر الرازى الجصاص — وأحمد ابراهيم — السالف . ص ٣١ .

(٣) المراد باللحمة . الرابطة التى تربط شيئين أحدهما بالآخر .

(٤) أعله البيهقى .

بالإرث ، وكذلك لا دليل على توريث الجمهور للمعتق من العتيق دون إجازة العكس [١] .
والثاني خاص بتلك الرواية التي تتلخص في أن النبي ﷺ - لما مات مولى لبنت حمزة تاركا ابنته ومولاته ابنة حمزة - أعطى الابنة نصف مال المتوفى والنصف الآخر أعطاه لبنت حمزة ، وهذا يدل على توريث النبي ﷺ للمعتق من العتيق ، ولكن الواقع أن هذه الرواية مضطربة الإسناد كل الاضطراب ، والأحكام الشرعية لا تثبت بروايات فيها مثل هذا الاضطراب [٢] .

١٢ — وعلى خلاف رأي الجمهور وجد رأي آخر ، هو رأي (الإباضية) [٣] ، يقول : إن ثبوت الإرث لا يكون إلا بدليل من الكتاب أو السنة أو الإجماع ، وليس في حالتنا هذه شيء من ذلك ، لأن أسباب الإرث الثابتة في الكتاب والسنة هي القرابة والزوجية ، وأما عن الإجماع ، فإنه يروى أن قد مات مولى لابن عمر ، فجيء إليه بما ترك فرفض أخذه قائلا : لو كان لي لأخذته ، كما أنه يروى أن مولى لرسول الله ﷺ مات ، فدعى النبي من حضر من أهل أرضه ، وأعطاهم مال الرجل ، ولم يدع لنفسه إرثه بسبب الولاء [٤] .

١٣ — والواقع أنه لا مجال للرأي بعد أن نص قانون الميراث على هذا الولاء واعتباره

---

[١] انظر . أحمد إبراهيم - السالف - ص ٣٢ - ويلاحظ أن بعض الفقهاء يرون التوارث بين المعتق والعتيق . بيد أن الجمهور لم يجيزوا ذلك .

[٢] انظر : أحمد ابراهيم - السالف - ص ٣٣ - على أن بعض الفقهاء حاول الجمع بين مختلف الروايات في هذا الشأن [نيل الأوطار] ولكن هذا لا ينفي ما ذكر في المتن

[٣] هم أتباع عبد الله بن إباض التميمي ، وهم فرقة من الخوارج ، يتميزون عن سواهم من فرق الخوارج بأنهم لم يغلوا في الحكم على مخالفيهم ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى طبيعة ظروف نشأتهم إذ أن صاحبهم السالف الذكر لم يخرج إلا في أيام مروان بن محمد بعد أن قضى الأمويون على الخوارج أو كادوا وبعد أن تحول نضال الأحزاب بعد يأسهم حول الحكم إلى مذاهب علمية بحتة - انظر : دكتور حسن ابراهيم حسن في [تاريخ الاسلام السياسي] ج ١ سنة ١٩٣٥ ص ٤٦٩ وهامشها - هذا ولاعتدال هذه الفرقة بقي منها ناس إلى اليوم ، انظر : محمد أبو زهرة في [أحكام التركات والمواريث] هامش ص ٩٢

[٤] انظر : شرح النيل (من كتب الاباضية) ونيل الأوطار [الشوكاني] - وأحمد ابراهيم - السالف - ص ٢٩ .

سبباً للتوريث ، وقد أخره عن توريث ذوى الأرحام وعن الرد على الزوجين ، وهو فى ذلك يعمل بمذهب الإباضية إذا كان ذوو أرحام أو أصحاب فروض ، ويأخذ برأى الجمهور حين لا يكون أحد من الأقارب قط ؛ إذ يقرر هذا الجمهور أن التوريث الثابت بالولاء على أنه عصبة سببية يعقب ذلك المتعلق بالعصبة النسبية ، ويسبق الرد على جميع أصحاب الفروض وكذلك ذوى الأرحام [1] .

١٤ — غير أنه بالرغم من هذا الاهتمام الذى أبداه المشرع المصرى بمسألة مولى العتاقة وتوريثه من عتيقه ، ونصه على ذلك فى المادة السابعة من قانون الميراث ، وإيراده مادتين خاصتين بأحكام توريثه (م ٣٩ ، ٤٠) والتعب الذى لاقاه فى سبيل ترجيح رأى الجمهور ، يضيق نطاق تطبيق ما جاء به فى هذا الشأن كل الضيق ؛ وذلك نظراً لأن الرق قد انتهى كما أسلفت منذ زمن بعيد ، ويعد من الجرائم المعاقب عليها من عشرات السنين [2] .

١٥ — ويلاحظ بعد هذا أن الحجة العملية المعقولة التى يمكن تسليمها فى شأن توريث المولى الذى أعتق من عتيقه هى التى تقول بأن تقرير ذلك التوريث إنما يشجع على العتق ؛ لأن المعتق يقدم على الإعتاق إذا علم أن علاقته بعتيقه سوف لا تنقطع وأنه سيكون وارثه فيما يخلفه من مال بعد موته [3] ، بيد أنها حجة لا مجال للأخذ بها هنا فى قانون الميراث ؛

---

[١] انظر محمد أبو زهرة — فى السالف — ص ٢٣٦ — وقد بين القانون أحكام الارث بالعصوبة السببية فى الباب السادس — راجع نص المادتين ٣٩ — ٤٠ وتعليق المذكرة الايضاحية عليها فى — [مجموعة القوانين] — السالف — ص ١٥٨ .

[٢] الظاهر أن اعتبار المشرع المصرى لولاء العتاقة سببا للارث يرجع إلى وجود فئة [الأغوات] وهم شرذمة من العتقاء عاشوا فى القصور الملكية المندثرة ، ويمكن التعليق على ذلك بأن نظام هؤلاء القوم نظام خاص ، واهتمام المشرع بإدراج هذه النصوص فى قانون الميراث خاصة بتوريث الموالى منهم وضع منتقد لاعتبارات لا تخفى على فاحص ، ولئن صح أن هذه الفئة من المخلوقات هى التى ينطبق عليها وحدها قانون الميراث فى شأن مولى العتاقة باعتبار أنها من العتقاء الذين يرثهم مواليهم إذا ماتوا من غير وارث إذا صح ذلك — وفى علمى أنها الفئة الوحيدة فى هذا الصدد — فإنه يمكن تصور مبلغ الضيق فى نطاق تطبيق قواعد الارث فيما يتعلق بولاء العتاقة ، ولئن صح هذا كذلك فلا محل لاعمال هذه القواعد بعد انقلاب الحكم فى مصر وزوال الملكية وقيام الجمهورية . . . !

(٣) انظر : محمد أبو زهرة — فى السالف — ص ٢٤٢ .

إذ كيف نندب العتق بتقرير توريث مولى العتاقة ، وأساس العتق الذى هو الرق ملغى لا وجود له [1] ؟!

أحمد طه السنوسى

---

(١) يلاحظ أن ولاء العتاقة هو أحد نوعين الولاء ، يعرف ثانيهما بولاء الموالاة ولم يتعرض له المشرع ، وهو عبارة عن عقد بين عربى وأعجمى أسلم مثلا بمقتضاه يلتزم العربى دفع الدية عن الأعجمى إذا أجرم هذا الاخير ، ويرثه إذا توفى وليس له وارث قط ، ومن المفيد بيان التفرقة بين الولاءين من الوجهة القانونية والعلمية ، وهذه التفرقة تتلخص فى ثلاثة أمور :

الاول : أنه فى ولاء العتاقة يرث الاعلى وهو مولى العتاقة من الأسفل وهو العتيق دون العكس ، على حين أنه فى ولاء الموالاة يكون التوريث على مقتضى الاتفاق بين الطرفين ، وبناء ذلك أن ولاء العتاقة إنما سبب التوريث فيه الاعتاق وهو يوجد من الاعلى فى حق الأسفل دون العكس ، بينما السبب فى ولاء الموالاة هو العقد والشرط ، والحكم يثبت على الوجه الذى يوجد عليه الشرط والعقد .

والثانى : أن ولاء العتق لا يحتمل النقض والفسخ على حين يحتمل ولاء الموالاة ذلك ، وعلة هذا مفهومة ، وهى أن سبب الأول وهو الاعتاق لا يحتمل النقض بعد ثبوته ، والمعروف أن ثبوت الحكم يكون على وفق السبب ، وهذا على خلاف الحال فى ولاء للموالاة ، إذ السبب فيه الايجاب بطريق التبرع وهو يحتمل النقض ، وتظهر القدرة على الفسخ فى التفرقة بين الحال بعد العقل وقبله ، وتتضح فى حالات أولها : أن الموجب ينفرد بالفسخ ما لم يعقل عن الطرف الآخر ، ولكنه لا ينفرد به بعد ما عقل عنه جنايته ، والسبب فى ذلك انه قبل عقل الجناية العقد تبرع بالنسبة له ، والمتبرع له الفسخ قبل حصول المقصود بغير رضاء الطرف الآخر ، على عكس الحال إذا تحمل عنه جريرته ، فالعقد هنا يصير معاوضة ، ولا يحدث الفسخ فى المعاوضة من جانب واحد بل لابد من رضاء الطرفين . وثانيهما : أن الموجب ما دام يملك فسخ العقد قبل العقل ، فهو يملك التحول بولاية الى سواه ، وذلك بأن يتعاقد مع غيره معاقدة ولاء ، فينفسخ العقد عندئذ بينه وبين المتعاقد الاول بذلك العقد اللاحق ، أما إذا عقل الجناية ، فهو لا يملك مثل هذا التحول ، وثالثها : أن من لم يوال أحداً لا يستطيع أن يعقد عقد موالاة مع أحد ، فى حالة ما إذا جنى وعقل بيت المال جنايته ، وذلك لأن ولاءه صار لبيت المال ، وتأكد هذا بعقل الجناية : فلا يستطاع من بعد إبطال هذا الولاء ، وهذا على خلاف الحال قبل عقل بيت المال جناية الجانى ، إذ يستطيع عقد الولاء مع آخر باتفاقه معه .

والثالث : أن مولى العتاقة متقدم فى [المذهب الحنفى] على ذوى الارحام ، على حين أن مولى الموالاة مؤخر عنهم ، والسبب فى ذلك ثبوت العصوبة لمولى العتاقة بالشرع ، أما فى حالة ولاء الموالاة ، فالموت هو الذى أوجب صلة التوريث بالعقد ، وعلى هذا يكون بمنزلة الوصية بجميع المال ، وهى ممتنعة هنا لحق ذوى الارحام وحق العصبات ، وشأنها فى ذلك شأن الميراث ، وعلى هذا لا ينال مولى الموالاة شيئا إن كان ثمة أحد من ذوى الارحام . انظر فى هذا : شمس الدين السرخسى - السالف - ج ٣ ص ٤٥ .

انتكاس الإنسانية والحضارة
بانتصار "شارل مارتل" على "عبد الرحمن الغافقي"

في معركة تور Tours يوم السبت ٨ شعبان سنة ١١٤ (أكتوبر ٧٣٢)

في افتتاحية هذا الجزء من (مجلة الأزهر) إشارة إلى قبس النور الذي سطع من فسطاط مصر فتبلج في آفاق الأندلس ، وكادت تستضيء به فرنسا وأوربا فتكون العربية لغة فرنسا الآن ، ويكون نظام الإسلام العادل الرحيم هو نظام الأوربيين والأمريكيين جميعا ، لولا خدعة من خدع (الأراجيف) صدرت عن جواسيس شارل مارتل فجازت على الأبطال المجاهدين تحت ألوية الأمير القائد المجاهد عبد الرحمن الغافقي ، فتغير بذلك اتجاه التاريخ ، وتحولت به زعامة التمدن من ذات اليمين إلى ذات الشمال ، فكان ذلك نكبة على الإنسانية والحضارة .

وقد شعرنا بعد مثول المقال الافتتاحي للطبع ، أن هذا الموقف يحتاج إلى بيان تكمل به الفائدة من تلك الإشارة الخاطفة ، فاخترنا نقل النصوص الأجنبية الآتية :

شهادة مسيو كلود فارير :

لما ترجم أحد أساتذة مدرسة اللغات الشرقية في باريس رواية (العباسة أخت الرشيد) لجرجي زيدان من العربية إلى الفرنسية طلب إلى أديب الفرنسية الأشهر مسيو (كلود فارير) أن يكتب لهذا الكتاب مقدمة . فلبى طلبه ، ومما جاء في تلك المقدمة ما يأتي :

« في سنة ٧٣٢ م (١١٤ هـ) حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع التي انقضت على الإنسانية في القرون الوسطى ، وكان منها أن غمرت العالم الغربي — مدة سبعة قرون أو ثمانية إن لم نقل أكثر — في طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة (رونسانس) وكاد عهد الإصلاح يعيدها إلى كثافتها . هذه (الفاجعة) هي التي أريد أن أمقت حتى ذكراها . وأعني بها الانتصار البغيض الذي ظفر به على مقربة من بواتيه [1] أولئك البرابرة المحاربون من الافرنج بقيادة الكارولنجي شارل مارتل على كتائب العرب

---

(١) بقعة من الأرض الفرنسية قريبة من بلدة (تور) في مقاطعة شمبانيا .

المسلمين الذين لم يحسن عبد الرحمن الغافقى جمعهم على ما ينبغى من الكثرة فانهزموا راجعين أدراجهم .

فى ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدنية ثمانية قرون إلى الوراء . ويكفى المرء أن يطوف فى حدائق الأندلس ، أو بين الآثار العربية التى لا تزال تأخذ بالأبصار بما يبدو من عواصم السحر والخيال (إشبيلية ، وغرناطة ، وقرطبة ، وطليطلة) ليشاهد — والألم الغريب آخذ منه — ما عساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العمرانى الفلسفى السلمى المتسامح - لأن الإسلام مجموعة كل هذا - فخلصها من الأهاويل التى لا أسماء لها . وكان من ذلك أن نتج خراب غاليا القديمة التى استعبدها أولا لصوص أوسترازيا ، ثم اقتطع جزءا منها قرصان النورمانديين ، ثم تجزأت وتمزقت وغرقت فى دماء ودموع ، وفرغت من الرجال بما انبعث فى أرجائها من الدعوة للحروب الصليبية ، ثم انتفخت بالأشلاء والجثث مما دهمها من الحروب الخارجية والأهلية الكثيرة العدد .

حدث ذلك فى حين كان العالم الإسلامى - من نهر الوادى الكبير فى أوربا إلى نهر السند فى قلب آسيا - يزدهر كل الازدهار فى ظل الإسلام ، تحت أعلام أربع دول سعيدة : الأموية ، فالعباسية ، والسلجوقية ، فالعثمانية .

ليس ما أكتبه فصلا من التاريخ الرسمى [١] ، بل هو التاريخ الحقيقى الذى يتعلمه المرء بنفسه ، بما يجتازه من بحار ، ويقطعه من فيافٍ وآفاق ، ويقلبه من خزائن الكتب الأجنبية . وليس هذا بعزيز على حياة سائح يريد أن يفضح - عقب رحلة له - ما كان يلمسه بأطراف بنانه من تلك الأكاذيب الكبرى السفيهة التى أراد معلمونا - ولا يزالون يريدون - وضعها أمام أعيننا كأنها حقيقة ، بل هى الحقيقة ... » .

إن هذه الشهادة من أديب فرنسا الأكبر مسيو كاود فارير للحضارة الإسلامية تنادى بأنه كان من الخير لفرنسا لو انتصر عبد الرحمن الغافقى على شارل مارتل ، ليكون نصيب

---

(١) وما أكذب التاريخ الرسمى ، لأن الأقوياء يملونه على المنافقين والمغرضين والكذبة بوسيلتى الترغيب والترهيب . ثم يحتاج الى تصحيح ، كما شعرنا الآن بالحاجة إلى تصحيح تاريخ الأسرة العلوية بمصر ، وكما يشعر علماء المسلمين بالحاجة إلى تصحيح تاريخ الصحابة والتابعين والتابعين لهم باحسان ، وكما يعلن كاود فارير حاجة أوربا إلى تصحيح تاريخها الرسمى الذى يتهكم به . [المجلة]

الفرنسيين فى لغتهم وثقافتهم كنصيب أهالى قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغرناطة ، يوم كان العرب المسلمون يقيمون فيهن معالم الحق والحضارة والحكمة والعمران .

شهادة هنرى دى شامبون :

وإليك شهادة ثانية من فرنسى آخر هو المسيو هنرى دى شامبون مدير مجلة (ريفو بارلمنتير) قال :

« لولا انتصار جيش (شارل مارتل) الهمجى على تقدم العرب فى فرنسا لما وقعت فرنسا فى ظلمات القرون الوسطى ، ولما أصيبت بفظائعها ، ولما كابدت المذابح الاهلية الناشئة عن التعصب الدينى والمذهبى . ولولا ذلك الانتصار البربرى على العرب لنجت إسبانيا من وصمة محاكم التفتيش ، ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون .

إننا مدينون للشعوب العربية بكل محامد حضارتنا : فى العلم ، والفن ، والصناعة . مع أننا نزعم اليوم أن لنا حق السيطرة على تلك الشعوب العريقة فى الفضائل . وحسبها أنها مثال الكمال البشرى مدة ثمانية قرون ، بينما كنا يومئذ مثال الهمجية . وإنه لكذب وافتراء ما ندعيه من أن الزمان قد اختلف ، وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى » .

وصف تاريخى للمعركة :

وكأنى بك بعد هذا وذاك تريد أن تعرف شيئاً عن تلك المعركة التى تغير بها سير التاريخ ، وتسألنى : وكيف كان ذلك ؟ فأحيلك — فى تفصيل ما سألت — على الاستاذ حنا خباز من أدباء الشام ومؤرخيها ، قال :

« نشأت الدعوة الإسلامية فى مكة المكرمة بالحجاز ، وأتمت إخضاع العرب فى حياة منشئها العظيم ، ومن ثم شرعت فى نشر سطوتها فى العالم .

وليس فى تاريخ العالم أغرب من سرعة انتشار الدعوة الإسلامية فى سنين قلائل : فى سوريا ، والعراق ، وكردستان ، وأرمينيا ، وقوقاسيا ، والعجم ، والتتار ، ومصر ، وطرابلس الغرب ، وتونس ، والجزائر ، ومراكش . ولم تقف عند هذا الحد ، بل تخطته إلى ما هو أبعد مكاناً وأعظم مغزى : فهاجمت أوربا أولا من ناحية قسطنطينية ، وإذ امتنعت

عليها دارت بها من ناحية إسبانيا ، ودخلتها عن طريق جبل طارق ، وساعدتها الأقدار على استعمار إسبانيا وسمتها الأندلس » .

ولست أرمى هنا إلى شرح تاريخ الدعوة الإسلامية فى الأندلس ، ولا إلى إيراد فتوحاتها المجيدة فى بلاد الفندال والفزيغوت ، بل أقول : إنها امتدت شمالا إلى جبال بيرنيه وعبرتها إلى فرنسا . وشنت الغارة على فرنسا بقيادة (عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى) سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) ، وكان هذا قائداً خبيراً بفنون القتال ، دمث الأخلاق ، محبوباً من جميع جنوده . فاجتاح (غسقونيا) وكل (وادى غارون) ، وقهر الكونت (إيدو) وهزمه ، وكانت على نهر غارون مذبحة هائلة نشرت الرعب فى قلوب جميع سكان أوربا . ثم تقدم عبد الرحمن بجيشه اللجب إلى (وادى اللوار) ولم يقف فى سبيله حاجز حتى وصل نواحى مدينة (تور) وهو يفتتح ويغنم ويحرق .

(ميدان المعركة) : فى رحاب شمبانيا الشاسعة — بين بواتيه وتور — المؤلفة من مروج خصبة وافرة المرعى غنية الحاصلات ، تنساب فيها جداول الشار والكروز والفيان والكلاين والأندر ، وكل هذه الجداول فروع من نهر لوار العظيم . وترقط تلك الرحاب هضبات وأنشاز امتازت بنضارتها وجنانها ، تخترق بعض أقسامها حراج وغابات تفصل بين مروجها الخضراء ، فهى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وتغرد على ميلاء أفنانها صادحات الأطيار ، ويهب فى غاباتها النسيم عليلا . وينساب لجين مائها على در حصبائها فراتا سلسبيلا .

وقد ازدان تاريخ تلك الرحاب — أو تشوه — بأخبار معارك عديدة شبت فيها فى مختلف الأزمان ، بين الغزاة الفاتحين والوطنيين المدافعين فى مختلف الأمم والأحوال . وأهم ما سطر فى صفحات تاريخها أخبار المعركة الفاصلة بين (شارل مارتل) و (عبد الرحمن الغافقى) أو بين العرب والجرمانيين ، بل بين الساميين والآريين ، بين آسيا وأوربا ، بين الشرق والغـــرب .

هنا لك كانت نقطة التحول والانقلاب فى مجار كثيرة هى : الفتح العربى ، الامتداد الإسلامى ، الطموح الشرقى ، النهضة الآسيوية . ومن ثم نكصت هذه المجارى راجعة من جوار باريس إلى ماوراء جبال بيرنيه ، ثم برحت أوربا إلى العالم القديم ، فساد أوربا التمدن المسيحى والأمم الجرمانية .

(جيوش المعركة) : نشر الإسلام رواقه على شمال إفريقية وغربي آسيا . وتعمق في هذه إلى ما وراء دجلة ، فاكتسح بلاد الفرس والتتار وما فيها من جبال ووهاد ، وأغوار وأنجاد ، وبحيرات وأنهار ، ومدائن وأمصار ، وأمم وأسباط ، فكان (جيش عبد الرحمن الغافقي) خليطا من كل تلك الأمم من بدو وحضر وعرب وبربر ، وفيه من الفزيغوت والفندال من شعوب إسبانيا والبرتغال . واختلف المؤرخون في عدده بين ٨٠ ألفا و ٧٠٠ ألف [١] . وأثبت أحد مؤرخي الأجيال الوسطى خسارة العرب في معركة تور ٣٥٠ ألفا . ولا سبيل لنا إلى تحقيق ذلك ، والأرجح أن فيه مبالغة كبيرة . على أنا إذا فحصنا الأمور بنور الحقائق تجلت لنا القواعد التي تؤيد أهمية المعركة ووفرة جنودها . قال أحد مؤرخي الأديار : « حل الإسلام إسبانيا بخيله ورجله ، وجاءها المسلمون بأبنائهم وأزواجهم ، وشكلوا الممالك ، ونشروا التمدن العربي والفنون الشرقية ، وحشدوا جيوشهم في تلك الأصقاع ، وجمعوا أسلحتهم وذخائرهم ، وعبروا بكل هذه الأشياء إلى فرنسا ، فاكتظت بها الأقدام ، وغمرتها الجحافل والأعلام » .

أما (جيش شارل مارتل) فكان فيه الجرمانيون ولا سيما التيوتون الذين سكنوا غرب نهر الرين ونبذوا عنهم عيشة البداوة الخشنة واعتنق بعضهم النصرانية ، ولكن أكثرهم ما زال إلى ذلك الحين على الجاهلية . وكان زعماؤهم في نزاع مستديم على التفوق . وأخيراً قبض كلوفيس على أزمة الأمور سنة ٥٨٩ ، وهذا أساس الدولة الفرنسية ، ومن ذريته (شارل مارتل) بطل معركة تور ، وهو دوق الفرنج الأوستراسيين ، وهم أشجع الجرمانيين . وكانت تحت لوائه جموع كثيرة من الغاليين والنورمنديين والسكسونيين والثورنجيين والغيرسانيين والبافاريين والإيطاليين والأوستروغوثيين .

(أوصاف المعركة) : كتب العرب تاريخ هذه المعركة ، وترجم ذلك إلى اللغة الإسبانية الدون خوسيه أنطونيو كوندو في (تاريخ الممالك العربية في إسبانيا) وقد طبع هذا الكتاب في مدريد سنة ١٨٢٠ وعنه أخذ المؤلف الإنجليزي إدورد كريسي سنة ١٨٥١ في كتابه (١٥ معركة فاصلة) وهذه ترجمته :

---

[١] ويتمنى مسيو كاود فارير لو أن الجيش العربي كان أكبر من ذلك ليتم له سحق جيش شارل مارتل والتولي على فرنسا لتأخذ بثقافة العرب وحضارتهم وأدبهم ويكون لها ما لهم وعليها ما عليهم .

« ... فجمع الكونت جموعه ، وحارب وهو على غير يقين بالفوز . فساقهم عبد الرحمن أمامه ، وطاردهم جنوده بما فى نفوسهم من الحماسة الناشئة عن انتصاراتهم الماضية وثقتهم التامة بالفوز . فضرب المسلمون أعداءهم ضربات حاطمة ، واجتازوا نهر غارون فدمروا البلاد ، وأخذوا الأسرى بدون عدد ولا إحصاء ، وسارت جيوش عبد الرحمن فى عرض البلاد الفرنسية سير العواصف الكاسحة لا تبقى ولا تذر . وتمادت الجيوش الإسلامية فى الرخاء والغنائم ، ودفع عبدُ الرحمن الكونتَ عن ضفاف النهر فارتد إلى حصونه ، فحاربه المسلمون وقهروه وانتزعوا منه حصونه وذبحوه بحد السيف وفازوا بخطف الأرواح . فارتاعت قبائل الإفرنج من هول الجيوش العربية وارتجفوا ، وذهبوا إلى ملكهم (كالدوس) وقصوا عليه الروع الذى ألقاه فرسان المسلمين فى نفوسهم ، وأنهم اجتاحوا بلاد نربون وتولوز وبوردو وأصبحوا أحرارا فى البلاد ، وأخبروه بموت الكونت قائدهم ، فطيب كالدوس قلوبهم ووعدهم بالنجدة .

وامتطى كالدوس صهوة جواده سنة ٧٣٢ م (سنة ١١٤ هـ) وقاد جيشاً لا يحصى عددا ونزلوا لقتال المسلمين ، فأدركهم فى نواحى مدينة تور العظيمة . ورأى عبد الرحمن وغيره من الزعماء انتقاض حبل النظام بين الجنود الإسلامية لاشتغالهم بالغنائم والأسلاب ، ولم يتجاسروا أن يغيظوهم بشىء . ووثق عبد الرحمن ببسالة جنوده ، وبيمن الطالع الذى رافقه . ولكن انحطاط الروح الحربية فى الجيش هو على الدوام آفة الآفات ، فهاجم عبد الرحمن وجيوشه مدينة تور ليغنموا الغنائم وحاربوها ببسالة قبلما أدركتها النجدة ، وكان صياح المجاهدين المسلمين كهياج النمور لدى فرائسها . ولكن الله أهملهم لتوغلهم فى الملاذ والأطماع الدنيوية ، فالتقى الجيشان قرب نهر (لوار) وهما مختلفان فى اللغة والدين والصفة المدنية (وكان ذلك يوم الجمعة ٧ شعبان سنة ١١٤ - ٢ أكتوبر سنة ٧٣٢) . وبدأ عبد الرحمن وجنوده الحرب بقلوب ملؤها الغضب والكبر ، وهجمت فرسان المسلمين على صفوف الفرنج فثبت هؤلاء لهم ثبات الأبطال ، وتكدست جثث القتلى إلى الجانبين ، وظلوا فى كر وفر إلى غروب الشمس ، وفصل ظلام الليل بين الجيشين .

واستأنف المسلمون القتال عند ضوء الفجر ، واخترق فرسانهم طريقاً إلى قلب الجبهة النصرانية ، ولكن قلوب كثيرين من المسلمين كانت مشغولة بالغنائم التى جمعوها فى خيامهم .

وذاع فى صفوفهم نداء كاذب : إن الأعداء بغتوا المحلة (أى ساحة خيام المعسكر) ونهبوها . فبادر بعض فرسانهم للدفاع عنها وطرد الأعداء ، فظن إخوانهم أنهم انهزموا من الميدان ، فاضطربت جيوش المسلمين . وفيما كان عبد الرحمن يهدئهم ويسكن روعهم ليردهم إلى الميدان ، أحاط به محاربو الفرنج واخترقت صدره حرابهم فخر صريعاً ، فهرب جنوده أمام الأعداء ومات منهم خلق كثير » .

ويقول المؤلف الإنجليزى كريسى (تعليقا على ما نقله دون خوسيه انطونيو كوندو الإسبانى عن مؤرخى العرب) : ونذر أن نجد إنصافا كهذا فى تاريخ الحروب القديمة ، وصراحة كالصراحة التى يصف بها العرب انكسارهم فى تور [1] . ولكن مؤرخى النصارى يخالفونهم فى بعض التفاصيل ، ولا خلاف بين الفريقين فى نتيجة المعركة ، وهى انسحاب العرب من فرنسا إلى ما وراء جبال بيرنه ، فانفرد شارل مارتل ثم ابنه لحفيده شارلمان بالحكم فى فرنسا ، وهم ملوك الدولة الماروفنجية الشهيرة ، فتأسست على أنقاض معركة تور (الإمبراطورية الرومانية الغربية) ، وتوج البابا شارلمان إمبراطوراً على فرنسا وألمانيا وإيطاليا سنة ٨٠٠ (١٨٤ هـ فى زمن أمير المؤمنين هارون) وبذلك بدأ التمدن المسيحى .

(آراء كتاب أوربا فى معركة تور)

من غرائب الأمور أن المعركة التى احتدم أوارها تحت سماء فرنسا قلما أعارها قدماء الكتاب الفرنسيين حقها من الاعتبار ، ولكن ما فاتهم لم يفت كتاب الإنجليز والألمان والعرب ، فوفوها حقها من الأهمية ، وكشف بعضهم صفاتها الفلسفية والاجتماعية . وإنى أورد هنا أقوال بعضهم على مسئولية كتابها :

١ — قال (جبون) المؤرخ الانجليزى الشهير : « إنها المعركة التى بها نجا آباؤنا البريطانيون وجيراننا الغاليون (أى الفرنسيون) من أبناء العرب والإسلام » . وقال

---

[1] المجلة - ونحن لا نرى أنه كان انكسارا ، فالافرنج خرجوا من المعركة خائرى القوى وعاجزين من تعقب المجاهدين المسلمين ، وقد جاء ذلك عقب يأسهم من النجاة لولا تلك الخدعة التى صرفت فرسان العرب إلى خيامهم للمحافظة على ما فيها ، واعتقاد بعض الكتائب أن الذين انصرفوا للمحافظة على المعسكر قد انهزموا . أضف إلى ذلك وقوع البطل الأعظم الأمير عبدالرحمن بن عبد الله الغافقى شهيدا فى ساحة الجهاد

في المجلد الثاني من تاريخه ص ٧ : « لو لم يصد ذلك الهجوم لكانت العربية تدرس اليوم في جامعات انجلترا وألمانيا [١] » .

٢ ـــ وقال (شليفل) في (تاريخ الفلسفة) ص ٣٢١ : « ذلك النصر العظيم الذي أحرزه شارل مارتل ، وبه نجا التمدن المسيحي في غربي أوربا » .

٣ ـــ وقال (ف . ل. برانك) في (تاريخ جرمانيا) المجلد الأول ص ٥ : « إن حادثة القرن الثامن هي من أهم حوادث التاريخ كافة ، وبهما وقفت الدعوة الإسلامية في جانب والمسيحية في جانب ، وكانت غاليا (أي فرنسا) وإيطاليا بين نارين : العرب من الجنوب والجرمانيون الوثنيون من الشمال الشرقي . وقد قيض الفوز للتمدن المسيحي بيد الفتى الجرماني الأصيل (شارل مارتل) الذي قاد البلاد إلى طريق النجاة » .

٤ ـــ وقال (أرنولد) في (تاريخ الإمبراطورية الرومانية) المجلد الثاني ص٣١٧ : « إن فوز شارل مارتل أعظم كثيراً من فوز أرمينيوس ، وكانت له نتائج أرسخ في حياة الجنس البشري » .

٥ ـــ وقال (درابر) : « قد وصل طرف الهلال العربي الواحد إلى البوسفور ، ووصل طرفه الثاني الى إسبانيا ، وامتد إلى فرنسا ، وكان يهدد أوربا ببلوغ البدر التمام فيمحو التمدن اللاتيني العتيد من الوجود ويغمر أوربا » .

٦ ـــ وقال (إدورد كريسي) : « كلما تذوقنا أهمية معركة تور زاد تقديرنا لأهميتها ، وبها نرى أنقاض الإمبراطورية الرومانية تتنازعها قوتان هما القبائل الجرمانية والجيوش العربية ، وكانت هاتان القوتان تتنازعان تراث أعظم إمبراطورية ظهرت في التاريخ . وأخيراً اشتبكت القوتان في تور . وقد وصف المؤرخ (جبون) الإنجليزي المعركة كوصف (هوميروس) معارك طروادة » .

كلمة شاعر مسيحي :

وأخيرا بعد هذه الإلمامة بتاريخ الوقعة كما دونها الأستاذ حنا خباز ، نورد القطعة الشعرية التالية بقلم شاعر من أبلغ مسيحيي ، وهو الأستاذ شبلي ملاط ، لما فيها من الروح العربية العالية ، قال :

---

(١) المجلة ـ العربية تدرس اليوم في انجلترا وألمانيا » ولم يرد (جبون) مجرد تدريسها ، وإنما أراد أن العربية كانت تـكو... بس في جامعات أوربا ، ولغة الحديث والتأليف والنشر في أوربا كلها ، لو أن عبد الرحمن ب... بقي يومئذ حيا إلى أن يكسب المعركة ويبسط نفوذ العقل العربي على أوربا .

من للزمان بمثل فضل محمد ... وعدالة كعدالة الخطاب
رفع الرسول عماد أمة يعرب ... وأعزها بالآل والأصحاب
غشت الفتوح وصفقت راياتها ... فى الشرق فوق أباطح وهضاب
وتغلغلت فى الغرب طائرة على ... أكتاف صقر جارح وعقاب
لولا تجلد شرل مرتل خيمت ... فى قلبه بسرادق وقباب
ولكان صار الغرب أندلساً به ... شوقى يقول سواحراً وسوانى
حى الجزيرة فى مسارحها وما ... فى الريف من رى ومن إخصاب
واسمع فديتك نبرة مضرية ... عربية فى منطق خلاب
واستشهد القرآن قوماً جودوا ... منه آى فى النفوس عذاب
واقرأ به فصحى اللغات مدلة ... فى المشرقين بجوهر الأحساب
أخذت قريش بجزلها وبكت بها ... غرناطة فى رقة وعتاب
لولا يد الإسلام لم تسلم بما ... فيها من الأخلاق والآداب
ولو ارعوى من صد عنها زاهداً ... متعللا بعناكب الأسباب
من لم يصن لغة الجدود فليس من ... قومية تنميه فى الأنساب

كلمة الفيلسوف نيتشه :

ونختم هذا الفصل بكلمة إن لم يرد فيها ذكر معركة عبد الرحمن الغافقى وشارتل مارتل فقد ورد فيها ذكر الصدام الذى وقع بين حضارة الإسلام العربية الرحيمة ، وحضارة الغرب المادية القائمة على الجشع المنظم ، والختل المسلح بالجهل ثم بالعلم والثقافة الواسعة وهذه الكلمة مما عربه الأستاذ سلامة موسى من كلام الفيلسوف الأشهر (نيتشه) ، وذلك فى العدد ٣ من مجلة (المستقبل) لسنتها الأولى الصادر فى ٢٤ مايو سنة ١٩١٤ قال الفيلسوف :

« لقد حرمتنا المسيحية من ميراث الع... القديمة ، ثم حرمتنا بعد ذلك من الإسلام
لقد ديست بالأقدام تلك المدنية العظيمة ... الأندلس المغربية . ولماذا ؟ لأنها نشأت
من أصول رفيعة ، ومن غرائز شريفة ... غرائز رجال . إن تلك المدنية الإسلامية
لم تنكر الحياة ، بل أجابتها بالإيجاب ، و ... درها . ولقد قاتل الصليبيون تلك المدنية
بعد ذلك ، وكان أولى بهم أن يسجدوا ... ويعبدوها . وما مدنيتنا فى هذا القرن
... إلا فقيرة وانية بجانب مد ... ك الوقت » .

طغيان الاستعمار وخطر الشيوعية

ما نأخذ من نظم الغرب وما ندع

قالت جريدة القاهرة :

استقبل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر صحفياً ألمانياً يمثل صحفاً ألمانيا ، وهو اتو بونجراتش الذى قدم إلى مصر وسيسافر إلى سوريا ليوافى صحفه بمشاهداته فى الأقطار الإسلامية .

وقد سأل الصحفى فضيلته عن رحلته فى ألمانيا فقال فضيلته : كانت هذه الرحلة فى أيام الحرب الكبرى ، وكنت مع الأسرى الإفريقيين أتردد عليهم وأعود إلى برلين . وقد زرت ألمانيا مرتين : أولاهما استغرقت تسعة أشهر ، والثانية سبعة أشهر .

ثم سأل الصحفى الأستاذ الأكبر عن أهم مشكلة فى نظر المسلمين .

فقال فضيلته : إننا نعمل على التخلص من طغيان الاستعمار على حقوق الأوطان الإسلامية والعربية .

وسأل : إذا كانت روسيا من الدول الاستعمارية فما هو خطرها على العالم الإسلامى ؟

فأجاب فضيلته : إن الشيوعية نظام يخالف الإسلام ، والمبادىء الشيوعية يقف الإسلام فى وجهها . ولن تروج عندنا ، وللأزهر وعاظه فى أنحاء القطر ومهمتهم نشر الفضائل الإسلامية ومقاومة التطرف فى أى صورة من صوره ، ولن تروج الشيوعية إلا عند أفراد لا يتخذون منها مذهباً أو عقيدة ، وإنما يجعلونها مغنما مالياً .

وسأل الصحفى الألمانى عن رأى الإسلام والمسلمين فى طرق الحياة الغربية عامة . فأجاب شيخ الأزهر : فى نظم الغرب ما يوافق الإسلام . وهنالك نظم وتقاليد يجرى عليها الغرب لا يقرها الإسلام . والذى يدعو إلى تقليد الغرب فى كل شىء مغالط .

ونحن نخالف هؤلاء الدعاة فيما يخالف تقاليدنا الإسلامية ، مثل إعطاء المرأة الحرية المطلقة .

قال الصحفي : هل تقصد فضيلتكم أن تبقى المرأة على النظام القديم ؟ فأجاب : أعنى أنها لا تختلط بالرجال الأجانب عنها .

وسأل الصحفي الألماني : هل على المرأة أن تطيع زوجها ؟

فأجاب : عليها الطاعة فيما هو الحق والمصلحة . وقص فضيلته معنى ما روى عن عمر ابن الخطاب : كنا معاشر قريش نغلب نساءنا ، فجئنا الأنصار وهم قوم تغلبهم نساؤهم ، فأخذ نساؤنا بأدب الأنصار وكلمت زوجتي فراجعتني في القول فأنكرت عليها ، فقالت : نساء النبي يراجعنه في القول .

فنحن نريد زوجة تطيع فيما هو حق ، ولها أن تراجع زوجها متى كان الحق في جانبها .

فلما قال الصحفي : ومن يحكم بين الزوجين في الخلاف ؟

أجابه الأستاذ الأكبر : المدار على خلق الزوج . وإذا كان الخلاف كبيراً فالمرجع إلى القاضي ، مثل الخلافات المالية إذا عجز الأهل والأقارب عن حلها .

وهل يبيح الإسلام أن تشكو المرأة زوجها ؟

نعم ، لها أن تذهب إلى القاضي .

وانتقل الصحفي إلى أنه كان مع درية شفيق ، وأنها تحتج على رأي الأستاذ الأكبر بالنسبة لتعدد الزوجات .

وهنا ابتسم فضيلة الأستاذ الأكبر وقال : تحتج على رأي الإسلام ؟ . . . و . . الإسلام أباح تعدد الزوجات ، وليس للزوج أن يتعدى ما حددته الشريعة .

لقد اشترطت الشريعة العدل والإنفاق ورخصت للقادر أن يتزوج من أربع ، وإذا خشى عدم القدرة على الإنفاق كان عليه أن يقتصر على زوجة واحدة ، والحكمة في تعدد الزوجات ظاهرة ، لأن الزوجة قد تكون مريضة وقد تكون عقيما ، والزوج يريد إنجاب الأولاد .

وكثيراً ما ترضى الزوجة أن تظل مع زوجها وتسمح له بالزواج من غيرها .

والرجل ممنوع شرعا من مباشرة غير زوجته ، فإذا لم يبح الإسلام له الزواج ربما ضاعت عفته .

ولما قال الصحفي : إن التعدد يشاهد كثيراً بين أفراد الطبقة الفقيرة ؟

أجاب الاستاذ الأكبر بأن الإسلام اشترط العدل فى الإنفاق والمبيت . . . (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) ـ والعرب كانوا يكثرون من الزوجات ، فحارب الإسلام هذا الإكثار ونظمه وحدده .

واستفسر الصحفى عن معنى (الرجال قوامون على النساء) ـ وهل يدل ذلك على أن طبقات الرجال أعلى من طبقات النساء ؟

فقال فضيلة الشيخ . إن عقول الرجال أوسع من عقول النساء ، وفى النساء من هن أرجح عقلا . والقوامة للرجال من جهة المال والإنفاق على النساء ، والزوجة ذات المال غير مسئولة عن نفقتها ولا نفقة أولادها إلا إذا تبرعت بمساعدة الزوج أو الأولاد .

ومهمتها فى البيت مهمة عظيمة ، والإسلام لا يمنعها من التعلم والتثقيف ، على أن تباعد بينها وبين الاختلاط بالرجال الأجانب عنها .

والإسلام يرعى صالح المرأة ويحرص على كيان الأسرة لإنشاء المجتمع القوى فى الحياة .

استفتاء لغوى

لفضيلة الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب أدام الله نفعه ، وأطال عمره

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد ـ فإننى ممن يتابع قراءة مجلة الأزهر القيمة ، ولى شغف بتلك اللغويات التى يحبرها قلم الأستاذ المدقق محمد على النجار .

وقد أشكلت على كلمة أجدها كثيراً فى الصحف ، وأسمعها فى الإذاعة ، ولم أجدها فى القاموس المحيط ، ولا فى الأساس ، ولا فى مختار الصحاح . مما بين يدى من كتب اللغة ، وهى كلمة « بعثة » يقولون ذهبت بعثة مصرية إلى إيطاليا ، وجاءت « بعثات » أوربية فيجمعونها على « بعثات » ويريدون بها الجماعة المبعوثة ، والذى فهمته من كتب اللغة أن الجماعة المبعوثة يقال لها : « بعث » والجمع « بعوث » ، و « البعثة » للمرة ، يقال بعثته بعثة أى مرة ، فهل هذا التعبير الشائع صحيح ؟ هذا ما أردت السؤال عنه ، وأرجو من الأستاذ النجار التفضل بالجواب على صفحات المجلة المحبوبة ، وله منى الشكر ، ولكم مزيد التحية والاحترام .

دمشق ١٩ ربيع الأول سنة ١٣٧٣ أحمد نصيب المحاميد

جدّد نفسك

جددتُ بالأمس نفسى، وهى صافيةٌ | وعدتُ أوقظ فى دنْياىَ أحلامى
ألهمنى الشعرَ، فاهتزت خمائلُه | وفاضَ فى موكب الأطيارِ إلهامى
والشعرُ يوقظ أقواماً ويبعثهم | فكمْ بعثتُ بهِ فى الشرق أقوامِى

* * *

مشت على (الفتح) أحداثٌ مؤرّقةٌ | وكنتُ أودَعته سرّى وآلامى
وعشت يغمرنى نورٌ، ويرفعنى | (أبو قصى) ... فكانتْ خير أيامى
إنا التقينا، وفى اللقيا لنا عبرٌ | فانساب شعرى، وغنّى فى الربا جامى
تلك «المحاريب» هزتها سواجعها | فالروض ما بين مياس وبسّام
وفى رحاب الهدى جددت بيعتنا | وصافح الليلَ ... هذا الشاعرُ الظامى

* * *

دعائم الحق أرساها عباقرةٌ | وطهروا الروض من رجْسٍ وآثام
فموكب النيل يحدوه ملائكةٌ | والقوم ما بين أطهارٍ وأعلام
لجدد النفس، وابلغ ما تشاء بنا | من المكارم ... قد جددْت أنغامى

الزقازيق

صابر على رمضان الجوهرى

المعاهدات فى الدول الاسلامية

حديث لفضيلة الاستاذ الاكبر

كتب مندوب « الأهرام » يقول :

آثر الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أن يستريح طيلة يوم أول أمس فى منزله ، وقد رأيت أن أقضى فى صحبته بعض الوقت . وطاب له أن يطرق مع زائريه مختلف الأحاديث فى عديد من الشئون العامة الهامة . وقد رأيت أن أنتهز هذه الفرصة الطيبة لأقف على رأى الإسلام حيال « المعاهدات » الدولية التى يبرمها الأقوياء مع الضعفاء ، وحيال المعاملة التى يصح أن يعامل بها المسلمون ضيوفهم من « الأجانب » الذين يقيمون بين ظهرانينا ، وقد تفضل فضيلته فاستهل حديثه بقوله :

العهود بين الدول :

لا شك أن العهود بين الدول فى أزمان السلم والحرب هى مناط الثقة فى الحضارة الإنسانية ، وعليها يتوقف الأمن الدولى العام ، والاستقرار الاقتصادى، إذا قامت على أسس من العدل والإخلاص فى الوفاء .

الدس الخفى :

غير أن مما لا ينكره أحد أن أكبر العقول فى كل دولة تتجه عند تدوين المعاهدات إلى الدس الخفى . ليكون حجة فى التأويل عند الحاجة إلى ادعاء ما لم يكن واضحا منه فى وقت التدوين . وإذا كانت المعاهدات والعقود الدولية بين قوى وضعيف ، أو بين غالب ومن قضت عليه الظروف أن يكون مغلوبا ، فقد لايبالى القوى بأن يتحمل عناء التأويل . وإن الإنسانية لا تنسى فى الحربين العالميتين تسمية الأقوياء للمعاهدات . بأنها « قصاصات ورق » ونستطيع أن نضرب الأمثال على هذا النوع من المعاهدات . وفى طليعتها صك الانتداب على فلسطين الذى تعهد فيه أصحابه تعهدا رسميا صريحا بعدم المساس بحقوق العرب ، وقد رأيت ما انتهى إليه ذلك الصك من الظلم الصارخ على أصحاب البلاد الذين سلبت منهم أوطانهم وأملاكهم وحقوقهم سلبا وقذف بهم فى العراء تحت الأمطار والعواصف .

المعاهدة الملغاة :

بل إن معاهدة سنة ١٩٣٦ التى فرضت على مصر تحت ضغط قوات الاحتلال منصوص فيها على أنه لا يسمح للإنجليز بأن يكون لهم فى منطقة القنال إلا عشرة آلاف جندى. وخلافاً لذلك التعهد ضاعفوا عدد تلك القوة إلى ثمانية أضعاف ما تعهدوا به ووقعوا عليه.

المثل العليا :

واستطرد فضيلته فقال :

إن المعانى الإنسانية العليا ، ومدلولات الحق والعدل ، هى آخر ما يخطر على البال عند الدول الحديثة عند ما يجلسون إلى الموائد الخضراء ليكتبوا صيغ المعاهدات ونصوصها أما الإسلام فقد كان فى نصوصه وتطبيقها العملى دلائل قائمة على أن المعانى الإنسانية لها شأن كبير فى العهود التى يعقدها المسلمون مع غيرهم فى حالتى السلم والحرب. وأظهر ما تمتاز به هذه العهود إذا صدرت عن المسلمين أن تكون صريحة واضحة لا لبس فيها ولا إبهام. وكثيراً ما يراعى فيها المقابلة بالمثل بصرف النظر عن قوة أحد الطرفين وضعف الطرف الآخر.

الوفاء بالعهد :

ويرى فقهاء المسلمين أن المسلم إذا كان أسيرا فى يد العدو وأطلقوه بشرط أن يبعث إليهم مالا ، وإن عجز عن إحضار المال عاد إليهم ، لزمه الوفاء لهم عملا بقول الله عز وجل « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » وقول نبيه ﷺ : « المسلمون على شروطهم » .

وفى منح الأمان للعدو من المعانى الإنسانية فى الشرع الإسلامى ما لا يوجد فى أى تشريع آخر قديم أو حديث . ومن المعقول أن يمنح الحاكم الأعلى امانا للأعداء جميعا ، ومن المعقول أيضا أن يمنح قائد جيش أمانا للجيش المقابل له ، ولكن مما لا يعرف إلا فى التشريع الإسلامى أن يصدر عن جندى عادى فى جيش إسلامى لجندى من جنود العدو . أو لبضعة جنود ، أو لقافلة كاملة ، ثم يصبح الجيش الإسلامى كله ملزما بقبول هذا الأمان والعمل به . إن هذا لا يعرف فى تاريخ الأمم إلا عند المسلمين وفى تشريعهم ، وإلى هذا يشير الحديث النبوى « ويسعى بذمتهم أدناهم » وقد أمضى النبى ﷺ تأمين أم هانىء بنت أبى طالب لرجل من الأعداء وقال لها النبى ﷺ : « قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء » هذا الخبر فى صحيح البخارى .

ومن عجائب التشريع الإسلامى والمعانى الإنسانية العليا التى يرمى إليها أن الجيش الإسلامى إذا كان محاصرا لحصن أو بلد ، وتقدم له من الحصن أو البلد من يتطوع بفتح الحصن فى مقابل إعطائه الأمان ، ثم بعد فتح الحصن اشتبه أمره واختلط بغيره ، كان على الجيش الإسلامى أن يمتنع عن قتل الجميع والتعرض لحريتهم . لأن القاعدة الشرعية أن المباح إذا اشتبه بالمحرم وجب تغليب التحريم ، وفى الحالات التى يترتب فيها على ذلك ضرر حربى عام يؤخذ من أهل الحصن أى واحد بالقرعة ويعطى الأمان الذى كان موعودا به ذلك الشخص المتطوع بفتح الحصن . وفى كل الأحوال ينبغى للمسلمين إذا وعدوا بوعد أن يفوا بوعدهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وفى مذهب المالكية أن الوعد إذا كان مسبباً ووقع السبب وجب الوفاء به . أما إذا لم يكن مسببا فالوفاء به من مكارم الأخلاق .

وإذا تبينت للجيش الإسلامى قرائن واضحة على أن العدو المعاهد يريد خيانة العهد ، فلا يجوز للمسلمين المبادرة إلى نقض العهد السابق بينه وبينهم اعتماداً على تلك القرائن مهما كانت قوية بل ينبذون إليهم عهدهم علانية ، وهذا منتهى النبل فى آداب الحرب بين الأمم .

ما يجب على المسلمين نحو الأجانب :

إن المخالفين للمسلمين ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : محاربين ، ومعاهدين ، وذميين . فالمحاربون هم الذين حدثناك ببعض أحكام الإسلام المتعلقة بهم . والمعاهدون تقوم عهودنا معهم على أنبل الأسس الإنسانية ، وأقلها مراعاة قاعدة المعاملة بالمثل . والذميون ضمن لهم الإسلام أنفسهم وأموالهم وأعراضهم . وواجب على الحكومة الإسلامية حفظهم ، ومنع الغير من أذاهم . والاستنقاذ من أسر منهم . والبلاد التى فتحها المسلمون فى زمن الصحابة كان فى إمكان الفاتحين أن يلغوا الأنظمة الدينية التى وجدوها فى البلاد ، ولكنهم لم يتعرضوا لها وأقروا رؤساء الأديان على ما كانوا عليه ، بل أحسنوا معاملتهم أكثر مما كان يعاملهم به الحكام السابقون الذين كانوا من أهل دينهم ، وأباحوا من الشعائر والطقوس والأحكام مالا تبيحه الدول الأخرى غير الإسلامية حتى فى زماننا هذا . والمنصفون من المؤرخين وغيرهم يعترفون بهذه الحقائق ، ولا سيما عند المقارنة بين الأنظمة والتشريعات . وكلما كان المواطنون ـ على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم ـ أكثر إخلاصاً لأوطانهم ومواطنيهم كانت السعادة تشمل لهم جميعاً وعاشروا مع مواطنيهم فى تعاون وتراحم وتبادل للحقوق على أحسن الوجوه وأسعدها .

وإلى هنا رأيت أن الشيخ الأكبر قد أوفى على الغاية فى وضوح : فاستأذنت فضيلته فى نشر هذه الآراء الطيبة فأذن مشكوراً مقدوراً .

الترجمة العربية لكتاب إيساغوجي

إيساغوجي
لفرفريوس الصوري ، نقل أبي عثمان الدمشقي
للدكتور أحمد فؤاد الأهواني
أستاذ الفلسفة المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول
القاهرة ١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م

نشر هذا الكتاب الزميل المحترم ، وأراد من نشره له أن يكون عوناً على فهم كلام ابن سينا فى مدخله فى أول كتاب الشفاء ، لأن ابن سينا ، كما يقول : « لا ينفك يرجع إلى صاحب إيساغوجي ، آخذاً عنه تارة ، ناقداً إياه تارة أخرى . قادحاً فيه وذاماً تارة ثالثة » وقد قدم الناشر لكتابه بمقدمة ضافية عن حياة فرفوريوس وفلسفته لا نريد أن نتعرض لها لأن الذى يهمنا هو نص إيساغوجي كما نشره الناشر ، وذلك لإبداء ما لنا من ملاحظات على ضبط النص ولا سيما أنه نص هام ، فهو كما يقول الناشر ، قد قصد به أن يكون معيناً على فهم كتاب المقولات لأرسطو ومدخلا له ، ولذلك كان ضبط النص المنشور لا يقل أهمية عن الغرض من نشره ، ومن جهة أخرى نريد من نقدنا هذا أن نصحح عمل الأستاذ الزميل تحقيقاً للفائدة الكاملة من كل بحث يوضع فى متناول المثقفين .

وقد اعتمد الزميل فى نشرته على صورة شمسية مأخوذة عن النسخة الوحيدة العربية لكتاب الأورجانون ، وهذا الجزء من المخطوط العربى واضح إلى حد كبير وسهل القراءة .

أما ما نلاحظه بوجه عام ، فهو قلة تدقيق الناشر فى ترقيم النص ، وسقوط كثير من الكلمات ، وسقوط جمل بأكملها أحيانا ، وذكر بعض الكلمات فى الهامش على أنها فى الأصل مخالفة لما هى عليه ، وكتابة كلمات على غير وجهها ، وقد نشأ عن هذا كله تغيير فى الصورة الدقيقة للفكرة أو تحريف فى المعنى . وهذا كله وليد السرعة .

وستكون ملاحظاتنا مقصورة على نص إيساغوجي فقط من الناحية الفنية ، تاركين

الشروح التى جعلها الناشر فى آخر الكتاب - وكان يحسن أن تكون مع النصوص الخاصة بها - لأنه ترك كثيراً من الشروح ، وتاركين أيضا الكثير من الملاحظات المتعلقة بطريقته فى كتابة أسماء الأعلام باللغة العربية التى منها اسم فرفوريوس نفسه ، فالناشر يكتبه فرفريوس مع أنه موجود فى المخطوط فى أكثر من موضع على الصورة الصحيحة التى تجعله أقرب إلى أداء نطقه باللغات الأخرى .

ص ٦٨ س ٣ - ٤ : نص الناشر : « يقال جنس لجماعة قوم لهم نسبة بوجه من الوجوه إلى واحد أو لبعضهم إلى بعض » . ويقول الناشر فى الهامش ، إن عبارة : أو لبعضهم ، يقابلها فى الأصل : ولبعضهم وبدلا من أن يتابع الأصل اختار تعديله وجعله : أو لبعضهم . والنص الأصلى أصح ؛ ذلك لأن الجنس يطلق على جماعة ينتسبون إلى أصل واحد ، فبينهم وبينه نسبة و بينهم نسبة بعضهم لبعض . وهى مستمدة من النسبة الأولى ، وكلمة : أو ، ربما تفيد الانفصال بين النسبتين ، على حين أن النسبتين مرتبطتان ارتباطاً ضرورياً . والمقصود هو أن فكرة الجنس تتضمن النسبتين معاً .

وبمراجعة الترجمة الفرنسية والألمانية لإيساغوجى نجد فى كل منهما حرف العطف البسيط الدال على الجمع بين المعطوفين والنسبتين ، وهو كلمة et و und .

ولا يبقى أى شك بعد مراجعة الأصل اليونانى ، حيث نجد حرف العطف لا يقبل الترجمة بحرف آخر .

ص ٧٠ س ٣ - ٤ : نص الناشر : « فالأجناس تخالف الأشياء التى تحمل على شىء واحد فقط بما توصف به من أنها تحمل على كثيرين » . والمعنى فاسد بسبب الخطأ فى النقل عن الأصل المخطوط ، ففيه : « ... بما توصف به من أنها ... » ، ووجه صحة الأصل هو أن الأجناس تختلف عن الأشياء التى تطلق على شىء واحد بأنها تحمل على أشياء كثيرة ، وتتفق الترجمتان الفرنسية والألمانية فى ترجمة هذه الكلمة بما يعادل الترجمة العربية بلفظ « بما » ويعادل الأصل اليونانى أيضاً .

ص ٧١ س ٧ - ٨ : نص الناشر : « فأما النوع فقد يقال على صورة كل واحد بمنزلة ما قيل : أما أولا فصورته مستحقة لذلك » .

وفى المخطوط الذى اعتمد عليه الناشر ، وهو الصواب أيضاً ، نجد الشطر الأخير من النص هكذا : « ... بمنزلة ما قيل : « أما أولا فصورته مستحقة للملك » .

ومن الغريب أن الناشر كما يدل عليه كلامه فى الهامش قد رأى تعليق تريكو (Tricot) ، مترجم إيساغوجى إلى الفرنسية ، على هذه العبارة المنسوبة إلى أوريبيديس (أو : أوريفيدس بوجه أدق) . ويترجمها تريكو جاعلا بدل كلمة الصورة كلمة بمعنى الجمال .

ويقول الناشر فى الهامش : إن العبارة بيت شعر لأوريبيدس ، والصورة بمعنى الجمال ، وفى هامش المخطوط العربى : « فصورته أى نوعه » وعلق تريكو (المترجم الفرنسى) على هذا النص بما يفيد هذا الرأى . ولا يمكن معرفة هذا الرأى الذى يقصده الناشر ؛ فإن كان يتعلق بأن الصورة بمعنى الجمال . فمن المعلوم أن الكلمة اليونانية وهى المقابلة لكلمة الصورة تدل إلى جانب دلالتها على النوع المقابل للجنس فى المنطق ، على الصورة عند أرسطو وعلى المثال الأفلاطونى ، وتدل أيضاً على صورة الخلقة ومظهر الإنسان وعلى الجمال والشمائل الإنسانية بوجه عام .

أما ما يقول الناشر عنه إنه موجود فى هامش المخطوط العربى فغير موجود فى الهامش وإنما توجد فى المتن فوق كلمة : فصورته . كلمة : أى نوعه ، وذلك على سبيل الشرح لكلمة صورة . أما الذى فى الهامش فهو هذه العبارة المفيدة التى لم يذكرها الناشر لا فى مكانها ولا فى التعليقات التى جمعها فى آخر كتابه ، وهى فى أعلى الأصل العربى إلى الشمال ، فهى : « هذا قاله بعض الشعراء فى أغاممنن الملك ، ويقال إنه أودساوس ، ويقال إنه أوريفيدس » .

أما الشرح الذى فوق كلمة « فصورته » ، فهو غير موفق فى هذا المعنى الذى استعمل فيه كلمة صورة . لأنها بمعنى صورة الخلقة وإلا كان النوع كله مستحقا الملك ، وهذا مستحيل .

فإذا كان تعليق تريكو المترجم الفرنسى خاصاً بدلالة الصورة على النوع فى هذا المقام فلا شك أنه تعليق خطأ أيضاً . وصاحب إيساغوجى يصرح بالمعنى فيقول : «صورة كل واحد» ، مما يؤكد قصده بوضوح .

س ٩ : يقول الناشر : إن عبارة : وصفنا يقابلها فى الترجمة الفرنسية : وضعنا ، ولكن هذا غير صحيح لأن معنى العبارة الفرنسية هو : الجنس المذكور أو المبين أو ما أشبه ذلك ، وخصوصاً أن الكلام قد تقدم عن الجنس قبل ذلك .

ونجد فى الأصل اليونانى ما يمكن ترجمته بقولنا الجنس المذكور أو المتقدم ذكره .

ص ٧٢ س ١ - ٤ : نص الناشر : « وقد يصفونه (أى النوع) أيضاً على هذه الجهة : النوع هو المحمول على كثيرين مختلفين بالعدد من طريق ما هو . ولكن هذه الصفة أيضاً هى لنوع الأنواع ، ولما هو نوع فقط » .

وفى المخطوط الأصلى : « ... ولكن هذه الصفة إنما هى لنوع الأنواع ولما هو نوع فقط » .

واستعمال كلمة «أيضا» ، بدلا من كلمة «إنما» ، أفسد المعنى ، خصوصاً لأن الكلام التالى مباشرة يؤيد استعمال كلمة « إنما » ، وتدل الترجمات الأجنبية لإيساغوجى على صحة الأصل العربى المخطوط ، فليس فيها مايقابل كلمة أيضا ، وليس فى الأصل اليونانى مايقابلها بل نجد فى هذا الأصل كلمة تدل على التأكيد البسيط .

ص ٧٥ س ١٢ - ١٣ : نص الناشر : « فأما النوع فليس يحمل إلا على الجنس القريب منه ، ولا على الأجناس التى فوق ذلك الجنس ، لأنها لاتنعكس » . وفى المخطوط الأصلى نجد النص هكذا : « ... فأما النوع فليس يحمل لا على الجنس القريب منه ولا على الأجناس التى فوق ذلك » .

ومن الواضح أنه بمراعاة المخطوط الأصلى يزول التناقض الموجود فى الكلام السابق واللاحق كما نشره الناشر .

ص ٧٦ س ١٤ — ١٧ : نص الناشر : « فالنوع إذن يحوى الأشخاص ، والجنس يحوى النوع ؛ لأن الجنس كلٌّ ما ، والشخص جزء ، والنوع كل وجزء ، غير أنه جزء لشىء آخر ، وليس هو كل لآخر ، لكنه كل فى أجزاء ، ذلك أن الكل فى الأجزاء » . وجاء فى المخطوط الأصلى ما يلى : « غير أنه جزء لشىء آخر ، وليس هو كل لآخر ، لكنه كل فى آخر ، وذلك أن الكل فى الأجزاء » .

والمعنى بحسب المخطوط الأصلى أصح وخال من التكرار الذى لا قيمة له ، وهو مطابق للأصل اليونانى ويتفق تمام الاتفاق مع الترجمتين الألمانية والفرنسية .

ص ٧٩ س ١٧ - ص ٨٠ س ١ : « وقد يحدّون هذه الفصول ويقولون : إن الفصل هو الذى به يفضل النوع على الجنس . وذلك أن الإنسان له شىء يفضل به على الحى . وهو الناطق والمائت : لأن الحى ليس هو واحداً من هذين ، وإلا فمن أين اقتنت الأنواع فصولا ؟ ولا الفصول أيضاً المتقابلة بأجمعها له ، ولا صارت الفصول المتقابلة لشىء واحد بعينه معاً » .

والخطأ فى هذا النص فى الشطر الأخير منه ، حيث قرأ كلمة « وإلا » ، على أنها : ولا .

وبذلك ضاعت معالم التقابل المنطقى فى الكلام وأصبح كأنه بلا نتيجة . فيجب تصحيح النص هكذا : « ولا الفصول أيضاً المتقابلة بأجمعها له ، وإلا صارت الفصول المتقابلة لشىء واحد بعينه معاً » . وربما كان يكون من الخير ولأجل مصلحة القارىء أن توضع الجملة المعترضة الأولى بين شرطتين ، لكى يمكن إدراك تسلسل الفكرة .

ولما كان صاحب إيساغوجى يقول فى هذا الموضع : إن النوع يفضل على الجنس ويقول بعد ذلك (ص ٨٦ س ٨) إن الجنس يفضل على النوع ، فقد كان من الخير التعليق على هذين الموضعين بما يسهل على القارىء الفهم ، ولا سيما أن نص الترجمات الأوربية لإيساغوجى ، سواء منها الفرنسية أو الألمانية ، يشتمل على ما يبين أن فضل النوع على الجنس من حيث المفهوم لأن معنى الإنسان مثلا أغنى مضمونا من معنى حيوان .

ص ٨٧ س ١٢ — ١٣ : هذا الجزء داخل فى القطعة المخرومة من الأصل العربى ، وقد ترجمها الناشر عن الفرنسية . وهذه الترجمة ليست دقيقة تماماً . لكن المهم هو أن بعض أجزائها بعيد جدا عن التعبير عن معنى النص الفرنسى

نص الناشر : « وأيضا فإن الخاصة تحمل على الشىء الذى هى خاصة له ، فأما الجنس فلا ينعكس » .

وهذه العبارة تدخل ضمن بيان الاختلاف بين الجنس والخاصة : فالجنس يحمل على أنواع كثيرة ، ولكن ليس بينه وبينها تبادل فى الحمل . فلو قلنا مثلا إن الإنسان حيوان فإننا لا نستطيع أن نقول : الحيوان إنسان ، وليس بينهما تلازم فى الوجود ، فلا يتحتم إذا وجد الحيوان أن يوجد الإنسان ، أما الخاصة فهى تحمل على أشياء هى خاصة لها ، ثم إن بينها وبين ما تحمل عليه تبادلا تاما فى الحمل وتلازما تاما فى الوجود : فنستطيع أن نقول الإنسان ضحاك ، وأن نقول فى نفس الوقت الضحاك إنسان . وإذا كان الانسان موجوداً فالضحاك موجود والعكس . والترجمة العربية الصحيحة للترجمة الفرنسية ينبغى أن تكون هكذا .

« وأيضاً فإن الخاصة تحل فى الحمل محل ما هى خاصة له ، على حين أن الجنس لا ينعكس بتة » .

ومن الواضح أن ترجمة الناشر لا تبين الفرق المقصود بيانه ، مع أن الكلام التالى يعين فى الترجمة الصحيحة وفى ترجمة فرنسية أخرى نجد العبارة تصير بالعربية هكذا :

« وأيضاً فإن الخاصة ذات حمل متبادل مع الشىء الذى هى خاصة له ، فأما الجنس فليس له هذا الحمل بتة » .

والترجمة الألمانية أوضح وإذا نقلت إلى العربية تصير هكذا :

« والخاصة وما هى خاصة له يقال أحدهما على الآخر بالتبادل ؛ وليس الجنس كذلك » .

أما النص اليونانى فإن ترجمته هى : والخاصة تبادل الحمل ما هى خاصة له . أما الجنس فلا يبادل الحمل (= الخاصة تنعكس فى الحمل على ما هى خاصة له . أما الجنس فلا ينعكس =) والخاصة تكافىء فى الحمل ما هى خاصة له ، أما الجنس فلا يكافىء

على أن فى ثنايا النص العربى لإيساغوجى مايدل على الفكرة تمام الدلالة .

فنجد (ص ٩١ س ٨ - ٩) : « فأما الخواص فإنها تكافىء فى الحمل الأشياء التى هى لها خواص ، من قبل أنها تنعكس عليها » ، (ص ٩٤ س ٣ - ٤) : « وذلك أن الخاصة قد تكافىء فى الحمل الشىء الذى توجد له » .

ونجد (ص ٩٢ س ٨) : ويعم النوع والخاصة أن أحدهما يكافىء الآخر فى الحمل ، وذلك أن الإنسان إذا كان موجوداً ، فالضاحك موجود ، والضاحك إذا كان موجوداً فالإنسان موجود .

وليس من شك فى أنه يمكن مع العناية بتتبع نص إيساغوجى أن يترجم الجزء المخروم ترجمة دقيقة من حيث المعنى وحتى من حيث الألفاظ ، فلا تكاد توجد فى إيساغوجى عبارة أو فكرة إلا تكررت .

ص ٩١ س ١٣ : نص الناشر : « ويعم الفصل والأعراض غير المفارقة أنهما يوجدان فيه دائماً ، وجميعه » . والمعنى مبتور لأن الأصل المخطوط هو هذا :

« ويعم الفصل والأعراض غير المفارقة أنهما يوجدان لما يوجدان فيه دائماً ولجميعه » .

ص٩٤ س٢ - ٣ نص الناشر : « ... فليس (السواد) يوجد للزنجى وحده ، بل قد يوجد أيضاً للغراب ، والفحمة ، والابنوس ، ولأشياء غير متنفسة » ، والنص فى المخطوط هكذا أيضاً .

غير أن عبارة « غير متنفسة » تستلفت النظر ، لأن الكلام عن السواد ، باعتباره عرضاً غير مفارق بالنسبة للزنجى ، يوجد لأشياء أخرى ، فما معنى ذكر الأشياء غير المتنفسة فى سياق عام لأشياء ليس لها حدود .

وقد تبين بمراجعة الترجمة الفرنسية لأكثر من مترجم، ومراجعة الترجمة الالمانية ، أن الذى يقابل عبارة غير متنفسة ، هو مامعناه : أشياء أخرى . ولا شك أن كلمة : غير متنفسة العربية تحريف عن كلمة : غير متعينة ، وبهذا يتفق النص العربى لإيساغوجى مع الترجمات الأخرى اتفاقا أقرب .

وفى الأصل اليونانى نجد فى هذا الموضع مايفيد « ولأشياء أخرى غير معينة » وإذا نظرنا فى كلمة الأصل اليونانى فى هذا الموضع تبين لنا أن الترجمة العربية لإيساغوجى قد بلغت منتهى الدقة .

وثم ملاحظات أخرى أقل شأناً مما تقدم وهى تتصل بكلمات أو جمل سقطت من الناشر، أو كلمات حرفت أو زيدت. وكانت الدقة تحتم النقل عن المخطوط كما هو [١].

هذه أهم ملاحظاتنا على نص إيساغوجى كما نشره الزميل. وإنما أحببنا أن نكتب هذا النقد ليستفيد به من يقرأ إيساغوجى.

وتركنا أخطاء قليلة الأهمية كما تركنا أخطاء أخرى كثيرة فى ضبط الشروح التى انتزعها الناشر من مكانها وجعلها فى آخر الكتاب بعيدة عن موضعها الذى يمكن من الاستفادة منها فيما هى شرح له.

ولا يمكن أن يستفيد أحد الفائدة الحقيقية من نشرة الزميل لإيساغوجى إلا بعد تصحيحها على النشرة القيمة الصحيحة التى أكمل بها الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى المجلد الثالث من منطق أرسطو، مزوداً بالشروح والتعليقات راجعاً فى تحقيق الترجمة العربية العتيدة إلى الأصل اليونانى.

ولولا أننا أردنا أن نحقق بعض المواضع فى نشرة الزميل الأستاذ الأهوانى بالرجوع إلى المخطوط الذى اعتمد عليه وبالرجوع إلى الترجمات المختلفة لكان فى الإحالة على نشرة الأستاذ بدوى ما يغنى عن كل ما قلناه.

وبعد فإننا نرجو أن نكون قد حفلنا بجهد زميلنا الأستاذ الأهوانى على النحو الذى يرضى الباحث عن الحقيقة ويحقق الخير للقراء.

الدكتور

محمد عبد الهادى أبو ريدة

(١) المجلة — وقد أورد الكاتب كثيرا من هذه التصويبات، ولأنها لا ينتفع بها إلا من عنده نسخة من الكتاب اقتصرنا على نشر ما تقدم. وقد اطلع الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى على ملاحظات زميله فكتب إلينا الفصل الآتى.

فى أصول النشر

اطلعت على التصويبات التى ذكرها الزميل الدكتور عبد الهادى أبو ريدة لكتاب « إيساغوجى » لفرفريوس الصورى ، نقل أبى عثمان الدمشقى ، وإنى أشكر له عناءه فى تعقب النص والرجوع إلى الأصل المخطوط .

غير أن معظم تصويباته ترجع إلى اتخاذه أصولا للنشر تختلف عن الأصول التى نعتمد عليها . ذلك أن « إيساغوجى » مترجم عن السريانية ، لا عن اليونانية ، كما يتضح من تعليقات الحسن بن سوار الذى يشير إلى النقول السريانية الموجودة فى زمانه . والنص السريانى مفقود ، وبذلك تتعذر الموازنة بين الترجمة العربية وبين النقل السريانى . ولهذا السبب كنت أرجع إلى الأصل اليونانى فى ترجمته الفرنسية على سبيل الاستئناس ، لا على سبيل تقويم النص العربى . لأن تغييره يعد تغييراً فى النص لا نملكه . وقد نبهت إلى بعض هذه الاختلافات فى الهامش ، وأبقيت النص العربى على حاله . ولكن الدكتور أبو ريدة يذهب مذهباً آخر هو الاعتماد على النص اليونانى ، مما يخرج نشر المخطوط العربى عن حاله .

مثال ذلك لفظة « وصفنا » ص ٧١ التى وردت فى هذه العبارة « وقد يقال نوع أيضا المرتب تحت الجنس الذى وصفنا » . وهى فى الأصل اليونانى والترجمة الفرنسية عنه « وضعنا » وكنت أستطيع تغيير النص العربى ، ولكنى لم أفعل حفظاً للأصل ، ولأن الناقل العربى ، وهو أبو عثمان الدمشقى ، جرى على استعمال لفظة الوصف دون الوضع خلال الكتاب بأسره . وسبب ثالث هو ائتلاف لفظة الوصف مع اللسان العربى ، هذا إلى أنها تفيد المعنى ولا تبعد عنه كثيرا . يضاف إلى ذلك أن الدكتور عبد الرحمن بدوى الذى امتدح نشرته ، أبقاها كما هى ولم يعلق عليها .

ومثال آخر جره إليه تمسكه بالأصل اليونانى ، هو قراءة لفظة « متنفسة » هكذا « متغيلة » وهى فى المخطوط كما قرأتها ، وكذلك قرأها الدكتور عبد الرحمن بدوى ، وهى

تستقيم مع السياق العربي إذ العبارة كما يأتي « ... السواد ، فليس يوجد للزنجي وحده ، بل قد يوجد أيضاً للغراب ، والفحمة ، والابنوس ، وللأشياء غير متنفسة » . فالمقصود بالأشياء غير المتنفسة هي كالفحمة والابنوس ، وغير « متعينة » التي يقترح زميلنا الدكتور أبو ريدة قراءتها لا تستقيم في اللسان العربي ولو أراد الناقل هذا المعنى لقال « وما أشبه » .

وما دمنا بصدد الحديث عن الترجمة ، وذلك فيما يختص بالصفحة المفقودة من الأصل العربي والتي نقلتها ، فإني أخالف الدكتور أبو ريدة في الترجمة التي يقترحها لهذه العبارة « وأيضاً فإن الخاصة تحمل على الشيء الذي هي خاصة له ، فأما الجنس فلا ينعكس » . ذلك أن اقتراحه « تبادل الحمل » اقتراح لا يمكن أن يؤخذ به ، إذ ينبغي أن نلتزم روح المترجم العربي الذي جرى عليه ، ولم نسمع أن مناطقة العرب قالوا بتبادل الحمل .

وقد تعجب الدكتور أبو ريدة من رسم « فرفريوس » هكذا بدون الواو التي تفصل بين الفاء والراء ، كما جاء في المخطوط . وقد فعلت ذلك عن قصد ، سواء في المقدمة التي كتبتها عن حياة فرفريوس ، أو في المخطوط ، وذلك لأن المناطقة فيما بعد تخففوا من الواو لأن الضمة تكفي بدلا عنها . أما قوله إن هذا الرسم أقرب إلى اليونانية ، فأقرب منه إذا شاء التزام اللغة اليونانية أن يرسمها پرفوريوس ، فالفاء الأولى ليست فاء ، ولكنها باء ثقيلة ، استثقلها العرب فنطقوها من الشفة فاء .

وهناك أصول أخرى تختص بقراءة النص المخطوط . ويرجع هذا الأصل إلى طريقة الكتابة في العصور المختلفة . فلكل نوع من الخط قاعدة وطريقة ، ولكل ناسخ أسلوب ولوازم . ومن جملة تلك اللوازم كتابة « واو » العطف في أول الكلمة بحيث تشتبك مع الكلمة نفسها ، والواو تشبه في كثير من الأحيان حرف الفاء ، ولذلك تشتبه القراءتان ويرجحهما المعنى والسياق . وقد جرى الدكتور أبو ريدة على قراءة الواو التي أقرؤها فاء ، وعلى قراءة الفاء واواً ، فإذا أثبت « وكما » قرأها « فكما » وهكذا . وهذا ذوق في القراءة أعتقد أنه لا يأتي إلا من معاناة النشر والاطلاع على أساليب النساخ . وهذه التغييرات لا قيمة لها . ومن هذا القبيل أن قدماء النساخ ما كانوا ينقطون الحروف بل يتركونها معجمة ، وكذلك لا يضعون شرطة الكاف بحيث تلتبس مع اللام . ومن

أجل ذلك يتحير الناشر فى قراءة « كذلك » أهى « لذلك » والتصويبات التى من هذا القبيل ترجع إلى اللبس المذكور ، وهى لا تغير المعنى كثيراً ، إذ فى بعض الأحيان لا تكون « لذلك » نتيجة عن مقدمات ويستوى معها استعمال « كذلك » .

وننتقل إلى قراءات يرجحها المعنى ، من ذلك ما ذهب إليه الدكتور أبو ريدة مخالفاً إياى فى قراءة واو العطف ، التى نبهت عليها فى الهامش أنها كذلك وصححتها فى المتن وجعلتها « أو » . والوجه الذى أثبته هو عندى أليق ، دون حاجة إلى بيان الفرق اللغوى بين أو والواو وكذلك اعتراضه على شكل بعض الألفاظ . ولست أدرى كيف يريد أن يضبطها ؟ أما رجوعه إلى الأصل اليونانى أو إلى الترجمة الفرنسية فلا يفيده شيئاً فى ضبط الكلمة ، وكنا نود أن نرى الوجه الذى يقترحه هو .

فهذه عدة أصول فى فن النشر تختص بالكتب المترجمة قديما ألخصها فيما يلى :

أولا : الاعتماد على النص العربى مع الاستئناس بالأصل اليونانى بالإضافة إلى تراجمه الفرنسية والإنجليزية ، مع العلم أن العبارة اليونانية تفهم على أوجه كثيرة ، ولذلك تعددت التراجم الأجنبية فى اللغة الواحدة لاختلاف المترجمين فى فهم الأصل اليونانى .

ثانيا : معرفة قاعدة رسم النساخ للكتابة العربية عموماً . وقاعدة الناسخ الذى نرجع إليه ، وهذا شىء لا يكتسب إلا مع طول الخبرة والممارسة .

ثالثا : التزام الذوق العربى فى كتابة الألفاظ الأجنبية ، وفى ترجيح العبارات .

رابعا : معرفة موضوع العلم الذى ينشر معرفة تامة حتى يدرك المقصود .

وإنى أكرر الشكر للزميل الذى أتاح لى فرصة الحديث عن النشر وأصوله وطرقه . ولعلى أفصل هذا الحديث مرة أخرى بناء على ما اكتسبته من خبرة بعد طول النظر فى المخطوطات المختلفة والتى نشرتها فى الفلسفة ؟

أحمد فؤاد الأهوانى

لغويات

تجنبوا الفوضى والاضطراب ـ أمر القوم شتى

يرى القارىء استعمال (الفوضى) فى الكتابة والحديث كما فى الاستعمال المدون. والفوضى فيه بمعنى الحدث . ويعنى بها مخالفة النظام وتجنب المنهج السوى .

وهذا الاستعمال لا يقف عليه الناظر فى الكلام العربى . وإنما ترد (الفوضى) مورد الوصف ، ويعيى الباحث أن يجد ما يساوق الاستعمال العصرى .

ويذكر اللغويون للفوضى الموارد الآتية :

١ — فيقال : قوم فوضى أى متساوون لا رئيس لهم . ومن هذا قول الافوه الاودى من قدماء شعراء الجاهلية وحكمائهم فى قصيدته[1] الحكمية الاجتماعية :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

ومن هذا قول الزمخشرى فى المفصل فى مبحث الحرف حين ذكر حروف الإضافة أى حروف الجر : « سميت بذلك لان وضعها على أن تفضى بمعانى الأفعال إلى الأسماء . وهى فوضى فى ذلك ، وإن اختلفت بها وجوه الإفضاء » ويقول ابن يعيش فى شرحه[2] له : « وهى متساوية فى إيصال الأفعال إلى ما بعدها وعمل الخفض ، وإن اختلفت معانيها فى أنفسها . ولذلك قال : هى فوضى فى ذلك أى متساوية : يقال : قوم فوضى أى سادة لا رئيس لهم » . وأكبر الظن أن الذى بعث الزمخشرى على إيثار (الفوضى) فى هذا الموطن الرغبة فى التجنيس مع « تفضى » و « الإفضاء » .

٢ — ويقال : قوم فوضى : مختلطون ، ونعام فوضى : مختلط بعضه ببعض . ويقال : جاء القوم فوضى أى مختلطين ، والمال فوضى بين القوم أى مختلط : من أراد منهم شيئاً

---

(١) توجد كاملة مع غيرها مما عثر عليه من شعره فى الفرائد الأدبية من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) ص ٧ ج ٨ .

أخذه . ومن هذا ما جاء : كانت خيبر فوضى أى مشتركة بين الصحابة غير مقسومة ؛ كما فى المصباح .

٣ — ويقال : الوحش فوضى فى الفلاة ، أى متفرق يتردد ويجول فيها . وهذا قريب من المعنى السابق . ومنه قول أبى العلاء المعرى من قصيدة [1] له فى سقط الزند :

دع الطير فوضى إنما هى كلها طوالب رزق لا تجىء بمفظع

يقول هذا فى النهى عن زجر الطير وترقب حركاتها ليتعرف منها — كما كانوا يزعمون — عاقبة أمرهم . فهو يقول : دع الطير يتردد فى مجاله ، ولا تتعرض له للاستنباء من حركاته عما سيكون ، فإنما يتردد لطلب الرزق ، ولا صلة لحركاته بما يخشى من الامور .

وترى أن أكثر موارد (الفوضى) أن تقع من وصف الجمع . وقد تقع من وصف المفرد كما رأيت فى قولهم : المال فوضى بين القوم ، وفى المخصص ١٥ / ١٨٥ : « ويقال : متاعهم فوضى بينهم إذا كانوا فيه شركاء » . وترى أن استعمالها فى معنى الحدث كما تستعمل فى هذه الأيام لم يأت فى مواردها اللغوية .

وقد بدا وجه من تصحيح الاستعمال المشهور : أن يقدر موصوف محذوف . فإذا قيل : وقع الناس فى الفوضى فالتقدير : فى الأمور الفوضى أى الأمور والشئون المختلفة المتفرقة ، وكذلك إذا قيل : وقعت الفوضى فمعناه : الشئون الفوضى . ويضعف من هذا الوجه أن التقدير لا يخطر ببال المتكلمين بهذا الأسلوب ، ومن الخير أن يعدل الكتاب عنه إلى السنن القويم والنهج الواضح .

ويبقى بعد هذا فضل بحث فى (الفوضى) من جهة بنائها ، ومن أى ضرب هى من ضروب الأسماء ؛ فهل هى مفرد أو جمع ؟ وإلى أى مادة لغوية يرجع كيانها ؟

وأقدم ما نلفيه فى الكلام عليها نجده فى كتاب [2] سيبويه إذ يقول : « فأما فَـعْـلى فعلى الأصل فى الواو والياء . وذلك قولهم : فوْضى وعيْشى » يريد أن ما جاء على وزن فعلى — بفتح الفاء — وكانت عينه واوا أو ياء فإنهما يصحان ولا يعلان . وعيشى مؤنث عيشان من العيث أى الإفساد . فعيثان : مُفسد ، وعيثى : مفسدة . وهذا كما يقال سكران وسكرى .

---

(١) انظر شروح سقط الزند ص ١٥٣٠

(٢) ص ٣٧١ ج ٣

وترى أن سيبويه لم يُبن عن أمرها : أمفرد هى أم جمع ؟

ويجيب عن هذا الأزهرى فى التهذيب إذ يقول : « صار الناس فوضى أى متفرقين . وهو جماعة الفائض . ولا يفرد كما يفرد الواحد من المتفرقين ، فالفوضى عنده واحدها الفائض . و(الفائض) هذا من فاض يفوض لا من فاض يفيض حتى يتسق مع الفوضى التى عينها واو . ويذكر الأزهرى أن هذا الوصف المفرد لم يستعمل ، إذ لم يستعمل فعله ، فلم يرد فاض يفوض ، وإنما ورد من الأفعال المزيد . يقال : « فوضت أمرى إلى الله » . وإذاً فالوارد من هذه الصيغة الجمع فقط .

والقارىء بعد هذا له أن يعقب على كلام الأزهرى وغيره بهذين السؤالين :

١ — إذا كان (الفوضى) جمعا فما باله جاء المفرد على ما تقدم ؟

٢ — وما بال الفعل (فاض يفوض) لم يستعمل هو ولا وصفه المفرد (فائض) ؟

وإنى أعرض تخريجا لى فى هذا المقام على بساط البحث والنظر .

فالأصل مادة الفض . وهو يكون للكسر والدق . ومن ذلك قوله ﷺ للعباس : لا يفضض الله فاك أى لا يكسر أسنانك ، والفم هنا الأسنان : كما يقال : سقط فوه أى أسنانه وكذلك دعا الرسول ﷺ بهذا الدعاء للنابغة الجعدى حين أنشده قصيدة استحسنها عليه الصلاة والسلام . ويقال من هذا : فض الجماعة : فرقها ، لما كان الكسر ينشأ عنه التفريق . وقد تفرع عن هذا الفيض فى قولهم : فاض النهر إذا جاوز الماء مجراه ، فإن ذلك فيه تفرق وعدم التئام .

ومن الفض يقال : الفضيض أى المفرق ، وهو فعيل فى معنى مفعول ، وهذا إذا أشعر بنقص أو عيب يجمع على فعلى ، كجريح وجرحى وأسير وأسرى . فكان القياس فى جمع الفضيض أن يقال : الفضّى ، ويظهر أنهم استثقلوا هذا لما فيه من التضعيف الذى قد يتجنبه العرب ، فقالوا فيه : الفوضى ، بإبدال أول المثلين حرف لين .

وصار الأصل فى معنى « الفوضى » المتفرقين . ولما كان المتساوون الذين لا رئيس لهم يجمع شملهم ويوحد كلمتهم فى معنى المتفرقين أطلق الفوضى على هؤلاء ، ودخل الكلمة معنى التساوى من هذا الباب ، فقيل : المتاع فوضى بين القوم أى هم شركاء فيه متساوون ، ويدخل هذا فى باب التدريج اللغوى .

وقد يسأل سائل . هلا أبدلوا من التضعيف ياء فقالوا : فيضى ؟ والجواب أن العرب تستحسن فى حشو الكلمة الواو وتستكثر منها . وترى الصرفيين يحكمون للألف التى هى عين الكلمة إذا جهل أصلها أنها مقلوبة عن الواو : كما قالوا فى الصاب ، يصغرونه على صويب لا صييب . وعلى أنه ورد (الفيضى) كما فى التاج .

ويبقى بعد هذا السؤال الآتى : إذا كان الفوضى جمعا فكيف جاء للمفرد على ما تقدم ؟ .

والجواب أنه من باب التوسع فى العربية . ويدخل هذا فى فروع كثيرة حتى عقد له ابن جنى فى الخصائص بابا سماه « شجاعة العربية » وذكر فيه ما هو أبعد من هذا .

ومبنى هذا استعمال وصف الجمع فى المفرد[1] . ويذكر من هذا قولهم : « ذهب به الدينار الحمر والدرهم البيض » وقول مزاحم العقيلى :

ولو بذلت أنسا لأعصم عاقل برأس الشرى قد طرّدته المخاوف
لظل رهينا خاشع الطرف حطه تخلب جدوى والكلام الطرائف

فتراه وصف (الكلام) بالطرائف .

وقد وجدت للفوضى فى هذا نظيرا فى وزنها ومعناها ، وهو (شتى) فشتى جمع شتيت . ويقول أبو حيان فى البحر المحيط ٦/٢٤٤ : « شت الأمر شتا وشتاتا : تفرق . وأمر شت متفرق . وشتى : فعلى من الشت ، وألفه للتأنيث ، جمع شتيت كمريض ومرضى ، ومعناه : متفرقة » . يقول السعد فى شرحه للتلخيص عند قول الخطيب : « وله ملابسات شتى » : « أى مختلفة ، جمع شتيت كمريض ومرضى » .

ومع هذا ورد (شتى) وصفاً للمفرد . وفى اللسان : « وقعوا فى أمر شت وشتى » . جاء فى الآية ٥٣ من سورة طه « وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى » ويقول أبو حيان : « والأجود أن يكون (شتى) فى موضع نصب نعتاً لقوله : (أزواجاً) لأنها المحدث عنها . وقال الزمخشرى : يجوز أن يكون صفة للنبات ، والنبات مصدر سمى به النابت كما سمى بالنبت . فاستوى فيه الواحد والجمع » . وما رأينا المصدر المفرد إذا سمى به الجنس أو إذا لم يسم به يطرد وصفه بوصف الجمع ، فليس من المستساغ أن يقال : النبت القويات أو الكثيرات ، ولكن هذا توسع أجرته العرب فى (شتى) .

---

(١) انظر الخصائص طبعة دار الكتب ٢/٢٥ .

وجاء من هذا أيضاً قوله تعالى فى الآية ٤ من سورة الليل : « إن سعيكم لشتى » . وترى أبا حيان يقول : « أى مساعيكم » ، وهذا ليسوغ وصف المفرد بالجمع . ولكن لو قيل إن سعيكم تحاسبون عليها أو عليهن أفكان ذلك يسوغ فى الكلام ؟ وعندى أن هذا توسع ترتكبه العرب فى بعض كلامها ، ولا يكون منهجاً مطرداً .

وجاء (شتى) وصفا للاثنين . وإنى أسوق إليك فى هذا الموطن القصة [1] الآتية :

روى أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجانى الذى قدم الأندلس من المشرق سنة ٤٠٦ أن ابن الأعرابى الإمام اللغوى الكوفى المتوفى سنة ٢٣٠ رأى فى مجلسه رجلين يتحادثان . فقال لأحدهما : من أين أنت ؟ فقال : من أسبيجاب [2] . وقال للآخر : من أين أنت ؟ فقال : من الأندلس . فتعجب ابن الأعرابى ، وأنشد :

نزلت على قيسية يمنية لها نسب فى الصالحين هجان
فقالت - وأرخت جانب الستر دوننا لأية أرض أم من الرجلان ؟
فقلت لها : أما رفيقى فقومه تميم وأما أسرتى فيمان
رفيقان شتى ألف الدهر بيننا وقد يلتقى الشتى فيأتلفان

فترى قوله : « رفيقان شتى » كيف جاء (شتى) وصفا للاثنين . وعندى أن الفوضى سرت فى هذا السبيل . والله الهادى إلى سواء السبيل ؟

محمد على النجار

---

(١) انظر جذوة المقتبس ١٧٣ ، ومعجم الأدباء (طبعة الحلبى) ٧ / ١٤٧

(٢) اسم بلدة كبيرة من بلاد ما وراء النهر فى حدود تركستان . ووردت فى معجم البلدان : اسفيجاب

طرائف لغوية وأدبية :

نظرة في شاهد

يستشهد النحويون والبلاغيون بهذا البيت :

إلى ملك ما أمه من محارب أبوه ولا كانت كليب تصاهره

الأولون يستشهدون به على جواز تقدم الخبر الجملة على المبتدأ حيث لا ضرر من التقديم ، فقد تقدمت جملة الخبر وهى « ما أمه من محارب » على المبتدأ وهو « أبوه » ، وجاز عود الضمير الذى فى أمه على الأب مع تأخره لفظا لأنه متقدم فى الرتبة ، فالمبتدأ رتبته التقدم على الخبر . والآخرون يستشهدون به على التعقيد اللفظى بسبب التقديم والتأخير الذى لا يفهم معه المعنى إلا بعد تأمل وإعمال فكر .

والبيت من قصيدة للفرزدق يمتدح بها الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ويستجديه لقومه وقد أصابهم قحط ، ومطلع القصيدة :

كم من مناد والشريفان [١] دونه إلى الله تُشكى والوليد مفاقره
ينادى أمير المؤمنين ودونه ملا [٢] تتمطى بالمهارى ظهائره

إلى أن قال :

رأونى فنادونى أسوق مطيتى بأصوات هلاك سغاب حرائره [٣]

---

(١) الشريفان : جبلان يسمى أحدهما (شريف) بصيغة التصغير ، وهو أعلى جبل فى بلاد العرب . ويقول مجد الدين الفيروزابادى صاحب القاموس إنه صعده . وبجواره جبل آخر يسمى (شرف) بوزن قمر ، فغلب الفرزدق اسم الجبل الأول وجعل التثنية له .

(٢) الملا : الصحراء .

(٣) الهلاك : جمع هالك ، وهو الميت . واستعمل الفرزدق الهالك بمعنى الميت فى الضعيف الهزيل على سبيل الاستعارة . والقرينة قوله « بأصوات » لأن الهالك ليس له صوت . والسغاب : جمع ساغب وسغبان وسغب كفرح ، ومعناه الجائع أو الجائع المتعب .

فقالوا أغثنا إن بلغت بدعوة ... لنا عند خير الناس إنك زائره

فقلت لهم إن يبلغ الله ناقتى ... وإياى أنبى بالذى أنا خابره

ثم يأتى بيت الشاهد بعد ذلك بأبيات ، ولكنه ليس كما رواه النحاة والبلاغيون ، وإنما يختلف عن روايتهم اختلافا يترتب عليه اختلاف معناه واختلاف الشاهد فيه ، وتأتى بعده أبيات تؤكد خطأ رواية النحويين والبلاغيين ، وإلى القارىء الشاهد وما بعده كما ورد فى ديوان الفرزدق فى النسخة المطبوعة فى أوربا وهى معجمة وواضحة :

إلى ملك ما أمه من محارب ... أبوها ولا كانت كليب تصاهره

ولكن أبوها من رواحة ترتقى ... بأيامه قيس على من تفاخره

زهير ومروان الحجاز كلاهما ... أبوها لها أيامه ومفاخره

بهم تخفض الأذيال بعد ارتفاعها ... من الفزع الساعى نهارا حرائره

وهنا يظهر عدم ائتلاف بيت الشاهد على الرواية الأولى مع الأبيات بعده من جهة اللفظ ، إذ كيف يقول الشاعر إلى ملك « ما أمه من محارب أبوه » ثم يقول بعد ذلك ، ولكن أبوها من رواحة ، ثم يقول كلاهما أبوها ، والمعنى يختلف أيضا على هذه الرواية عنه على الرواية السابقة . إذ معناه على الأولى أبو هذا الملك ليست أمه من قبيلة محارب وتقدير الكلام حينئذ « إلى ملك أبوه ما أمه من محارب » .

والمعنى على الرواية الأخيرة ، أبو أم هذا الملك ليس من قبيلة محارب ، إذ تقدير الكلام حينئذ « إلى ملك ما أمه أبوها من محارب » كما تقول محمد ما أبوه حاضر ويترتب على ذلك تغير الخبر ، فهو على الرواية الأولى جملة « ما أمه من محارب » وعلى الثانية شبه جملة وهو الجار والمجرور اللذان هما « من محارب » ولا يجوز تقدم المبتدأ وهو أبوها على لفظ الأم لأن المبتدأ حينئذ جزء من جملة خبر ما ، إذا أعملت عمل ليس وجزء من جملة خبر المبتدأ الذى هو أمه إذا أهملت ما ، وفيه ضمير يعود على اسم ما أو على المبتدأ الأول على الاعتبارين السابقين ، فإذا تقدم (أبوها) على (أمه) لزم عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة لأن المبتدأ الثانى رتبته التأخر عن المبتدأ الأول ، وكذلك خبر ما رتبته التأخر عن اسمها وعود الضمير على متأخر لفظا ورتبة لا يجوز إلا فى مسائل ليست هذه المسألة منها .

أما على الرواية الأولى فقد سبق بيان جواز تقدم لفظ الآب على الأم وعدمه ، ويختلف الاستشهاد بالبيت عند النحويين ، فبعد أن كان يستشهد به على جواز تقدم الخبر الجملة على المبتدأ أصبح يستشهد به على جواز تقدم الخبر شبه الجملة على المبتدأ إذ يجوز أن يقال « ما أمه من محارب أبوها » أو « ما أمه أبوها من محارب » .

والغريب أن جميع شراح الشواهد كالعيني والجرجاوى والشيخ قطة العدوى وغيرهم رووا هذا الشاهد على الرواية الأولى وشرحوه على المعنى الأول واستشهدوا به على ما فيه من جواز تقدم الخبر الجملة على المبتدأ حيث لا ضرر ، وهذا مخالف للواقع ولما قاله الشاعر وأراده ، حتى المحدثون الذين شرحوا شواهد ابن عقيل وغيره ، نهجوا نهج القدامى ، ولم يفكر أحد من السابقين أو اللاحقين فى الرجوع إلى ديوان الفرزدق ، ولو رجعوا إليه لتبين لهم خطأ الرواية الأولى واختلاف معناها عن الواقع وعن كلام الشاعر ومراده .

وأعجب من ذلك أن شارحاً حديثاً روى هذا البيت :

رأونى فنادونى أسوق مطيتى بأصوات هلاك سغاب حرائره

رواه هكذا :

رأونى فنادونى أسوق مطيتى بأصوات هلال صعاب جرائره

ولم يشرحه مع أنه يشرح كل بيت يأتى به تبعاً لأحد أبيات الشواهد .

ولعل الذى حمله على ذلك أنه لم يستطع معرفة مرجع الضمير فى قول الشاعر « سغاب حرائره » فغيره من عند نفسه إلى ما رأيت حتى يعود الضمير فى « جرائره » على كلمة « هلال » ولو قرأ القصيدة كلها بإمعان وتدبر لظهر له مرجع الضمير واضحاً .

ولعلى بذلك بينت خطأ وقع فيه القدماء والمحدثون من العلماء لأخذهم ما يعرض لهم من الشواهد من غير أن يفتشوا فيه أو يبحثوا وراءه ، وكان الصواب قيد شعرة منهم لو تنبهوا إليه . ولكن لهم مع ذلك عذراً فى تصديق من روى لهم إذا كان ممن يوثق به ، أما أن يؤخذ النص من كتاب دون بحثه والتنقيب على ما خلفه فهذا ما لا يرضى عنه العلم ، ولا تقبله الأمانة العلمية ، وما ينبغى أن يتنزه عنه رجال الأزهر على وجه الخصوص .

طه الزينى

أستاذية فى النحو والصرف

الدخيل وكتب التفسير

تفسير القرآن الكريم من العلوم الشرعية التى عنيت بها الأمة الإسلامية عناية فائقة ، إذ عليه يتوقف فهم الكتاب العزيز ، ومعرفة ما فيه من حكم وأحكام وآداب ومواعظ ، والكشف عما فيه من هداية وإرشاد ، وأسرار فى التشريع والاعجاز . وقد حث الله عز شأنه على تدبر القرآن وتفهمه فقال (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) وقال (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) وقد كان النبى ﷺ يبين لأصحابه معانى القرآن كما يبين لهم ألفاظه ، قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) . وقد قال أبو عبد الرحمن السلمى حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً . وهذا هو السر فى أنهم كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة ، وأن الرجل منهم كان يجل فى أعين أصحابه بمقدار ما يحفظ من القرآن .

وقد روى مالك فى الموطأ أن ابن عمر أقام على حفظ البقرة ثمانى سنين . وقال أنس رضى الله عنه : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل فى أعيننا . فالصحابة قد تلقوا تفسير القرآن وبيانه عن النبى صلوات الله وسلامه عليه وأضافوا إليه ما أدركوه بصفاء فطرتهم وذكاء قريحتهم ومعرفتهم التامة باللغة وأساليب البيان وما فهموه من الظروف والملابسات التى كانت عند نزول الوحى . والخلاف بين الصحابة فيما صح عنهم من التفسير قليل ، وأغلبه يرجع إلى اختلاف التنوع لا التضاد ، ثم تلقى التابعون عن الصحابة تفسير القرآن كما تلقوا علم السنة ، وإن كانوا يتكلمون فى بعض التفسير بالاستنباط والاستدلال كما يتكلمون فى بعض السنة بهما أيضا [1] ، وأضاف التابعون إلى ما سمعوه ما تلقوه عن أهل الكتاب من المعارف وفسروا القرآن ببعضها ، ومن هنا دخل البلاء على الإسلام كما سأبين ذلك فيما بعد . وقد كان الاختلاف بين التابعين أكثر منه بين الصحابة ، وعن التابعين أخذ تابعو التابعين ، وهكذا حتى دونت الكتب فى شتى العلوم والفنون ، ومنها كتب التفسير .

(١) مقدمة التفسير لابن تيمية .

وقد ألفت كتب فى التفسير بالمأثور كما ألفت كتب فى التفسير بالرأى والاجتهاد، وكتب هذا النوع الثانى لا تخلو من التفسير بالمأثور أيا كان منحاها، ذلك أن التفسير بالاجتهاد لا يكون منوطا بالقبول إلا إذا اعتمد فيه على ما صح من المنقول، ولا سيما فيما لا يعلم إلا من طريق النقل كأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والقصص ونحوها، فهذا النوع من التفسير قل أن ينفرد عن النوع الأول كما قال ابن خلدون، والتفسير بالمأثور أسبق فى الوجود من التفسير بالرأى والاجتهاد، وهو يعتبر جزءاً من الحديث، والذين ألفوا فى الحديث لم تخل كتبهم منه. وقد عقد الإمام البخارى فى صحيحه كتابا فى التفسير، وقد استنفد ذلك جزءاً من صحيحه لا يستهان به، وكذا فعل مسلم وغيره من أصحاب الكتب المعتمدة، ولم يقتصروا فيما ذكروه على المرفوع، بل ذكروا ما ورد عن الصحابة والتابعين. وهذا الصنيع يدل على الصلة الوثيقة بين الحديث والتفسير بالمأثور.

والحق أن الحديث بالنسبة لغالب العلوم بمنزلة الأم، وعليه معول كثير من المؤلفين، فالمفسر والفقيه والمؤرخ كلهم فى حاجة إليه.

والذين ألفوا فى التفسير بالمأثور فى القديم ذكروا ما روى عن النبى ﷺ وعن الصحابة والتابعين وصبغوه بالصبغة الحديثية من ذكر للسند ونقد للرجال وتصحيح المتن أو تضعيفه، إلى أن جاء ابن جرير الطبرى فزاد توجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض وذكر الأعاريب والاستنباط، ثم ألفت من بعد كتب التفسير بالاجتهاد، ولم يسر مؤلفوها فى الغالب - فيما اشتملت عليه كتبهم من مأثور - على سنن السابقين الأولين، فحذفوا الأسانيد، واختصروا الأقوال، ولم ينسبوها لقائليها. وصار من يسنح له قول يورده، ومن يجىء بعده ينقله ظانا أن له أصلا، ولم يكلف نفسه مؤونة البحث عن أصل الرواية ولا من يرجع إليه هذا القول، فاختلط الصحيح بالسقيم والمقبول بالمردود [1].

ولما كان الحديث قد دخله الوضع فلا جرم أن دخل التفسير بالمأثور الوضع أيضا، ومن ثم اشتملت كتب التفسير - سواء منها ما كان مختصا بالمأثور أو شاملا له وللتفسير بالاجتهاد - على قطعة كبيرة من الموضوعات والإسرائيليات والآراء الزائفة التى لا تستند إلى نقل صحيح ولا يؤيدها عقل سليم. وكان لذلك أسباب عدة نجتزىء بذكر بعضها:

(١) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج ٢ ص ١٩٠.

فعن طريق الزنادقة دخل الكثير من الموضوع ونسبوه إلى النبي ﷺ حينا ، وإلى الصحابة والتابعين حيناً آخر . وكذلك كان للعصبية المذهبية ضلع كبير فى التزيد : فالشيعة نسبوا إلى سيدنا على ما هو براء منه ، والمتزلفون لبنى العباس نسبوا إلى ابن عباس ما لم يقله تقربا إليهم ، وهذا هو السر فى تضخم التفسير المنسوب إليهما دون غيرهما من الصحابة الذين تصدوا للعلم والرواية . وهناك سبب آخر مهم وهو النقل عن مسلمة أهل الكتاب ، والأخذ عنهم فيما لا تعلق له بأصول الدين وأحكام الشريعة ، كالقصص وأخبار الأمم الماضية ، وإلى ذلك أشار العلامة ابن خلدون فى مقدمته فى أثناء تكلمه على التفسير بالمأثور فقال « وقد جمع المتقدمون فى ذلك وأوعوا ، إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود . والسبب فى ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية ، وإذا تشوقوا إلى معرفة شىء مما تتشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب الكائنات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى . وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة ، ومعظمهم من حمير الذين أخــذوا بدين اليهودية ، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها ، مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم ، وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم ، وفى أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة التى يجب العمل بها . ويتساهل المفسرون فى مثل ذلك وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات [1] » .

وقد أخذ عن مسلمة أهل الكتاب فى هذه الأغراض السابقة الكثير من التابعين وبعض أجلة الصحابة كابن عباس وابن مسعود وأبى هريرة .

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب فكان يحدث بما فيهما بما فهمه من الإذن فى حديث « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج . ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » رواه البخارى .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٨ .

ثم إن هذه الإباحة فيما لم يعلم كذبه ، أما ما علم كذبه فيحرم التحديث به ، ولا تجوز روايته إلا مشفوعا ببيان كذبه . وعلى هذا يحمل ما ورد من النهى عن التحديث عنهم .
وذلك أن أخبار بنى إسرائيل على أقسام ثلاثة :

١ — ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ، فذاك صحيح ، ونحن فى غنية عنه بما عندنا ، ولا مانع من التحديث به .

٢ — ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه ، فهذا يجب تكذيبه .

٣ — ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا ولا من ذاك ، فلا نؤمن به ولا نكذبه . وغالب ذلك مما لا فائدة فيه ، وكثيراً ما يختلف علماء أهل الكتاب فيه ، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك ، كاختلافهم فى لون كلب أصحاب الكهف ، واسم الغلام الذى قتله الخضر (١) ومقدار سفينة نوح ونحو ذلك .

ولو أن هذه الاسرائيليات ولا سيما المكذوب منها وقف بها عند قائليها لكان الأمر محتملا ولكن الشناعة وكبر الإثم أن ترفع بعض هذه الإسرائيليات إلى المعصوم صلوات الله وسلامه عليه ، وهنا يكون الضرر الفاحش . فقد وجد أعداء الدين فى ذلك ثغرة ينفذون منها إلى التقول على الإسلام وعلى نبى الإسلام بما هو برىء منه ، وبعض هذه الإسرائيليات جاء موقوفا على الصحابة فظن من لا علم له بحقيقة الأمر أنها متلقاة عن النبى ﷺ لأنها مما لا مجال للرأى فيها فلها حكم المرفوع . [illegible] ن جهابذة الحديث ونقاده كانوا أبعد غوراً وأدق نظراً حينما قالوا : إن كلام الص [illegible] ما لا مجال للرأى فيه له حكم المرفوع بشرط أن لا يكون الصحابى معروفا بالأخذ [illegible] الكتاب ، ولا ممن يعرف بذكر الإسرائيليات وبذلك يجد الباحث المنصف مخرجاً [illegible] لروايات الموقوفة بأنها إسرائيليات تقبلت بحسن نية ، إن لم تكن مدسوسة على [illegible] ة دسها عليهم الزنادقة .

وقد تنبه بعض الصحابة إلى ما [illegible] الكتاب من المغالط والكذب وإن لم يكن عن تعمد : روى البخارى فى صحيحه [illegible] ضى الله عنه أنه ذكر كعب الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين [illegible] من أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب . وإذا كانت مقا [illegible] فى كعب كما ترى وهو من أصدقهم —

(١) انظر تفسير ابن كثير جزء ٣ [illegible] ومقدمة التفسير لابن تيمية ص ١٨ ط السلفية .


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

الحسابية ، والنتائج السنوية المضبوطة ، وتقدير الزمن بالمزاول والأرباع الدستورية وغيرها ، وبالساعات الميكانيكية المنظمة جيبية أو حائطية ، من أول نشأة الحساب إلى الآن . وإن تمسكه بما لم تلتفت إليه الأمة ، وانقياده لمعنى هذه الدعوى مع خلوها عن الدليل يعد شذوذاً منه وخروجا على الاجماع ...

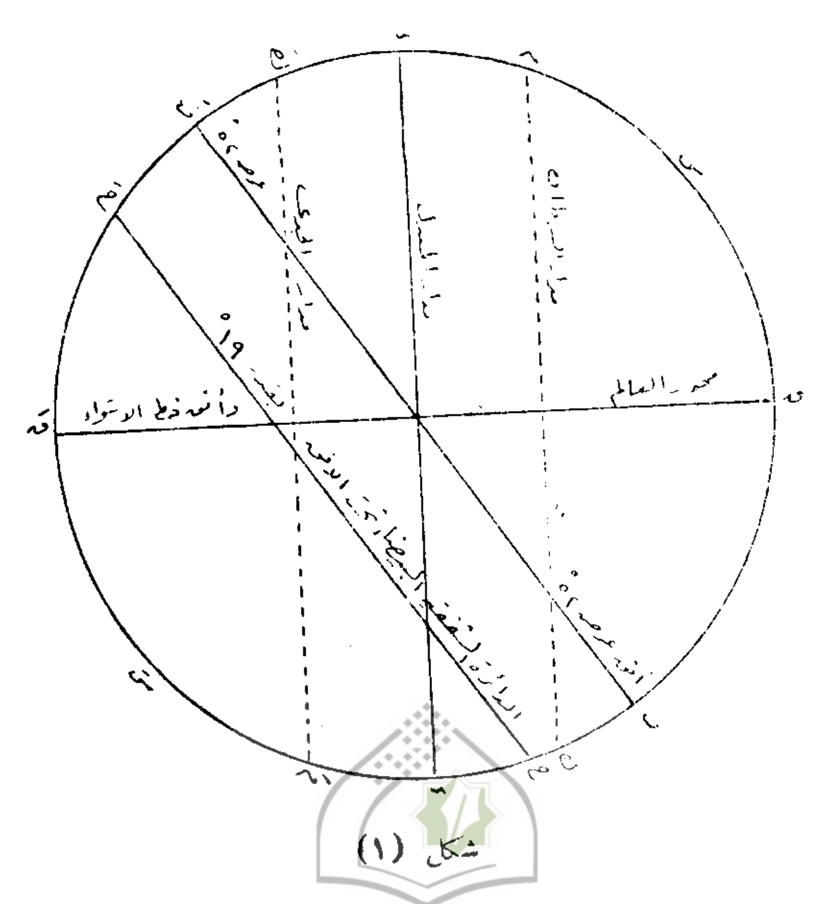
على أن سائر علماء الشافعية وغيرهم من المحققين والخواص فى كل بلد وأوان تراهم يهرعون إلى الصلاة على حساب الساعات الفلكية وتقدير الجداول السنوية ، ولم نسمع أن اثنين منهم قد اتفقا على ترك ذلك إلى قياس الظل فى أى عهد من العهود المتقدمة ...

ثم « ثانيا » ننقض عموم الحكم فى هذه الدعوى ، إذ يعم البلاد التى ينعدم فيها علامة وقت العشاء أو غيرها فى بعض أيام السنة ومقتضاه أنه لا يعتمد فيها على الحساب ، كيف وأن إجماع السادة الشافعية ومنهم « ابن دقيق العيد » على وجوب الصلوات الخمس فى تلك البلاد وتقدير أوقاتها بالساعات الفلكية بحسب أقرب البلاد أو الأيام المعتدلة مع أنه لا غروب ولا شروق للشمس ولا للشفق ولا بلوغ الظل شيء مثله أو مثليه فى هذه الأوقات هنالك فى بعض أيام السنة ولا بد لهذا التقدير من الحساب ...

ووافقهم على ذلك علماء السادة المالكية وكذا المحققون من الحنفية كالكمال بن الهمام وغيره ، وحجتهم على ذلك قوية كما سيأتى :

البلاد التى ينعدم فيها بعض علامات الأوقات :

أما البلاد التى ينعـــدم فيها فى بعض أيام السنة علامات الأوقات الشرعية ، فهى ما عرضه (٤٩) درجة فأكثر إلى (٦٦) درجة كبلاد الإنجليز ، والبلجيك وهولاندة وبولاندة وشمال فرنسا وألمانيا وجنوب فنلندة وجنوب السويد والنرويج وجنوب كندا وأواسط روسيا ، فإن فى هـذه البلاد ينعدم فى بعض أيام السنة أعنى حول (٢١) يونيه علامة وقت العشاء فيدور الشفق من نقطة غروب الشمس إلى نقطة شروقها حول آفاقها من جهة الشمال دون أن يختفى فى الأفق ثم يصعد فى السماء حتى تطلع الشمس ، ومعناه بقاء علامة المغرب إلى أن توجد علامة وقت الصبح وتنعدم علامة وقت العشاء أصلا وهى غياب الشفق فى الأفق الغربى .. انظر الرسم رقم (١) .



شكل (١)

وأما البلاد القطبية وهي التي يزيد عرضها عن (٦٦) درجة كبلاد سيبريا وجزيرتى إيسلندة وجريلندة وشمال كندا وروسيا والسويد والنرويج ؛ فإن للشمس فيها ثلاث حالات كلها مواعظ وعبر (ربنا ما خلقت هذا باطلا) .

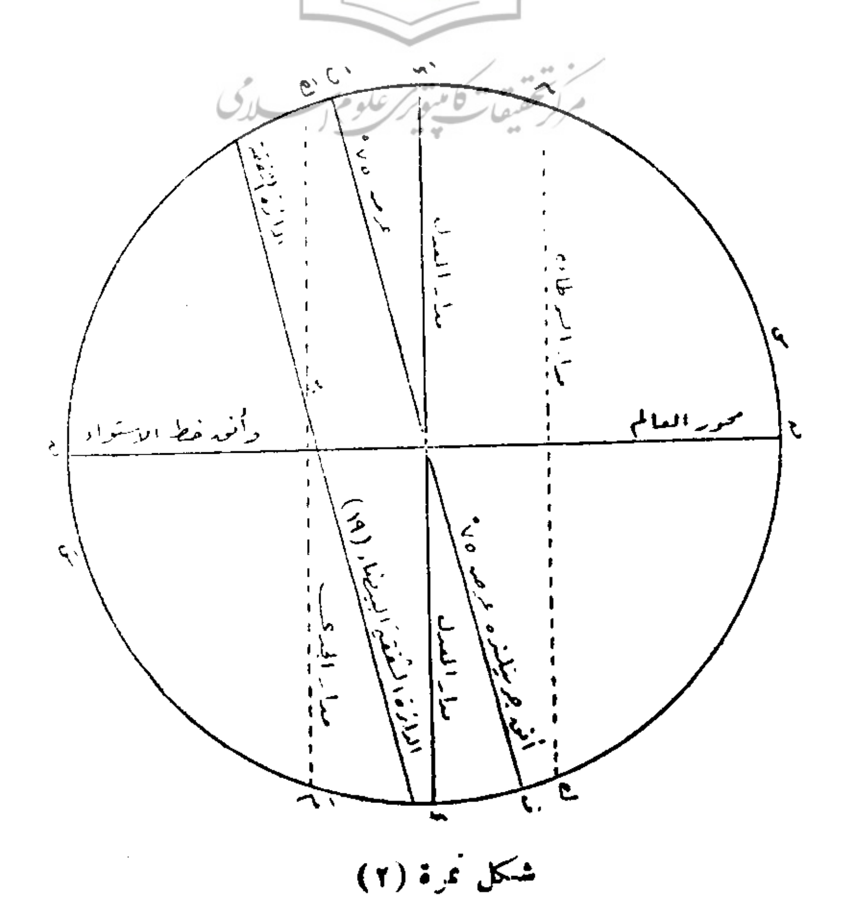
ففى الحالة الأولى تدور الشمس فى السماء فوق الأفق جملة أيام قبل وبعد (٢١ يونيه) دون أن تتوارى فى الأفق ، وحينئذ تنعدم علامات وقات المغرب والعشاء والفجر لدوام النهار وانعدام الليل ، إذ لا غروب ولا شروق للشمس ولا للشفق ، وكذا تنعدم علامة العصر لصيرورة الظل فى اللانهاية ، وإنما يعرف الظهر بزوال الشمس عن وسط السماء (خط نصف السماء أى منصفها من الشمال إلى الجنوب) لأن مدار الشمس اليومى وإن ارتسم كله فوق الأفق إلا أنه يمر بهذا الوسط مرتين إحداهما تمثل الاستواء وهى الجنوبية وزوال الشمس عنها يمثل علامة وقت الظهر ، والأخرى وهى الشمالية تمثل انتصاف الليل ، كما يمكن أن يعتبر شروق الشمس بعد مرورها بالنقطة الشرقية من المدار بنحو درجة وكذا الغروب بعد مرورها بنقطة المدار الغربية وهكذا . ومن هنا يسهل حساب الأوقات فلكياً قياسا على أوقات البلاد التى فيها شروق وغروب .

وفى الحالة الثانية — تتوارى الشمس فى الافق بعد (٢١ سبتمبر) وتدور تحته ، وما دامت على بعد من الافق أقل من (١٧ درجة) أو (١٩) يتبعها الشفق فى هذا الدوران ويبقى ظاهراً دائراً حول الأفق مدة جملة أيام معتدلة كما لو كان فى حصة المغرب ، ومعناه انعدام جميع علامات الأوقات لهذه الأيام .

وفى الحالة الثالثة — يختفى الشفق أيضاً ويحبك الليل ظلمته على الأفق ويدوم أيضاً ذلك مقدار جملة أيام معتدلة ثم يظهر الشفق عائداً إلى حالته السالفة جملة أيام ، ثم تظهر الشمس كذلك وهكذا ، وفى هاتين الحالتين يمكن أن يحكم بأن جميع العلامات للأوقات الشرعية منعدمة . . . انظر الرسم رقم (٢)

وأى شىء يمكن أن يعتمد عليه فى تقدير الأوقات الخمس حينئذ غير الحساب الفلكى مع مساعدة الساعات الميكانيكية التى يمكن ضبطها أيضاً بحركة النجوم ومطالعها . . .

ولا شك أن حديث الدجال وإن كان مسوقا لبيان حكم الصلاة فى أيامه ولكن يعلم منه أن مدار العبادات على الدورات اليومية والشهرية والسنوية وبيان حكم الصلاة فى أيام الدجال بيان لحكمها فيما يماثل أيامه .



شكل نمرة (٢)

فالشارع وإن علق وجوب الصلوات بأوقات يغلب وجود علاماتها الحسية كما فى غالب الجزء المعمور من الارض . لكنه لم يهمل حكم غير الغالب ، فقد أخرج مسلم فى صحيحه من رواية ابن يونس بن سمعان من حديث الدجال وفيه « قلنا يا رسول الله : فذلك اليوم الذى كسنة ؛ أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا ، اقدروا له » وكذلك عدة أحاديث غيره فى هذا المعنى .

ولا يلزم أن يكون كل الناس عارفين بهذه العلامات التى تدل على الأوقات ، بل من لم يعرف يعرف ممن يعرف (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) كما لا يلزم امتناع التعريف بغير الغالب كالآلات الدقيقة والحساب الصحيح والساعات المضبوطة والأوراد والحرف والصناعات إلى غير ذلك ...

وبالجملة فإذا قبل العلماء المحققون التقدير بالأوراد والصناعات ، أفلا يقبل التقدير بالساعات المحررة وجداول الحساب المضبوطة ، وقد أجمعت الأمم كلها على ضبط مواعيدهم فى أعمالهم وصناعاتهم وزراعاتهم وتجاراتهم وبرقياتهم وسفرهم وبريدهم إلى غير ذلك بالساعات والحساب . وعلماؤنا أول الواضعين لها كما يعلم من تواريخ الحساب الفلكى والساعات ، أقصد الحساب المبنى على براهين هندسية وقوانين جبرية وحساب مثلثات مستوية وكروية ، ومن الكتب المتداولة فى الأيدى كتاب « طيب النفس » لادريس باشا راغب وكتاب « رياض المختار » لمختار باشا الغازى وكتاب « الدرر البهية » لاسماعيل باشا الفلكى وكتاب « الفلك العملى » لحسن مصطفى بك العبادى وغيرهم من أرباب الكتب الحديثة فى الفلك .

أما الكتب المعتمدة القديمة فكتاب « الدر المنثور » للشيخ عبد الله الماردينى وكتاب « حاوى المختصرات » لسبطه محمد بن الماردينى وكتاب « جامع المبادى والغايات » لأبى الحسن المراكشى وكتاب « النفع العام » لابن الشاطر . فإن كل ما حوته هذه الكتب من القواعد الفلكية مطرد الإنتاج لكل ما لو تأمله الحس لأدركه من العلامات للأوقات الشرعية دون خطأ أو مخالفة لابتنائها على براهين وقوانين معقولة .

وفقنا الله جميعاً لخدمة العلم والدين ؟

محمد أبو العلا البنا

مدرس الفلك بالأزهر

كنوز بلاد سدوم

خطرها على الشرق

[إن فى ذلك لآيات للمتوسمين]
« سورة الحجر »

ورد فى سورة الحجر عن بلاد قوم لوط : « فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ، إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » . والتوسم هو التأمل والتفرس والاعتبار . هكذا إجماع التفاسير . ولم تذكر هذه الكلمة فى القرآن الكريم جميعه إلا فى هذا المقام وظلت هذه المنطقة لا يعرف الناس عنها إلا الشىء القليل ، إلى أن ظهرت الآلات الحديثة فاكتشفت ما فيها ، فأظهرت إعجاز القرآن فى هذه الآية . وإليك ما قرره علماء الجيولوجيا وطبقات الأرض .

تبين أن بحيرة لوط تنخفض عن سطح البحر (٤٠٠ متر) ، وأن هذا العمق نتج عن ارتفاع درجة الحرارة فى البحيرة حتى أصبحت تبلغ مثل درجة حرارة خط الاستواء ، وقدروا ما يتبخر من مياهها يومياً بستة ملايين طن . ومع أن المياه المتبخرة يعوض معظمها من مياه الشمال التى تنصب فى البحيرة فإنه لكثرة التبخر يتناقص ماء البحيرة على مر الأحقاب وقد اشتدت ملوحة مائها وكثف بالنسبة إلى باقى البحار ، وبهذا فقدت الحياة من البحيرة فلا يوجد فيها أسماك ولا يغرق السابح فيها ، ولهذا أطلق عليها اسم « البحر الميت » . وقد قرر العلم أيضاً أن البحر الميت والأغوار المجاورة له إنما حدثت نتيجة لاضطرابات أرضية (أى خسف) قبل ألوف السنين . ولم يقف العلم عند هذا الحد ، بل حلل الماء فوجد فيها مواد كيماوية كثيرة منها البوتاس والصودا الكاوية والصودا العادية (القلويات) والمغنسيوم والاورانيوم الذى تصنع منه القنبلة الذرية .

لهذه الثروات وغيرها من الأسباب تآمر اليهود والإنكليز والأمريكان على تملك

الجنرال اللنبي يفتح القدس سنة ١٩١٧م حتى استقدم تلوك المهندس والخبير البريطاني الكبير فكتب تقريراً ضافياً عن كنوز البحر الميت رفعه اللنبي إلى الوزارة البريطانية ، وقد جاء فيه : أن المواد الكيماوية فيه تقدر بـ ١٣٠٠٠ مليون طن ، وتقدر قيمتها بـ ٢٤٠ ألف مليون جنيه . وأن قوة انحدار النهر تقدر بمليون حصان .

بهذه المطامع يقنع اليهود الاميركان والانكليز بضرورة الاستيلاء على المملكة الأردنية ولم يكد يعلن الانتداب على فلسطين حتى أخذت شركة يهودية امتيازاً لاستخراج المواد الكيماوية من هذا البحر باسم شركة البوتاس ، وقد حصلوا على امتياز آخر للاستفادة من قوة انحدار النهر سموه « مشروع روتنبرغ » وهذا المشروع أصبح ينير ويدير المدن والمستعمرات والمعامل في أكثر بقاع فلسطين . أما العرب فلم يستفيدوا من ذلك حتى الآن إلا ملح الطعام . يضاف إلى هذا خيرات الاغوار فإن خصوبة أراضيها مضرب المثل ، ولسرعة نضوج مزروعات الغور أطلق عليه اسم « طباخ » . وفيه تزرع وتنمو مزروعات وأشجار المناطق الحارة كالنخيل والموز والقطن والفول السوداني والأرز وقصب السكر وغيره مما يزرع الآن وما جرب قبلا ، وهو يزرع ثلاث مرات في السنة إذا توفرت له المياه .

هذه الكنوز الكيماوية والمنافع الموجودة في وادي الأردن والبحر الميت هي التي يود اليهود تحويل الاردن لأجلها ليسهل عليهم تجفيف البحر الميت . أما الاراضي فيستفاد من الجداول والروافد لإروائها .

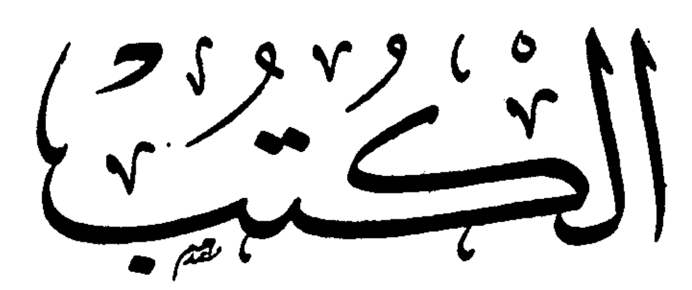
إن هذا العدوان الوحشي الذي يقوم به اليهود ويغطي عليه أنصارهم وأعوانهم ومؤيدوهم هو لأجل إيقاع الرعب والفزع في قلوب سكان هذه الديار - وقد ضربوهم بالإفلاس - ليهاجروا ويتركوا البلاد خرابا يبابا كي يحتلها اليهود باسم المحافظة على الأمن والعمران .

هذه حقائق لا ريب فيها وإن الامر ليس أمر حدود . ولقد كنا قبل الحرب ننذر بالخطر على فلسطين . وها نحن الآن ننذر بالخطر على المملكة الاردنية .

فهل آن لنا أن نستيقظ ؟ نابلس إحسان النمر

تصحيح

وقع في الجزء الماضي ص ٢٦٧ س ١٠ خطأ صوابه (إلى الله والرسول)



نظام السلم والحرب فى الاسلام

للأستاذ السيد مصطفى السباعى ٥ ٤٨ صفحة جيب ٥ مطابع الكشاف فى بيروت

الأستاذ السيد مصطفى السباعى من نوابغ خريجى الأزهر ، ومن حملة الدكتوراه فى التشريع الإسلامى ، وقد أهلته مواهبه لقيادة الرأى العام الإسلامى فى الديار الشامية ، وله جهاد بالسلاح فى فلسطين كجهاده بالبيان لتوضيح رسالات الله كما جاء بها الإسلام . وهذا الكتيب اللطيف بداية سلسلة وعد بإصدارها تحت عنوان « هذا هو الإسلام » تبحث عن الفكرة الإسلامية الحديثة من مختلف النواحى . وقد تكلم فى هذه الرسالة الأولى من تلك السلسلة عن موقف المسيحية من السلم والحرب . وموقف الإسلام ، ومبادىء السلام فى الإسلام ، ونظام السلم الداخلى ، ونظام السلم الخارجى ، وواقع الحروب الإسلامية فى التاريخ . وكل ما يكتبه الأستاذ السباعى جدير بشباب الإسلام فى كل مكان أن يستفيدوا منه .

أسس الحكم فى الاسلام

للأستاذ محمد عبد الله السمان ٥ ٨٠ صفحة جيب ٥ مطابع دار الكتاب العربى .

هذه الرسالة هى الحلقة الرابعة من سلسلة رسائل الفكرة الإسلامية للأستاذ السمان ، بدأها بعد المقدمة بتمهيد عن الحكم فى الإسلام ، وعن الحكم والاستقرار . ثم انتقل إلى موضوع « الاعتراف بالإسلام » فتحدث عن الذين يرتجفون من الدعوة إليه وعن الدستور الإسلامى والقانون الإسلامى والنظام الإسلامى ومرونة التشريع وختمه بالإشارة إلى خطوة إيجابية . ثم انتقل إلى موضوع « الاعتراف بالشعب » فتكلم فيه عن البيعة ، وعن براءة الإسلام من الحكم الوراثى ، وعن موقف أهل الحل والعقد من الإمام إذا جار وظهر غشه . وخلط المؤلف بعد ذلك بين نظام الإسلام والأنظمة الأجنبية عنه مع أن الإسلام لا يحكم العامة بالخاصة ولا يعرف الشورى إلا فى أهل الحل والعقد . وبعد أن ضرب الأمثلة انتقل إلى موضوع « الحكومة المستقيمة » فتكلم على استقامة الحاكم وبشريته وعفته وعن تحقيق العدالة والمسئولية الشاملة وعن الشعوب المغلوبة . ووعد بأن تكون الرسالة القادمة عن الدعوة الإسلامية

الأدب والعلوم في شهر

خزائن الكتب العراقية

يقول الأستاذ فؤاد جميل في (إذاعة باكستان) إن في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد ٢٠٠ر١٠ كتاب منها أكثر من ثلاثة آلاف مخطوط . وهذه المكتبة جمعت من مكتبات مساجد بغداد قبل نحو ربع قرن ، ويقومون الآن بتنظيم فهرس لها على غرار فهرس دار الكتب المصرية . ومن مخطوطاتها كتاب « تأويل مختلف الحديث » لابن قتيبة كتب في مدينة واسط سنة ٤٧٢ .

وفي مكتبة المتحف العراقي خزانة كتب مهمة لكل ما يتعلق بالعراق والبلاد العربية والشرقية ولا سيما في تاريخها القديم مما تسهل معه المقارنة بين الحضارات القديمة في مختلف الأماكن كالهند والصين واليونان والرومان فضلا عن الأمم التي سكنت العراق . وفي هذه المكتبة نسخة من كتاب العين للخليل ابن أحمد بخط السماوي منقولة عن نسخة قديمة يقال إنها في الكاظمية . وفيها بعض أجزاء من وفيات الأعيان قيل إنه بخط القاضي ابن خلكان .

أما مدينة الموصل فإن ما فيها من خزائن الكتب قد وصفها الدكتور داود الجلبي في كتابه المشهور (مخطوطات الموصل)

ولوزارة المعارف العراقية مكتبات عامة في مقاطعات العراق الأربع عشرة وفي مناطق أخرى ثانوية . ومبلغ مجموع ما فيها من الكتب مضافا إلى مكتبة مديرية الآثار حسب آخر تقرير لوزارة المعارف ٠٩٧ر١١١ كتابا

جامعة القاهرة

أعدت إدارة جامعة القاهرة إحصاء عن هيئة التدريس في الكليات والمعاهد المختلفة ، وعدد الطلبة والطالبات في الجامعة ، وبعض البيانات الخاصة بهم . وفيما يلي أهم ما يتضمنه الإحصاء :

يوجد في الكليات والمعاهد التابعة للجامعة ١٦١ أستاذا و ٢٣٠ أستاذا مساعدا و ٣٠٣ مدرسين و ١٠٠ مدرس مساعد و ٣٦٦ معيدا و ٧ أساتذة غير متفرغين و ٧ أساتذة زائرين و ٤٨ مدرسا خارجين عن هيئة التدريس ، وبذا تكون هيئة التدريس مكونة من ١٢٢٢ من الأساتذة والمدرسين .

وتضم الكليات والمعاهد هذا العام ٢٠٥٢٠ طالبا و ١٨٩٩ طالبة ، ومن بين هـذا العدد ٣٥٧ طالبا سودانيا ، و ٩٦٣ طالبا من مختلف الدول العربية الشقيقة ، علاوة على ٨٥ طالبا من الطلبة المغاربة ، و٦٦ طالبا من الأقطار الشرقية ، و ١٨ طالبا من جنسيات مختلفة .

مخطوطات أثرية بالقدس

انتهت بعثة اللجنة الثقافية للجامعة العربية من البحث عن المخطوطات العربية ذات القيمة التاريخية وتصويرها بعـد أن قضت فى بلاد الأردن نحو أسبوعين لإنجازها .

وقد صرح أحد أعضائها بأن البعثة عثرت فى القـدس على مخطوطات ذات أهمية أثرية وتاريخية لا مثيل لهـا فى العـالم ، وستزور دمشق وبيروت للغاية ذاتها .

لا يعرفون العربية

لاحظ أعضاء لجان حصر ممتلكات أفراد أسرة محمد على أن معظم هـؤلاء الأفراد لا يعرفون اللغـة العربية ولا يتكلمون بهـا فى قصورهم مع أنهم مضى عليهم مائة وخمسـون سنة وهم يتناسـلون فى مصر . وهم يتـكلمون مع التركية ـ الفرنسية والألمانية والإيطالية

وسأل أحد أعضاء اللجان سيدة من أفراد هـــذه الأسرة : ألا تعرفين اللغة العربية (ليكلمها بلغة البلاد) فردت قائلة : لا أعرفها.

واضطرت هـذه اللجان إلى كتابة كثير من إقرارات التسليم والتسلم باللغات التركية والألمانية والفرنسية ليستطيع سكان القصور والمساكن الذين لا يعرفون العـربية قراءة هذه الإقرارات والتوقيع عليها .

هوة سحيقة

أعلن الدكتور محمد طلعت عميد كلية الطب بجامعة الإسكندرية فى حديث له أن هوة سحيقة قد نشأت بين البعض من الأطباء وبين مثلهم العليا ، وهم يتسابقون إلى المادة فى عالم مضطرب . ثم أورد من تفاصيل ذلك أن الإخصائى الاستشارى يفحص أى مريض يستطيع دفع الأجر ، وهو يتقاضاه أجراً مضاعفاً إذا تقدم إليه دون واسطة الطبيب المعالج . والإخصائيون المستشفيات العامة والتعليمية يعملون على اجتذاب المرضى إلى عياداتهم الخاصة ، وهم فى ذلك يلتحقون أو يتطوعون للعمل فى أكبر عدد من المستشفيات فيحرمون زملاءهم من العمل . [illegible] اضطرت حاجة هؤلاء إلى النزول بالمستوى الاجتماعى للمهنة . وقد أدى هـذا التكالب بأحد الجراحين الإخصائيين إلى أن يعلن عن استعداده أن يدفع عوناً مالياً لمستشفى يتطوع فيه . وفى إحدى العيادات الخارجية التى أعرفها شخصياً اعتادت الممرضة أن تنصح من يدل لباسه على شىء من اليسر بأن الأوفق

لمصلحته استشارة الطبيب فى عيادته الخاصة وفى كثير من الأحيان تكون كلمة السر لدخول المستشفى زيارة سابقة بأجر معلوم للطبيب فى العيادة الخصوصية . . . الخ .

خطر الارتجال

فى الخطاب العظيم الذى ألقاه الرئيس محمد نجيب فى هيئة التحرير بأسيوط قال :

« إنى أحذركم من الوقوع فى براثن مرض فتك بأعمالنا فى الماضى وهو الارتجال ، فكم من مشروع قضى عليه فى المهد لأنه لم يدرس ولم يعرف القائمون به الصعاب التى تعترضه والثغرات التى تعيبه ، فضاع وضاعت معه الجهود التى بذلت فيه والأموال التى جمعت له . فاتعظوا بهذا الماضى ، وادرسوا مشاكل المجتمع الذى تعيشون فيه ، واجمعوا الإحصائيات ، ووجهوا جهودكم إلى الأعمال المطلوبة منكم فإذا فرغتم من الدرس والبحث فنفذوا مشروعاتكم مستمدين على الله وعلى ثقة مواطنيكم بكم » .

مآسى الطبقة المتعلمة

قال البكباشى جمال عبد الناصر نائب رئيس الوزراء خطابه [illegible] القمح قال فيها : إن الطبقة المتعلمة طالما تحملت العهود الماضية على حساب باقى المواطنين وكانت الحكومات ترى أن الطبقة المتعلمة ذات ألسنة طوال تستطيع أن تمتد إلى الحكومة لتقول لها مثلا : إنك لا تسيرين فى الطريق المستقيم . . فتبادر الحكومة بصرف العلاوات ، وبدل التفرغ ، وبدل التخصص ... وكانت هذه العلاوت كلها رشوة . وإنى لأربأ بالمتعلمين فى هذا العهد أن يقبلوا على أنفسهم هذا الوضع . إننا لن نحابى طبقة على حساب طبقة ، ولكننا سنمضى بالوطن - كمجموعة - نحو الحياة القوية . أرجو أن نعرف هذا ونفهمه ، فإن الوطن لا يكون قوياً بوفرة الحياة لنصف مليون متعلم ... إننا نريد أن يأكل ويلبس ويعالج ويسكن كل المواطنين . وأنتم تعلمون أن العهود الماضية تركت لنا مواطنين لا يجدون مأوى يأوون إليه » .

محكمة المياه العربية

ما زالت قائمة فى أسبانيا

كان مما لفت نظر مندوبى غرفة الاسكندرية التجارية فى أثناء زيارتهما الأخيرة لإسبانيا ، « محكمة المياه » التى ما زالت قائمة فى إسبانيا منذ العهد العربى . وهى تقوم بحسم كل خلاف بين الزراع فى منطقة بلنسية على رى أراضيهم فتنصف المغبون وتوقع العقوبة المناسبة على من يجور على حقوق غيره ولو كان من قضاتها

وهذه المحكمة المؤلفة من الأهالى تتمثل فيها العدالة العربية فى بساطة إجراءاتها وشعبية نظامها ودقة أحكامها التى لا تتقيد بأى قانون وضعى بل تستند إلى التقاليد المرعية والعرف الذى توارثه قضاتها عن العرب . وهى تتمتع باحترام عميق فى نفوس الإسبان شعبا وحكومة لا يقل عن احترامهم لأكبر هيئة قضائية فى بلادهم .

العالم الإسلامي في شهر

قوة العرب أجمعين

خطب الصاغ صلاح سالم وزير الإرشاد القومى فى المؤتمر السياسى بمدينة الإسكندرية فقال : لقد وكل إلى هذه الأمة المصرية أمر قيادة شعوب العرب فى أهم منطقة من العالم. ولكن بكل أسف لم تقم مصر فى الماضى بما يجب أن يبذل فى هذا المضمار حتى تتمكن من السير - بقوة العرب أجمعين - إلى مجد العرب أجمعين ، مجد العرب وعزتهم أجمعين

يجب أن نفهم أن وطننا ليس مقتصراً على مصر فقط ، إن هناك ملايين عديدة تقف إلى جوارنا وتنتظر منا أن نقودها إلى مجدها السابق . إننا لن ننجح فى هذه الناحية إلا إذا تبصرنا جيداً هذه الأمور واضعين نصب أعيننا أن الوطن هو منطقة العروبة جمعاء .

لقد سمعتم من أخى جمال منذ شهر مضى أنه اقترح عقد اجتماع لقادة العرب كل شهرين أو ثلاثة ، وليكن هذا الاجتماع فى مكة المكرمة ، نناقش فيه أمور دنيانا وننسق أعمالنا ونوحد خططنا وأغراضنا وأهدافنا . وإنى مطالب وأوجه هذه الكلمة لكم لنجد صداقتنا فى نفوس العرب فى كل مكان . إنى مطالب - كمسئول فى هذه الأمة - أن أدبر اجتماعات شعبية تمثل العرب فى كل مكان . وليكن هذا الاجتماع فى القاهرة فى أقرب وقت ممكن ، يحضره ممثلو الشعوب لا الحكومات ، يتدارسون ويتباحثون ويتناجون ويدرسون الخطط التى توصل إلى تحطيم الظلم والإرهاب والاستعمار . بهذه القوة البشرية الهائلة ، وهذه الموارد الهائلة التى بين أيدينا ، وبهذه المنطقة الحيوية ، وبسواعدنا وتماسكنا ، وبتوحيد خططنا ، نستطيع أن نستغنى عن العالم أجمع ، وأن ننبذ إلى الأبد فكرة العون من الغرب أو من الشرق

موقف مصر من الاستعمار

ألقى الرئيس اللواء أركان الحرب محمد نجيب خطابا فى مدينة أسيوط قبل عودته إلى القاهرة تحدث فيه عن أهداف هيئة التحرير ، وعن زعامة الشباب ، كما تحدث عن فكرة الحرس الوطنى والإنجليز والخدمة العسكرية . وفى

ختام خطابه وجه لدول الغرب إنذاراً حاسما قويا ، وكان مما قاله :

إن الاستعمار أفقرنا ، وأجاعنا ، وفرض علينا المرض . . فالقتال من أجـــل الحرية سيجمعنا فى ظل الشدة ، وسيجعل كلا منا رفيقا وزميلا لأخيه المصرى من غير أن يسأل ابن من هو .

ولتعلم دول الغرب هذه الحقائق ولتفكر فيها جيداً ، لأن النار التى يودون إشعالها فى الشرق العربى ستحرقهم قبل أن تحرقنا . بل ستحرقهم دون أن تحرقنا ، وسنبقى أقوياء ظافرين ، لأننا على حق وهم معتدون .

إما صداقة أساسها حريتنا الكاملة ، وإما عـــداوة ستقف إلى جوارنا فى حربها شعوب العرب .

إنى أقرر بإيمان أن الحرس الوطنى سيكشف عن مواهب أبناء الشعب الكامنة فيه ، وأنه حينما تدق ساعة الجهاد سيهزون العالم .

مساعدات هذه الدول

قال وزير الإرشاد القومى الصاغ صلاح سالم : « إننا إذا كنا سنظل نأمل فى مساعدة هذه الدول فلن نصل إلى شىء ولتعلموا أنه لاتوجد أية دولة مستعدة لمجاملتنا ، فكل دولة تنظر إلى مصلحتها وإلى مصلحتها فقط . ولن نحصل على شىء إلا إذا انتزعناه بسواعدنا .

وفى اليوم الذى نستطيع فيه انتزاع حريتنا نصبح أمة قوية ، ولن تقف يومئذ أمامنا أمريكا ولا بريطانيا ولا أية دولة أخرى » .

الكهرباء بالمدينة

وضع الملك سعود بن عبد العزيز أثناء زيارته للمدينة المنورة الحجر الأساسى لمحطة توليد الكهرباء .

الاتحاد الاسلامى

وجه مندوب جريدة (القاهرة) إلى حاكم الباكستان السؤال التالى :

س ـ ما رأيكم فى قيام اتحاد إسلامى بين الدول الإسلامية على نمط الكومنولث ؟

فأجابه : أرى أن التكتل بين الدول يزيد من قوتها ، وكلما اتجهت الدول الإسلامية نحو التكتل زادت قوتها وقوى نفوذها ، ولا شك أن الدول الإسلامية لو توحدت فى نظام يجمعها لأصبحت قوتها الدولية لا تقل عن قوة كل من الكتلتين الشرقية والغربية ولست وحدى الذى يحبذ هذا المشروع ، بل إن سلفى السيد محمد على جنه ـ الحاكم العام السابق لباكستان ـ طالما نادى بهذا الرأى وإن بعث هذه الفكرة ليس سابقاً لأوانه .

إلى الاتحاد الإسلامى

صرح الرئيس اللواء محمد نجيب بأن وحدة وادى النيل مقدمة لتأليف اتحاد إسلامى واسع النطاق . فقد قال فى الخطاب الذى ألقاه فى جامعة القاهرة : « لو بحثتم عن السر فى تمسك بريطانيا بالتفريق بين شطرى الوادى لعرفتم أن وراء إتمام وحدة وادى النيل هدفا أعظم ، هو أن يصبح وادى النيل المتحد العمود الفقرى لاتحاد إسلامى عظيم يمتد من شمال إفريقيا إلى الملايو شرقا ، ومن شمال البحر الأبيض المتوسط حتى جنوب إفريقيا » .

المؤتمر الإسلامى فى القدس

استقبلت مدينة القدس فى الأسبوع الأخير من شهر ربيع الأول الماضى وفود الأقطار الإسلامية لعقـــد مؤتمر ينظر فى القضية الفلسطينية على ضوء الأحداث التى وقعت إلى الآن ، وما ينبغى أن يكون موقف العالم الإسلامى منها . وفى صباح يوم الخميس ٢٦ من ربيع الأول الذى افتتح فيه هذا المؤتمر نشرت « الأهرام » البيان الآتى من حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر قال :

ينعقد المؤتمر الإسلامى فى القدس اليوم للنظر فى موقف المسلمين من أعظم كارثة ارتكبتها الإنسانية فى هذا العصر ، وهى إخراج أمة من بيوتها وحقولها ووطنها ، وإلقاؤها بنسائها وشيوخها وأطفالها فى خارج الحدود ، لتحل فى محلها أمة أخرى غريبة عن البلاد .

وإذا كان المهيمنون على القوة البشرية قد ارتضوا لأنفسهم أن يقفوا موقف المتفرج بل موقف المؤيد لهذه الفاجعة ، وما سيتلوها من بغى على الأماكن المقدسة ، وتبييت للعدوان على جهات أخرى - فإن هنالك خمسمائة مليون مسلم عاصروا مراحل هذا الحادث الإنسانى العجيب ، وراقبوه من مرحلة إعلان صك الانتداب على فلسطين ، إلى تنظيم الهجرة اليهودية المتواصلة ، إلى ابتكار فكرة تقسيم فلسطين ، إلى المصارحة بإقامة دولة إسرائيل ، إلى التمتع بسماع أنين الإنسانية والفضائل حزنا على تلك الفرائس الشريرة بالضعفاء والمضطهدين من سلالة أصحاب فلسطين ومالكيها من قبل أن يطأ إسرائيل بالأقدام السمر .

لقد دعيت للاشتراك فى هذا المؤتمر استنكاراً لأبشع بغى وقع فى تاريخ الإنسانية ، فحالت الظروف بينى وبين أن أكون مع من اشتركوا فيه .

ولكن قلبى وقلوب خمسمائة مليون مسلم تضطرب باشمئزاز وسخط غضباً على التنكيل بالأبرياء جهرة على سمع القوة وبصرها ، وإذ

وكل مسلم على وجه الأرض مشتركون فى كل ما يقرره المؤتمر الإسلامى فى القدس لإزالة هذه السبة عن الإنسانية التى وقعت كارثة فلسطين تحت سمعها وبصرها .

إن هذا بغى ، والبغى مصرعه وخيم ، وعلى الباغى تدور الدوائر ، وإن الله لبالمرصاد للظالمين .

وإنى لأهيب بالمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أن يجودوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل إنقاذ المشردين الجائعين من أهل فلسطين ، فإن فى إنقاذهم محواً لعار يهدد كيان البشرية بأسرها ، وإنقاذاً لكرامة المسلمين أمام العالم ، والله يوفقنا ويهدينا سواء السبيل .

أثيوبيا

استطاع البكباشى جمال عبد الناصر فى رسالة له أن يصور حقيقة الموقف السياسى بوضوح ودقة وإيجاز ، قال :

إن ما يزعمه العالم الغربى من مساعدة الشعوب الصغيرة ليس إلا [illegible] لتخدير هذه الشعوب كى تنام ، وليظل هذا العالم الغربى مسيطراً عليها .

إنهم يعتبروننا أسواقاً لترويج منتجاتهم ، وإنهم ينهبون أرزاقنا ويسرقونها ويقدمونها لأهليهم ، ويعطوننا بدلا منها وعوداً كاذبة .

إن ما قيل من أن إمريكا ستمنحنا قروضاً لتنفيذ مشروعاتنا الإنتاجية ، والاجتماعية والثقافية لم يكن إلا خداعاً ، وبهتاناً . فها نحن بعد أربعة عشر شهراً من قيام الثورة لم نر شيئاً ، ولم نصدق شيئاً .

لا بد من الاعتماد على أنفسنا .

إن أمريكا مرتبطة تمام الارتباط بحليفتها انجلترا . وللاثنتين عدو مشترك هو روسيا . وأمريكا لا ترضينا لتغضب إنجلترا .

لا تصدقوا أن أمريكا ستساعدنا ، فإنها وحليفتها انجلترا خطتهما واحدة . .

الخطر على روحانية الصحراء

من اتساع الرخاء المادى

عرضت مجلة (إيكونومست) لموضوع مهم يتعلق بالبترول فى صحارى بلاد العرب ، والروحانية التى كانت تتجلى على تلك الصحارى قبل الـثراء الطارىء ، وما يخشى على تلك الروحانية من خطر ينشأ عن اتساع الرخاء المادى الطارىء عليها بسبب استغلال آبار البترول .

ولما وقع نظرنا على ملاحظة هذه المجلة الأجنبية تذكرنا حديث عمرو بن عوف فى

صحيح البخاري الذي يرويه عنه المسور بن مخرمة وهو قول رسول الله ﷺ : « والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وهذا الحديث من اعلام النبوة .

والمال فى نفسه ليس خطراً على فرد ولا على جماعة ، ولكن الخطر ينشأ عن وضعه فى غير مواضعه ، وعن استعماله فى المهم دون الاهم ، والاستجابة فيه لوحى الساعة فلا نصغى إلى نداء المستقبل .

انقاذ السودان

كشف الصاغ صلاح سالم عن سر خطير يذاع للمرة الأولى ، فقد أوضح فى الخطاب الذى ألقاه فى جامعة القاهرة كيف أن الاستعمار البريطانى كان قد أعد خطة لفصل السودان عن مصر قبل انتهاء عام ١٩٥٣ ، قال .

« فى ابريل عام ١٩٥٢ قدم الحاكم العام للسودان الذى كانت له السلطة الاولى مذكرة لمصر تتضمن الملاحظات على دستور الحكم الثنائى . وكانت أهم نقطة فى هذا الدستور تقول : « يحق للسودان أن يقرر مصيره فى عام ١٩٥٣ إذا أراد » . ومعنى ذلك أنه كان من الممكن أن تمضى بريطانيا فى سياستها لفصل السودان عن مصر بأن تقيم دولة مستقلة صورية قبل انتهاء عام ١٩٥٣ . ثم تعقد هذه الدولة معاهدة مع بريطانيا مثل معاهدة ليبيا مثلا ! . وربما كنا أطلقنا نحن المصريين فى ذلك الوقت على السودان اسم « دولة السودان المزعومة » . وكان ذلك كله قبل حركة الجيش بشهور قليلة . ولذلك حرصنا عندما قمنا بالحركة على أن نتصل بالسودانيين أنفسهم لنتعرف على رغباتهم التى هى رغباتنا . فهم يريدون إجلاء المستعمر كما نريد نحن . وقد واجهنا الحقائق بشجاعة فمزقنا مناورات ومؤامرات المستعمرين .

أسوان بين أمسها وغدها

خطب السيد رئيس الجمهورية فى أهل أسوان عند زيارته لهم فى الشهر الماضى ، فكان مما قاله لهم :

« كان جهد الحكام فى العهد المنقرض يقف بهم عند المديريات القريبة من القاهرة . أما أنتم فأبعد ما تكونون عنهم . لقد كانت مديرياتكم وعواصمها ومراكزها منفى لا يبعث اليه إلا بكل مغضوب عليه مطرود من رحمة الله ولا يشارككم مشاق العيش إلا من لفظته الحكومة . مع أن مديرية أسوان هى صلة الوصل بين شقى الوادى ، والشريان الذى يصل الرأس بالجسد . وان هذه المنطقة وما حوالها

هى التى شهدت فى الماضى مولد مجد مصر وحضارة مصر ، وهى التى قام بها خزان أسوان واحتملت فى سبيل إقامته - المرة بعد المرة - ما لم تحتمله مديرية أخرى .

وقد كان خزان أسوان - ولا يزال - الجهاز المحكم فى صدر حياتنا ، أعنى النيل العظيم ، وسيكون فى الغد القريب بإذن الله مصدراً لرزق جديد . فستولد منه الكهرباء فينبثق نورها يضىء ، وتنطلق حرارتها تخلق صناعات كبيرة كصناعة السماد والحديد .

إن التاريخ يعيد نفسه ، فلقد خرجت الحضارة من بلادكم ، وستساهم بلادكم فى وضع أساس الصناعة المصرية الفخمة التى نؤمن إيماناً عميقاً بأنها الوسيلة الناجعة للقضاء على الفقر الذى نكابده ، والمرض الذى يفتك بأولادنا فتكا ذريعاً . وعندما تقوم هذه الصناعات الفخمة ستفتح المصانع الكبيرة أبوابها لأولادكم ليتعلموا فيها ولينتجوا مصنوعات تزيد من دخلنا وتعيننا على أن ننشىء ما نحتاج اليه من مدارس ومستشفيات ، ونشق ما يلزمنا من مصارف وطرقات ، ونستصلح ما ينتظر الإصلاح من أراضينا الزراعية ، ونروى ما يحتاج إلى الرى من مناطقنا الصحراوية .

إنى لا أداعبكم بالأمانى إن أنا قلت لكم : إن إسم أسوان سيطير فى الآفاق وسيكون على لسان كل إنسان فى عالم الصناعة » .

الزراعة فى الواحات

وزعت وزارة الزراعة على أهالى الواحات الداخلة والخارجة عشرة آلاف شجرة من الزيتون والموالح والعنب والرمان والمشمش بالمجان ، كما وزعت عليهم أشجاراً خشبية لاستعمالها كسياج لمقاومة سفو الرمال على مزارعهم . وذلك رغبة فى توفير ما يكفى حاجة البلاد من الموالح والفاكهة والتصدير منها .

موقف مصر الاقتصادى

ألقى الدكتور عبد الجليل العمرى وزير المالية والاقتصاد محاضرة فى قاعة يورت موضوعها « ما نريده فى شئوننا الاقتصادية » ومما قاله فيها :

لاشك أن مستوى المعيشة منخفض فى مصر وهذه حقيقة تحز فى نفوسنا ، ومرجع هذا إلى تزايد عدد السكان . وقد تناول الباحثون هذه الناحية بإسهاب ، وتظهر هذه المشكلة بجلاء بمقارنة الزيادة المطردة فى السكان بالزيادة فى موارد الإنتاج على اختلاف أنواعها من أراض ومصانع ومصادر للقوى المحركة وما إلى ذلك ، وأهم ما يسترعى النظر فى هذا الصدد هو أنه بالرغم من نمو الاستثمار الصناعى فإن عدد المشتغلين بالصناعة فى آخر

تعداد سنة ١٩٤٧ لم يتجاوز المليون مقابل ثلاثة أرباع المليون فى سنة ١٩٢٧ ، ولم يزد نصيب الصناعة فى الدخـــل القومى زيادة تذكر ، بينما زاد عـدد المشتغلين فى الزراعة من ثلاثة ملايين ونصف مليون فى عام ١٩٢٧ إلى سبعة ملايين ونصف مليون فى عام ١٩٤٧ بينما الأراضى الزراعية تراوحت تقديراتها بين ٥١ر٥ و ٦ ملايين من الافدنة مما أدى إلى ازدحام الريف وتناقص إنتاج العامل وقصور الأراضى المزروعـة عن تزويدهم بالغذاء الكافى . ولهذا يجب أن نعمل على زيادة الإنتاج من الرقعة الحالية وهو ما نسعى إليـه فى الوقت الحاضر عن طريق التقاوى المنتقاة ، وإبادة الحشرات ، واستعمال الاسمدة العضوية والكيماوية ، والآلات الزراعية ، مع تحسين وسائل الرى والصرف الحالية .

وتقترن بتحسين طرائق الإنتاج زيادة الرقعة المنزرعة ، وهذا هو أساس إحداث زيادة ملحوظة فى الدخل الأهلى تساعد على زيادة طلب الكثرة على مختلف السلع مما يسهل قيام التصنيع وازدهاره .

ونريد فى السنوات القـادمة أن يسير استصلاح الاراضى بنسبة تقرب من نسبة زيادة عدد السكان أو تربو عليها .

ولقد خصصت الحكومة اعتمادات كبيرة فى الميزانية الإنتاجية للسنة الحالية والسنوات المقبلة لاستصلاح منطقة تقرب من ربع مليون فدان فى مختلف أنحاء البلاد ، كما أنها تسير بخطوات موفقة لاستكمال أبحاث السد العالى وإعداد وسائل تمويله مما ينتظر معه زيادة المساحة المنزرعة بنحو مليون و ٣٠٠ ألف فدان خلال ١٥ عاما .

ونريد إلى جانب ذلك زيادة الاستثمار الصناعى زيادة مطردة بحيث تستوعب جانبا من الزيادة فى عدد السكان ، فان عدد القادرين على العمل يزداد سنويا بنحو ١٥٠ ألف نسمة ونريد أن يتحول من هؤلاء إلى الصناعة قرابة ٥٠ ألف نسمة .

ويجب أن نسعى أيضا لاستغلال الصناعات الحالية إلى أقصى حد ، لاجتناب استيراد ما يماثل منتجاتها ، كما نريد ألا يقتصر تفكيرنا على الصناعات الضخمة ، ولكن الهدف الذى نسعى إليه هو اقتفاء أثر اليابان فى الاهتمام بالصناعات الصغيرة إلى جانب الصناعات الكبيرة .

الحياة النيابية فى مصر

من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٥٢

قال الدكتور محمد حسين هيكل فى شهادته بقضية أحمد عبد الغفار : « وكان عندنا نقص فى الدستور من حيث أننا مركزون كل السلطة فى القاهرة ، والملك كان فى يده السلطة والبرلمان والوزارة . أما الهيئات النيابية فى الأرياف فليس لها سلطة مطلقاً ، والشعب ماعيش فى يده سلطة . فكان بطبيعة الحال يضطر أن يجارى السلطة القائمة . وفى مدة الحياة النيابية من سنة ١٩٢٤ الى ١٩٥٢ تغيرت فى عهد أكثر من عشرين وزارة ، والمجالس التى ما يرضيش الملك كان يحل والوزارة التى ما تعجبش الملك كانت تقال » .

الازهر يستولى على مبنى

من أوقاف عبد العال

طلب الأزهر إلى وزارة الأوقاف ، تخصيص مبنى الملجأ المنشأ حديثاً من وقف عبد العال مقراً لدراسة الفصول الزائدة من طلاب [illegible] الدينى .

وقد استجابت الوزارة [illegible] الطلب وأحالت أوراق [illegible] إلى المحكمة [illegible] البت فى الموضوع .

حياد أندونيسيا

أعلن السيد سوكارنو رئيس جمهورية أندونيسيا فى خطبة ألقاها بمدينة (سوراكارتا) أن بلاده ستقف على الحياد بين الكتلتين الشرقية والغربية .

الانقلاب فى ايران

قال الدكتور مصدق رئيس وزارة إيران السابق فى أثناء محاكمته فى طهران : إن إيران كانت مرتعاً للخيانة ، وإن حكومته لم تكن تتخذ أى قرار سرى حتى تعرفه لندن فوراً . وإن الاجانب هم الذين دبروا انقلاب ١٩ أغسطس ١٩٥٣ ، لا الشعب ، ولا الشاه الذى فرض عليه هذا الانقلاب من الدول الأجنبية .

محمد على

يشنق جد الأستاذ سليمان حافظ

صرح السيد سليمان حافظ ، أن محمد على عندما كان يطارد المماليك إلى أقاصى الصعيد ، كان يختار أربعة من زعماء القبائل فى كل بلد ، ويعدمهم بقصد الإرهاب .

وقال السيد سليمان حافظ : إن أحد أجدادى كان من هؤلاء الضحايا فى بلاد النوبة ، وقد شنق فى قلعة ابريم .

فهرس

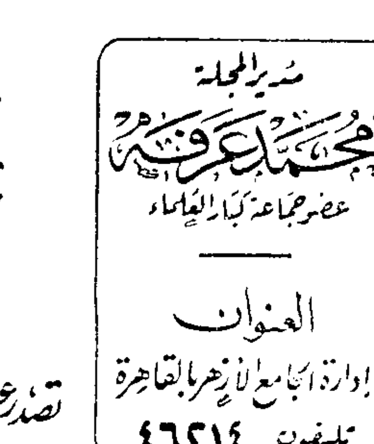
الجزء الرابع — المجلد الخامس والعشرون

مجلة الأزهر

تصدر عن مشيخة الأزهر
فى أول كل شهر عربى
سنتها عشرة أعداد

متعهدو المجلة فى الخارج

شركة فرج الله .
دار الكتب العربية الشرقية أصاحبها
محمد خوجة فى تونس
محمد على بقميقص « بنى غازى
مصطفى السراج « طرابلس الغرب
مكتبة المؤيد « - المنامة - البحرين
المكتبة العربية والمكتبة الوطنية « الرياض
وفى السودان من :
زكى بطليموس « الخرطوم
غانم محمد « الدويم
مكتبة دبورة « العطبرة
مكتبة الصحافة « بربر



مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعية

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

رئيس التحرير
محب الدين الخطيب

الاشتراك السنوي
٥٠ في مصر والسودان
٣٠ للطلبة في مصر والسودان
٦٠ في الخارج
٤٠ للطلبة في الخارج
٥ ثمن الجزء

الجزء السابع - في غرة رجب ١٣٧٢ - ١٥ مارس ١٩٥٣ - المجلد الخامس والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

أمانتان

أما أولاهما فخمسمائة مليون مسلم منتشرون في بقاع الأرض كالأيتام الذين لا راعي لهم ، ولا يجدون من يجدد ارتباطهم العملي بالإسلام وأخلاقه وقواعده وسننه ، بعد أن صارت بيوتهم غير إسلامية ، ومعايشهم غير إسلامية ، وروابط الصداقة والتعاون والتعامل فيما بينهم غير إسلامية ، ومجتمعهم كله غير إسلامي ، وحتى أهدافهم قد انحرفت عن أهداف الإسلام ، ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث فيهم مرة أخرى لأنكرهم ولأنكر نسبتهم إليه . . .

ترى هل أخلاق الإسلام وقواعده وسننه جاءت لتكون خاصة بالجيل الذي صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل المنتسبون إلى الإسلام الآن في حل من أن يتنكروا لتلك الأخلاق ، وألا يعملوا بتلك القواعد ، ولا يلتزموا تلك السنن ؟

أنا لا أنكر أن المساجد حافلة ولله الحمد بالمصلين ، بل إنها على كثرتها يضطر المئات من المصلين إلى افتراش الحصر والجبب في خارج أبوابها ليصلوا الجمعة مع الذين سبقوهم إلى الصلاة في داخلها ، وبين كل حين وآخر يحتفل المسلمون بإنشاء مساجد جديدة ، ومع ذلك فإن المجتمع الإسلامي لا يتعامل فيه الناس بأخلاق الإسلام ، ولا يعترفون بقواعده ، ولا يلتزمون سننه .

إن الأئمة الأربعة وغيرهم من أعلام الفقه الإسلامى اختلفوا فى كثير من أحكام العبادات كنواقض الوضوء وإسبال الأيدى فى الصلاة أو عقدها ، لأن النصوص التى اعتمدوا عليها فى استنباط تلك الأحكام متعددة فى أحوال مختلفة ، أو هى ليست من الصراحة والقوة بالدرجة التى تمنع الخلاف عليها فى المذاهب الفقهية .

أما النصوص التى تلزم المسلمين بأن يكونوا أمة صدق ، وبأن يقيموا الحق ، وأن يتعاونوا على الخير ، فإنها أصرح وأوضح وأقوى من جميع النصوص التى اعتمد عليها أئمة الفقه فيما اختلفوا فيه من أحكام الفروع فى العبادات . فكيف استباحت جماهير المسلمين — إلا من عصم الله — هذا التساهل المشاهد الآن فى أخلاق الإسلام ومنها الصدق وإقامة الحق والتعاون على الخير ، مع أن الكثيرين من الذين يتساهلون فى ذلك يتشددون فى الأحكام المختلف عليها بين المذاهب لأنها من أمور الدين ، أما الأخلاق فأكثرهم يحسب أنها من أمور الدنيا ، وأن لهم أن يتصرفوا فيها بحسب ما يظنونه مصلحة لهم . نعم إن التشدد فى أحكام العبادات ضرورى لكل مسلم حتى ما اختلفت المذاهب على أدلته من النصوص ، ولكن كيف يجوز لعامة المسلمين فى بيوتهم وأسواقهم ومجتمعهم أن يعتبروا الأخلاق من أمور الدنيا لا من أمور الدين ، وكيف يستبيحون التحلل من أوامر الله فيها مع أنها أصرح وأقوى من أدلة الفروع الفقهية المختلف عليها بين الأئمة ؟

اللهم إن هذا منكر يجب على المسلمين معالجته عمليا بكل ما يزيله من العالم الإسلامى ، ويطهر هذه الأمة منه ، حتى تعود كما كانت أمة صدق ، وحتى تعلو فيها كلمة الحق ، وتعم جميع أفرادها سجايا الخير . وبهذا الإصلاح يعود المسلمون مسلمين ويرد إليهم اعتبارهم بين الأمم ، ويصلح الله لهم به دنياهم ، وتتعرف شعوب الأرض إلى الإسلام بمشاهدة أخلاقه معمولا بها فى جماعات المسلمين وأفرادهم .

وهنا يحسن بنا أن نتساءل : من الذى يتولى معالجة هذا المنكر حتى يزيله ، ويرد المسلمين إلى إسلامهم حتى يكونوا من أمة نبيهم حقا ؟ .

كنت أعتقد منذ طفولتى أن هذا الواجب فى أعناق علماء الإسلام ، وأنهم ورثة المقام النبوى فى معالجة كل ما كان يعالجه رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم من نقائص الناس ومواطن ضعفهم . لكنى سمعت الكثيرين منهم فى فترات كثيرة من حياتى يعتذرون بأنهم

ليس لهم من « الأمر » شيء ، وأن هذه الأمانة فى أعناق ولاة « الأمر » . وهنا نقف مرة أخرى لنتساءل : ما هو هذا « الأمر » ، لنعرف من هم ولاته ؟

إن « الأمر » فى الإسلام وأمة الإسلام هو الإسلام نفسه وأخلاقه وقواعده وسننه . ويوم كان أمراء المؤمنين وولاتهم وعمالهم هم الذين يرتقون منابر الإسلام ليقوموا بمهمة التوجيه للمسلمين ، ولما كانوا يؤمون المسلمين فى دينهم كما يؤمونهم فى دنياهم ، كانت « المسئولية » يومئذ فى أعناقهم مباشرة ، ومع ذلك فإن ورثة مقام النبوة من علماء المسلمين لم يكونوا يتنصلون من هذه المسئولية ، وكان كل واحد منهم يقوم بنصيبه الذى يطيقه منها .

وأما بعد أن انحصر « أمر » الإسلام ورسالته وقواعده وأخلاقه وسننه فى ورثة مقام النبوة من علمائنا ، فقد انحصرت فيهم ولاية هـذا الأمر ، ولن يخلصهم من مسئولية ذلك فى يوم الحساب الأكبر أى عذر يعتذرون به .

إن هذه الأمة الإسلامية « أمانة الله » فى أعناق علمائها ، فعليهم أن يعدوا أنفسهم لقيادتها إلى الإسلام وأخلاقه والعمل بقواعده وإحياء سننه ، بأن يجعلوا لها من سيرتهم قدوة تقتدى بها ، ومن إيمانهم الصادق مصباحاً تستنير به ، ومن توجيههم الحازم اتجاهاً تسير به إلى أهداف الإسلام بصدق وعزيمة وأمانة وإخلاص .

ولأقطع الحجة على الذين يقولون منهم : ليس لنا من « الأمر » شيء ، أتحدث إلى سادتى شيوخ الكليات الأزهرية والمعاهد الدينية الإسلامية فأسألهم : أليس « الأمر » لكم فيمن وضعهم الله تحت أمانتكم من شباب المسلمين الذين أقبلوا على معاهدكم ليتلقوا منها رسالة الإسلام ، ثم ليكونوا خلفاءكم فى بيئاتهم على وراثة مقام النبوة ، يوم تشهد لهم معاهدهم بأنهم صاروا من العلماء ومن ورثة الأنبياء ؟

نعم يا أسيادى ، إن هؤلاء الطلبة « أمانة الله » فى أعناقكم ، وفى أيدى المتعاونين معكم من أساتذة الأزهر والمدرسين فيه ، وإن أمثالهم من طلبة العلم فى جميع أنحاء العالم الإسلامى « أمانة الله » فى أيدى أساتذتهم من علماء المسلمين فى كل بقعة من تلك البقاع .

إنها لأمانة ثقيلة فى ميزان الله ، وعظيمة المسئولية فى يوم الحساب . . .

وإذا كانت الأمانة - بوجه عام - قد تهيبتها السماوات والأرض يوم عرضها الله عليهن ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، فإن جزءها الذى ائتمن الله عليه سادتنا العلماء من شيوخ

الكليات والمعاهد والمدرسين فيها وفى أمثالها بكل بلد ، لا شك أنه أثقل ما فى أمانات الله وأعظمها خطراً ومسئولية .

إن الرعاة الذين سيعهد إليهم بعد سنوات قريبة بالإشراف على مئات الملايين من المسلمين هم هؤلاء الألوف وعشرات الألوف من طلبة الكليات والمعاهد الأزهرية فى مصر وأمثالها فى الأوطان الإسلامية الأخرى . وإن كانت قد فاتتنا الفرصة فيما مضى لإعداد هؤلاء الرعاة الإعداد الصالح لرعاية الشعوب الإسلامية بلا تهرب من هذه المسئولية ولا تعلل بالمعاذير للتخلى عنها ، فقد آن لنا أن نشعر اليوم بثقل مسئوليتنا من هذه الناحية ، وأن نتذكر أن المعاهد الإسلامية ينبغى أن تكون - قبل كل شىء - دور إعداد وتربية وتكوين خلق وتوجيه ملى ، ثم هى بعد ذلك معاهد تعليم . والصحابة فى عصر النبوة كانوا يتلقون الأخلاق والفضائل وحسن التوجيه من المبعوث إلى الإنسانية ليتمم مكارم الأخلاق ، أكثر مما كانوا يتلقون العلوم كما صرنا نفهمها فى عصور الانحطاط . وقد ثبت أن الصحابة والتابعين كانوا يتلقون الآيات القليلة من القرآن فيتقنون تلاوتها ، ويتدبرون أغراضها فى أوسع آفاقها وأبعد مراميها ، ولكثرة تكرارها لتدبرها كانوا يحفظونها أتم الحفظ وأجوده ، وفى خلال ذلك يتخلقون بكل ما فيها من أخلاق ، ويعملون بكل ما فيها من توجيه وأحكام ، حتى إذا استوفوا ذلك على أتم الوجوه وأكملها فى هذه الآيات القليلة ، انتقلوا منها بعد ذلك إلى آيات أخرى غيرها . قالوا : فكنا نتعلم العلم والعمل به . وإذا تعلموا العلم والعمل به ، حملوا رسالتهما إلى كل مكان حلوا فيه ، فعلموه لجميع من يتصل بهم من إخوانهم المسلمين ، وحملوهم على العمل به كما التزموا هم العمل به فى السر والعلن والمنشط والمكره . وبذلك ورثوا مقام النبوة فى الإسلام . أما العلم الكثير الذى ينظر اليه كبضاعة للتصدير لا للقنية ، فإنه هو العلم الذى لا ينفع ، وكان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من هذا النوع من العلم كما يستعيذ من الشيطان ، وطالما قال ﷺ « أعوذ بالله من علم لا ينفع » .

فالعمل بالعلم ، والتخلق بما يرشد اليه من فضائل يجب أن يكون فى مقدمة ما يعنى به المدرس فى نفسه أولا ، ثم فى توجيه أبنائه الطلبة اليه ، ومراقبة عملهم به ، كما يراقب الأب الحكيم ابنه الحبيب وكلما صدر ذلك عن المدرس من صميم القلب ، وتأيد علمه به بعمله به ، رسخ ذلك فى قلوبهم ، وتشبعت به نفوسهم ، وجرى مع دمائهم فى عروقهم ، لا سيما إذا اقتنعوا بفائدته

لهم فى معترك الحياة . ومما ينبغى لنا معرفته أننا مقبلون على زمن ينحط فيه ويفشل فى الحياة كل من عامل الناس بالأخلاق الملتوية ، ويرقى فيه وينجح فى الحياة كل من عامل الناس بالأخلاق المستقيمة . وإن الأخلاق الإسلامية هى العنصر المطلوب بعد الآن فى المجتمع ، والمجتمع سيبحث بمصباح ديوجين عن المتخلقين بأخلاق الإسلام ليأتمنهم على مصالحه ومرافقه وخيراته . وكما رأينا أصحاب الأخلاق الملتوية ممن وصلوا إلى المقامات العليا فى عهد قريب قد سقطوا الآن فى أقفاص محاكم الجنايات ، أو فتحت دفاتر حسابهم عما اقترفوا فيما مضى من آثام ، فإن السنين الآتية لن يكون فيها لأمثال هؤلاء مجال للعمل ، وإن العمل كله سينشد له المجتمع عمالا من المتخلقين بالأخلاق التى كان يبتهج بها رسول الله ﷺ ويمتلىء قلبه محبة لأهلها وسروراً بهم .

إن على أساتذة الكليات والمعاهد الأزهرية أن يرغبوا طلبتهم فى معرفة تراجم أصحاب رسول الله ﷺ وفضائلهم وما كانوا عليه من أخلاق ، ويطمعوهم فى أن يكونوا مثلهم فيها ، بل عليهم أن يفهموهم بأن على المسلم أن يكون له فى رسول الله ﷺ وأخلاقه السامية أسوة حسنة كما أرشد الله المسلمين إلى ذلك ، ومن أولى من طالب العلم الإسلامى بأن يطلب الأسوة والقدوة لنفسه وقلبه وعقله وأخلاقه بكل ما كان عليه رسول الله ﷺ من سجايا وفضائل ؟ والسيرة المحمدية يجب أن تعرف لا للتحدث بها من الألسنة إلى الأسماع ، بل للتأسى بها حتى تترجم بالأخلاق والأعمال ، فيتلقاها الناس بالمشاهدة والنظر ، والتعامل بها والعمل . حتى إذا تخرج طلبة الأزهر وهم متحلون بهذه الحلية ، استطاعوا أن يقودوا الأمة الإسلامية ويعدلوا بها عن طريق الشيطان إلى مرضاة الرحيم الرحمن ، وبذلك يتحول المسلمون من غثاء السيل ، ويطهر الله قلوبهم من جراثيم الوهن ، ويملأ صدور الأمم مهابة لهم ، فيتبوأ المكانة الكريمة التى أرادها رسول الله ﷺ لأمته .

الأخلاق قوة ، والمسلمون ضعفاء الآن فى كل شىء ، لأنهم نشأوا وتكونوا أيتاماً ليس لهم من يحسن القيام عليهم فى إعدادهم الخلقى وتوجيههم الإسلامى . ولن يكونوا مسلمين حقا إلا إذا تخلقوا بأخلاق الإسلام ، وإن لم يتول علماء المسلمين هذه الأمانة ، فى أمة محمد فمن ذا الذى يتولاها فيهم ؟

يا أسيادى شيوخ الكليات الأزهرية والمعاهد الدينية ، ويا إخوانى من أساتذتها ومدرسيها : إن الأمر جد ، والزمان قد استدار ، ويوشك أن يكون كهيئته يوم بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق والخير ، فأصبحت هذه المهمة هى مهمتكم الأولى . وإذا لم تعتبروا أنفسكم ولاة هذا « الأمر » فى جماهير المسلمين ، فأنتم بلا شك ولاة الأمر كله فى طلبتكم وأبناء كلياتكم ومعاهدكم . وإن الدرس قد يؤخذ من الكتب ، أما التكوين الخلقى والتوجيه الإسلامى فمنبعه قلب المدرس المؤمن بأخلاق الإسلام والذى يشعر بخطر الأمانة التى ائتمنه الله عليها .

أيها المدرس الأزهرى ، أنت قائد ، والذين تتصل بهم من طلبتك الأزهريين هم جندك ، فسلحهم بأخلاق الإسلام ، واملأ قلوبهم وأرواحهم برسالته ، وادفعهم بإيمانك وحكمتك إلى ميادين الجهاد ومعاقل النصر ، وإن الله سيكتب بجهادكم الصادق الظفر الكامل للفضائل فتزول بها الرذائل التى أوهنت المسلمين وأطمعت بهم الأمم . إنك أيها المدرس المسلم على ثغرة من ثغور الإسلام ، فحذار أن يؤتى الإسلام من قبلك !

* * *

وبعد فهذه إحدى الأمانتين ، وقد اتسع القول فيها لأنها عظيمة فى مصير الإسلام وأهله ، وثقيلة فى موازين الله عز وجل . وسأتحدث عن الأمانة الأخرى فى الجزء الآتى إن شاء الله .

محب الدين الخطيب

علمــــــــاء السلف

لما تقلد الخاقانى الوزارة أرسل إلى الإمام محمد بن جرير الطبرى بمال كثير ، فأبى أن يقبله ، فعرض عليه القضاء فامتنع . فعاتبه أصحابه وقالوا له : لك فى هذا ثواب ، وتحيى سنة قد درست . فانتهرهم وقال : « قد كنت أظن أنى لو رغبت فى ذلك لنهيتمونى عنه » .

دفاع عن الأزهر

شر ما تبلى به أمة من الأمم شك بعضها في بعض ، وانعدام الثقة بين أفرادها ، فكلما أشار عليها أولو الأمر فيها شكوا في مشورتهم ، وأساءوا بها الظن ، وذهبوا يلتمسون الأسباب والعلل للتفلت منها .

وإنا نحس تدبيرا خفياً يعمل في الظلام للتفريق بين الأمة وعلماء الدين فيها ، ويبذر بذور الشك في أقوالهم ونصائحهم وفتاواهم . لقد سارت الأمة منذ عهد بعيد منذ مجيء الإسلام على حسن الظن بهم والتماس مشورتهم في كل حادث جد وفي كل خطب نزل ، وكانت تأتمر بأمرهم وتصدر عن رأيهم ، وكانوا يحذرونها من أعدائها ويُرونها مكرهم ودسائسهم ، ويعرفونها كيف تتقي حبائلهم وتأمن مكرهم ، ولم يخف ذلك على أعدائها فسعوا في غرس الشك في قلبها وخلقوا سوء الظن بهم ، لتنفرد عن علمائها وينفرد أعداؤها بها .

« وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » .

وقد أصابوا بعض النجاح في ذلك ، فلا يخطئك أن ترى في بعض الصحف تشويها لهم وإساءة ظن بمشورتهم . ونحن إذا التمسنا العذر لبعض الكاتبين ، فلا نجد عذرا لبعض علماء الدين الذين يبذرون الريب والشكوك في العلماء ، ويصورونهم بصورة من باعوا دينهم وضمائرهم لدنيا يصيبونها أو عرض يقتنونه ، وقد رأينا منهم من يطعن في قدماء العلماء ومحدثيهم ، فإذا رأى فتوى في أمر هو مجال الاجتهاد طعن فيهم إذ لم يأخذوا بالرأي المخالف ، وإذا كانت الفتوى صحيحة ليست باطلة ، جعل الباعث عليها سيئا ، والأمور تسوء بسوء الباعث عليها حتى العبادات نفسها . قال رجل في مجلس الأمير : سبحان الله ، استعظاما لأمر وقع من بعضهم ليغرى به الأمير ، فقال بعض العلماء : ما علمت أن سبحان الله معصية إلا في هذا اليوم .

وإذا رأى العلماء ينزلون على الأمر الواقع حين غزا نابليون مصر وتغلب عليها نعى عليهم ذلك ، كأنما كان يريد بعد أن سقطت المقاومة أن يقاوموا ويحملوا المصريين على المقاومة ليبيدهم أعداؤهم ، وإن حكم الشرع والعقل يأبى ذلك - قال الشاعر القديم :

إذا المرء أولاك الهوان فأوله ... هوانا وإن كانت قريبا أواصره

فإن أنت لم تقدر على أن تهينه ... فدعه إلى اليوم الذي أنت قادره

وقارب إذا ما لم تكن لك حيلة ... وصمم إذا أيقنت أنك عاقره

وقد رأينا الألمان فى الحرب الثانية يغزون الممالك فلا تقف أمامهم إلا أياما ، وكانوا أعظم المحاربين شجاعة وإقداما ، ولكنهم لما سقطت مقاومتهم خضعوا للأمر الواقع ، وساروا على حكم الوقت ، لحكم قوادهم واستجابوا لما يفرض عليهم .

فهل كان يطلب من علماء الدين فى عهد احتلال الفرنسيين غير ذلك ؟ وهل كان يطلب منهم أن يقودوا الأمة إلى حتفها بعد أن سقطت مقاومتها ؟ ! لا . إن العقل يقضى بمسايرة الأمر الواقع ، والعمل على التخلص والصبر حتى تمكن الفرصة كما كان ، فقد جاءت الفرصة وأخرج نابليون والفرنسيون من مصر .

هذا مرض يجب أن يطب علماء الدين له ، ويجب أن يعنوا به ويتعرفوا أسبابه وعلله ، فليس ذلك يمس أشخاصهم فحسب ، وإنما ذلك يمس المصلحة العامة وخير المجتمع .

إن العلماء هم الهداة المرشدون بحكم الدين ، وإنه لا يقبل قولهم ولا يسمع نصحهم إلا إذا وثق بهم ، وهذه الحملة المدبرة عليهم تفقدهم هذه الثقة .

إننا نعلم أن صلة العالم المسيحى بالبابا وبرجال الدين فيهم صلة تجعلهم إذا أمروهم بأمر نفذوه فى بلدان العالم المختلفة .

وإن اليهود فى جميع العالم يرتبطون برباط وثيق ، وإن الأمر ينزل عليهم من هيئتهم العليا ، فإذا هو قول مطاع وحكم منفذ ، وهذا سر قوتهم ونجاحهم ، إن قادتهم يروون فى الأمر فتبين لهم وجوهه المختلفة فيختارون ويضعون الخطة ولو لمئات السنين ، ويعلمون اليهود فى جميع بقاع الأرض بذلك ، فيأخذون جميعا فى التنفيذ ، فليست هناك آراء مرتجلة ولا عمل وقتى ولا رأى شخصى ، إنما هو الرأى المدروس المتفق عليه الذى هو أمنية الأجيال والقرون .

أما نحن فلا نزال على عتبة الباب ، ولا نزال متفرقين مختلفين لا يعلم بعضنا شيئا عن بعض ، ولا يزال بعضنا ينزع الثقة من بعض ، حتى نصير بددا متفرقين ، لا نجتمع على رأى ولا نستجيب لنداء .

إن الأمر جد خطير ، يجب أن يلتمس له الدواء لإعادة الثقة وحسن الظن ، ولعل هذا هو الذى دعا الرئيس اللواء محمد نجيب إلى أن يستقرى التاريخ حتى يعثر على مواقف مشرفة لعلماء الأزهر من وقوف فى وجه ظالم أو عمل على رفع مظلمة ، أو إنقاذ الأمة من جبار متعنت ، فيسجلها فى خطبه العامة ويشيد بها فى مواقفه التاريخية ؛ فقد ذكر فى خطبته فى عيد التحرير فى يوم ٢٣ يناير سنة ١٩٥٣ ما يأتى : « لقد أرادت مناهج التربية والتعليم فى الماضى أن تطمس هذه الصفحة المشرقة من تاريخ بلادنا لينشأ أبناؤنا على الذلة وليستقر فى أذهانهم

أنهم كانوا عبيدا أبدا ، لذلك أرانى اليوم مطالبا بأن أعلن أن أجدادنا كافحوا من أجل الحكم الصالح ، وأنهم جاهدوا فى سبيل الدستور الصحيح منذ أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان ، فقد عزل الشعب فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٣ واليا معينا من قبل السلطان ، فقال الوالى إنى مولى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ، فرد عليه علماء الأزهر ، وكانوا وقت ذاك نواب الشعب ، إن للشعوب طبقا لما جرى به العرف قديما ، ولما تقضى به أحكام الشريعة الإسلامية ، الحق فى أن يقيموا الولاة ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل ، وساروا بالظلم ، لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة ، فحركتكم التى تحتفلون اليوم بعيدها كما ترون موصولة الأسباب بجهاد أجدادكم ، فما قاله الأجداد فى سنة ١٨٠٣ قاله الأحفاد فى ٢٣ يوليو الماضى » .

وفى خطابه الذى افتتح به أعمال لجنة الدستور أشار إلى إحدى الثورات الدستورية التى قامت فى مصر بقيادة الشيخ أحمد الدردير والشيخ الشرقاوى ، وقد قال الرئيس إن هذه الثورة قام بها شعب مصر قبل أن يستتب الأمر لثورات أوربا الكبرى .

هذا ما نسجله للرئيس اللواء محمد نجيب مغتبطين له ، مقدرين هذا الشعور النبيل ، وهذا التوجيه النافع ، فماذا يجب على علماء المسلمين أن يعملوه ، وماذا يجب أن يساعدوا به فى إعادة الثقة بهم .

إن البون بينهم وبين النظام الواجب شاسع ، ولكن ذلك لا يمنع من جعله غرضا ساميا يسعون للوصول إليه ويلتمسون له الأسباب ، إن الثقة بهم هى التى تجعل قولهم مقبولا وأمرهم مطاعا ، ولن تنال هذه الثقة إلا بأن يؤمن رجال الدين بأنهم لم يخلقوا لأنفسهم ، وإنما خلقوا لهداية أمتهم ، وأنهم مسئولون عنها إذا زاغت أو ضلت ، وبأن يعملوا على مقتضى هذا الإيمان ، فيجب أن تجدهم أمتهم إذا اشتجرت الآراء ، وعمت الأهواء ، ناصحين هادين ، ويجب أن ترى فيهم تضحية بأموالهم ومناصبهم وبأرواحهم إذا اقتضى الأمر فى سبيل خيرها وإنقاذها ، يجب أن تعلم فيهم أنهم لا يجبنون عن قول الحق ، ولا ينكصون عن نصرة الصدق .

ويجب أن يتحللوا من ذلك الواجب الذى يفرض على المرء ألا يتحدث عن أعماله وألا يزكى نفسه ، فما عليهم أن يتحدثوا عن أعمالهم ، ويبينوا خدماتهم وتضحياتهم ما داموا يدافعون عن أنفسهم ويردون قول خصومهم ، وما داموا يرجون من وراء ذلك إعادة الثقة أو توطيدها برجال الدين ليتمكنوا من بذل النصيحة ومن توجيه الأمة إلى خير العمل وعمل الخير .

محمد عرفة

عضو جماعة كبار العلماء

نفحات القرآن

— ٣ —

٢ — البيت العتيق :

« وأذن فى الناس بالحج »

صدع إبراهيم بالأمر ، وامتد فى الآفاق نداؤه ، وتحقق لمكة رجاؤه ، فأصبحت وجهة للقصاد بعد أن طالت عزلتها ، وهوت إليها أفئدة من الناس وإن بعدت عليهم شقتها ، وتوافد الناس عليها من كل حدب ، « وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

وكان قد اندمج إسماعيل فى العروبة فنشأ على لسانها ، وشب بين ناشئتها ، وائتلفت فيه روحانية الأبوة بخصوبة الأمومة المصرية ، واشتمل عليه الطابع العربى فى ميزانه المحمودة : من نجابة ، وصراحة ، وصدق ، ووفاء .

وبهذا التكوين كانت شخصية إسماعيل طرازاً جديداً للرسالة الدينية فى طور حديث من التاريخ ، وكان مهيأ للبعث فى الأمة العربية . . على غير ما كانت تتجه الرسالات من قبل « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ثم يبدو توجيه القدر المحتوم فى تلقيح العروبة القديمة بما يخفف من جفوتها ، ويلطف من خشونتها لتساير حياتها القابلة فى سبيل التدرج .

بدا ذلك فى إصهار إسماعيل إلى العرب ، فكانت ذريته ـ العرب المستعربة ـ وكانت بعد : قبائل ، تبتدىء منه ، وتتأصل به ، وتمتد فروعها فى جنبات مكة ، وفيما حولها ، حتى لتزخر بهم مكة يوما فيوما ، وغمر الله البلد الماحل بما رزق أهله من الثمرات مجلوبة إليهم على أيدى من هداهم الله لتلبية أذان إبراهيم بالحج . وتلك دعوة من دعوات الخليل .

تعارف الناس فضل البيت ، وتوارثوا قداسته ، وأصبح تاريخه عندهم مطلع تاريخ

العرب المستعربة . . وأصبح كذلك فى تقديرهم - وهو حق - منقبة من مناقب الشرف المؤثل لإسماعيل وذريته من بعده .

وعندى - وهو استطراد حسن - أن انتساب العرب لإسماعيل بنسب محفوظ ، وارتباطهم بالبيت فى تاريخ مصدوق كانا من بواعث العزة التى عرفوا بها ، ومن أسباب الخصال المحمودة التى لم تكن لسواهم ، فإن يكن هذا فى البيئة العربية الأولى فقد وضح فى بنى إسماعيل أكثر ، وقوى اعتزازهم بذلك منذ أصبح نجمهم فى تألق ، ونجم الآخرين فى أفول ، ومنذ أصبح لهم إدلال بأبوة إبراهيم وإسماعيل ، وأصبحت لهم منقبة بالبيت الذى أقيم فيهم ، ولا يزال بينهم ، فمن حقهم أن يتساموا بالنسب الكريم ، ومن الحق عليهم أن يتسابقوا إلى المكارم : حماية للشرف الموروث ، وإعلاء للمجد المعروف ، وتعزيزاً للسيادة الموهوبة .

بلغنا السماء مجـــدنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً

وقد تأصل فى العرب إذا امتدح الواحد منهم نفسه أن ينحاز إلى أعراقه الأولى ، حتى ينتهى إلى إسماعيل لو يستطيع ، وإلا يستطع لحسبه أن يصعد فى النسب الضارب فى العروبة إلى غاية ، ولم يكن فيما تعارفوه أزكى لأحدهم من نسب معروف به وإن صفرت يده من المال ، ولا أخزى من نسب منكور وإن كانت الدنيا فى قبضته ، . وكل ما هناك من شمائل محمودة أو شائنات مرذولة فرده عندهم إلى أصل كريم ، أو نسب لئيم .

ويخيل إلى أن هذا من وحى الفطرة ، فإنا نشهد من أنفسنا نزوعا إلى ما نزعوا إليه فشعور الواحد منا بعراقته ، واحتسابه المجد فى عمومته وخئولته قد يدفع به إلى النبالة فيما يقول أو يعمل ، بل فيما يفكر ويتخيل ، وكثيراً ما يصرفه ذلك عما يخدش مجده الذى يعتز به ولو كان فى صنيعه بنجوة من الرقباء .

كما أن استكانة المرء إلى هوان منبته ، وضآلة نسبه واختفاء معالمه قد تزهده فى الترفع ، وتبعده عن المكارم ، وتؤيسه من المجد ، وليس يغنى عن كرم المحتد مظهر زائف ، ولا يمنع الإناء من رشح، طلاؤه بالتمويه بل قد تكون الحداثة فى الظهور مغرية بالإسفاف ، فإنها كالنكسة شرها أخل وأنكى من المرض الهاجم .

من يهن يسهل الهـوان عليه ما لجـرح بميت إيلام

وعلى تأييد هذا جاءت تعاليم الإسلام فيما أوصت به عند اختيار الزوجة ، وفيما حذرت منه : مخافة الافتتان بخضراء الدمن — المرأة الجميلة من أصل سوء — فإن للنسب شأناً مراعى : غير أن الإسلام لم يجعل كرم النسب شفيعاً للمسيء ، ولا لؤم النسب مسوغاً للعدوان والتحقير ، ولا مانعاً من التزكية بالدين ، والعلم ، والخلق : والميزان الحق فى نظر الدين مع ما للأنساب من أثرها فى توجيه الإنسان إنما هو العمل ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه .

وأعود - بعد الاستطراد - فأقول : ظل بيت الله والعرب من حوله هم أهله ورعاته تربطهم به رابطة الوطن ، ورابطة التاريخ ، فهو منارة فى أم القرى ، وهو وثيقة تاريخهم التى لا يماريهم فيها أحد . وتربطهم كذلك رابطة الدين منذ دعاهم إبراهيم وبعث فيهم إسماعيل .

فليس بدعا أن يدين العرب على تعاقب الأزمان بأن بقاء مجدهم فى الحفاظ عليه ، وأن سيادتهم فى الالتفاف حوله والانتساب إليه

ثم يتطاول العهد ، وتتصدع القومية العربية من بعض جوانبها ، وتجرفهم ضلالات حاقت بهم ، وتنطوى على الأحداث صفحات من التاريخ ...

ولكن شيئاً واحداً ظل شاخصاً فيهم ، مهيباً عندهم : ذلك - هو البيت العتيق - يدأبون على رعايته وعمارته ، ويتعهدون الحجيج إليه بالسقاية وكرم الوفادة ...

وإذا اختصموا فى البيت ساعة ما ، وتنازعوا الأولوية به ، وتقاسموا الأمر فى قبائلهم فهو على أى حال فى ولد إسماعيل ، لا يدعيه غيرهم ، ولا ينتزعه أحد من أيديهم ، ولا يستطيع منافس حانق أن يصرف الناس عنه وإن توفرت له القوة أو تمكن له السلطان . ولم تكن رعاية الله لبيته لتدع أصحاب الفيل ينالون من قداسة البيت ، أو يقتربون منه مع بالغ قوتهم وكثرة حشدهم : بل نزل بهم ما نزل من هلاك ، وبقى بيت الله المحرم مثابة للناس وأمنا .

فإذا اضطربت حياة العرب لأسباب ناجمة فيهم ، أو اندلعت بينهم الحرب تزاحماً على غرض ، أو إدراكا لثأر ، فمكة بمعزل من هذا الصخب ، وأرضها وسماؤها ، وطيرها ونباتها ، والملازمون لها ، واللاجئون إليها : كل أولئك فى حماية البيت ، لا تمتد إليهم يد ، ولا يلحقهم إيذاء .

ذلك لعرفانهم أن الله أفاء على مكة فى حدودها المعلومة لهم ظلا ظليلا من حمايته ، وجعلها من أجل بيته حرماً آمناً بينما يتخطف الناس من حوله .

وعلى هذا النمط المفكك يعيش أهل مكة ومن إليهم : بين اعتزاز بتراثهم ، واضطراب فى مجتمعهم ، وبعد أن كانت لهم تقاليد تتصل فى أولها برسالة إبراهيم ثم إسماعيل أخذت تقاليدهم تتسع وتضيق ، وتصيب وتخطئ ، حتى انحرفت عن الرشد ، وتحكمت فيهم الجهالة ، ولم يبق البيت لله وحده كما ورثوه ، وإنما أصبح مباءة للوثنية المنكراء ، والأباطيل الفاحشة ، وأصبحت الحياة فى مكة مذعورة قلقة ، وصارت كذلك أو أشد من ذلك فيما حولها ، حتى سئمت نفوس من طول ما أعنتها ، ونزعت إلى الله خواطر تلتمس من لدنه رحمة تنقذهم من هذا البلاء ، وتكشف عنهم غضبة السماء .

وكأن هذه الأمنية كانت ترديداً لدعوات إبراهيم من قبل .

وكأنها كانت من قدر الله — سبحانه — على موعد تتمثل فيه بغية إبراهيم وإسماعيل ، وتتحقق أنشودتهما قديماً « ربنا وابعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلو عليهم آياتك ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

حان ذلك الموعد المقدور لتستأنف مكة يقظتها بعد فترة مديدة ، وتنهض إلى رسالتها فى وثبة فتية جديدة .

وها هو ذا : محمد بن عبد الله — صلوات الله عليه — من صميم العرب ، ينهض بين عشيرته ليعلن فيهم رسالته ويدعوهم ، ويتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ، ويردد فى الخافقين من جديد ما هتف به إبراهيم « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » .

بدأ البيت الحرام يستعيد شأنه قوياً ، ويسترد مجده قشيباً ، ويتجلى فى ضوء الاسلام ما له عند الله من قدر ، وما لزيارته بين فرائض الله من مقام وخطر .

وإنك لتلحظ هذا — أولا — فى أن الله واجه عباده بإيجاب الحج عليهم جميعاً « ولله على النـاس حج البيت » وفى هذا التعميم لأول ما ترى إشعار بأن حج البيت يبلغ مبلغ الصلوات فيما عرف المسلمون من تأكدها وتعلقها بذمة كل مسلم دون استثناء « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » .

فإذا ما قصر الوجوب بعد هذا التعميم على المستطيع بقوته وماله ، فإنما هذه رحمة بذوى الأعذار ، وتخفيف عنهم أن يتكلفوا مالا يطيقون ، والله سبحانه رحمن رحيم ، يسلك بعباده سبيل التيسير فيما شرع لهم من دين ، فهو يكلفهم بالمقدور ، ثم يعفى من التنفيذ صاحب العذر المقبول .

وتلحظ هذا - ثانياً - فى أن إيجاب الحج متبوع بقوله تعالى ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ، وهذا مقام التهديد لمن ترك الحج إلى بيت الله ، وقد بولغ فى التشنيع عليه حتى اعتبره القرآن فى حيز الكفر ، وسيق التهديد له مساق التنديد بالكفر وأهله ، . . وكفى بذلك إفصاحا عن شأن البيت وأهمية الحج اليه .

أرأيت أن القرآن الكريم لم يقف من شأن البيت عند إيجاب الحج ، والتهديد القوى على تركه ؟ بل يواصل التنويه إلى كرامة البيت على الله ، ويتابع الإشادة بذكره فى الكتاب ، حتى ليبلغ من شرف هذه البنية فى تلك البقعة أن يردد الله ذكرها ، وذكر البلد المحمى بها ، فى سبع وخمسين آية من آياته ، وتراها منثورة فى ست عشرة سورة من سور كتابه العزيز .

وتأخذك الروعة إذا تنبهت إلى إبداع الله فيما صنع بتلك الآيات وهذه السور . . ففى الآيات ترديد لذكر البيت موصوفا بصفات كريمة متعددة : فهو البيت المحرم ، وهو البيت العتيق ، والبيت المعمور ، والبيت الحرام ، وهو أول بيت وضع للناس ببكة : مباركا ، وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً ، وهو البيت مضافا إلى الرب ، رب هذا البيت ، ، وهو البيت مضافا ومستغنياً بالإضافة عن كل وصف وثناء ، وطهر بيتى ، .

وكذلك توصف مكة وما حولها من أجل البيت بأوصاف كريمة متعددة . . فهى البلد الأمين ، والحرام الآمن ، وبها الصفا والمروة من شعائر الله ، وهناك عرفات : ملتقى الحجيج من كل صوب ، وموقفهم الرهيب فى وقت محدود ، ومنه الإفاضة إلى المشعر الحرام ، وفيه ذكر الله مطلوب ، وطيب مشهود ؛ ثم تنتهى تلك المواقف إلى البيت وكان البدء منه ، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، واستغفروا الله ، إن الله غفور رحيم ، .

لكل وصف من تلك الأوصاف معنى ، وفى كل منسك من هاتيك المناسك حكمة ، فإن لم نحط بتفصيلها علما ، فحسبنا أنها ذكريات صادقة لما شهده أسلافنا بتلك البقاع ،

وأنها معالم ناطقة بالأوضاع الأولى لتاريخ الإسلام ؛ والتاريخ تعوزه كثيرا الدلائل المادية وتفيده ، وحسبنا أنها مشاهد حية لما سبقنا إليه تاريخ الأوائل ، وليس من الأمور الثانوية أن يجدد الإنسان المتدين سالف ذكرياته التي يركز بها عقيدته ، ويدعم بها يقينه ، ويشد بها أواصره الدينية بأواصر من سبق ، ويدلي بها إلى من لحق ؛ ولعل ذلك مما يشمله قول الله عز شأنه « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » فليس يبعد أن يظل الحبل ممدودا بين الأوائل والأواخر ، فهو من جانب السلف ذكريات كريمة ، ومن الخلف تبعية لقدوة مستقيمة ، وجميعهم على تقوى من الله ، وعلى نهج مما رسم لهم دين الله ؛ فإذا تتابعوا على الهدى فهم معتصمون بحبل الله جميعا . ألم يكن من دعاء إبراهيم عليه السلام « رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين ، واجعل لي لسان صدق في الآخرين » .

فهو يسأل التوفيق للأخذ بما أخذ الصالحون من قبله ، ويسأل التوفيق أن تكون له الذكرى الطيبة - وهي اللسان الصدق في الآخرين ، لتكون به القدوة للخلف ، كما يحب هو الاقتداء بالسلف ؛ وهذي هي الصلة القوية أو الحبل الممدود بين السلف والخلف .

ثم انظر ثانيا فيما أبدع الله بتلك السور التي اشتملت على هذه الآيات ؛ فهي ست عشرة سورة ، منثورة بين سور القرآن : الأربع عشرة والمائة ، من سورة البقرة في أوله إلى سورة قريش في آخره .

ويبدو لي - فيما أفهم - أن الحكمة في نثرها وتناول ذكر البيت على هذا النحو : أن يكون البيت شاخصا في كل مرحلة من مراحل القرآن ، وأن تكون ذكراه جارية على لسان القارىء ، ماثلة في ذهن السامع ، كلما تنقلا في التلاوة والسماع من روحة إلى روحة ، وبهذا تمتزج بالخواطر دائما روابط الأخوة التي تجمع المسلمين حول البيت من عام إلى عام ، والتي تقفهم إلى جهة البيت في صلواتهم الخمس أينما كانوا ، فتقوى فيهم المحبة إذا فطنوا ، وتتأكد قوميتهم الدينية إذا حرصوا وتذكروا دائما أن البيت هو قطب الدائرة الإسلامية ، ومشرق نورها ، وليس أوضح من هذا الصنيع القرآني في توجيه الناس إلى تقديس ما قدس الله ، وإلى وصل البيت كما وصله الله . وإن أمة تسير على هذا النهج لهي الأمة التي تمناها إبراهيم وإسماعيل من ذريتهما ، وهي الأمة التي بعث فيها محمد بن عبد الله ؛ ومن أجله ، وباتباع هديه كانت خير أمة أخرجت للناس .

« الحديث موصول »

عبد اللطيف السبكي
عضو جماعة كبار العلماء



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » .

لما كان الغرض من هذه الآية والآيات قبلها بيان حال المنافقين وما أدى إليه نفاقهم وزعمهم أنهم آمنوا وما آمنوا ، إلى تناقضات واضطرابات : تناقضات بين أقوالهم وأفعالهم ، واضطرابات فى أساليبهم وأقوالهم . فلما قالوا آمنا وما آمنوا وجه إليهم النهى عن الفساد ؛ لأن ماهم عليه من إفساد يناقض زعمهم أنهم مؤمنون ؛ ولما بالغوا فى أنهم غير مفسدين بحصر أحوالهم فى الإصلاح وجه إليهم طلب أن يؤمنوا إيمانا كإيمان الناس ، وفى ذلك الطلب إظهار لباطلهم وكشف لغباتهم وبيان أنهم نازلون فى جدلهم وحجاجهم إلى درك منخفض . فكان الإيمان المطلوب منهم كإيمان الناس ، وكأنه يقال لهم لا نريد منكم إيمانا تفوتون به الناس ، أو يكون فيه مالا تطيقون ، أو يكون منه إرهاق لكم ومشقة عليكم ؛ لا نريد إلا أن تكونوا كالناس ؛ وفى ذلك بيان لأن الموازين التى يطالبون بوزن أعمالهم بها مبصرة واضحة أنهم كلفوا ، وحدود ما كلفوا به ظاهرة نيرة ، فلاهم يستطيعون دعوى مالا يطيقون ، ولاهم يستطيعون التخلص بزاعمهم مما به يؤمرون : أى إن كنتم صادقين فى أنكم آمنتم فلا نطلب منكم إلا إيمانا كإيمان الناس . غير أن المنافق الذى مرن على المخادعات وبالغ فى الحيدان عن الجادة حتى جف ماء الحياء من وجهه ، من ذلك شأنه لا يعدم مخلصا مما يواجه به من الحجة ومنفذا مما يُغل به من دليل ، إذ المبطل الذى لا حياء له جرىء جدا على المجادلة بغير الحق ، سمح فى المواجهة بالباطل .

لذلك نرى هؤلاء المنافقين لم يعدموا مخلصا مما حاق بهم من حجة واضحة وطلب محدد ، فتراهم وردهم على ما طلب منهم هو « أنؤمن كما آمن السفهاء » وهم فى هذا يحتمل أن يكون مرادهم بالاستفهام والإنكار هو إنكار إيمان غير إيمانهم ، أو إنكار إيمان يماثلون به

إيمان الناس ، فيكون المعنى على الأول : أ إيماننا إيمان سفهاء حتى تطلبوا منا غيره أو أتطلبون منا إيمانا كإيمان الناس ، وهؤلاء الناس سفهاء فتطلبون منا إيمانا كإيمانهم ؟ إيماننا إيمان صحيح لا نرضى غيره . أو هؤلاء الناس سفهاء لا نرضى أن يكون إيماننا كإيمانهم ، وهكذا المأزوم بالحجة تراه لايجد مخلصا حين يحزبه الأمر وتضيق به الحجة إلا أن يلجأ إلى بذيء القول ورمى مخاطبه بالعيب والسفه . وإنك لتشهد ذلك كثيرا فيمن يضيق عليهم الخناق فى الجدل ؛ فإن ألسنتهم تطول بفاحش القول وتتسع أفواههم بالمراء الذى لا يغنى ولا يفيد .

ولما كان ذلك هو ردهم الذى لم يكن إلا تخلصا من خناق الحجة وفرارا من حصار البرهان ، ترى القرآن الكريم قول الحكيم العليم فى رده عليهم قد فصله بألا الاستفتاحية إيذانا بأن قولهم هذا مما لا ينبغى أن يتصل به رد . لذا فصل الرد بألا الاستفتاحية عن جوابهم كأنه قول مستقل وقضية مستأنفة استئنافا « ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » .

هكذا ترى الأسلوب مؤكدا بتأكيدات عدة : أكد أولا بإنّ ، وثانيا بإعادة الضمير « إنهم هم السفهاء » ، وثالثا باسمية الجملة إذ لا يكون فى مقابل ما ردوا به إلا ذلك القول المستأنف المؤكد الذى قطع عن جوابهم قطعا « إنهم هم السفهاء » وإن السفاهة قد لبسوا منها شعارا ودثارا ، وحاطتهم من جميع جوانبهم ، وحاقت بهم من كل نواحيهم ؛ فإنه لا سفه بعد أن يكونوا على الحال التى هم عليها ، تلك الحال المعلومة لمن حولهم من كذب وفساد وتردد ، مرة إلى هؤلاء وأخرى إلى هؤلاء ، ثم لايزالون يجهلون أن أمرهم مستور على الناس وأنهم لا يزالون يظنون أن مزاعمهم يستطيعون رواجها ، وأن دعاواهم لا يزالون يفهمون إقناع من حولهم بها ؛ ولكنه الجهل هو الذى غشى عقولهم وغبر آفاق نفوسهم ، فأصبحوا وقد جمدت مشاعرهم وتبلدت إحساساتهم فلا يدرون حقيقة أحوالهم . لهذا ترى القرآن يقول : « إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » .

ويحتمل أن يكون المعنى : لا يعلمون أن من حولهم يعلمون أحوالهم ، أو لا يعلمون أن الله عليم بكل شيء فهو عليم بخفى شئونهم وظاهرها ، أو لا يعلمون أنهم سفهاء نتيجة غباثهم وتبلدهم . كل محتمل ، ولكن أنسب هذه الوجوه أن يكون المعنى ولكن لا يعلمون أن الله عالم بشأنهم ؛ إذ لو أدركوا ذلك لتكشف عن أذهانهم غباؤها ، ولتفتق عن قلوبهم أغلفتها ، ولتقشع عن أنفسهم ظلامها ، فجهلهم بشأن ربهم جر عليهم نواحى الجهل كلها ، فجهلوا بغباثهم

أنهم سفهاء، وجهلوا أن الناس بحالهم يعلمون نتيجة جهلهم بالله وما يجب له من علم محيط بالسر وأخفى ، ألا بحق إذ جهلوا شأن ربهم إنهم هم السفهاء ولكنهم يجهلون .

وهكذا شأن المنافقين فى المجتمع يرمون غيرهم بدائهم فى قحة وتبجح ، إذ أنهم بانحرافهم عن الجادة ومرانهم على الكذب والادعاء أصبحوا لا يبالون ؛ وإن أزموا بالحجة فزعوا إلى البذاءة والشتائم ، لأنهم إذ يواجهون بحقيقة باطلهم ، وإذ تحوطهم الحجة ويحصرهم البرهان ترى ما خيلوه فى أنفسهم من حجج ومعاذير ظانين أنهم يستطيعون أن يواجهوا بها مخاطبيهم ترى ما خيلوه لأنفسهم وما زوروه من قول زائف ، تراه عند المواجهة يفر من بين أيديهم خجلا متستراً بأستار الخزى فما هو إلا أن يواجهوا حتى ترى أيديهم قد صفرت من الحجج وساحاتهم قد خلت من المعاذير ، وما كان فى كل عصر من العصور من ضرر بالمجتمع إلا بأمثال هؤلاء المنافقين . وإنه ما من أمة طهرت من أمثال هؤلاء إلا كانت خطواتها إلى الأمام واسعة ، وتدرجاتها فى مدارج الكمال قوية مسرعة . وإنا لا يهمنا فى تلك المناسبة من أمل يحقق وأمنية تتم ، إلا أن يطهر الله شعبنا وشعوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها من ذلك العنصر ، عنصر المنافقين الخبيث المنتن ريحه المؤذى جواره المعطل لمن هم فيه من شعوب عن السير إلى الغاية . ألا قاتل الله المنافقين .

«وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون».

قد بينت الآيات السابقة حالهم حين ينهون عن سوء وحين يؤمرون بخير ، وأنهم فى هذا إنما يلجئون إلى المبالغات فى التبرؤ شأن المفجوع الذى فوجىء بالكشف عما حاول ستره أو إلى البذاءة والسفه انفجاراً عن ضغط الحجة وأزمة البرهان ؛ وفى هذه الآية يبين القرآن سيرتهم وما هم عليه من غير نهى ولا أمر ليكون ذلك تعليلا لما يردون به عند المواجهات إذ أن من حاله هو تلك الحال ، وأنهم يلقون الناس بوجوه مختلفة فإن لقوا المؤمنين قالوا لهم إنا مثلكم مؤمنون ، وإذا لقوا إخوانهم الشياطين قالوا لهم إنا معكم فى عقيدتكم وتقريركم ما آمنا ولا صدقنا ولكننا بهم مستهزئون . وانظر إلى ما سلكوه فى الإخبار عن أنهم مستهزئون بالمؤمنين ؛ فتراهم قد أكدوا وبالغوا فى التأكيد ، فجاءوا بأداة الحصر ، وجاءوا بالجملة اسمية تطمينا لشياطينهم على أحوالهم ، ويحدثون شياطينهم عن مقابلة المؤمنين بأنهم مستهزئون ولم يصدقوهم فيما أخبروهم عن واقع أمرهم ، ألا إنهم إنما يقولون ذلك وقاية لأنفسهم ، وبعداً بها عن المؤاخذة والإيذاء ، ولكن لا يريدون أن يخبروا عن حقيقة ما فى نفوسهم

إبقاء على الاحتفاظ بشأنهم أمام إخوانهم، ألا وإنهم مهما حاولوا فليسوا بمخفين شأن أنفسهم، ولا مقيمين لها وزنا فى نظر شياطينهم، فهم نازلون نازلون وصاغرون صاغرون مهما حاولوا.

وإذا نظرت إلى الأسلوب وتمعنته وجدت فيه عجائب البلاغه وآيات الإعجاز: يعبر عن حالهم مع المؤمنين بالملاقاة، وعن حالهم مع الشياطين بالخلوة، إيذانا بأن هؤلاء المنافقين لا أنس لهم بالمؤمنين ولا طمأنينة منهم إليهم، فهم لا يجالسونهم ولا يسامرونهم، وإنما كل ما هنالك أن يلقوهم فى عرض طريق أو فى مكان عمل عن مصادفة. أما شأنهم مع شياطينهم فهم إليهم يركنون وإليهم يتسارون ويتحادثون؛ لذلك هم بهم يخلون ولكن للمؤمنين منهم لقاء عارض وتقابل عن مصادفة، هذا أولاً. وترى القرآن يحدد ما فى نفوسهم فتراهم إذ يحدثون المؤمنين لم يزيدوا عن أن يخبروا بأنهم آمنوا غير مؤكدين ولا مبالغين، وإذا تحدثوا إلى شياطينهم أكدوا وبالغوا فى التأكيد وعللوا فقالوا إنا معكم، ثم يجيبون عما يرد عليهم فى ذلك القول إذا كنتم معنا فما قولكم لهم آمنا؟ فجواب هذا إنما نحن مستهزئون، فيؤكدون ويدفعون ما يرد من اعتراضات على أخبارهم ومحادثاتهم ليبقوا على منزلتهم فى نفوس شياطينهم. نعم ما أعلى ذلك الأسلوب وما أروعه! يحدد حال هؤلاء تحديداً يكشف للسامع واقع حالهم وحقيقة أمرهم، وهكذا المنافق مهما حاول ستر ما خبأ فى نفسه لابد أن تغلبه جوارحه التى ضغط عليها فى توجيهها، فمرة يدل عليه ما يبدو فى وجهه من بشر أو عبوس أو تقطيب أو انبساط، وأخرى يغلبه لسانه بما يهتك أستاره ويكشف عما فى نفسه كما تراه ها هنا، إذا لقوا الذين آمنوا لم يزيدوا عن قولهم آمنا وإذا خلوا إلى الشياطين قالوا مؤكدين إنا معكم ودافعين ما يرد بقولهم إنما نحن مستهزئون بتأكيد التعليل أيضا وتثبيت الدليل، وبهذا وأمثاله يفتضح أمر المنافقين.

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وإن الله يعلم بأن المنافقين فى كل شعب مفضوح أمرهم مكشوف سترهم، ولكنهم إنما يعيشون فى المجتمع فى منازلهم بين أفراد الشعب لإهمال الشعب نفسه، وإن الأمم لتختلف فى مواقفها إزاء أمثال هؤلاء: فمن أمة تسارع إلى استئصالهم حتى يطهر المجتمع وتزال من طريقه العوائق والمعطلات؛ ومن أمة لاتعنى بذلك فتزيد فى طريقها الأشواك وتعظم فى سبيلها إلى غايتها المعوقات. فاللهم رشادا وتوفيقا إلى تمييز المنافقين من المخلصين تمييزا يبعد فيه عن الهوى ويجانب فيه الغرض حتى يكون تمييزاً صحيحا ليجزى كل فريق بما يعمل وبما يستحق.

قال الله تعالى « الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » .

لما وضحت الآيات السابقة شأن المنافقين وما هم عليه وما يقابلون به المؤمنين وما يقابلون به الشياطين ، كان لابد أن يكون للسامع سؤال : إذا كان هذا شأن هؤلاء فكيف تركهم الله ولم يعاقبهم ؟ فكان الجواب « الله يستهزىء بهم » وليس مهملهم ولا تاركهم ، ولكن لما كان شأن القوى مع الضعيف والمتمكن مع المزعزع والمحيط علماً بكل الشئون مع الجاهل بكل شىء ألا يهتم بإساءة المسىء وسفه السفيه فلا يهتم بمعاجلة ذلك الضعيف بالعقوبة لأنه إذا مرت فرصة فلديه فرص أخرى إذ كل الشئون خاضعة له فيوجه العقوبة إلى المسىء فيما يشاء من زمان وكما يشاء من مكان وعلى ما يشاء من حال ، فعبر القرآن عن شأن الله مع هؤلاء بالاستهزاء على سبيل الكناية ، لأنه يراد هنا من الاستهزاء لازمه وهو عدم العناية بما يأتيه هؤلاء لأنه محيط بظروفهم قادر على شئونهم جميعها متمكن من جميع نواحيهم ، فهو مدخر لهم عقوبة منكية فيما يحدد لها من زمن وما يشاء لها من مكان وما يخصص لها من مآل .

ذلك هو ما يراد التعبير عنه بالاستهزاء ، فهو مما لا يعبر به فى جانب الله ؛ ولذلك تراه قد أتبع الاستهزاء بهم بمده لهم فى طغيانهم إذ المعنى من قوله « ويمدهم فى طغيانهم » أى يطيل لهم وجودهم فى مهاوى الطغيان حتى تكون أخذته لهم أخذة رابية ، وإيلام العقوبة لهم إيلاما ممضاً إذ طول الزمن بهم فى الطغيان مما يوجب غرورهم بأنفسهم ويخطر ببالهم أنهم قد مكن لهم ، فإذا أصابتهم الصاعقة وهم فى غرورهم وظن تمكنهم كانت أقسى عليهم وأمر . وقوله : « يعمهون » حال من الضمير فى يمدهم ؛ أى أن الله يطاول لهؤلاء فى الطغيان حال كونهم عمين عن وجه الصواب ونور الحق ، فهم فى سبيلهم حائرون ، أإلى المؤمنين ينحازون أم إلى الكفار الشياطين يتحيزون ؟

وهكذا شأن المنافق ذى الوجهين : تراه دائماً معوج السير حائر الاتجاه ، إن سار خطوات يميناً سار مثلها شمالا ، وإن تقدم خطوات رجع إلى الوراء أخرى ؛ ذلك لأنه لم يستقر فى نفسه عقيدة بهذا ولا عقيدة بذاك ، ولم تطمئن نفسه للاستمساك بمبدأ من المبادىء ، فهو مروع القلب حائر النفس زائغ البصر لا يطمئن لأحد فى المجتمع ولا يطمئن أحد فى المجتمع إليه ، فلا يجدون لأنفسهم متجراً إلا الإيقاع بين الناس وجمع أحطاب الفتنة وإذكاء نارها ؛ ألا قاتلهم الله وطهر منهم كل الشعوب حتى تعيش آمنة مطمئنة . اللهم حقق وأنت العليم الخبير .

عامر محيسن

السنة

٢ ـ التطهير فى الاسلام

من المثل العليا فى التطهير ـ رجال ونساء يجودون بأنفسهم لله عز وجل ـ ستر الله وكنفه ـ الأدب مع الله ـ الخوف منه والرجاء فيه .

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، وكان شهد بدرا ، وهو أحد النقباء ليلة العقبة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، وحوله عصابة من أصحابه : « بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا فى معروف ؛ فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله ، فهو الى الله ، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه » ، فبايعناه على ذلك . رواه الشيخان ، واللفظ للبخارى .

بعد أن عاهد النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه وأمته على التطهير من هذه الموبقات الست : أصول الرذائل ، وجماع المآثم ـ بين أنهم فى الوفاء ببيعته على ثلاث درجات ، بين كل درجة ودرجة من التفاوت والفضل ما لا يقدره إلا الله عز وجل ؛ بل إن أهل الدرجة الواحدة فى الفضل والمنزلة ليسوا سواء .

أما أهل الدرجة الأولى فقد وفوا بعهد الله كاملا غير منقوص ، فوفى الله لهم بعهده وضمن لهم على لسان رسوله أجرا عظيما ، هو النعيم المقيم ، والمقام الكريم ورضوان من الله أكبر « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

وأما أهل الدرجة الثانية فهم الذين اقترفوا من هذه الموبقات شيئاً ما عدا الشرك الأكبر .

فإن الله لا يغفر أن يشرك به . غير أن الله طهرهم بإقامة الحاكم الحدّ عليهم ، إذ يقطع يد السارق ، ويجلد أو يرجم الزانى ، ويقتل القاتل ، ويجلد القاذف . وهكذا كانت العقوبة ماحية لذنب صاحبها مطهرة له ، حتى يلحق بالسابقين ، ولا حرج على فضل الله سبحانه ؛ وأما أهل الدرجة الأخيرة فهم الذين اقترفوا من هذه الموبقات شيئاً ـ ما عدا الشرك كذلك ـ إلا أن الله تعالى سترهم ، فإن تابوا وأحسنوا فإن الله يتقبل توبتهم فضلا منه وكرما ، وإلا فأمرهم مفوض إلى ربهم ، إن شاء غفر لهم وإن شاء عذبهم .

وليس عجباً أن يغفر الله لمن تاب إليه وأناب ؛ ولو بلغت ذنوبه عنان السماء ، أو أدركته منيته قبل أن يعمل بعد توبته عملا صالحاً ، وحسبنا من الشواهد الكثيرة على هذا ما رواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه فى الحديث القدسى عن النبى ﷺ عن ربه عز وجل قال : « يابن آدم ، إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ؛ يابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ؛ يابن آدم ، إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة [1] » وما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه فى الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفساً ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب ، فسأله : هل له من توبة ؟ فقنطه من رحمة ربه ، فكمل به المائة ؛ ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على عالم ، فسأله كما سأل صاحبه ، فقربه من رحمة ربه ، ليعلم أنها أوسع من ذنبه ، وأمره أن يهجر هذه الأرض التى عصى الله فيها إلى أرض سماها له ليعبد الله بها مع قوم عابدين . ولكنه قضى نحبه فى نصف الطريق ! فاختصمت فى شأنه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فكان قضاء الله الرحيم ، الذى يغفر الذنب العظيم ، للأولين على الآخرين [2] .

ومن هذا القبيل قصة الكفل ؛ أخرجها الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : كان فيمن كان قبلكم رجل يسمى الكفل وكان لا ينزع عن شىء ، فأتى امرأة علم بها حاجة فأعطاها ستين ديناراً ، فلما أرادها على نفسها ارتعدت وبكت ، فقال ما يبكيك ؟ فقالت لأن هذا عمل ما عملته قط وما حملنى عليه إلا الحاجة ! فقال أنت تفعلين هذا من مخافة الله تعالى ؟ فأنا أحرى بذلك ، فاذهبى ولك ما أعطيتك ، ووالله

(١) العنان : السحاب وزنا ومعنى ، وقراب الأرض بالضم ويجوز الكسر : هو ما يقارب ملئها .

(٢) اكتفينا بمعنى الحديث إجمالا لشهرته فى مواطن كثيرة ، وأقربها رياض الصالحين .

لا أعصيه بعدها أبداً ؛ فمات من ليلته ! فأصبح مكتوباً على بابه : إن الله قد غفر للكفل . فعجب الناس من ذلك حتى أوحى الله إلى نبي زمانهم بشأنه .

بل ليس عجباً أن يغفر الله تعالى لمن شاء من عباده الذين ماتوا قبل أن يتوبوا مما اجترحوا من كبائر الإثم - إلا الشرك - وليس لنا أن نحكم على أحد معين من أهل التوحيد بالنار بالغة ما بلغت ذنوبه وسيئاته ، فإن هذا سوء أدب مع الله عز وجل وافتيات على شئونه ، وانتهاك لحرماته . وفي الصحيح أن رجلا قال : والله لا يغفر الله لفلان ، فقال الله تعالى : « من ذا الذي يتألى على ألا أغفر لفلان ؟ فإني قد غفرت له وأحبطت عملك ! » وجاء في الصحيحين وغيرهما أن بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من شدة العطش والحر فنزعت له موقها [خفها] فملأته ماء وسقته ، فشكر الله لها وغفر لها به ؛ ورويا مثل هذه القصة عن رجل كان يمشي بطريق فاشتد عليه العطش فوجد بئراً فشرب منها فإذا كلب يلهث الثرى من العطش ! فقال : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني فملأ خفه من البئر وسقى الكلب ، فشكر الله له وغفر له بما صنع . وأعجب من هذين ما رواه الشيخان وغيرهما عن الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه قال : بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله تعالى له ، فغفر له .

وأكبر الظن أن هؤلاء جميعاً تداركهم الله بفضل منه ورحمة قبل أن يتوبوا ، وجائز أن يكون الله قد من عليهم فوفقهم للتوبة حين وفقهم لهذا الصنيع الذي شكره لهم ، وجعله مع التوبة سبب مغفرته ورضوانه .

وأيا ما كان الأمر فلا تزال للملوك أسرار ، ليس من أدب العبيد أن يتجسسوا عليها ، بله أن يقتحموا حماها .

وإذا لم يحل لأحد أن يحكم على آخر من أهل القبلة بعذاب الله وسخطه ، فلا يحل له كذلك أن يحكم لأحد بالغة ما بلغت حسناته وخيراته ، بنعيم الله ورضوانه ، ما عدا المبشرين بالجنة على لسان المعصوم صلوات الله عليه وسلامه ، فإن الأعمال بالخواتيم ، ولا يعلمها إلا علام الغيوب سبحانه .

غير أن ستر الله لعبده وكنفه عليه في الدنيا أمارة على كنفه عليه ورضاه عنه في الآخرى ومن دلائل هذا ما رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع كنفه عليه [ستره ورحمته] فيقرره

بذنوبه ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب أعرف ، قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى صحيفة حسناته » .

ولا يغرن أحدا ما توسوس به نفسه . أو ما يخدعه به شيطانه ، من سعة فضل الله تعالى وعظيم رحمته ؛ فإن ذلك من الحق الذى يراد به الباطل ، ومن الخير الذى يتوسل به إلى الشر والأذى ! فمن تلا قوله تعالى « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » ، وقد قيل إنها أرجى آية فى القرآن الكريم ، فليتل بعدها « وإن ربك لشديد العقاب » ، ومن روى أحاديث الرجاء فى الله فليرو معها أحاديث الخوف من الله ، ومن أحسن الظن به سبحانه فليحسن الأدب معه ؛ فإن قوما غرتهم الأمانى وقالوا نحن نحسن الظن بالله تعالى ، وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل [1] .

ومجمل القول فى هذا المقام أن يتأدب العبد مع ربه بأدب الخوف منه والرجاء فيه ، فلا يطغى خوفه حتى يقنط من رحمته ، ولا يطغى رجاؤه حتى يتهاون فى طاعته ، فإذا أحس بقرب قدومه على مولاه فليغلب الرجاء فيه ، وليحسن الظن به ، وليوقن أنه قادم على أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين .

وبعد ، فالناس فى التطهير أو التطهر من الموبقات على طبقات ، لا يحصيها إلا من فضل بعضهم على بعض ورفع بعضهم درجات :

فمنهم من قوى إيمانه ، وعظم يقينه ، حتى جاد بنفسه ــ فى سبيل تطهيرها ــ لله عز وجل ، ومن هؤلاء ماعز بن مالك الأسلمى رضى الله عنه أتى النبى ﷺ فقال يا رسول ، إنى ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى ، فرده . فلما كان من الغد أتاه فقال يا رسول الله إنى قد زنيت ، فرده الثانية . فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه ، فقال هل تعلمون بعقله بأسا ؟ تنكرون منه شيئا ؟ فقالوا ما نعلمه إلا وفى العقل ، من صالحينا فيما نرى . فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضا فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله ، فلما كان الرابعة حفر له حفرة ثم أمر به فرجم .

ومن هؤلاء امرأة من جهينة ، أتت رسول الله ﷺ وهى حبلى من الزنى فقالت يا رسول الله ، أصبت حدا فأقمه على ، فدعا نبى الله ﷺ وليها فقال أحسن إليها ، فإذا وضعت فأتنى بها ففعل ، فأمر بها فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها . فقال

(١) اقتباس من آثار الحسن البصرى ، وليس حديثا كما ظن بعض أهل العلم .

عمر: أتصلى عليها وقد زنت؟ فقال ﷺ: لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل؟!

وأعجب من هذه امرأة من غامد - بطن من جهينة - قالت يارسول الله: إنى قد زنيت فطهرنى فردها. فلما كان من الغد قالت يارسول الله لم تردنى؟ لعلك أن تردنى كما رددت ماعزا فوالله إنى لحبلى. فلما رآها لاتريد الستر على نفسها أمر بالإحسان إليها حتى تلد وترضع ولدها وتفطمه حتى جاءت به وقد أكل الطعام، فدفعه إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فرجمت، وكان ممن رجمها خالد بن الوليد فنضح الدم على وجهه فسبها، فسمع النبي ﷺ سبه إياها فقال: مهلا يا خالد، فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس اغفر له.

وصاحب المكس - أو الماكس - هو الذى يجبى الضرائب من الناس بغير حق. والمكس من أقبح المعاصى والذنوب الموبقات؛ لكثرة مطالبات الناس له وظلاماتهم عنده. وفى مسند الإمام أحمد وغيره عن عقبة بن عامر رضى الله عنه عن النبي ﷺ: لا يدخل الجنة صاحب مكس، قالوا هو العشار الذى يأخذ العشر على ما كان يأخذه أهل الجاهلية، كان يأخذ من التجار إذا مروا به مكساً باسم العشر. وأما من يعشرهم [1] على ما فرض الله سبحانه فحسن جميل، وقد عشر جماعة من الصحابة للنبي ﷺ، وللخلفاء بعده، فكانوا يأخذون عشر ما سقته السماء، وعشر أموال أهل الذمة فى التجارة.

وأعجب من هؤلاء جميعاً رجل تلقى امرأة تريد الصلاة فغشيها وقضى حاجته غصباً، فصاحت! فانطلق؛ فانطلق خلفه عصابة من المهاجرين فأخذوا رجلا دلت عليه غلطاً فأتوها به، فقالت نعم هو هذا، فلما أمر النبي ﷺ به ليرجم قام صاحبها الذى وقع عليها فقال يا رسول الله أنا صاحبها؛ فقال لها اذهبى فقد غفر الله لك، وقال للرجل قولا حسناً، وأمر بالذى تجللها أن يرجم، فرجم، وقال: لقد تاب توبة لو تابها أهل المدينة لقبل منهم! [2]

ومن الناس من لم يقدر على تطهير نفسه جهراً، أو قدر عليه ولكنه آثر ستر الله تعالى فطهر نفسه فيما بينه وبين ربه سراً، ومنهم من تولى الله تطهيره بما ابتلاه من ضروب المحن والبلايا!!

وإذا ضاق المقام عن استيفاء البيان فموعدنا الجزء التالى وبه الخاتمة إن شاء الله تعالى.

طه محمد الساكت

---

[1] عشرهم يعشرهم بالضم عشراً بضم العين: أخذ عشر أموالهم، ومنه العاشر والعشار بالتشديد اهـ مختار.

[2] راجع كتاب الحدود فى تيسير الوصول وغيره.

كيف ننتصر على أنفسنا

تنظيم العلاقة بين الارادة والغرائز

يخطىء الذى يزعم أن الإنسان فى هذه الحياة مخلوق أعزل ، قد شد وثاقه إلى عجلة الكون ، وسخر تسخيراً بطبيعته وطبيعة الأشياء ، كما يخطىء الذى يزعم أن الانسان فى هذا الكون سيد مطلق اليدين ، يتصرف بملء حريته فى طبائع الاشياء وطبيعة نفسه .

وعبثاً حاولت بعض المذاهب الفلسفية أن تصوره لنا فى أحد هذين الطرفين :

فالحقيقة ، كما قلنا ونقول ، إن الانسان مسير مخير معا : ولكنه يقوم بهذين الدورين فى ميدانين مختلفين .

وليس من العسير علينا فى كثير من الشئون ، أن نتبين ماهو من عمل الطبيعة القاهرة ، وما هو من عملنا الحر المستقل ؛ غير أن هناك حالات خاصة تلتبس فيها المعالم ، وتشتبه فيها الحدود ، ويدق الفصل فيها على غير الناقد البصير ، ومن هنا يميل أكثر الناس فيها إلى التنصل من مسئولياتهم ، وإلقاء عبئها على كاهل الطبيعة ، زاعمين أنهم كانوا من نوعين بحركة قسرية لا حيلة لهم فى وقفها ولا تصريفها .

تلك هى الحالات التى يلتقى فيها عمل الغريزة وعمل الإرادة ، ويكون هذا استمرارا لذلك حتى يخيل للمرء فى بادىء الرأى أنه كان معطل الإرادة أو مسلوبها ، وأنه كان يتحرك حركة آلية ليست من صنعه ولا من كسبه .

لا جرم كان من أول مهمات المربى الحكيم - حين يتولى قيادة الإرادة وتربيتها على أخذ الأمور بالقوة والحزم - أن يكشف الغشاوة التى تحيط بهذه المنطقة المختلطة المشتبهة ، وأن يبصر العقول بكنه الحركات النفسية والجثمانية التى تدور فى فترة هذا الاتصال ، ليعرف كل امرىء إلى أى حد تنتهى حركة الفطرة فيه ، وسلطانها عليه ، وعند أى نقطة تبدأ حركة اختياره واقتداره ، وسلطانه ومسئوليته .

ولسوف يرى المطلع على وجهة نظر الإسلام فى ذلك أنها نظرة بريئة من عنف البرهمية

وجفاف البوذية ، وغرور أدعياء الصبر والجلد فى الفلسفة الإغريقية ، وأنها فى الوقت نفسه منزهة عن ميوعة اليسوعية [1] وخور الجبرية ، ورخاوة الكسالى فى كل ملة ونحلة . فبينما يذهب الفريق الأول إلى إنكار الغرائز ، والمكابرة فى سلطانها ، ودعوى القدرة على محوها واستئصالها ، وبينما يميل الفريق الثانى إلى التسليم لها ، والانهزام أمامها ، والنزول الكلى على حكمها ، تقف الدعوة الإسلامية على الجادة الوسطى مشرفة بنظرها على جانبى الطريق ، فتعترف بسلطان النزعات الجبلية إلى حد محدود ، ثم تترك المجال للهمم والعزائم فى الوقوف بتلك النزعات عند حدها ، ومقاومة الاسترسال معها فى غير ضروراتها الملحة ، وصدق منزل هذه الشريعة الحكيمة فى وصفه لدعوته « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » .

فلننظر الآن فى الصلة بين هذين العاملين حين يلتقيان : عامل الجبلة وعامل الاكتساب الإنسانى . ولنبرز الخط الفاصل الذى رسمه الإسلام بينهما ، حتى جعلهما لا يبغيان ، ولنتأمل كيف كان الإسلام فى تطبيقه لهذه الحدود على طائفة من الانبعاثات والانفعالات ، قد وضع أوضح منهج عملى لتربية الإرادة ، وتدريبها على التزام موقف الحكمة والهدى ، والثبات أمام تيار الهوى .

وإليك مثلا من ذلك :

١ — فى كظم الغيظ ، والحد من الغضب .

كلنا نعرف أن ظاهرة الغضب ظاهرة مزدوجة : فيسيولوجية وبسيكولوجية ؛ أعنى أنها عضوية نفسية فى وقت واحد . ألسنا نرى الانفعال النفسانى فيها تصحبه ثورة دموية ، تغلى منها مراجل الصدر ، وترتفع بها حرارة الجسم ، وقد تتقلص منها عضلات الوجه ... فى أعراض تشبهها ... ثم يتبع ذلك لواحق أخرى ، كالجهر بالقول ، والبطش باليد ، إلى غير ذلك ؟

ها هنا يتدخل الفرقان السماوى فيفصل هذه الظواهر إلى شطرين اثنين ؛ تاركا الشطر

---

(١) فرقة من المسيحية

الأول منهما الحكم الجبلة الذى لا سلطان لنا عليه ، ولا مسئولية علينا فيه . أما الشطر الثانى ، وهو شطر اللواحق ، فان هذا التوجيه الحكيم ينبهنا إلى أنه - فيما عدا الحالات المرضية الشاذة ، التى يأخذ الغضب فيها صورة تشنجية لا يسيطر عليها العقل ولا الإرادة - شيء نصنعه نحن باختيارنا ، داخل فى نطاق مسئوليتنا ، حتى لو فرض أن جهاز النطق وجهاز الحركة يقومان بوظيفتهما إذ ذاك بطريقة آلية اندفاعية ، فان نوع الكلام ونوع الحركة يبقيان خاضعين لشيء من التفكير والإرادة ، بحيث نستطيع أن نوجههما الوجهة التى نريدها . ولذلك يطالبنا الشرع الحكيم فى أشد حالات الغضب ، ما دمنا متمتعين بوعينا وإدراكنا ، أن نسيطر على حركات ألسنتنا وجوارحنا ، ويحاسبنا على الأسلوب القولى والفعلى الذى نختاره فى التعبير عن شعورنا . ذلك أن قصارى الثورة الغضبية - حين تندفع إلى التعبير عن نفسها بالقول أو بالفعل أو بهما معا - أن تكون كالشحنة الكهربائية التى لابد لها متى اندفعت أن تفرغ ؛ فلا سبيل إلى كبت حركتها ، ولكن لنا سبيلا إلى اختيار المجال الذى تفرغ فيه ، وذلك بوضع جهاز « مانعة الصواعق » فى مكان ما . وهو كما نعلم جهاز لا يوقف التيار الكهربائى بل يستقبله ويتلقاه ، ثم يحوله بعيدا عن هدفه الأول . فكذلك نستطيع أن نتصرف فى موقف الغضب ، لا بمصادمة هذه الغريزة نفسها ، ولا بمقاومة حركتها الطبيعية فى بداية اندفاعها ، ولكن بتوجيه هذه الحركة ، وتحويل خط سيرها على النمط الذى رسمه لنا القدوة الأعظم صلوات الله عليه .

فلنستمع إلى شيء من إرشاداته الحكيمة التى يوجهها إلى من يقع تحت سلطان الغضب ، وهى إرشادات تبرهن على ما لصاحبها من علم واسع عميق ، وإدراك كامل دقيق ، لمدى هذه القوى النفسية فى حدودها الطبيعية ، وفيما وراء تلك الحدود .

ففى اللحظة التى يدفعنا فيها الغضب إلى التفوه بكلمة ننفس بها عن صدورنا ، لا يأمرنا الرسول الحكيم بأن نسكت ونحبس أنفاسنا ، بل يرشدنا بالعكس إلى أن نقول شيئا ، ولكنه يختار لنا الصيغة المعبرة عن هذا الانفعال « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » أليست هذه الكلمة وحدها كافية لفتح صمام المرجل الذى يغلى فى الصدر ، وتخفيف الضغط الذى كان يولد فيه الانفجار ؟ أليس كل ما يجيء وراء هذه الكلمة يعد نافلة وتزيداً تستطيع الطبيعة أن تستغنى عنه ؟ . فإذا ما دفعتنا حدة الغضب إلى شيء أكثر من القول ، وانبعثت

فينا نزعة قوية إلى البطش باليد أو غير ذلك من الحركات البدنية ، فإن الإرشاد النبوى يساير هذه الحركة الطبيعية أيضاً فى مبدئها ؛ ولكنه لا يلبث أن يحول مجراها برفق بعيداً عن هدفها ، فلنستمع له عليه الصلاة والسلام حين يقول : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليقعد ، فإن ذهب عنه الغضب ، وإلا فليضطجع »[١] .

هل نجد أيسر وأسرع ، وأدق وأنجع من هذا العلاج الروحى البدنى معاً ؟

٢ — فى الحب والبغض :

هذا الفرقان الحكيم بين نصيب الغريزة ونصيب الإرادة ، نجده بصورة واضحة فى ظاهرتى الحب والبغض ، وهما حالتان نفسيتان ، وليدتا أسباب يبدو لنا بعضها ويخفى عنا بعضها ؛ فقد يكون مردها إلى مجرد تجاذب الأرواح أو تنافرها ، أو إلى تقارب الأذواق والآراء أو تباعدها ، أو إلى غير ذلك من البواعث ، وأيا ما كان فهما من صنع الله مقلب القلوب ، وكذلك ما يتبعها من الآثار الجبلية التى لا تنكر : قرة عين ، وإشراق جبين ، وانفساح صدر وراحة ونعيم ، فى لقاء من نحب ومناجاته ، وأضداد ذلك فى لقاء من نبغض . إلى هنا يقف عمل الفطرة الذى رفعت عنا فيه الأقلام ، ولكننا فى غالب الأمر نضيف إليها آثاراً من صنعنا ، إذ نفرق فى المعاملة بين من نحب ومن نبغض ، ولا نسوى بينهما فى الحكم ؛ بل نكيل لهما بكيلين ، ونزن بميزانين : فنحابى من نحب ، ونغضى عن هفواته ، ونتحامل على من نكره ونغطى على حسناته . وهذا هو الجور الذى نهانا الله عنه ؛ إذ يقول عز شأنه : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » ويقول : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » هكذا حملنا الإسلام مسئولية عملنا ، وعافانا مما ليس من كسبنا : فلم يكلفنا اقتلاع عاطفة الرضا ونازعة السخط من أنفسنا ، ولا كف آثارهما الجبلية ، ولكن كف آثارهما الاختيارية الجائرة ، وقد جعل لنا فى ذلك الأسوة الحسنة بصاحب الخلق العظيم ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يعدل حق العدل بين زوجاته ، ثم يقول : « اللهم هذا جهدى فيما أملك ، ولا طاقة لى فيما تملك ولا أملك »[٢] .

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب الأدب .

(٢) رواه ابن ماجه وأصحاب السنن .

٣ — فى انفعالات الحزن :

وترى الناس إذا أصابهم ما يكرهون فاندفعوا فى هلع هالع ، وجزع خالع ، اعتذروا بشدة الصدمة الأولى ، وبعجزهم فيها عن الصبر والتجمل . كلا إنها حجة داحضة ؛ ولله الحجة البالغة ؛ فإن للحزن أثرا طبيعيا لا جناح فيه ؛ وإنما السبيل على قول الهجر ، وفعل النكر ، الذى تبرأ منه الفطرة .

ها هنا أيضا نجد فى مشكاة الشريعة من الأضواء الباهرة ما يكشف لنا حدود مسئولياتنا ، وما وراء تلك الحدود . فى الأثر الصحيح الذى يرويه البخارى أن النبى صلوات الله عليه دخل على ابنه إبراهيم وهو يعالج سكرات الموت . فلما رآه رق له قلبه ، وجعلت عيناه تذرفان الدموع . فقال له عبد الرحمن بن عوف : « وأنت يارسول الله » ! فقال : « يا ابن عوف . إنها رحمة ، إنها رحمة . ثم قال : إن العين تدمع . والقلب يحزن . ولا نقول إلا ما يرضى ربنا . وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون » . هكذا فرق الرسول الحكيم بين الظواهر الحيوية والنفسية التى ليست من كسبنا ، وبين الأقوال والأفعال التى تتبع هذه الحالات الطبيعية ولكنها من محض عملنا ، واقعة تحت مسئوليتنا .

٤ — فى غريزة التشهى والتمنى :

وإليك مثالا آخر من هذه الطبائع ، المستعصية علينا فى نفسها ، الخاضعة لإرادتنا فى توابعها ولواحقها . تلك هى غريزة التشوف والتطلع ، التى أودعها الله فى فطرة الإنسان لحكمة بالغة ؛ فهى التى تحفزه إلى طلب ما به قوام حياته المادية والمعنوية . فليس من الصواب مكافحتها ، بل ليس فى الطاقة اقتلاعها ؛ فان الطبع غلاب كل مغالب . ولكننا على الرغم من ذلك نستطيع معالجتها من طريقين : إما بتحويل اتجاهها ، وإما بوقف آثارها .

ومعنى تحويل الاتجاه أن نستبدل بالهدف الأول ، الذى اتجهت إليه رغبتنا بادىء ذى بدء ، هدفا آخر يلهينا عنه ، ويعوضنا منه . بحيث يكون مثلنا فى معالجة أنفسنا مثل مؤدب الطفل حين يراه شديد الشغف بلعبة خطيرة . فالسياسة الرشيدة فى هذه الحال لا تعمد إلى كبت إرادة الطفل كبتا كليا ، بل تقدم له لعبة أخرى تشبهها أو تفضلها . غير أنها تكون عديمة الخطر . وكلما كان الاستبدال لما هو أنفس قيمة وأجزل نفعا ، دل ذلك على حصافة عقل المربى وكمال رشده .

وهكذا علمنا القرآن كيف يكون موقفنا أمام إلحاح رغباتنا الجامحة : خطوراً يأذن لنا أن نشبع رغبتنا بأسلوب آخر نستبدل فيه الحلال بالحرام ، والطيب بالخبيث . وهذا هو علاج الجمهور والعامة . وطوراً يلفتنا عن هذا الوضع الرخيص كله ، ويصرف همتنا عن محقرات الأمور وسفسافها ، موجها إياها نحو معالى الأمور وأشرافها ، وهذه هى رتبة الصفوة والخاصة . وأياما كان فإنه لا يأمرنا بترك التشهى والتمنى إطلاقا ، ولكنه يرسم لنا أهداف هذا التمنى . فلنستمع له حين يقول : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » ثم يقول : « واسألوا الله من فضله » . وهذا نفسه هو الأدب الذىأدب الله به نبيه فأحسن تأديبه ؛ إذ قال له : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه . ورزق ربك خير وأبقى » . وما أجمل الوصية الذهبية التى يقول فيها الرسول العظيم : « خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكرا صابرا . ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً : من نظر فى دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به ، ونظر فى دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه كتبه الله شاكراً صابراً . ومن نظر فى دينه إلى من هو دونه ، ونظر فى دنياه إلى من هو فوقه ، فأسف على ما فاته منها لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً [1] » .

هذه هى سياسة تحويل الاتجاه .

وأما سياسة وقف السير فانها تتبع فى ظروف خاصة ، كأنها استثناء من القاعدة ؛ وحتى فى هذه الحالات الخاصة ، ليس المطلوب منا أن نسكت صوت رغائبنا ، وأن نحملها قسراً على الجمود والخمود ؛ فالله أرحم بنا من أن يكلفنا ما لا طاقة لنا به ؛ وإنما العلاج هو أن ندع جهاز الغريزة يدور حول نفسه ، ولا نقـــدم له المادة التى يطلبها . وتلك هى السياسة التى رسمتها شريعة الصوم ، فطاما لنا عن المشتهيات إطلاقا فى أوقات معلومة . تلك هى سياسة قمع الهوى التى يقول فيها الكتاب المجيد : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى » .

ولا أطيل فى سرد الأمثلة وتعداد الشواهد ؛ فكل غرائزنا ونزعاتنا على هذا النمط ،

---

(١) رواية الترمذى فى صفة القيامة .

لم يجعل الله لنا سبيلا عليها فى تكوينها ولا انبعاثاتها الطبيعية ، ولكنه جعل لنا عليها سلطانا فى ضبطها ، وتوجيهها ، وتنظيم آثارها العملية .

* * *

وإلى القارىء النجيب صورة حسية ملموسة ، لعله يكون قد لمحها من خلال هذا البيان :
فليتصور جهازاً متحركا ، يتألف من ثلاثة أجزاء رئيسية :

(١) مفتاح المحرك (الكونتاكت) .
(٢) دفة التوجيه (الدريكسيون) .
(٣) الرباط (الفرملة) .

وليفترض أن مفتاح المحرك فى اتصال دائم بالمحرك ، وأن المهندس أو السائق لا يستطيع ، لأمر خارج عن إرادته ، منع هذا الاتصال ، وأنه ليس فى متناول يده إلا « الدفة » و « الرباط » - فهل يخليه ذلك من مسئولية المصادمات والتردى فى الحفر التى فى الطريق ، على حين أنه كان فى استطاعته أن يستعمل : إما « الدفة » ، للتحويل عن الخطر ، وإما « الرباط » لوقف العجلات عن السير ، مع بقاء المحرك يدور على نفسه .

ذلك هو مثل الوسائل الخارجة عن ملكنا (القلب الذى مفتاحه بيد الله) ، والوسائل التى خوّلها الله لنا فى قيادة أعمالنا (العقل والإرادة) ، وهذه الوسائل الأخيرة هى الفيصل بين طبيعة الكائنات الحية المسخرة لغرائزها ، وطبيعة الإنسان المسيطرة على قواه ، المسئول عن حسن سيرها . فلو تناول الإنسان كل ما اشتهى ، ومد يده وسمعه وبصره إلى كل ما يهوى ، وترك نفسه كالكرة أمام صولجان عواطفه ، يطيعها طاعة عمياء ، دون تروّ ولا توقف ، ولا تنظيم ولا تنسيق ، فأى ميزة يمتاز بها عن الحيوان الهائم على وجهه ، الذى لا عقل له ولا عقال ؟

ألا فلنفكر فى صلة النسب بين هاتين الكلمتين : كلمة « العقل » وكلمة « العقال » فإن العقل ما هو إلا عقال معنوى ، وقيد أدبى ، جامع مانع ، جالب دافع ؟ فبه نقيد حركاتنا ونحجزها عن الشرود والوقوع فى مهاوى الخطأ والضلال ، وبه نقيد شوارد العلوم والمعارف التى تهدينا سواء السبيل . وإن هدى الله هو الهدى .

محمد عبد الله دراز
عضو جماعة كبار العلماء

أزمة الفقه الإسلامي

نظرية السبب في العقد

١ — نحب ونحن نتكلم عن طريق الإفادة من الفقه الإسلامي وعن الأزمة التي يعانيها منذ قرون طويلة [١] ، أن نؤكد أن هذا الفقه غني كل الغنى بأحكامه وحلوله التي جاء بها لمختلف المسائل والمشاكل التي كانت في عصوره المختلفة ، ولكن مما ينقصه أن يقوم الفقهاء والمعنيون بالدراسات الفقهية في هذا الزمن بأمرين :

(ا) العمل على أن يتطور « الفقه » — في حدود الكتاب والسنة وأصوله المعروفة — ليعيش في كل عصر مع الزمن ، لا على هامشه كما هو الحاصل الآن بكل أسف ، وأن يكون هذا على غرار ما كان من الصحابة والفقهاء الأولين ، فإن هذا التطور في فقه الإسلام بدأ منذ عصر الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، بل منذ عهد عمر بن الخطاب نفسه حين كان الإسلام غضاً وقوياً ، وحين كانت تعاليم الرسول صلوات الله عليه لا تزال حارة دافقة خصبة تحس بها قلوب المسلمين جميعاً [٢] .

نعم إن الأحداث التي حدثت بين عصر الرسول وعصر الفاروق ، كانت من الكثرة والقوة والسعة والعرض بدرجة استلزمت هذا التطور ؛ فليس يقاس الزمن بالطول فقط ، بل بالعرض أيضاً ، وربما كانت الفترة القصيرة منه أحفل بالأحداث من الفترة الذاهبة في الطول إلى مدى بعيد ، ولعل الفترة التي مرت منذ ثورة الجيش المصري المباركة مصداق ما نقول هذه الأيام .

(ب) استخلاص النظريات الفقهية العامة التي تندرج تحت كل منها طائفة عديدة

---

[١] راجع العددين الماضيين : جمادى الأولى وجمادى الآخرة .

[٢] مثل تطور الفقه في فجر الاسلام كثيرة ، ونشير هنا إلى بعض ما كان من ذلك أيام سيدنا عمر ابن الخطاب : إمضاء الطلاق الثلاث بكلمة واحدة ثلاث طلقات ، إسقاطه سهم المؤلفة قلوبهم من الصدقات ، وعدم قسمة أرض العراق ونحوها بين الفاتحين .

من الحلول والأحكام التطبيقية ، بدل أن يظل الفقه الإسلامى على ما نعرف من كثرة التفريعات ، دون العناية بتأصيل النظريات العامة .

وهذا على عكس ما يتميز به الفقه الغربى هذه الأيام ، نعنى العناية باستخلاص النظريات وتأصيلها ، ثم دوران البحوث عليها ، وأخيراً يجىء التطبيق والتفريع .

وليس هذا الذى ندعو إليه هنا بجديد كل الجدة ، فقد عنى غير قليل من الفقهاء بهذه الناحية ، وإنما الجديد هو أن نستأنف عمل هؤلاء السابقين ، ونستطيع أن نذكر من بين هؤلاء الفقهاء الأمجاد : ابن رجب الحنبلى صاحب القواعد الفقهية ، وابن جُزَى المالكى صاحب القوانين الفقهية ، وابن نجيم الحنفى ، والإمام جلال الدين السيوطى الشافعى ، وكلاهما صاحب كتاب فى الأشباه والنظائر .

٢ — وبعد أن أشرنا إلى هذين الأمرين اللذين يجب العناية بهما هذه الأيام أشد عناية ، نذكر أن كبير رجال القانون فى مصر وهو الأستاذ الكبير الدكتور عبد الرزاق السنهورى ذكر فى بعض دروسه فى قسم الدكتوراه بكلية الحقوق من جامعة القاهرة منذ بضعة أسابيع ، أن الفقه الإسلامى لم يعرف نظرية السبب فى العقود .

وللأستاذ الكبير كل العذر حين يذهب إلى هذا الرأى ، فإن أحداً من رجال الفقه الإسلامى فى مصر لم يحاول التعمق فى البحث والتنقيب فى التراث الفقهى الإسلامى فى هذه الناحية ، مع أنه من الحق أن نؤكد أن جرثومة هذه النظرية نجدها واضحة فيما ترك بعض الفقهاء القدامى ، وإن كنا قد أغفلنا متابعتهم فى البحث قروناً طويلة فى هذا السبيل . ولولا هذا الإغفال من جانبنا ، الذى كان نتيجة الكسل والقناعة العلمية بما لدينا من قديم لعرفنا أن الفقه الإسلامى عرف هذه النظرية فى أسسها وأصولها العامة ، بل وفى كثير من فروعها وتطبيقاتها ، هذه النظرية التى عرفها البحث القانونى فى الغرب منذ عصور طويلة .

٣ — ذلك ، أنه من الحق أن نقرر أن رجال الفقه والقضاء فى الغرب قد عنوا بهذا البحث الدقيق منذ قرون طويلة . وكان من هذه العناية ، ومما امتازوا به من الروح التحليلية والفلسفية ، أن تكونت عندهم نظرية لسبب العقد أو الالتزام بعامة .

نجد هذا لدى الرومان فى عصورهم المختلفة ، ولدى الفقهاء الفرنسيين وغيرهم فى الزمن

القديم والحديث ، ثم لدى رجال القانون فى مصر متأثرين ومستلهمين رجال القانون فى أوربة [١].

٤ — ومن أجل ذلك ، ومن باب التطبيق لما ندعو إليه من ضرورة استخلاص النظريات العامة فى الفقه الإسلامى ، رأينا أن نحاول بهذه الكلمة والتى بعدها إن شاء الله تعالى بيان ما قد يكون من التفات الفقهاء المسلمين لاعتبار سبب صحيح للعقد أو الالتزام ، وذلك ليترتب عليه أثره الشرعى ، ثم مقدار عنايتهم بهذه الناحية.

وهنا ، نذكر أنه إن فات هؤلاء الفقهاء أن يبحثوا « سبب العقد » فيما تركوا لنا من تراث فقهى مجيد ، فإنه لم يفتهم بحث ذلك فى علم أصول الفقه . وقد كانوا بحاجة لهذا البحث ما دام السبب الصحيح شرعاً يعتبر شرطاً لابد منه فى العقد والالتزام ، إن لم نقل يكاد يكون ركناً من أركانه . وبخاصة ، وهذا يعم جميع أبواب الفقه من عبادات ومعاملات ، فكل من ضروب المعاملات لا بد له من سبب شرعى يختلف باختلاف العقود والتصرفات.

٥ — وبحث السبب فى العقد يتطلب منا أن نعرض لهذه النواحى :

(ا) تعريفه ومعانيه وما يراد منه فى الفقه.

(ب) الشروط التى يجب أن تتوفر فيه ليكون سبباً صحيحاً شرعا يجب رعايته.

(ح) حكم التصرف المجرد عن السبب ،

٦ — فمن ناحية تعريفه ، نستطيع أن نذكر أن « السبب » فى باب العقود هو « الغرض المباشر المقصود فى العقد » ، وذلك أخذاً من كلام علماء أصول الفقه حين يتكلمون عن السبب أو الغرض أو المقصد.

ذلك ، بأنه من أصول الشريعة الإسلامية « أن كل فاعل عاقل مختار إنما يقصد بعمله غرضاً من الأغراض ، حسناً كان أو قبيحاً ، مطلوب الفعل أو الترك أو غير مطلوب شرعا » . [٢] ولهذا ، « قد تظاهرت أدلة الشرع وقواعده على أن القصود فى العقود معتبرة ،

---

[١] يرجع فى ذلك إلى النظرية العامة للموجبات والعقود فى الشريعة الاسلامية ، للدكتور صبحى محمصانى ، ح ٢ : ٨٣ وما بعدها ؛ الوسيط للأستاذ السنهورى ، ص ٤١٧ وما بعدها ، وص ٤٣٥ وما بعدها ، وص ٤٧١ وما بعدها . وانظر أيضاً ، فى نظرية السبب بصفة عامة ، نظرية الالتزام فى القانون المدنى المصرى ، للدكتور أحمد حشمت أبو ستيت ، مطبعة مصر عام ١٩٤٥ م ، ص ١٦٦ وما بعدها .

[٢] الموافقات للشاطبى ، ح ٢ ، ٢٢٧

وأنها تؤثر فى صحة العقد وفساده وفى حله وحرمته ، بل أبلغ من ذلك ، وهى أنها تؤثر فى الفعل الذى ليس بعقد تحليلا وتحريما ؛ فيصير حلالا تارة وحراما تارة باختلاف النية والقصد ، كما يصير صحيحاً تارة وفاسداً تارة باختلافها »[1] .

ونتيجة هذا كله ، أن يكون لكل فعل أو تصرف أو عقد غرض أوسبب يجب قصده ، و « أن كل تصرف لا يترتب عليه مقصوده لايشرع » كما يقول الإمام القرافى . أو كما يقول أيضاً فى موضع آخر ، « كل تصرف كان ، من العقود كالبيع أو غير العقود كالتعزيرات ، وهو لا يحصل مقصوده ، فإنه لا يشرع ويبطل إن وقع » إلى آخر ما قال[2] .

ولذلك ، امتنع بيع الحر ونكاح المحرم ، والإجارة على الأفعال المحرمة ، وتعزير من لايعقل الزجر كالسكران والمجنون ، فإن مقاصد أو أسباب هذه العقود والتصرفات لا تحصل بها ، والأمر واضح كما نرى .

٧ — على أن للسبب إطلاقات ومعانى عديدة مختلفة فيما بينها ، فلا ينبغى لنا أن نخلط بينها ، إذ لكل منها معنى خاص قد لا يكون هو المراد هنا ، وهذه الإطلاقات ـ كما يذكر الإمام الغزالى ـ[3] هى :

(ا) ما به يحل ويحرم المال وغيره من موضوعات العقود ، وهذا كالبيع والإجارة والزواج وغير ذلك من العقود ، فالعقود على هذا تعتبر أسباباً ظاهرة لحل أو حرمة موضوعاتها التى ترد عليها .

(ب) الفعل المباشر الذى يؤدى إلى نتيجة ما ، كالرمى بالسهم أو الرصاص ، فإنه يعتبر سبباً لما ينتج عنه من القتل ، وإن كان هذا قد حصل بالإصابة فعلا لا بمجرد الرمى الذى يخطىء هدفه ، فهى على التحقيق سبب لعلة القتل . ومن هذا القبيل حفر البئر الذى يعتبر سبباً لموت من يتردى فيه ، وإن كان السبب الحقيقى هنا هو التردى فى البئر لاحفره ، ولكن سمى سبباً لحصول الهلاك عنده .

---

[١] إعلام الموقعين لابن القيم ، ح ٣ ، ٩٦

[٢] الفروق ، ح ٣ ـ ٢٥٤ ، وانظر أيضا ص ١٧١ ـ ١٧٢

[٣] المستصفى ، ح ١ ـ ٩٢ ـ ٩٤

(ح) ما يحسن إضافة الحكم إليه ، مثل ملك النصاب يعتبر سبباً لوجوب الزكاة ، دون حولان الحول عليه وإن كان هذا شرطاً لابد منه لوجوب الزكاة . فهنا ، نرى أن ملك النصاب هو سبب وجوب أداء الزكاة ، ومرور العام على هذا الملك شرط ضرورى لوجوبها .

٨ — وبعد الغزالى المتوفى عام ٥٠٥ ﻫ نجد غيره من الأصوليين قد تكلموا فى السبب وما يطلق عليه لغة ، ثم على ما يراد به فقها ، وعلى منزلته من الحكم الشرعى . ومن هؤلاء سيف الدين الآمدى المتوفى عام ٦٣١ ﻫ ، إذ يقول : « والسبب فى اللغة عبارة عما يمكن التوصل به إلى مقصود ما ، ومنه سمى الحبل سبباً والطريق سبباً ، لإمكان التوصل بهما إلى المقصود . وإطلاقه فى اصطلاح المتشرعين على بعض مسمياته فى اللغة ، وهو كل وصف ظاهر منضبط دل الدليل السمعى على كونه معرفا لحكم شرعى »[1] .

ومن هؤلاء الأصوليين أيضاً ، أبو إسحاق الشاطبى المتوفى عام ٧٩٠ ﻫ إذ يذكر أن المراد بالسبب ما وضع شرعا لحكمة يقتضيها ذلك الحكم ، كما كان حصول النصاب سبباً فى وجوب الزكاة ، والزوال سبباً فى وجوب الصلاة ، والسرقة سبباً فى وجوب القطع ، والعقود أسباباً فى إباحة الانتفاع أو انتقال الأملاك ، وما أشبه ذلك[2] .

٩ — وواضح مما تقدم ، أنه لا يراد بالسبب الذى نحن الآن بصدد بحثه فى العقد شىء من هذه المعانى التى يطلق السبب عليها بصفة عامة فى اللغة وأصول الفقه . وإنما المراد به هنا ما سبق أن ذكرناه من أنه الغاية أو الغرض المباشر المقصود فى العقد ، أى الذى دفع المتعاقدين إلى عقده . وهذا المعنى واضح من الشذرات التى نقلناها عن الفقهاء ، الآن عند ما أردنا تعريفه .

ونعتقد أخيراً ، أنه من الحق أن نؤكد ما قررناه سابقاً من أنه يمكن بشىء من البحث والاستقصاء استخلاص نظرية فى « سبب العقد » من الفقه الإسلامى ، هذه النظرية التى تقوم على وجوب تعرف إرادتى طرفى العقد والغرض أو المقصد الذى يستهدفانه من العقد .

وفى الكلمة الآتية تمام الحديث إن شاء الله تعالى ، بالكلام على شروط السبب والحكم الشرعى للتصرف المجرد منه .

الدكتور محمد يوسف موسى

---

(١) الأحكام ، ح ١ ١٨١

(٢) الموافقات ، ح ١ ، ١٨٥ .

شهر التصرفات بين القانون والشريعة

الغاية من التقنين الوضعى فى كل أمة تنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات فى المعاملات الجارية بينهم ، وتدبير أمور الناس بما يحقق الصوالح العامة والخاصة ويدرأ الضرر عن المجتمع ، وهذا بعينه هو مقصد الشرع الإسلامى . بيد أن الأساس فى التقنين أفكار الناس وعقولهم فى نطاقها الضيق المحدود بحـــدود الزمان والمكان ، وقد تؤثر فيه الأغراض والأهواء ، ثم إن العقول بطبيعتها خطاءة ما لم يعصمها نور من الله .

أما الأساس فى الشريعة فوحى الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وما نزل إلا ليكون منارة للعقول يهديها فى مشاكل الحياة الهائجة التى طالما ضل فى علاجها أئمة الاجتماع والاقتصاد والسياسة عند ما سلكوا غير سبيل الإسلام كضلال الملاح فى بحر لجى ، يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

إن يد ذلك الشرع البصير قد غلت عن تدبير أمر الناس فى مصر منذ عشرات السنين فى الأمور المالية والجنائية ، وكم فه عن توجيههم برأى السماء ، وترك التدبير لآراء استعمارية مفروضة بقوة المدفع وقوة التقليد الأعمى ، حتى بلغ بنا الأمر على مر السنين أن كان البعض منا يقول : إنما الوحى من أوربا لا من الله .

فالمفروض علينا الآن لنرد الحياة القانونية إلى الإسلام فى انسجامه واعتداله ، أن ننظر إلى القوانين الوضعية المدبرة لنبحث مواضع التجديد فيها أو ما يظن تجديدا ، ونوازن بينه وبين آراء المجتهدين المستمدة من نور الكتاب والسنة ، فنرى أيها نقره وأيها نعدله وأيها نلغيه ، لنعود بقوانيننا إلى الصراط المستقيم .

ومسألة اليوم هى تحتيم القوانين المصرية شهر بعض التصرفات وإعلانها بتسجيلها فى مكاتب الشهر العقارى لترتيب آثارها عليها . فقد جاء فى المادة ٩٣٤ ، ١٠٥٣ من القانون

المدنى والمادة ٩ من قانون الشهر العقارى أن جميع التصرفات الواردة على العقار التى من شأنها إنشاء حق من الحقوق العينية الأصلية كالملك فى البيع ، وحق الحبس فى الرهن ، والحبس فى الوقف ، أو التى من شأنها نقله أو زواله ، لا تترتب عليها هذه الأحكام إلا إذا شهرت بتسجيلها فى سجل الشهر العقارى . وهذه النصوص شاملة للعقود العوضية وعقود التبرعات كالهبة والوصية ، كما أنها شاملة للرهن والإيجار الزائد على ثلاث سنوات . والمادة الأولى من قانون الوقف تنص على أن الوقف لا يصح إلا إذا صدر به إشهاد أمام المحاكم الشرعية وضبط فى سجلاتها . ومقصود القوانين السابقة أن أحكام هذه التصرفات لا تثبت بين المتعاقدين أو فى حق الغير إلا بالتسجيل ، اللهم إلا فى عقد الرهن فإن التسجيل فيه شرط لنفاذه فى حق الغير ، وهو نافذ فى حق المتعاقدين من حين العقد . وقد أبانت المذكرات التفسيرية أن العقود مالم تسجل ليست إلا التزامات شخصية تترتب عليها الحقوق التى من شأن هذه التصرفات إفادتها ، كالتعهد بإتمام التصرف والمطالبة بباقى العوض واسترداده إن لم يتم التصرف . وأبانت أيضاً أن الوقف بدون إشهاد باطل .

ونحن نعلم من المنصوص فى الفقه أن التصرفات تترتب عليها آثارها بمجرد الإيجاب والقبول ، أو الإيجاب فقط فى الإرادة المنفردة دون اشتراط كتابة أو تسجيل . والذى دعا المقننين إلى القول بضرورة التسجيل هو ما شوهد من التحايل فى العقود والتلاعب بالحقوق وعدم احترامها بغية ابتزاز أموال الناس وإضاعتها عليهم ، فقد يبيع إنسان داره أو يرهنها ويقبض المال ، ثم يبيعها أو يرهنها لشخص آخر جاهل بالتصرف الأول . وقد يقف أرضه على مسجد ، ثم يعبث بالوقف فيبيعها أو يغتصبها غيره وتتعذر إقامة الدليل على الوقف . وهكذا أسرف الناس فى تجاحد الحقوق ، فروى شهر التصرفات العقارية ليكون عاصما من هذه الحيل ؛ فأصبح مريد الشراء أو الرهن لا يقدم إلا بعد علمه بخلو العين من الحقوق العينية ، وأصبح المالك والمرتهن آمنين من طغيان الغير على حقهما .

والفقه لا يعترض على صيانة الحقوق ، لكنه يعترض على الوسيلة التى اتبعت فى ذلك ، ولكى نعرف رأيه ينبغى أن نتبين التكييف الفقهى للتصرف الذى لم يسجل .

يتبين من العرض السابق لما حوته النصوص والمذكرات أنه تصرف استوفى أركانه وشرائطه ، غير أن أحكامه لا تترتب عليه إلا بالتسجيل ، بمعنى أنه إن سجل نفذ وإن لم يسجل بطل ، ومثل هذا الوضع يحكم عليه الفقه بأنه تصرف موقوف على التسجيل ، ويتبين فى الوقف غير المسجل أنه باطل .

والشريعة : ترى أن هذه التصرفات قبل التسجيل صحيحة نافذة تترتب عليها آثارها بمجرد انعقادها شفاها أو كتابة، وولى الأمر لا يستطيع أن يحكم على العقود النافذة إجماعا بأنها موقوفة بقوة سلطانه كما جاء فى قوانين التسجيل ، نعم نستطيع فى الوقف أن نصوب اعتبار واضع القانون الإشهاد من شروط صحته ، وذلك بأن يحكم عليه عند عدم الإشهاد بالبطلان أخذاً برأى من يذهب إلى بطلان الوقف كله كشريح وأحمد بن صالح وإحدى الروايتين عن أبى حنيفة ، ويحكم عند الإشهاد بصحته أخذاً برأى الجمهور .

أما فى عقود التمليك وعقد الرهن فاعتبارها موقوفة بأمر الحاكم غير جائز لأنه خروج على إجماع الفقهاء القاضى بترتب الملك على عقود التمليك وحق الحبس على الرهن فور حصولها إلا لمانع شرعى كبيع الفضولى .

ونظرة إلى متقدمى الفقهاء ترينا كيف وقفوا أمام مثل هذه المشكلة الاجتماعية : فقد كثر ادعاء الملكية لعقارات أو منقولات فى حوزة ملاكها الذين طالت مدة وضع يدهم عليها ، وربما حكم للمدعين بحجج زائفة تقدم منهم ، وكان فى ذلك خطر على الحقوق التى يجب أن تصان ؛ لأن وضع اليد المدة الطويلة ، من غير اعتراض من أحد عليه مع التمكن من الاعتراض قرينة عرفية على صحة اليد وكذب الدعوى ، فأجاز الفقهاء للحاكم علاجا لهذه المشكلة أن يمنع القضاة من سماع دعوى العقار بعد مضى المدة الطويلة .

نقل الحموى فى حاشية الأشباه عن يحيى المنقارى أن سلاطين آل عثمان أمروا قضاتهم فى جميع ولاياتهم أن لا يسمعوا دعوى بعد مضى خمس عشرة سنة سوى دعوى الوقف والإرث ، ونقل فى الفتاوى الحامدية عن المذاهب الأربعة عدم السماع بعد نهى الحكام . وسندهم فى المنع من مثل هذه الدعاوى هو أن لولى أمر الدولة تخصيص القضاء بالزمان والمكان وبنوع من القضايا .

وهذا المبدأ عمل به المقنن المصرى فى دعوى الزواج فمنع من سماعها إلا إذا كان الزواج ثابتاً بوثيقة رسمية وحصل فى سن معينة للزوجين ، وهذا المنع كف الناس عن مباشرة الزواج إلا بالشرطين السابقين فابتعدوا بذلك عن أضرار صحية واجتماعية بالغة كالعقم والشقاق بين الزوجين والطمع فى مال القصر ، وأخذ به أيضا فى الوقف قبل صدور القانون الأخير حيث نص فى لائحة ترتيب المحاكم الشرعية على أنه لا تسمع دعوى الوقف غير المسجل .

فلو أن واضع القانون المدني أخذ بهذا المبدأ فنع من سماع الدعوى بالتصرفات غير المسجلة لوفى بالمصالح المرجوة من غير خروج على الشريعة.

وبعض إخواننا من فقهاء سوريا يرى أن العقد غير المسجل باطل بعد أن صدر قانون التسجيل، وكان قبل ذلك صحيحاً شرعا، لكن لولى الأمر أن يأمر ببطلان العقود الصحيحة للمصلحة. واستدل على هذا المبدأ بفتوى أبي السعود مفتى آل عثمان فى أوائل القرن العاشر الهجرى عند ما سئل عمن وقف على أولاده هربا من الديون، هل يصح وقفه؟ فأجاب بأن وقفه باطل، والقضاة ممنوعون من قبل السلاطين عن تسجيله وعن الحكم به صيانة لأموال الدائنين.

ففهم المستدل من الفتوى أن الوقف الصحيح ينقلب باطلا بأمر ولى الأمر، فأخذ منه مبدأ عاما هو أن التصرف الصحيح يصير باطلا بأمر الحاكم للمصلحة الداعية [1]. لكن أمر الحاكم لا يجعل الصحيح فاسدا إلا بمستند من تقليد لأحد الفقهاء أو اجتهاد، على أن العقود المجمع على صحتها كالبيع والرهن والزواج لا يصح الاجتهاد المؤدى إلى بطلانها، لأن الاجتهاد فى مقابلة الإجماع باطل.

وأما فتوى أبي السعود ببطلان وقف المدين فليست مستمدة من الأمر، بل هى ترجيح لمذهب المالكية، وأمر السلاطين بالمنع من القضاء بصحته تخصيص للقضاء بهذا المذهب، لأن المصلحة كانت فى العمل به، ومن الأصول المقررة جواز ترجيح مذهب معين، والأمر باتباعه للمصلحة، ومذهب المالكية بطلان وقف المدين بدين مستغرق أو غير مستغرق إذا كان الباقى بعد الوقف لا يكفى للوفاء به. ويمكن أن تكون الفتوى وأمر السلاطين عملا بإحدى الروايتين عن أبي حنيفة، وهى القول ببطلان الوقف.

أما بطلان العقود الصحيحة بمجرد الأمر من غير أن يكون له مستند من تقليد أو اجتهاد فلا يمكن أن يكون مبدأ فقهيا يستخدم فى تدبير أمور الناس، وإلا لدخل على الشريعة من قبل الحكام التبديل والمحو والزيادة والنقص والعياذ بالله، ولاسيما أنهم لم يرتفعوا إلى مرتبة المجتهدين الذين يعرفون وجه المصلحة والاستمداد من الأدلة، وكثر منهم الظالمون الذين يجهلون طريق المعدلة. والله أعلم بأحكامه.

أحمد فهمى أبو سنة
المدرس بكلية الشريعة

---

(١) انظر (المدخل الفقهى) للاستاذ الزرقاء حـ ١ ص ٩٩

حقيقة الوجوب والنهي

وعدنا القارىء فى مقالنا السابق بمواصلة بحث الأحكام التكليفية والوضعية . وها نحن أولاء نفى بهذا الوعد فنبدأ بذكر الواجب وما يتعلق به من أبحاث ، مع ذكر الخلاف بين اصطلاحى الحنفية والشافعية فى الفرض والواجب ، حتى يزول ما يعلق بالذهن من شبه حين النظر فى بعض المسائل الفقهية التى يقع فيها الخلاف بين الشافعية والحنفية .

تعريف الواجب لغة وشرعا : الوجوب فى اللغة يطلق بمعنى السقوط ، وفيه يقال « وجبت الشمس » إذا سقطت . « ووجب الحائط » إذا سقط . وقد يطلق بمعنى « الثبوت والاستقرار » ومنه قوله عليه السلام « إذا وجب المريض فلا تبكين باكية » أى استقر ، وزال عنه التزلزل والاضطراب .

وأما الوجوب فى العرف الشرعى فقد ارتضى فيه الغزالى تعريف القاضى أبى بكر الباقلانى إذ يقول « هو الذى يذم تاركه ويلام شرعا بوجه ما » لأن الذم أمر ناجز والعقوبة مشكوك فيها لجواز العفو ، ويشمل التعريف : الواجب المعين ، والواجب المخير ، والواجب الموسع . فإنه يلام على تركه مع ترك العزم على امتثاله . ولا فرق بين الواجب والفرض عند الشافعية بل هما من الألفاظ المترادفة كالحتم واللازم .

تفرقة الحنفية بين الفرض والواجب : وفرق الحنفية بينهما ، فخصوا الفرض بما يقطع بوجوبه ، وخصوا الواجب بما لا يدرك إلا ظناً . ولا ينكر الشافعية انقسام الواجب إلى مقطوع ومظنون . فيرجع الأمر إلى مجرد الاصطلاح ، وقد اشتهر بين العلماء أنه لا مشاحة فى الاصطلاح إذا ما فهمت المعانى وتمايزت الحقائق واتضحت .

ويقرب تعريف القاضى أبى بكر من تعريف الآمدى إذ يقول « الوجوب الشرعى عبارة عن خطاب الشارع بما ينتهض تركه سبباً للذم شرعا فى حالة ما » وشرح هذا التعريف بقوله : إن القيد الأول وهو « خطاب الشارع » يمنع من خطاب غير الشارع . والقيد الثانى وهو « انتهاض تركه سبباً للذم شرعا » يخرج بقية الأحكام الشرعية . والقيد الثالث

وهو « وجود الذم فى حالة ما » يجعل التعريف شاملا للواجب الموسع إذا ترك فى أول الوقت بدون عزم على الامتثال وأداء الفعل فيما بعد ، كما يشمل ترك الواجب المخير .

تعريف الفرض ، نظر الحنفية فى الفرض والواجب : والفرض فى اللغة يطلق بمعنى التقدير ، قال تعالى (فنصف ما فرضتم) أى قدرتم ؛ وبمعنى القطع ؛ قال تعالى (نصيباً مفروضاً) أى مقطوعا محدوداً . ويطلق الفرض على ما يعطى بغير عوض ، تقول العرب « ما أصبت منه قرضاً ولا فرضاً » ، ويطلق بمعنى الإنزال كقوله تعالى (إن الذى فرض عليك القرآن) أى أنزل . ويطلق بمعنى التبيين ؛ قال تعالى (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) أى بينها . ويطلق بمعنى الإحلال ؛ قال تعالى (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) أى أحل الله له .

وقد رتب الحنفية أحكاما مختلفة لكل من الفرض والواجب بناء على قطعية الدليل بالنسبة للفرض وظنيته بالنسبة للواجب ، وها هى عبارة البزدوى حيث يقول « وأما الفرض فحكمه اللزوم علماً وتصديقاً بالقلب وهو الإسلام . وعملا بالبدن وهو من أركان الشرائع ، ويكفر جاحده ويفسق تاركه بلا عذر . وأما حكم الوجوب فلزومه عملا بمنزلة الفرض لا علماً على اليقين لما فى دليله من الشبهة حتى لا يكفر جاحده ويفسق تاركه إذا استخف بأخبار الآحاد . فأما متأولا فلا ، لأن الدلائل نوعان : مالا شبهة فيه من الكتاب والسنة ، وما فيه شبهة ، وهذا أمر لا ينكر . وإذا تفاوت الدليل لم ينكر تفاوت الحكم . وبيان ذلك أن النص الذى لا شبهة فيه أوجب قراءة القرآن فى الصلاة وهو قوله تعالى « فاقرءوا ما تيسر من القرآن » . وخبر الواحد فيه شبهة يعين الفاتحة فلم يجز تفسير الأول بالثانى بل يجب العمل بالثانى على أنه تكميل لحكم الأول مع إقرار الأول وكذلك الكتاب أوجب الركوع وخبر الواحد أوجب التعديل فيه . والمتتبع لكتب الفقه الحنفى يرى فروقاً كثيرة وأحكاما متباينة لكل من الفرض والواجب .

نظر الشافعى فى الفرض والواجب : وإذا ذكرنا الفرض والواجب عند الحنفية وبينا وجهة نظرهم فى الاختلاف بينهما ، فيحسن بنا أن نذكر وجهة نظر الشافعى فى الفرض والواجب . وقد جعلهما الشافعى فى نقطتين مترادفتين لمعنى واحد منكراً التفرقة بينهما . وقال هما مترادفان ويطلقان على معنى واحد وهو الذى يذم تاركه ويلام شرعاً بوجه ، سواء

ثبت بدليل قطعى أو ظنى ، واختلاف طريق الثبوت لايوجب الاختلاف فى حقيقة الفرض والواجب ، وتخصيص اسم الفرض بالمقطوع والواجب بالمظنون تحكم ، لأن الفرض هو التقدير مطلقاً سواء أكان مقطوعاً به أم مظنوناً . وكذلك الواجب هو الساقط سواء أكان مظنوناً به أم مقطوعاً . فكان تخصيص كل واحد بقسم تحكما . ومجمل القول فى هذا النزاع أن وجوب العمل فى الواجب عند الشافعى مثل وجوب العمل فى الفرض ، والتفاوت بينهما فى ثبوت العلم وعدمه . وعند الحنفية التفاوت بينهما ثابت فى وجوب العمل أيضاً حتى كان وجوب العمل فى الفرض أقوى من وجوبه فى الواجب ، ولم ير الشافعى وبقية الأئمة فرقا بين الفرض والواجب إلا فى الحج استناداً إلى دليل شرعى يوجب التفرقة ، فقد ورد عن الشارع فى بعض أفعال الحج أن تركها مفسد له فسميت أركانا ، وفى بعضها أن تركه غير مفسد له ويجبر بدم فسميت واجبات .

نظر الحنفية فى النهى : ولما فرق الحنفية بين الفرض والواجب جعلوا النهى موجباً للتحريم إن كان ثابتاً بطريق القطع ، وموجباً لكراهة التحريم إن كان ثابتاً بطريق مظنون . وعلى ذلك تكون الأحكام التكليفية عندهم سبعة : واجبة ، ومفروضة ، ومندوبة ، وحراما ومكروهة كراهة تحريم ، ومكروهة كراهة تنزيه ، ومباحة .

عبد الله المراغى
مدير المساجد بوزارة الأوقاف

التربية بالقدوة

كتب أمير المؤمنين عمر إلى أبى موسى الأشعرى واليه على البصرة :

« إن أسعد الرعاة عند الله من سعدت به رعيته ، وإن أشقى الرعاة من شقيت به رعيته . وإياك أن ترتع فيرتع عمالك ، فيكون مثلك عند الله كمثل البهيمة نظرت إلى خضرة من الأرض فرتعت فيها تبتغى بذلك السمن ، وإنما حتفها بسمنها » .

نشأة كتب الأمالي وخصائصها

– ٣ –

أمالي ثعلب

ثعلب هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني المعروف بثعلب ، إمام الكوفيين في النحو واللغة والحديث .

ولد سنة مائتين ، وابتدأ النظر في العربية والشعر واللغة وهو في سن السادسة عشرة .

روى ياقوت عنه وهو يتحدث عن نفسه :

« حذقت العربية ، وحفظت كتب الفراء كلها ، حتى لم يشذ عني حرف منها ، ولي خمس وعشرون سنة ، وكنت أعنى بالنحو أكثر من عنايتي بغيره ، فلما أتقنته ، أكببت على الشعر والمعاني والغريب » .

وقد ظهرت كل أنواع هذه الثقافات في أماليه ظهوراً واضحاً ، فهي تمثل بحق ضروب دراسته وألوان ثقافته .

عاش أبو العباس ثعلب دهرا طويلا ما بين سنتي (٢٠٠ ، ٢٩١ هـ) وقضى حياة حافلة بخدمة النحو واللغة والأدب في بيئة بلغت فيها المنافسة بين البصريين والكوفيين غايتها إذ ذاك .

شيوخه :

لقد طلب أبو العباس كل علم من أهله ، فجلس إلى ابن الأعرابي في اللغة ، وتلقن على سلمة بن عاصم النحو ، وروى كتب أبي زيد الأنصاري عن ابن نجدة ، وكتب الأصمعي عن أبي نصر ، وكتب أبي عمرو عن ابنه عمرو . فاجتمع له بذلك علم واسع صحيح ، جعل شيوخه أنفسهم يلجئون اليه .

قال ياقوت : كان ابن الأعرابي إذا شك في شيء يقول لثعلب : ما عندك يا أبا العباس في هذا ؟ ثقة بغزارة حفظه .

ومن شيوخه كذلك محمد بن حبيب ، وفيه يقول : حضرت مجلسه فلم يُمْلِ ، وكان والله حافظاً صدوقاً .

ومنهم محمد بن عبد الله بن قادم ، وكان من أعيان أصحاب الفراء .

ومنهم ابراهيم بن اسحاق بن بشير الحربي ، حدث أبو عمر الزاهد قال : سمعت ثعلبا مرارا يقول : ما فقدت ابراهيم الحربي من مجلس لغة أو نحو خمسين سنة .

ومنهم ابراهيم بن المنذر الحزامى ومحمد بن سلام الجمحى والزبير بن بكار .

ومنهم أبو الفضل العباس بن فرج الرياشي البصرى .

وكان لأبي العباس ولوع بأن يحضر مجالس العلماء للإفادة منهم .

قال ياقوت فى معجم الأدباء نقلا عن الصولى :

قال أبو العباس ثعلب : لم أسمع من جماعة كلهم قد رأيته وتمكنت منه ، ولو أردت ذلك ما فاتنى عنهم جميع ما أطلب ، منهم أبو عبيد القاسم بن سلام واسحاق الموصلى وأبو توبة ، والنضر بن حديد . وإنى لأذكر موت الفراء ذكراً جيداً ، وأنا فى الكتاب .

ويروى الخطيب البغدادى فى تاريخه أن ثعلبا قال :

كنت أحب أن أرى أحمد بن حنبل فصرت اليه ، فلما دخلت عليه قال : فيم تنظر ؟ فقلت : فى النحو والعربية . فأنشدنى أبو عبد الله أحمد بن حنبل :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل علىّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ما مضى ولا أن ما تخفى عليه يغيب
لهونا عن الايام حتى تتابعت ذنوب على آثارهن ذنوب
فياليت أن الله يغفر ما مضى ويأذن فى توباتنا فنتوب

وكان مع اشتغاله بعلوم العربية لا يزال به حنين ينازعه إلى علوم الدين .

قال أبو بكر بن مجاهد ، كما ذكر صاحب نزهة الالباب :

كنت عند أبى العباس أحمد بن يحي ثعلب فقال لى : يا أبا بكر ، اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن ففازوا ، واشتغل أصحاب الحديث بالحديث ففازوا ، واشتغلت أنا بزيد وعمرو ، فليت شعرى ماذا يكون حالى فى الآخرة ؟!

تلاميذه :

وأما تلاميذه فكثير ما هم ، وأشهرهم هو أبو عمر الزاهد محمد بن عبد الواحد ، كان من أكابر أهل اللغة وأحفظهم لها ، وكان يعرف بغلام ثعلب .

وكان يشاركه فى هذا اللقب محمد بن على بن الحسين أبو طالب النحوى ، كان يسمى كذلك غلام ثعلب .

وممن كان يسمى (ثعلبا) من النحويين محمد بن عبد الرحمن النحوى .

كان ثعلب يتولى زعامة مدرسة الكوفة ، على حين كان المبرد يتزعم أهل البصرة . وكل منهما كان علما وإماما فى صناعة العربية ، فأحدث ذلك بينهما من المنافسة ما حفظه التاريخ وسجله الشعر .

حكى ابن السراج قال : كان بين المبرد وثعلب ما يكون بين المعاصرين من المنافرة ، وكان أهل التجميل يفضلون المبرد على ثعلب .

مؤلفاته :

حفظ التاريخ لأبى العباس أكثر من أربعين مؤلفا فى فنون العربية والقرآن ، بيد أن كثيرا منها عدت عليه عوادى الأيام ، فيما عدت على التراث العربى الضخم .

ونحن نكتفى هنا بذكر ما نرى له صورة فى أماليه :

١ — إعراب القرآن .

٢ — القراءات .

٣ — معانى القرآن .

٤ — معانى الشعر .

٥ — اختلاف النحاة .

٦ — كتاب الفصيح ، وهو أشهر كتبه .

الأمالى :

وتسمى أيضا « مجالس ثعلب » و « مجالسات ثعلب » .

اشتملت (أمالى ثعلب) على ضروب شتى من علوم العربية ، وحفظت لنا فى مطاويها

كثيرا من المسائل النحوية على مذهب الكوفيين ، وهى فى هـــذه البابة من أهم الوثائق العلمية فى بيان مذهب المدرسة الكوفية ، على أن ثعلبا كثيرا ما يستعرض فى أثناء هـذه المجالس أو الأمالى بعض آراء مدرسة البصرة .

وهو كذلك كثيرا ما يعرض لتفسير بعض آيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، ويذكر أقوال العلماء واللغويين فى ذلك ، مجادلا آراءهم ، مخطئا لهم أحيانا ، ومنتقدا أحيانا أخرى .

وله مختارات من الشعر تنبىء بمـا منح ثعلب من حسن الاختيار ، وجمال الذوق ، ويلمس الباحث فى أراجيزه التى اختارها ، وهى كثيرة وبعضها نادر ، أنه لغوى متمكن ، وعالم مدقق ، وراوية ثبت .

وأسلوب ثعلب فى أماليه أنه أحيانا يبدؤها هو بذكر خبر أو بيت ثم يستطرد منه إلى فنون شتى من علوم العربية ليس بينها وحدة ولا ارتباط ، إلا أنها من اللغة العربية وآدابها .

وأحيانا أخرى يتقبل الأسئلة من طلابه فيجيب الجواب السديد تارة ، ويتردد تارة أخرى ، وأحيانا يقول : « لا أدرى » .

على أننـا لا ندرى تاريخ تلك الأمالى ، وفى أى الأيام كان يجلس لها ، كما سنرى ذلك فى بعض الأمالى الأخرى كأمالى ابن الشجرى أو أمالى المرتضى .

والذى نأخذه على ثعلب فى أماليه ، أنه لم يبرأ ممـا وقع فيه بعض الرواة من ذكر أخبار هى أشبه شىء بالأساطير ، ولم يعن هو كما لم يعن غيره بنقد النص وتطبيقه على الممكنات العقلية أو الآراء العلمية ، كالذى ذكره فى مطلع الجزء الثامن :

حدثنا أبو العباس أحمد بن يحيى النحوى ثعلب قال :

حدثنى عمر بن شبة قال : حدثنى عبيد بن جناد ، حدثنا عطاء بن مسلم عن أبى جناب الـكلبى قال :

أتيت كربلاء فقلت لرجل من أشراف العرب بها : بلغنا أنكم تسمعون نوح الجن ؟

قال : ما تلق حراً ولا عبداً إلا أخبرك أنه سمع ذلك .

قلت : فأخبرنى ما سمعت أنت :

قال : سمعتهم يقولون :

مسح الرسول جبينه فله بريق في الخدود
أبواه من عليا قريش جده خير الجدود

فنرى أن ثعلباً قد تقبل الفكرة الشائعة عند الرواة للشعر بأن للجن شعراً ، ولم يأخذ بأي مقياس من مقاييس النقد التي وضعها علماء الحديث ، مع أنه ممن عرفوا الحديث ، ووقفوا على مناهج النقد عند علمائه .

ونحن نرى أن هذا الشعر من وضع الشيعة ولا جرم ، وهم في ذلك يحتذون حذو من وضع منهم الأحاديث على لسان الرسول صلوات الله عليه ، وهي كثيرة . فإذن قد جنت المذاهب وتطرفها على الشعر كما جنت من قبله على الحديث .

وأمالي ثعلب في جملتها ، قد رواها جماعة - كما ذكر ابن النديم - منهم أبو بكر بن الأنباري وأبو عبد الله اليزيدي ، وأبو عمر الزاهد غلام ثعلب ، وابن درستويه ، وابن مقسم .

أما المطبوعة التي بين أيدينا فهي من رواية أبي بكر محمد بن الحسن بن يعقوب بن مقسم المقرىء العطار . وفي هذه النسخة زيادات لابن مقسم من تفسيرات ينص هو عليها منسوبة إليه وهذه الأمالي اثنا عشر جزءاً ، وقد طبعت في (٦٦٦) صفحة .

نماذج منها

الأجزاء في القرآن :

عن محمد بن يعقوب السمرقندي رحمه الله أخبرنا محمد بن الحسن بن مقسم ، ثنا أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، ثنا محمد بن يعقوب السمرقندي ، ثنا أبو بكر الحميدي عبد الله بن الزبير ، ثنا أبو الوليد عبد الملك بن عبد الله بن شعوة ، عن اسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين ، عن حميد الأعرج أنه حسب حروف القرآن فوجد النصف الأول من القرآن ينتهي إلى خمس وستين آية من سورة الكهف عند قوله تعالى : « هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال إنك لن تستطيع » ، وهو الربع الثاني ، والسدس الثالث ، والثمن الرابع ، والعشر الخامس وصارت « معي صبرا » ، من النصف الآخر إلى أن تختم القرآن .

والثلث الأول ينتهي إلى بعض إحدى وتسعين آية من براءة ، عند قوله : « كذبوا الله ورسوله سيصيب » ، إلا الباء من سيصيب ، وهو السدس الثاني ، والتسع الثالث ، وصارت الباء من سيصيب من الثلث الأوسط . والثلث الأوسط إلى بعض ست وأربعين آية من

سورة العنكبوت ، عند قوله تعالى : « إلا بالتي هي أحسن إلا » وهو السدس الرابع ، والتسع السادس ، وصارت « الذين ظلموا » من الثلث الآخر إلى أن تختم القرآن .

النحو الكوفي :

وأنشد :

اسمع حـــديثاً كما يوما تحدثه عن ظهر غيب إذا ما سائل سألا

رفع . وقال : زعم أصحابنا أن (كما) تنصب ، فإذا حيل بينهما رفعت ، وغيرهم يقول : (كما) ترفع ، قال هشام : تقول أفعل كما يفعلون ، قال : يزعم البصريون أنها لا تعمل كما تعمل كي . قال : وأصحابنا يقولون (كما) مثل (كي) قال الكسائي : أمثل ذلك، أتيتك كي فينا ترغب ؟

تفســـير القرآن :

قال أبو العباس في قوله : « يأيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين » .

قال : قالوا للنبي ﷺ اطرد صهيبا وسلمان وبلالا - وهؤلاء قد سبقوا إلى الهجرة - حتى نتبعك . فأنزل الله هذا .

وهذه رواية غريبة لم ترد في تفسير من التفاسير التي بين أيدينا ؛ لا في الطبري ، والكشاف ، والفخر ، وأبي السعود ، والنيسابوري ، والنسفي ، والقرطبي ، وأبي حيان ، وابن كثير ، والبيضاوي ، والجلالين ، والبغوي ، والطبرسي ، والألوسي ، والأحكام للجصاص ، ولا ابن العربي ، ومشكل القرآن لابن قتيبة ، فهذه ثمانية عشر تفسيرا لم نجد فيها الرواية التي ذكرها ثعلب .

فضلا عن أن النقد الموضوعي لهذه الرواية يجعلنا لا نتقبلها بسهولة ، وذلك أن السورة مدنية بالإجماع ، وهؤلاء أسلموا بمكة ، فان كان هناك حديث عنهم فليكن في مكة ، وقد وردت هذه القصة في صدد آيات مكية وهي في سورة الأنعام عند قوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين) .

روى أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وغيرهم عن عبد الله بن مسعود قال : مر الملأ من قريش على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء من الله عليهم

من بيننا ؟ أنحن نكون تبعا لهؤلاء ؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتبعك . فأنزل فيهم القرآن (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم - إلى قوله - أليس الله بأعلم بالشاكرين) .

وروى مثل ذلك أيضا فى سبب نزول آية سورة الكهف وهى مكية كسورة الانعام والآية هى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) الآية .

وهذا هو الواقع وهو المعلوم من السيرة النبوية ومن سنة الله تعالى فى خلقه المبينة فى آيات كثيرة من كتابه .

وهو أن أول أتباع خاتم الرسل عليه السلام هم كأتباع من تقدمه من إخوانه الرسل ، أكثرهم من الضعفاء الفقراء ، وأن أعداءه كأعدائهم هم المترفون من الأكابر والرؤساء ، وأن هؤلاء الأعداء المستكبرين عن الإيمان كانوا يحتقرون السابقين إلى الإيمان ويذمونهم بل يسومونهم سوء التعذيب .

وتارة يقترحون على الرسل طردهم وإبعادهم . قال تعالى فى سورة هود حاكيا قول الملأ - أى الأشراف - من قوم نوح (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) .

وقد حكى الله عن كفار قريش أنهم قالوا فى هؤلاء الضعفاء السابقين إلى الإسلام (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) .

على أن الإنصاف يقتضينا أن نعترف لأبى العباس ثعلب بما فى أماليه من محاسن كثيرة مما يدل على الاستقراء والتتبع وسعة الاطلاع وطول الباع . من ذلك ما يذكره من الكليات فى جانب معانى القرآن التى تطبق على جميع الآيات ، مثل قوله :

(لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السموات والأرض)

قال : كبر علمها على أهل السموات والأرض . . . قال : وكل شىء لم يعلم فهو ثقيل . .

وهذا الرأى عندى فى التفسير خير من رأى الراغب فى مفرداته .

وكقوله فى قوله عز وجل (تظن أن يفعل بها فاقرة . كلا) .

الفاقرة : الداهية ، من فقرت أنفه ، أى حززت أنفه .

و (كلا) فى القرآن كله ، أى ليس الأمر كما يقولون ، الأمر كما أقوله أنا .

ومهما يكن من شىء فهذه الأمالى جديرة بالبحث والدرس والقراءة والاطلاع .

عبد الوهاب حمودة
الاستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة

آراء وأحاديث

علوم البلاغة فى الميزان

كتبت فى العدد الماضى من مجلة الأزهر الغراء تعليقاً على مقال كاتب فاضل فى هذه المجلة أبدت فيه حضرته فيما ذهب إليه فى وجوب التجديد فى البحث ، واستطردت إلى بيان واجب الأزهر الشريف وحظه من تلك الناحية ، وأنه أولى الناس بأن يجدد فى مناهجه ، ويغير فى مؤلفات الأولين ما لا يناسب الزمن أو لا يحقق الغرض ، أو لا يكون على شرعة الصواب .

ثم انتقلت مع حضرة الكاتب الفاضل (مسايرة لاتجاهه) إلى ناحية من نواحى البحث وتكلمت فى البلاغة كما هى فى الكتب التى تدرس فى الأزهر منذ قرون ، فأثرت مسائلها ونثرت مباحثها ، وأبنت معايبها ، ودعوت إلى وجوب نسخها ، والاستبدال بها ، ضناً بالوقت ، والتماساً للحق .

ثم أعود اليوم إلى ما وعدت من التفاهم مع حضرة الكاتب الفاضل فيما أخذ على حضرات الكاتبين فى البلاغة من تعليلات فى الحذف والذكر ، ثم تصوير للتجريد البديعى . وقصدت مع واجب الوفاء أن يظل باب البحث مفتوحاً لى ولمن شاء ، فإن البحث فى الفنون العلمية والأخذ والرد حرىّ أن يحدث فى الأذهان حركة ، وأن يبعث فيها نشاطاً منشوداً ، وربما نبه القائمين بالأمر إلى حفز الهمم على الإصلاح والتجديد إن شاء الله .

* * *

بدأ حضرة الكاتب الكريم يعترض على ما كتب الاولون من تعليل الحذف بغير علته النفسية إذ قالوا إن الحذف يكون للاحتراز عن العبث بناء على الظاهر أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ الخ .

ولا بد لى قبل التفاهم أن أبين للقارىء الكريم كيف سلك هؤلاء الكاتبون بعد الشيخ عبد القاهر فى بحثهم للبلاغة ، وكيف عللوا بهذه العلل التى تسوى بين الذكر والحذف والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير وما إلى ذلك .

أما أساس بحثهم ومسلكهم بالعلل فقد كان هو ما كتب الشيخ عبد القاهر من النكات التى يسميها علل النحو ، إلا أنه كان يعتمد قبل ذلك على الذوق ثم يحاول أن يجعل له أساساً وقاعدة تكون حكما عند التخالف ، وقل أن يقع التخالف عند المتذوقين ، فالذوق المعنوى كالحسى لا يقلب الحلو مراً ولا العذب الفرات ملحاً .

ونظير ذلك معرفة النظم وما فيه من اتزان وغير اتزان ، فإن العارف بالذوق لابد أن يعرف البيت الصحيح من المكسور إذا عرض عليه ، ولكن الوزن بالتفعيلات جعل حكما عند الخلاف ، وقل أن يقع الخلاف إلا أن يكون بين ذائق وغير ذائق ، فإذا رجعا إلى حكم الأوزان اعترف غير الذائق بصحة قوله . فالشيخ عبد القاهر جعل البلاغة تآخى معانى النحو بين الجمل وجعل معانى النحو هى تلك التى سماها القوم أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال من الحذف والذكر . الخ الخ .

وتكلم الشيخ فى أبواب من تلك المعانى قصد بها أن يعبد الطريق أمام الأديب المتذوق ليتعلم فلسفة البحث فى التراكيب لتكون عدة له إذا جادله من لا يحسن ما يحسن ومن لا يتذوق ما يتذوق . ولم يستوعب جميع تلك الأبواب ، وما كان له عند الحق ولا لأحد أن يستوعب ولا أن يحاول إلا أن يتكلف مالا يستطيع ولا يحسن ، ونعوذ بالله أن نتكلف ما لا نستطيع ولا نحسن .

أما القوم من بعده وإمامهم السكاكى فقد حصروا حصراً منطقياً ليحوزوا البلاغة من أقطارها ، ويجمعوا النكات من أطرافها .

وقالوا إن الكلام العربى إما خبر أو إنشاء ، ولا بد من مسند ومسند إليه وإسناد ، والمسند قد يكون له متعلقات إذا كان فعلا أو شبهه ، وكل إسناد وتعلق فهو إما بقصر أو بغير قصر ، والجملة مع غيرها إما معطوفة عليها أو غير معطوفة ، والكلام البليغ إما على قدر

المعنى أو زائد عليه لفائدة أو أقل ، فلا بد عندهم من تفصيل الأحوال في هـذه الأبواب الثمانية وبيان العلل لكل الأحوال .

وأحوال المسند إليه الذى فى ضمنه بحث اليوم هى الباب الثانى من الأبواب الثمانية ، وقد حصروها فى الحذف والذكر ، والتعريف بأقسامه الستة والتنكير ، والوصف ، والتوكيد ، والبيان ، والبدل ، والعطف ، والفصل بضمير الفصل ؛ وليكون القارىء الكريم على بينة تامة بالأشباه ، فليعلم أن الشيخ عبد القاهر لم يذكر من هذه المباحث إلا ثلاثة :

١ — الحذف : فقد ذكر صوراً منه جارية فى كل أنواعه غير مقيدة بالمسند إليه مع سياقة روائع من النظم تصلح لبنات متينة لتكوين الذوق السليم ، على أن القوم من بعده قد وزعوا الحذوف على ما يصلح من الأبواب الثمانية ، ولم يذكر الشيخ الذكر .

٢ — التقديم والتأخير : ذكر صوراً منهما تدور مع كل مجال فى المسند إليه وغيره ومع الاستفهام والخبر وفى النكرة والمعرفة ، وحقق فروق ما بينهما فى آيات من القرآن الكريم وأبيات من الشعر الجميل .

٣ — التعريف والتنكير : ذكر منهما صوراً مطلقة أيضاً ، وفيها فروق سليمة واضحة ، وتطرق إلى فروق فى القصر لها مجالها العملى الأدبى الجليل .

أما القوم فقد أطالوا وأجالوا ولم يعللوا بالعلل المثمرة إلا أن يتبعوا الإمام عبد القاهر ، ولم يكن ذلك قاصرا على علل الحذف والذكر ولكنه مطرد شامل .

ولو أنهم أنصفوا إذا لعرضوا ما عرض الإمام من النماذج ، ولبحثوا عن نظائرها لجددوا العهد بالأدب وبالذوق .

مسألة الحذف والذكر

هـذه هى الناحية التى ناقش الكاتب الكريم بعض عللها . فإن السكاكى إمام المتأخرين قـد ذكر للحذف عللا عدة قد يتداخل بعضها مع بعض ، فذكر الاحتراز عن العبث ، وتخييل العدول إلى أقوى الدليلين : العقل واللفظ . وإيهام تطهير اللسان أو تطهيره عن اللسان أو تأتى الإنكار ، أو التعين حقيقة أو ادعاء أو اتباع الاستعمال الخ . ثم أتى للذكر بعلل

منها قصد التخصيص والاحتياط وزيادة الإيضاح الخ . وتبعه من بعده فى الجملة . والكاتب الفاضل يناقشهم الحساب فيقول إنهم يعللون الحسن بغير العلل النفسية وأنهم لم يسلكوا مسلك الشيخ ولا وفقوا للتعليل النفسى المقنع .

وإنى أؤيده فى أنهم لو اتبعوا الشيخ لافادوا وأفادوا ، فقد جاء بأمثلة شريفة شافية للنفوس كبيت الكتاب [1] :

اعتاد قلبك من ليلى عوائده   وهاج أهواءك المكنونة الطلل
ربع قواء أذاع المعصرات به   وكل حيران سار ماؤه خضل

وكقول القاسم بن عقيل المرى يمدح زفر بن أبى هاشم وقومه :

هم حلوا من الشرف المعلى   ومن كرم العشيرة حين شاءوا
بناة مكارم وأساة كلم   دماؤهم من الكلب الشفاء

وقد ذكر غير هذا وغير ما ذكره حضرة الكاتب صورا من النظم لها أثرها فى تهذيب اللسان والقلم والذوق كدأبه .

ولكننى أناقش حضرة الكاتب مناقشة لا تخلو من طرافة لاندماجها فى سلك طريق القوم كما شاء حضرته ، ولتكن المناقشة فى ناحيتين : ما مسلكه فى التعليل ، وما ناقش به الكاتبين فى البلاغة . أما ما سلكه من التعليل ففيه ما يأتى :

(١) سلك مسلك التعليل النفسى ، وهو كما بينه فى آخر الكلام : معنى يشعر المرء بأثره ولا يدركه ، ولكن الفلسفى العارف بخفايا النفوس يدركه ويؤمن به .

وإذا كان ذلك فلماذا لم يطبقه على قولهم الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر . أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين . أليس ذلك لازما لقوله إنه إذا ذكر مع القرينة كان كالثقيل الخ . ولا يضره أن يدققوا بمراعاة قيود معينة مثل كلمة (بناء على الظاهر) وكلمة (تخييل)

---

[١] راجع ١١٢ فما بعدها من دلائل الاعجاز طبع المنار . قواء : لا أنيس به . المعصرات : السحائب . وأذاع بالشىء : ذهب به .

فإن ذلك هو مقتضى الدقة الفلسفية ما دام قد رضى الرجوع إلى حكم الفيلسوف ، فإن الفيلسوف لا بد أن يحتاط فيجعل كلامه منطبقاً على الواقع كل الانطباق .

وفى الحق إن المتكلم لا ينطق بالبلاغة فى حذفها وذكرها ، إلا مستمدا من ذوق سليم ينشأ كما قلنا من مزاولة التراكيب التى تجعله يضع الهناء مواضع النقب . ويقول : كاذنى ما قالت العرب .

وأذكر فى هذا المقام قول البحترى ينعَى على بعض العلماء فى عصره :

كلفتمونا حدود منطقكم فى الشعر يكفى عن صدقه كذبه
والشعر لمح تكفى إشارته وليس بالهذر طولت خطبه

ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق : ما نوعه وما سببه ؟!

٢ — أورد حضرته ثلاث علل للحذف جعل الثانى منها الهجوم بالخاطب على المطلوب دفعة ، وهذا المعنى يلزمه الوجه الأول وهو دفع الاستثقال والاستكراه ، فإن من هجم بك على المطلوب فقد دفع عنك ثقل الفضول الذى تقذى به العين . على أننى كنت أحب ألا يورد فى هذا المقام البيت الذى أوردوه .

وهو قوله :

قال لى كيف أنت قلت عليل سهر دائم وحزن طويل

فإن القريب من النفس أن الحذف هنا لضيق المقام بسبب المرض وما يحدثه من ضجر وإن اشتغال المريض بشأنه جدير أن يحول دون مراعاته لحال السامع ، وإذا كان المريض مشغولا بأمره عن احترام الزائر والاعتدال له وتحيته الخ ، فأحرى ألا يفكر فى الهجوم به على المطلوب .

٣ — العلة الثالثة للحذف فى كلام حضرته الجدة والطرافة ، وهو يقول : إن الناس لم يعتادوا الأسلوب الذى حذف منه بعض أجزائه .

وأستطيع أن أقول لحضرته إن الناس اعتادوه كثيرا ؛ اعتادوا أن يحذفوا المعلوم ، وأن يتركوا ما تدعو المقامات إلى حذفه ، والبلاغة تصرف عقلى أولا ثم ذوق وممارسة ثانيا ، وللعامة القدح المعلى فى ذلك ، ولهم بلاغة عجيبة الأسلوب ، وأذواق فى التخاطب ، وكثيرا

ما يصلح بعضهم لبعض عبارة تصدر ، وكثيرا ما تسأل مريضا ما شكواك ؟ فيقول : رأسى . أو رجلى ، أو بطنى ، ولا يزيد . وتقول لأحدهم من زارك ؟ فيقول سعيد . ويراك تنتظر القطار فيقول لك إذا جاء ولم تره : القطار . اضيق الفرصة ، ويقول إذا رأى العقرب : عقرب فإذا قلت : أين ؟ قال : فى الحائط . وكل ذلك مشتمل على حذف . والدليل على ذلك من كلام حضرة الكاتب نفسه ، فهو يقول فى العلة الأولى : إن الكلمة الخالية من الفائدة كالثقيل الخ .

والثقيل غير محبوب وفى الطباع العمل على التخلص منه ، فإن الناس يحبون الخفة والرقة ، فليس من الإنصاف أن نجرد حتى العامى من الذوق وحسن التخير ، وإن لهم بلاغة تكون أحيانا مادة لأئمة الأدب والبيان . قالوا إن أبا تمام كان يصنع قصيدة فأرتج عليه فى أثنائها ، حتى كان بالطريق فسمع سائلا متسولا يقول : بياض عطاياكم فى سواد مطالبنا . ففتح ذلك له مجال القول وقال :

وأحسن من نور يفتحه الصبا بياض العطايا فى سواد المطالب

وسار فى القصيدة .

وأما مناقشته فيما يرد به على الكاتبين فى البلاغة فإنه يقول :

إن السكاكى والخطيب ومن بعدهما أبوا أن يكون للحذف مزية على الذكر الخ . ففى كلام حضرته بحث ، لما يأتى :

١ — إن أراد عدم المزية مطلقا حتى تكون منزلة الذكر كمنزلة الحذف لا فرق بينهما أبدا ، فذلك ما لا يدل عليه كلامهم ولا يتعرضون له ، وليس من دأبهم فيما كتبوا أن يعقدوا موازنات بين حال وأخرى ، وإنما يكتفون بإيراد العلل والتوجيهات التى تناسب كل معنى ، فالحذف لكذا والذكر لكذا والتعريف لكذا والتنكير لكذا ... الخ .

وأما أن مسلك الحذف أدق أو سبيله أغمض أو غير ذلك فقد أعفاهم الله منه لأنهم لم يرعوا فى جانبه ولم يحاولوه .

٢ — بقى الوجه الثانى : وهو أنه ليس للحذف مزية ، على معنى أنه يجوز أن يكون

للذكر مزية كما أن للحذف مزية ، وهذا المعنى هو الواقع وإن كانت عبارة الكاتب لا تهدى إليه أولا ، وهو معنى صحيح لا غبار عليه ولا معنى لإنكاره على الكاتبين فى البلاغة .

إن الذكر فى موضعه وضع صحيح بليغ له مزيته بحيث لو حذف المذكور لنقص الجمال . وكلام حضرة الكاتب فى مبدئه وهو ما نقله عن الشيخ وأقره ، من أنك تحس فى الكلام المحذوف منه بعض أجزائه فى بعض الحالات الخ ، ومعنى ذلك أنه (الحذف) فى بعض الحالات لا يكون حسناً إذا كان المقام الذكر فيكون الذكر هو الحسن . وقد أجمع الأدباء والبلغاء على أن الذكر مقامات لا يسد غيرها أبدا مسدها ، بل إنها قد تدق جدا وتخفى على غير الفحول ، كالذكر فى سورة الرحمن « فبأى آلاء ربكما تكذبان » وفى قصيدة مهلهل التى تكررت فيها : على أن ليس عدلا من كليب .

وهم ما يزالون ينوهون بالذكر فى قوله سبحانه « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » فيقولون إن ذكر اسم الإشارة مرة ثانية مع إمكان أن يقال « والمفلحون » مع صحة المعنى لأنه أريد استحضار صفاتهم والإشارة إلى أنها أساس الفلاح كما يدل عليه الذوق العربى . ونظيره عكسا قوله سبحانه « أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون » .

ومن هذا الباب قوله سبحانه « وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به » .

وانظر إلى جمال الذكر وروعته فى قول المتنبى :

وما عفت الرياح له محلا عفاه من حدا بهم وساروا

ولو قال من حدا بهم وسارا لصح الكلام مع ثقل الحذف ، للحاجة إلى المحذوف كما يشهد به الذوق .

فالذكر فى موضعه بلاغة كالحذف ، غير أن الحذف قد يكون فيه من اللطائف التى قل أن يهدى إليها فى جملتها وعلى وجهها إلا المذاكى القرح والجياد السبق .

هذا وإننى أخشى أن يكون القلم قد اشتط على القارئ الكريم فأدع بقية المناقشة إلى مجال آخر ، إن شاء الله .

محمود النواوى
المفتش بالأزهر

حقوق الإنسان في شريعة الإسلام

« ... يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم »
[من سورة الأعراف]

مقـــدمة :

جرنا الحديث في مقالنا السابق «تطهير الأداة الحكومية في تاريخ الإسلام» إلى أن نقول عند الكلام عن العدل :

« ولقد كان الفقه الدستوري القديم في الغرب يرتضي من العدل صورة سلبية تكتفي في منع الحاكم من الاعتداء على حقوق الفرد ، ولكن الفقه الدستوري الآن لا يقنع إلا باتجاه إيجابي يلزم الحاكم فيه أن يهيء الظروف للفرد كي يمارس حقوقه . فنصت وثيقة حقوق الإنسان الأخيرة الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة مثلا على ما لم تتضمنه سابقتها وليدة الثورة الفرنسية ، ففي المواد ٢١ - ٢٤ نص على حق كل فرد في أن يجد عملا بشروط عادلة وأجر مجز ، وفي حمايته من البطالة ، وفي تكوين نقابات ، كما نص على حقه في الغذاء والمسكن والعلاج الطبي والتمتع بمستوى اجتماعي يضمن له ولأسرته الراحة في الحياة ، والضمان ضد البطالة والمرض والعجز والشيخوخة .

والإسلام قد قرر هذا العدل الاجتماعي ، ووجه إلى هذه النزعة الإيجابية قبل أربعة عشر قرنا » ا . هـ

العـدالة السياسية :

ذلك أن الإسلام لم يكتف فقط بتقرير أصول العدالة السياسية بل تعداها إلى تقرير أصول العدالة الاجتماعية . لأن العدالة السياسية وحدها لا تغني فتيلا في شعب عامته من الجائعين المحرومين ، فمن العبث الكلام عن الحرية الفردية أو قدرة الفرد على التأثير

فى نظام المجتمع الذى يعيش فيه ، فلا حرية لمن لا يمتلك شيئاً . والذين لا يتغذون تغذية صالحة أو يرهقهم العمل المضنى لا يرون فى حق الاستمتاع بالنقد سوى نوع من الترف لا قبل لهم به ولا رغبة لهم فى تذوقه لأنهم أحوج إلى ملء بطونهم منهم إلى تحريك ألسنتهم »[1] « والإخاء لا يقوم بين مترف ومحروم ، والمساواة أمام القانون يصعب تحققهما دام فى استطاعة أحد المتقاضين بماله من جاه وثراء أن يأتى بالأدلة ويستعين بالدفاع ويستقدم الشهود . وفى بعض أمم العالم تعد وظائف ومهن معينة مقصورة على طوائف بالذات ، كما أن التعليم ترتفع نفقاته فى المرحلتين الثانوية والعالية . وفى بعض الأمم يقصر حق الترشيح على من يدفع قدراً معيناً من الضرائب ، فضلا عن أن كثيراً من الناس لا يشتركون فى الانتخاب لظروف اقتصادية » .[2]

فالعدالة السياسية وحدها لا تكفى إلا إذا كانت مقرونة بالعدالة الاجتماعية ، والعدالة الاجتماعية وحدها لا تكفى إلا إذا كانت إيجابية تعتنقها الدولة فكرة وعقيدة ، وتحققها تشريعاً وتنفيذاً ، وتحاسب عليها سياسياً وقضائياً .

هذا والعدل السياسى فى الإسلام وطيد الأركان ، فقد وكلت شريعته اختيار الحاكم إلى الأمة إذ جعلت أمر الرعية بين أفرادها شورى ، وجعلته مسئولا مسئولية سياسية عن كل تصرفاته ؛ وهذا هو الإمام مالك رضى الله عنه يعلق على خطبة أبى بكر حين استخلف « إذا أحسنت فأعينونى وإن أنا زغت فقومونى » فيقول فيما أورده السيوطى :

« لا يكون أحد إماماً أبداً إلا على هذا الشرط »[3] . كما أن الحاكم الأعلى مسئول مسئولية قانونية - مدنية وجنائية - فهو يؤاخذ فى فقه الإسلام بالقصاص والأموال ، وإذا كان أمر الحدود دون القصاص اليه - لاشتراط الإمام لاستيفائها - فإننا نجد بالنظر إلى قوله تعالى « فاجلدوا . . . . » أن الخطاب موجه لجماعة المسلمين ، وما الإمام إلا نائب عنه فى تنفيذ الأحكام وإقامة الحدود ، وهى صاحبة الحق أولا وبالذات ، فعليها تنفيذ حكم الله فيه إذا أصاب حداً من حدود الله . ولقد جاء فى مذهب الشافعية : يقيم عليه الحد من ولى الحاكم عنه كما قال القفال . وجاء فى استيفاء الحد : ويستوفيه من الإمام بعض نوابه[4] .

(١) المذاهب السياسية المعاصرة - أدهم - ص ٨٧
(٢) النظام الاشتراكى - البراوى - ص ١٤٦ : ١٥٢
(٣) أشهر مشاهير الاسلام - م ١ - ص ٩١١ - ١٢٠ .
(٤) فقه القرآن والسنة - شلتوت - ص ٩٦ ، ٩٧ .

ومن ميزات العدل الإسلامى : أنه عدل إنسانى للناس أجمعين ، إذ أن رسالة الإسلام رحمة للعالمين ، على اختلاف الأجناس والبلدان والأديان . ومن ميزاته كذلك أنه مرتبط بعقائد الناس ، ومن ثم يتعبد الناس بإقامته : فيتفقه العالم المجتهد ويسوس الحاكم ويقضى القاضى ويحتكم المختصمون عن إخلاص ويقين ، وهذا أدعى لأن يأخذ العدل حقه وينال التشريع مكانته ، ولا تنفصل فكرة العدالة - عن الفكرة الأخلاقية كما حدث عند غيرنا فيما يفرضه أوزفلد كولبه ، كانت فلسفة القانون فى مبدأ الأمر جزءاً من علم الأخلاق . . . ولكن كلما انفصلت فكرة العدالة عن الفكرة الأخلاقية ، بحيث تظهر الأولى فى صورة قوانين محدودة تنشرها الدولة وتلزم الناس بها إلزاماً - انفصل العلمان اللذان يدرسانها انفصالا تدريجياً وتميز أحدهما عن الآخر . . . وقد وضع (كانت) حداً فاصلا بين قانونية الفعل وأخلاقيته بأنها العمل بمقتضى القانون فى الظاهر »[١] .

ونحن فى هذه الكلمات نعرض للعدل الاجتماعى فى شريعة الإسلام ، وللاتجاه الايجابى فى تقرير حقوق الإنسان المعاشية ، لنبسط من روائع صنع الله جانباً يغفل عنه الكثيرون وينكبون على التماسه عند الفلاسفة والمشرعين شرقا وغربا ، ولا يخطر ببالهم - مجرد خاطر - أن فى الإسلام غناء ، بل ربما لا يفكرون قط أن الإسلام اتجه مثل هذا الاتجاه فى قليل أو كثير . ونحن بعد ذلك نعرض هذا الجانب ليستيقن الناس ويزداد الذين آمنوا إيمانا أن الله يأمر الناس بعبادته لينتفعوا بهدايته وشريعته ، لا ليزدان ملكه بطاعة الطائعين . وأن الله تعالى يأمرنا بعبادته وطاعته لا لتسكن أرواحنا فحسب بل لتطمئن أجسادنا أيضا بالطعام واللباس والسكن ، وأن الله تعالى يجازينا على طاعتنا فى الدنيا حياة طيبة ، ثم مردنا فى الآخرة إلى مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

العدالة الإجتماعية :

بين الله فى كتابه حدوداً كالقصاص فى القتل ، وقطع اليد فى السرقة وغيرها من العقوبات . ومن الطبيعى أن يسلك الإسلام سبيل التشريع القانونى بعد أن سلك سبيل التوجيه الفكرى عن طريق العقيدة ، والتدريب العملى عن طريق العبادة .

ولكن تشريع الإسلام القانونى لايكاد يذكر حتى تثب إلى أذهان الناس صورة مشوهة عن الأيدى المقطوعة والأبدان المرجومة وهكذا . وحقيقة أن رحمة الله للعالمين التى يطالب

[١] المدخل إلى الفلسفة - تعريب عفيفى - ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

بها كل داع إلى الإسلام ليست بمجرد الاشتفاء بتنفيذ العقوبات ، ولكنها ما سنت العقوبة إلا بعد أن سلكت سبيل الوقاية كما يقول فرنسيس آيفانج ، إذا كانت غايتنا هي مصلحة المجتمع وجب أن يكون الغرض من العقاب هو الوقاية . وأى وسيلة تحقق هذا الغرض يجب أن تعتبر صالحة من الوجهة الاجتماعية . فإذا كان فى إمكاننا أن نستبعد أسباب الإجرام وظروفه ـ سواء ـ أكانت هذه الأسباب ترجع إلى البيئة أم إلى الشخص نفسه فهى الوسيلة المثالية التى يجب علينا أن نتخذها . ولقد قامت بالفعل عدة محاولات فى هذا السبيل عن طريق الخدمات الاجتماعية ... ولكن لو أن جميع الظروف المتعلقة بالبيئة قد أصبحت مهيأة على خير وجه ، يبقى علينا أن نفكر فى الأسباب النفسية التى تؤدى إلى ارتكاب المخالفات[1] .

فكما يقرر الإسلام توقيع القصاص فى القتل ، فهو يقرر أيضا استئصال عوامل البغضاء بين الناس التى تنتج من الخلافات العصبية أو الحزبية أو الطبقية . وكما يقرر الإسلام قطع يد السارق فهو يقرر حقوق الفرد المعاشية ويقرر مسئولية الدولة لضمانها . وكما يقرر الإسلام رجم الزانى أو جلده يقرر تيسير سبل الزواج ، وصيانة الحرمات بستر العورات وغض الأبصار والنهى عن الخلوة ؛ وهكذا يسير التشريع الاجتماعى بجانب التشريع الجنائى أو يسبقه .

وسنعرض فى الجزء الآتى إن شاء الله لمحات سريعة خاطفة عن تقرير الإسلام للضرورات المعيشية للأفراد ، وإلزام الدولة مسئولية ضمان هذه الحقوق ، لنتبين حقيقة النظام الإسلامى فى أسسه الاجتماعية الأصيلة ، بعد أن صارت معرفة الناس مقصورة على جانب العقوبات وحده .

محمد فتحى محمد عثمان
مدرس الآداب بالمعاهد الدينية

(١) علم النفس قديما وحديثا ص ١٦٩ — ١٧٠

جيل يؤمن بالأخلاق

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

قال مندوب جريدة الأهرام الخاص :

حضر أمس الأول فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر اجتماعا عاما انتظم عديداً من ذوى المناصب العامة المختلفة ، من ضباط الجيش ورجال القانون والهندسة والطبابة ، كان خطباء الاجتماع يتسابقون فى تعداد الصفات التى يجب أن نتسلح بها لنواجه المستقبل الحافل بجسام الأمور . فتوجه فضيلته بالحديث الى قائلا :

إن الأمم الناهضة تحتاج نفوسها إلى الغذاء الجيد ، من الأخلاق والسجايا ، لتقوى به على مواصلة النهوض إلى المعالى ، كما تحتاج أجسامها إلى الغذاء الجيد من الطعام ، لتقوى به على مواصلة الكفاح فى سبيل المعايش ، والشجاعة غذاء من أغذية الأمة فى طور التحرير ، لا يتهاون به إلا صغار النفوس ، والذين يستعذبون موارد العبودية ، وإن لم تفرض عليهم ، وأصل الشجاعة أن تعرف الحق : حق الله ، وحق الأمة ، وحقوق المواطنين ، وحقك الشخصى ، فتوطن نفسك على أن تكون صادق العزم فى إعطاء كل ذى حق حقه بالعدل والإنصاف .

وقد أوصى المسلمين بأن يكونوا أهل الشجاعة فى مواقف الدفاع عن الحق ، ما داموا يرجون لهذا الحق العزة والاستعلاء ، فقال عز وجل فى سورة النساء « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون ، وكان الله عليما حكيما » ، فأرشدهم الله إلى أنهم بما يرجون من إقامة الحق ومعونة الله عليه ، ينبغى لهم أن يكونوا أبعد من أعداء الحق عن الوهن والضعف ، لأن المؤمن الذى يرجو الحق ويعيش له ويعد نفسه لإعلانه ونصرته ، يجب أن يكون من أبعد الناس عن الوهن فى سبيله

ومن هنا يتبين لنا أن الشجاعة العسكرية وليدة الشجاعة الأدبية ، لأن كلا نوعى الشجاعة منبعث عن الولاء للحق ، وتوطين النفس على إقامته ونصرته . وإن الرجل الشهم الذى يوطن نفسه على الدفاع عن الحق ويؤدى الشهادة الصادقة على نحو ما علم دون أن

يهاب ذا جاه أو سطوة ، لا يقل عن البطل الصنديد فى موقفه بساحة الحرب أمام نيران العدو مدافعاً عن حق أمته وملته ووطنه .

واستطرد فضيلته فقال :

إن المسلم الذى يعلم أنه لم يكن مسلماً إلا بشهادة الحق « لا إله إلا الله » يوطن نفسه على ألا يشهد إلا بالحق ولو على نفسه وعلى والديه فى كل المواقف ، متمثلا دائماً فى ذهنه أمر الله عز وجل للمسلمين « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » .

ولما ربى الإسلام أبناءه على إقامة الحق ونصرته ومحبته والشهادة به والإعانة عليه ، ربى فيهم بهذه السجية ، خلق الشجاعة فى النفوس فأخرج منهم أمة لا تهاب الخطوب ، وترى الموت فى سبيل إعلاء كلمة الحق خيراً من ألف حياة يقضيها صاحبها فى مشاهدة الباطل يمشى فى الأرض مرحا .

انظروا إلى قول الخليفة الاول أبى بكر الصديق فى وصيته لقائده العظيم خالد بن الوليد « احرص على الموت توهب لك الحياة » فباقتحام موارد الموت فى سبيل إقامة الحق تبرهن الامة على أنها جديرة بالحق ، وبهذا تكون من أهل الحياة ، وأن الشهداء من رجالها أحياء عند ربهم ، وأحياء فى قلوب عباده ، والذين لم ينالوا منهم نعمة الشهادة يتمتعون بالحق وبما يفيضه عليهم الحق من نعمة الحياة . وإلى هذا المعنى يشير الفارس الشاعر حصين بن الحمام أحد بنى سهم بن مرة :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

جلس القائد المجاهد الشهير مسلمة بن عبد الملك مع أخيه الخليفة الاموى هشام ذات ليلة ، فقال له أخوه الخليفة :

« يا أبا سعيد هل دخلك ذعر قط لحرب أو عدو ؟ » فأجاب مسلمة : « ماسلمت فى ذلك من ذعر ينبه إلى حيلة ، ولم يغشنى فيها ذعر سلبنى رأيى » فقال له هشام : « هذه هى البسالة » .

ولما كان الحكم والسلطان فى إسبانيا للخليفة الاموى عبد الرحمن الناصر ، رفع أحد التجار قضية على الخليفة إلى القاضى الاكبر فى عاصمة الأندلس (قرطبة) وهو العالم الفقيه الورع ابن بشير ، فحكم ابن بشير للتاجر على الخليفة ، ولم يكتف بإصدار الحكم بل كان

حريصاً على سرعة تنفيذه ، فذهب إلى الخليفة يخبره بنص الحكم الذى صدر عليه ، وينذره بالاستقالة من القضاء إن لم يبادر الخليفة بالتنفيذ .

وحتى فى أحط أدوار الدولة العبيدية بمصر دخل الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى على الملك الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى - وكان الأفضل وزير مصر للمستنصر والمستعلى والآمر - فتكلم الطرطوشى موجهاً الموعظة والنصيحة للملك الأفضل . ولاحظ فى أثناء موعظته أن إلى جانب الملك رجلا لا يؤتمن على الدولة ولا تهمه مصلحة الملة ، فختم الطرطوشى موعظته بالحديث عن ذلك الرجل غير المؤتمن وأشار اليه بيده ، فلم يكن من الملك الأفضل - لما استشعره من صدق الإمام الطرطوشى وغيرته على الحق وشجاعته فى إعلانه - إلا أن أمر ذلك الرجل الجالس إلى جانبه بأن يتنحى عن ذلك المقام .

ثم قال فضيلته :

إن الأمة الضعيفة المستكينة لا تستحق الحياة ، وهى لا تقوى وترتقى وتعتز إلا إذا شاع فى أفرادها - ولا سيما شبابها ، خصوصاً المثقفين منهم - خلق الصدق ، ومحبة الحق ، وتوطين النفوس على نصرته ، والصراحة فيه ، والدفاع عنه . ومن هذا الخلق يولد الجيش الباسل الذى لا يغلب ، بل من ذلك الخلق يولد الجيل الفاضل الذى لا يطمع فى حق غيره ولا يطمع غيره فى حقه . والحق شطر الإسلام ، بل هو عظامه التى تقوم بها بنيته ، أما الشطر الآخر فهو الخير ، وهو فى مقام اللحم والشحم من بنية الاسلام . ولم يرد فى الإسلام أمر ولا نهى إلا وهو يرجع إلى شعبة من شعب الحق أو إلى شعبة من شعب الخير . والمسلمون لن يعودوا كإخوانهم الذين حملوا لواء الحق ونشروا قانونه فى الأرض إلا إذا تضلعوا من معين الحق وارتووا من موارد الخير ، فأصبحوا يعرفون بين الأمم بأنهم أمة الحق والخير ، وحينئذ يكون منهم الجيش الغالب الظافر الذى يقتحم كل عقبة تحول بينه وبين الحق ، ويجتاز كل مخاضة تمنعه من الوصول إلى أهداف الخير . وكما ينبغى أن يجهز الجيش بالدبابات والمدافع الضخمة والطائرات النفاثة والقنابل الذرية ، فإن كل هذه المعدات لا تنفعه ان لم يستمد جنوده وضباطه من أمة تربت على الصدق ، وآمنت بالحق ، ووطنت نفسها على محبة الخير . بل ان تجهيز الأمة بسجية الصدق ، وتربيتها على الإيمان بالحق وعلى الإيمان بالخير ، هو الذى ييسر لها الأسلحة من كل نوع ، والأنصار من كل أمة ، وهو الذى يملأ

بالهيبة والحرمة لها قلوب الأمم جميعاً . وهكذا الأخلاق لا تزال معيار الأمم ، وهى مفتاح الأمانى المغلقة وهى السبيل إلى استرداد الحقوق وتيسير السبل اليها .

إن إعداد شباب الجيل بسجية الصدق ، وتربيتهم على الإيمان بالحق وعلى محبة الخير عنصر من عناصر الإسلام .

ولقد صرنا الآن إلى عهد قام بالأخلاق ، وهو فى حاجة إلى الاستعانة بجيل يؤمن بالأخلاق . والمصانع المصرية لتربية الأخلاق هى معاهد العلم التى يتوقف عليها نجاح هذا العهد ، ويكون لأمتنا منها الجيش الظافر الذى هى بحاجة اليه فى مصيرها القريب وكل يوم تضيعه معاهدنا العلمية ، وتحجم فيه عن البدء فى مناهجها الصالحة يكون خسارة على الأمة ، وعلى حقوقها .

إن الأمر جد ، والوقت أثمن من أن يضيع بغير عمل .



اللحن فى العربية كذب وذنب

روى الشيخ عبد الوهاب خلاف أنه سمع الشاعر حافظ إبراهيم يتلو شعراً فى مجلس الشيخ محمد محمود التركزى الشنقيطى فلحن فى حركة العين من أحد الأفعال ، فغضب الشيخ الشنقيطى وقال له : كذبت !

والشيخ الشنقيطى مسبوق إلى مثل هذا الموقف بالإمام الحسن بن أبى الحسن البصرى ، فإن لسانه عثر مرة بشىء من اللحن فتراجع وقال : « أستغفر الله » ، فسأله حين سمع ذلك منه عن سبب الاستغفار فقال : من أخطأ فى العربية فقد كذب على العرب ، ومن كذب فقد عمل سوءاً ، وقد قال الله عز وجل : « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما » .

ويروى الخليل بن أحمد أنه سمع أيوبا السختيانى يحدث بحديث فلحن فيه فقال : « أستغفر الله » يعنى أنه عد اللحن ذنبا .

نفســـــيات

« نَفَسٌ يحتثُّه نَفَسُ ... والأسى بادٍ ومُحتبسُ »

وَيلتَا للجِدِّ أُسلِبُه ... كخمودِ النارِ تُقتبسُ

المُنى من دونها حَذَرٌ ... كالمَها من دونها حَرَسُ

والعُلى من غيرِ طيبةٍ ... حُلُمٌ لم يُدنِه نَعَسُ !!!

غُرّةُ الأخيارِ مُقتبَلٌ ... طاحَ عن أثوابِه الدنَسُ

كم حياةٍ في مُنافسةٍ ... وحياةُ الزاهدِ النفَسُ

الكريمُ الحرُّ مُبتئسٌ ... للكريمِ الحرِّ يبتئسُ

****

خطَراتُ الحُسنِ تاركتي ... وفؤادي للمَها جَرَسُ

لا أُهيجُ السِّربَ يعصمُه ... حَرَمٌ للحُسنِ أو قُدُسُ

شدَّ ما أزهى فلا حَوَرٌ ... يزدهي لُبّي ولا لَعَسُ !!!

لا أُحبُّ الظبيَ مُبتذَلاً ... عفتُه كالظبيِ يفترسُ

غِبطةُ الفضّاحِ خَزيتُه ... طابَ للزنجيّةِ الفَطَسُ !!!

الفتى يسري لعزّتِه ... والمساعي وحدَها قَبَسُ

****

ضَلّةً لليأسِ يمضغُه ... مِقوَلٌ يشتاقُه الخَرَسُ !!!

خطّةُ الآمالِ في دعةٍ ... كلُّ ما يُوحي به الهَوَسُ

أستبي حقّي مُناجزةً ... وعُداةُ الحبِّ تختلسُ !!!

آفةُ المغلوبِ رِقّتُه ... راحَ في آمالِه الشَّرِسُ

مَن أبى والحقُّ مُستلَبٌ ... صُلْ به والحقُّ يُلتمَسُ !!!

ناهضٌ يُزهى بسالبِه ... ثاكلٌ في بيتِه عُرُسُ

ما رأيتُ الحقَّ مُنتصِفاً ... مذ رأيتُ الحقَّ يلتبسُ !!!

« السيد »



وهبك الله النعمة والخير الكثير !

يكثر استعمال وهب متعدية لمفعولين كما ترى ، كأنها مرادفة فى المعنى والعمل لأعطى . ويشيع هذا فى ألسنة الفقهاء فى الحديث عن الهبة ، وهم يجعلون من صيغها الشرعية وهبتك كذا ، ووهبت لك كذا . والوارد فى فصيح الكلام تعدية الفعل إلى من يتملك الموهوب بحرف اللام ، فيقال : وهبت لك مالا ، كما قال سبحانه وتعالى : « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور » وقال سبحانه : « فهب لى من لدنك وليا » .

وتعدية الهبة ومتصرفاتها إلى مفعولين موضع بحث قديم . ومن المنكرين لها إمام النحاة سيبويه . فهو يقول فى الكتاب ١/١٦٠ بعد كلام جرى له : « إنما تجرى ذا كما أجرت العرب . ومثل ذلك عددتك وكلتك ووزنتك . ولا تقول : وهبتك ؛ لأنهم لم يعدوه ، ولكن وهبت لك » ، وسيبويه يريد أن يقول إن الأفعال : عدّ وكال ووزن تتعدى فى الأصل إلى من يُفعل الفعل له بحرف الجر ، تقول : عددت لك الدراهم ، وكلت لك الحب ، ووزنت لك القطن ، وقد تتعدى هذه الأفعال بحذف حرف الجر ، فتقول : عددتك الدراهم ، وكلتك الحب ، ووزنتك القطن ، إذ ورد هذا عن العرب ، ومن ذلك قوله تعالى : « وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » ، والأصل وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم ، فحذف الحرف وعدى الفعل بنفسه ، فأما وهب له مالا ، فإن العرب لم يحذفوا فيه الحرف فلم يقولوا : وهبه مالا . كما قالوا كلتك الحب فى كلت لك الحب . وسيبويه يرى العمل على ما جرى عليه العرب واطراح ما اطرحوه .

فمن ثم قال فى ختام بحثه : « ولا تقول : وهبتك لأنهم لم يُعدوه ولكن وهبت لك » . وقد أورد السيرافى فى شرحه لسيبويه رأيا للمبرد أنه يجوز أن يقال : وهبتك مالا ، ولا يجوز

وهبتك ؛ لأن الصيغة الأخيرة تحتمل أن الهبة واقعة على المخاطب ، وهذا فى أيام الأرقاء والموالى ، أما فى عصرنا فلا يخطر هذا الاحتمال . ويعزز السيرافىّ رأى المبرد بأنه سمع من العرب نحو وهبته مالا ، فكانت صيغة وهب كصيغ عد . وكال ووزن : سواءً فى القبول والاستساغة .

وإنى أنقل هنا كلام السيرافىّ فهو جد نفيس قال [1] : « وكان المبرد يقول : إنما قالوا : عددتك ووزنتك وكلتك فى معنى عددت لك ووزنت لك وكلت لك لأنه لا يشكل . ولم يقولوا وهبتك فى معنى وهبت لك لأنه يجوز أن يهبه . فإذا زال الإشكال [2] زال ، وهو أن تقول : وهبتك الغلام أى وهبت لك [3] . وإنما ذكر سيبويه كلام العرب أنهم يحذفون حرف الخفض فى عددتك ووزنتك وكلتك وإن لم يذكر المعدود والمكيل والموزون ؛ كما قال عز وجل : « وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » . ولا يجوز مثل ذلك فى وهبتك لأن ما كان أصله متعديا بحرف لم يجز حذفه وإن لم يكن لبس إلا فيما حذفته العرب ، ألا ترى أنه لا يجوز مررتك ولا رغبتك على معنى رغبت فيك . وحكى أبو عمرو الشيبانىّ عن بعض العرب : انطلق معى أهَبْك نَبْلا ، يريد : أهب لك نَبْلا . وهذا يؤيّد قول أبى العباس »

وكأن ابن الشجرى رأى ما استقر عليه السيرافى من جواز وهبتك مالا فذكره من غير تعقيب إذ يقول [4] : « يقال : وهبت لك درهماً ، ووهبتك درهماً ؛ كما تقول : وزنت لك الدراهم وزنتك الدراهم ، وكلْت لك البُرّ وكلتك البُرّ ؛ كما جاء فى التنزيل : وإذا كالوهم أو وزنوهم أى كالوا لهم أو وزنوا لهم » .

والقارىء يخرج من هذا البحث باستساغة أن يقال : وهبك الله النعمة والخير الكثير .

التلميذ المجد لا يخفق إلا فى الندرة

تستعمل الندرة فى ألسنة الناس بضم النون . ولا يكاد يخطر ببال قارىء أو متكلم فيها غير ذلك . ولشد ما يعروه العجب إذا رأى ضم النون موضع بحث ومجال أخذ ورد ، وأن الجادة فيه هو فتح النون : النَّدرة .

---

(١) انظر شرح السيرافى ٢ ـــ ٢٨٠ نسخة التيمورية . (٢) كذا . وكأن الأصل : زال المنع .

(٣) هذا من كلام السيرافى لا من كلام المبرد (٤) انظر أمالى ابن الشجرى المطبوعة فى الهند ١/٥٤

فنى القاموس : « ولقيته ندرة ، وفى الندرة مفتوحتين » وهو يريد فتح الحرف الأول مع سكون الثانى ؛ كما هو اصطلاحه . ونرى مثل هـذا فى اللسان بفتح نون الندرة بضبط القلم . وفيه زيادة على ما فى القاموس : « ويقال : إنما يكون ذلك فى الندرة بعد الندرة إذا كان فى الأحايين مرة » .

وكأن الندرة فى الأصل : المرة من ندر الشىء إذا زال عن مكانه وخرج عن مستقره ، فمن هذا كان مفتوحا على حد اسم المرة . وفى الجمهرة لابن دريد ٢ / ٢٥٨ : « كل شىء زال عن مكانه فقـد ندر ، يندر ، ندرا ، فهو نادر ، فيقال : ضربه على رأسه فندرت عينه أى خرجت من موضعها . وسمى نوادر الكلام ، لأنه كلام ندر فظهر من بين الكلام » .

ويبدو أن جريان الألسنة بضم نون الندرة وتنكب جادة الفتح فى ذلك قديم أتت عليه السنون والأحوال حتى أضحى لا يعرف سواه . وبلغ من هذا أن صار ضبط الندرة فيما يعنى بضبطه بضم النون تحفظا على الصواب ، وتحرزا من الخطأ المردى . فهذا التاج السبكى يعرض فى كتابه الخالد « جمع الجوامع » حرف « الندرة » فيضبطها بالضم ، فقد جاء فى أوائل كتاب السنة : « وفعله ﷺ غير محرم ، للعصمة ، وغير مكروه للندرة » فيقول شارحه الجلال المحلى فى حديثه عن الندرة : « بضم النون بضبط المصنف » يريد أن التاج السبكى ضبطها كذلك بضبط القلم . وقد وثق المحلى بالتاج أن كان ضليعا فى العـلم بحرا ، أخذ العربية عن أبى حيان وغيره من أعلام عصره . وكانت وفاة التاج سنة ٧٧١ هـ ، ووفاة الجـلال المحلى سنة ٨٦٤ هـ ، وكان [1] علامة فهما ، ويؤثر عنه أنه كان يقول : فهمى لا يقبل الخطأ .

ونرى لغوياً معاصراً للسبكى يذكر الفتح فى الندرة ، ويضم إليه الضم على أنه لغة . ذلك هو الفيومى صاحب المصباح ، فهو يقول : « وندر العظم من موضعه : زال . ويتعدى بالهمزة . والاسم الندرة بالفتح ، والضم لغة » . ويتبعه صاحب المعيار إذ يقول : « ندر الشىء ، ندوراً ، كقعد قعوداً : سقط وخرج من غيره ، ومن بين أشياء فظهر . ومنه النوادر والاسم الندرة كضربة ، وكغرفة ، لغة » ولا أدرى علام اعتمد صاحب المصباح فى إثبات ضم النون لغة . وقد يـكون سرى له هذا من نطق الناس بضم النون فخاله لغة ، وضمه

---

(١) انظر فى هذا : حسن المحاضرة .

إلى ما وجده فى دواوين اللغة . وهو فى ذلك أحق بالعذر من ابن السبكى الذى اعتمد على سمعه وما لقنه من الشيوخ فضبط (الندرة) بالضم .

وقد وقع هـذا الخطأ فى طبعة المخصص لابن سيدة ؛ ففيه : « ويقال لقيته الندرى ، وفى الندَرى وندرى أى فى الندرة يعنى بين الأيام ، وفيه ضبط (الندرة) بضم النون . وبعد فإن النفس بعد هـذا لا تركن إلى الضم فى هذا الحرف ، وأرى أن تعوّد الألسنة الفتح ، وهو الصواب .

العبيط

يقال العبيط فى لسان العامة ، لذى الغفلة والبله . وهذا المعنى لا يبين فى معانيه اللغوية . فإن العبيط فى اللغة يقال للدم الطرى ، وللحم السليم من الآفات الذى لاداء فيه ، ولا يقال لذى البـلاهة . وقد تصدى لغـويان لتخريج الاستعمال العامى وبيان أصله فى العربية ، فيرى الأستاذ حسن العدل فى رسالته : « أصول الكلمات العامية ، أن الأصل فى ذلك : الهبيت ، وهو الجبان الذاهب العقل ؛ قال طرفة بن العبد :

الهبيت لا فؤاد له والثبيت عقله قيمه

فأبدلت الهاء عينا ، والتاء طاء . وهذا تخريج قريب ونظر صحيح .

ويرى الأستاذ عبد القادر المغربى فى بحثه المنشور فى مجلة المجمع اللغوى ٣/٢٩٣ أن العبيط مقلوب البعيط ، وهو فعيل من قولهم : بعط فى الجهل إذا أبعد فيه وأغرق ، فالبعيط هو المغرق فى الجهل ، وقلبه العامة إلى عبيط . وهذا التخريج فيه بُعد إذ لم يرد فى المادة بعيط ، وقياس الوصف منه باعط .

وقد بدا لى تخريج ثالث . ذلك أن العبيط يقال للطرى غير النضيج . وجاء فى الحديث : فقاءت لحماً عبيطا ففسر بالطرى غير النضيج ، والأبله ذو الغفلة يشبه بالفج الذى لم ينضج ، وما زلنا نقول فى المدح : هذا رجل ذو نضج ، وفى الذم : هـذا رجل غير ناضج ، والله الموفق للصواب .

محمد على النجار
الأستاذ بكلية اللغة

الإسلام في أمريكا

قالت جريدة « أخبار اليوم » بتاريخ ١٨ / ٣ / ١٩٥٠ تحت عنوان « أمريكا مستعدة لقبول الإسلام » ما يلي : ـ

« زار كامل عبد الرحيم (بك) سفير مصر في وشنطن فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر في خلال هذا الأسبوع ، وتحدثا في موضوعات كثيرة ، وكان أهم هذه الموضوعات ما قاله كامل (بك) ، عن أن الشعب الأمريكي استمع له في الشهر الماضي ، في محاضرة دينية ألقاها في إحدى الكنائس الأمريكية ، عن الدين الإسلامي ، وأظهر المستمعون إهتماماً كبيراً بهذه المحاضرة ، وعلق السفير على ذلك بقوله : إن الشعب الأمريكي على استعداد لتفهم حقيقة الدين الإسلامي ، إذا ما عنيت السلطات الدينية في مصر بهذه الناحية الهامة ، وقد وعد شيخ الأزهر بدراسة الموضوع . . . » .

وها هو ذا قد مضى على هذا الوعد ثلاث سنوات تقريبا ، ولم نعلم ما الذي استقر عليه قرار مشيخة الأزهر بعد ، وإنني أود شكر (سعادة) السفير على محاضرته تلك أولا ، وتفكيره بهذا الأمر الجليل ثانياً ، وعرضه على الأستاذ الأكبر ثالثاً .

ثم أود القول ، بأن تاريخ العناية بالقرآن الكريم ، يبين لنا أن نفراً من المسيحيين في الشرق والغرب ، قد عنوا عناية كبيرة بالقرآن الكريم ، فدرسوه ونقلوا ما تيسر لهم نقله إلى لغاتهم ، ودرسوا علومه وتفسيره ، ونقلوا من كل ذلك الشيء الكثير ، ولقد أفرد الأستاذ الفيكونت فيليب دي طرازي ، فصلا كبيراً في كتابه « خزائن الكتب العربية في الخافقين » عن كل ذلك .

ويتبين مما نقله الأستاذ طرازي ، أن كثيرين من رجال الطوائف المسيحية ، أخذوا من القرآن الكريم طائفة من الشرائع وجعلوها في شرائعهم فقد قال حضرته :

« أقبل فريق كبير من أئمة النصارى وعلمائهم ومفكريهم ، على دراسة القرآن ، فدققوا النظر في سوره وآياته ، وأمعنوا وتعمقوا في نواميسه وشرائعه ، ثم كتبوا عنه الشيء الكثير أو القليل في تصانيفهم وفتاويهم ، واتخذوه دستوراً في بعض القضايا والفرائض الدينية .

وتفرغ بعض جثالقة النساطرة وأساقفتهم لإنشاء قوانين مدنية لملتهم ، استمدوها من أحكام القرآن وسننه ، ومن أقدمهم الجاثليق حنيشوع الأعرج (٦٨٦ - ٧٠١ م) ، ولميخائيل الكبير بطريرك السريان (١١٦٧ - ١٢٠٠ م) ، عدة أحكام مدنية استخلصها من القرآن ، وجرى بموجبها أبناء ملته ، وجاء بعده أبو الفرج ابن العبرى (المتوفى سنة ١٢٨٦ م) فخلف فصولا ممتعة فى الشرائع والفرائض اقتبسها من القرآن ، وقد أثبت زبدتها فى تاريخيه المدنيين ، ولا سيما فى مؤلفه المشهور بكتاب « الهدى » ، وهو دستور تمشى عليه أبناء ملته فى العصور الغابرة وما برحوا يسيرون بأحكامه حتى اليوم .

وطفق الأستاذ فليب طرازى يسرد أسماء الذين نقلوا الشرائع عن القرآن الكريم ، والذين درسوا علوم القرآن وحققوا فضل القرآن على العرب جميعا والعالم أجمع ، إلى أنه قال :

وإذا انتقلنا من الشرق إلى الغرب رأينا رهطا من نوابغ المستشرقين ينافسون المسلمين فى درس القرآن وشرحه وتحليله ، ويعتنون بتدوين تواريخه واكتناز مخطوطاته ويبكرون إلى ترجمته وطبعه ، ومن ذلك أن المستعرب بابا غانينى طبع القرآن فى مدينة البندقية منذ القرن السادس عشر ، وعدت طبعته العربية هذه باكورة طبعات القرآن برمتها ، ونشرت مطبعة ليدن بهولندا سنة ١٦١٧ سورة يوسف وهى السورة الثانية عشرة من سور القرآن ، وهى أول طبعة عربية أبرزتها مطابع أوربا بالشكل الكامل .

* * *

ولقد نقلت كل ما تقدم ، لأسائل نفسى ، وأسائل أولياء الأمور : ما الذى عملناه نحن لنشر الإسلام ، وإذاعة مبادئه العادلة فى العالم ؟ إن بعض كبار رجالنا من ذوى الرأى ، يهتزون اهتزازات عصبية ، إذا قلنا إننا نود تشريعاً إسلامياً ، ليعرف الناس فضل الإسلام فى العالم ، ولنقضى على المبادىء الشيوعية الهدامة ، ومع أن هؤلاء المفكرين مسلمون جغرافياً فالظاهر أنهم لا يعلمون شيئاً عن أسرار الإسلام وسننه ومبادئه ، ولو أنهم درسوا قليلا من الشريعة الإسلامية ، ومن سير مشرعى الإسلام ، أو أصحاب المذاهب الإسلامية ، لخجلوا من عنجهيتهم السخيفة ، وها هو ذا سفير مصر فى أمريكا يقول إنه حاضر عن الإسلام ، فى عقر دور المسيحية ، فماذا لقى ؟! لقد لقى كل ترحيب وكل عناية ، مما جعله يطلب من رجال الأزهر العمل على نشر الإسلام فى تلك الربوع ، التى وجد فيها استعداداً لقبول مبادىء الإسلام السمحة ، وشرائعه الحكيمة .

وإذا شككنا فى أقوال السفير ، لأنه مسلم ، فما هى ذى أقوال وأفعال المسيحيين أنفسهم ، بل ها هى ذى مآخذهم عن الإسلام ليتخذوها شرائع لهم ننقلها عن رجل مسيحى فاضل اشتهر بأنه مؤرخ مدقق ، فماذا بعد هذا كله ؟ ! ألا يحق لنا بعد هذا كله ، أن نطالب بأن يكون التشريع الحديث ، تشريعاً مطابقاً لأصول الإسلام وسننه وقواعده ، ومعلوم أن الإسلام جمع فضائل وقواعد الشرائع الإلهية السابقة وهى : اليهودية ، والنصرانية . ويحضرنى فى هذا المقام كلمة سمعتها من عمى السيد محمد رشيد رضا رحمه الله عن ناظرة المدرسة السنية وكانت بريطانية فى عهد دنلوب صاحب المبادىء الاستعمارية الهدامة للوطنية ، فقد رأت تلك الناظرة الفضلى أن العمل جار على خروج البنات المسيحيات من الدرس فى أثناء إلقاء الدروس الإسلامية ، فاعترضت على ذلك ، وقالت ما معناه : « إننى لا أوافق على خروج البنات القبطيات من حصة الدروس الإسلامية ، لأننى لم أر فى برامج تلك الدروس ما يخالف الشريعة المسيحية ، بل إننى أرى أن الآداب التى تتضمنها تلك الدروس ، تتفق تمام الاتفاق مع الآداب المسيحية » . فعلم بذلك دنلوب فهاج وماج وعمل على تنحية تلك الناظرة وإعادتها إلى بلادها بعد ما قال لها : « لقد جئت لمحاربة أعمالنا كلها بإفساد المتنصرين ! ! » .

إن التشريع الإسلامى ، وإن العمل بآداب الإسلام ليحترم المسيحية والمسيحيين أشد الاحترام ، وحسبك أن تعلم أن القرآن الكريم يحرم على أتباعه سب ما يدعون من دون الله أيا كان ذلك المدعو أو المعظم ، عملا بقوله تعالى : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ، فيسبوا الله عدوا بغير علم ، كذلك زينا لكل أمة عملهم ، ثم إلى ربهم مرجعهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون » . (١٠٨ الانعام) .

فالشريعة التى تقول لأتباعها : دعوا كل عامل وما يعمل لحسابه ليس عليكم وإنما حسابه عند ربه ، والشريعة التى عومل المستظلون برايتها خير معاملة ، والشريعة التى رد رجالها الأموال الأميرية إلى المستظلين بحكمها يوم عجزوا عن حمايتهم ، لهى شريعة مثالية تليق أن يستظل الجميع تحت رايتها ويتمتعوا بعدلها الفطرى وفضائلها السامية ، فهل يحرم مع هذا على أهلها الاحتكام إلى أحكامها مع أن بعض الطوائف الاخرى أخذت شرائع لها منها كما بينا فيما تقدم نقلا عن الأستاذ فيليب دى طرازى .

تفكروا يا أيها القوم والله ولى التوفيق .

محيي الدين رضا

الفتــاوى

خطبة الجمعة بغير العربية

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

إن بلادنا تحتوى على اثنتى عشرة مقاطعة ، وفيها زهاء ثلاثين مليون مسلم يقيمون شعائر الإسلام ، مع أن اللغة المستعملة عندنا غير العربية .

فالسؤال الأول — هل يجوز إلقاء خطبة الجمعة بلغة غير عربية ، إذ الذين امتلأت بهم المساجد لا يستفيدون من الخطبة بالعربية شيئا ، مع أن الخطابة إنما جعلت لطرفى الإنذار والتبشير ، وإن لم يجز إلقاؤها فما المانع ؟

ثانياً — هل يجوز تفسيرها بغير العربية بعد إلقائها قبل الصلاة ؟

الطلبة السنغاليون بالجامع الأزهر
عنهم أبو بكر أحمد محمد مختار
والقاسم البيهقى

الجـــــواب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وتفيد بأنه لا يشترط فى خطبة الجمعة أن تكون باللغة العربية عند أبى حنيفة وهو رأى عند الشافعية لأن المقصود من الخطبة هو الوعظ والإرشاد وذلك إنما يحصل باللغة التى يفهمها السامعون .

وبناء على ذلك ترى اللجنة — تحقيقاً للغرض من الخطبة — أن يتعين إلقاؤها باللغة التى يفهمها القوم .

ولا يفوت اللجنة فى هذا المقام أن توصى قادة الشعوب غير العربية أن يبذلوا جهدهم فى تعليم الناس اللغة العربية ليتيسر لهم فهم القرآن وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام والانتفاع بما فيهما من أحكام وآداب ، وليتحقق بذلك رباط التفاهم بين المسلمين فى جميع الأقطار وهو أقوى مظاهر الوحدة التى حث عليها القرآن .

وبهذا علم الجواب عن السؤال ، والله أعلم .

٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٧٢

رئيس لجنة الفتوى
محمد عبد الفتاح العنانى

(مجلة الأزهر) نزيد على الشطر الأخير من الفتوى أن شيخ الإسلام ابن تيمية نبه فى كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم) إلى أن طريقة سلف هذه الأمة من أيام الصحابة والتابعين ، قامت فى جميع بلاد الإسلام على إرشاد الأمم الإسلامية إلى أن تكون العربية لغتهم ، للحكمة التى أشارت إليها الفتوى ، أى تيسير فهم القرآن والحديث النبوى مباشرة بقدر الإمكان .

ومن ذلك يفهم أن سياسة الإسلام فى هذا الباب هى نقل الأمم إلى الإسلام لتفهمه بنفسها من لغته مباشرة ، لا نقل الإسلام إلى الأمم بترجمات قد يتشبث بها الرأى وتختلف الفهوم ويضيع الغرض الأول من وحدة المسلمين وتثبيت الأخوة بينهم ، وعلى كل حال فإن الغرض من خطبة الجمعة فهمها بأى حال .

****

زكاة المال الشرعية غير الضرائب

والصلاة فريضة بدنية لا تغنى عنها فدية

وجاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

أرجو إفادتى فى أمر زكاة المال الآن التى قدرها الشارع باعتبار أنها ربع العشر ، فى حين أن الأموال المقول عنها هى نتيجة محصول أطيان وإيجار مساكن تؤخذ عنها الضريبة سنوياً ، خصوصاً وأن الضرائب لا يستهان بها الآن .

كما أرجو إفادتى عما إذا كان هناك قول بدفع شىء من المال نظير ما فات المرء من صلوات لم يؤدها ، وإن وجد قول ففى أى مذهب ؟ وفى حالة ما إذا لم يؤدها لعدم قدرته على الأداء مع ملاحظة أن القدرة شرط التكليف فكم يدفع عن اليوم الواحد أى الخمس الفرائض أو عن الفرض الواحد ؟

الشيخ عبد الحكيم محمد خليفة
شارع سعد زغلول — بنى سويف

الجـــــواب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وتفيد عن السؤال الأول — بأن زكاة المال واجبة متى بلغ المال نصابا وحال عليه الحول ، ومصرف هذه الزكاة مبين فى قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين ... » الآية .

أما الضريبة التى تتقاضاها الحكومة من أصحاب الأموال فلا علاقة لها بالزكاة ، ولا تغنى عن إخراج الزكاة الواجبة .

وعن السؤال الثانى — بأن الصلاة من الفرائض البدنية التى فرضها الله تعالى تهذيباً للنفوس كما قال تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ، فلا يجوز للمرء تركها بحال من الأحوال .

وقد راعت الشريعة السمحة فى أدائها التيسير على الناس ففرضتها من قيام على القادر عليه ، فإن عجز عن القيام أداها من جلوس ، فإن لم يستطع ذلك أداها مستلقياً على ظهره أو مضطجعاً مع الإيماء والإشارة برأسه أو بعينيه إن لم يستطع الإشارة بالرأس ، فإن لم يستطع أداءها بوجه من الوجوه فقط سقط التكليف بها .

ومن هذا يتبين أن من استطاع الصلاة بوجه من الوجوه التى بيناها ولم يؤدها فهو آثم ، ولا يغنيه عن ذلك فدية ولا أى عمل من الغير .

وهذا هو ما تفتى به اللجنة ، والله أعلم .

٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٢

رئيس لجنة الفتوى
محمد عبد الفتاح عنانى

لماذا صار المسلمون هدفاً للمستعمرين ؟

الإسلام يحض على التماسك والترابط والألفة بين القلوب

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

تفضل فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر فأدلى بالبيان التالي إلى جريدة (الأهرام) ونحن ننقله عنها . قال :

إن مصر وجميع أقطار العالم الإسلامى تجتاز الآن دوراً من أعظم أدوار التاريخ ، وكلما أدرك أهلها واجبهم ، ووطنوا أنفسهم على القيام به ، وبذل التضحيات الثمينة فى سبيله ، عجل الله لهم بثمراته الطيبة ، وكافأهم بأضعاف ما كانوا يأملون . والإسلام قد تكفل لأهله بالتوجيه السليم إلى كل ما يقيم لهم الكيان القوى ، والمجتمع الصالح ، والدولة العادلة المهيبة . ولو أنهم لم ينحرفوا فى العصور الأخيرة عن التوجيه الإسلامى فى أنفسهم وجماعاتهم وحكوماتهم ، لما وجد الاستعمار سبيلا إليهم ، فقد أراد الإسلام لأهله أن يكونوا أقوياء بالإيمان الصحيح والأخلاق الكريمة والعمل الصالح ، وأقوياء بالاستعداد الحربى والتأهب دائماً للدفاع عن كيان الأمة وحقوقها . وقد كانوا بالفعل هم أهل العزة فى الأرض ، والهيبة فى عيون الأمم ، عند ما كانوا منقادين لهذا التوجيه الإسلامى وعاملين به . فلما تهاونوا به فى المئات الأخيرة من السنين ، وقصروا فى الاستعداد من كل نواحيه ، لتقصيرهم فى معرفة الحقوق التى أتاحها الإسلام لهم ، والواجبات التى أوجبها عليهم ، طمعت دول الاستعمار حينئذ فى استعبادهم واستغلال خيراتهم ، وتذرعت بأوهى الأسباب لبسط سلطانها عليهم ، وكان ما قد حدثنا عنه التاريخ من استيلاء الهولنديين على جزائر أندونيسيا قبل نحو ثلاثمائة

سنة ، ومحاولة البرتغاليين السطو على سواحل العالم الإسلامى ، وتوغل الإنجليز فى الهند وغيرها ، واستيلاء فرنسا على الجزائر ثم على بقية بلاد شمال أفريقيا . وهذا كله لتقصير المسلمين فى معرفة مالهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات التى بينها الإسلام لهم ، ثم لتهاونهم فى متابعة التوجيه الإسلامى أفراداً وجماعات وحكومات . ولقد كان رسول الله ﷺ ينظر إلى ذلك بنور الله عز وجل من وراء العصور الكثيرة ، ويصدر فى بيانه لأمته عن وحى صادق من الله فيما أنذرهم به ، وذلك فيما رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث ثوبان مولى رسول الله وقد رواه عن ثوبان أيضاً الإمام أبو داود فى الباب الخامس من كتاب الملاحم من سننه أن رسول الله ﷺ قال : يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن . فقال قائل : وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا ، وكراهية الموت » .

فالمسلمون لما وهنت قلوبهم فى العصور الأخيرة لإيثارهم توافه الدنيا على المثل العليا ، ولتهيبهم الموت فى سبيل حقائقهم وحقوقهم ، نزع الله حينئذ من صدور الأمم ما كان يملأها من مهابة المسلمين بسبب ما شاهدوه من موت هممهم وانحطاطهم فيما كان أسلافهم يمتازون به من سمو الخلق وعلو النفس والغيرة على الحقوق والحقائق ، فأصبح المسلمون بسبب ذلك كالغثاء التافه الذى يطفو على سطح الماء فى الأنهار ومجارى السيول . وحينئذ طمعت فيهم الأمم المستعمرة ، وتداعت لالتهامهم كما يتداعى الجائعون إلى التهام الطعام . ثم كان ما كان من جثوم الاستعمار كالكابوس البغيض على صدور المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وإن كان المحتل يجد فى من ينتمى إلى الإسلام قلوباً يقلبها بأصبعه كما يشاء ، وألسنة يحركها فى أغراضه كما يريد ، فإن تلك القلوب وتلك الألسنة - إلا من عصم الله أصبحت مأمورة بالشعور الذى يريها الحقوق رأى العين ويمنعها من أن تستخدم إلا فى صالح المحتل وتمكنه من احتلال ما شاء . وفى الأمثال البديعة : أن أشجاراً رأت فأساً ملقى بجانبها ، فانزعجت منه ، فقالت لها شجرة منهن ، لا تخافوا منه ، فإنه لا يكسرنا إلا إذا دخل فيه عود منا .

والآن وقد أخذت اليقظة تدب فى أرواحنا وانتشرت الدعوة بيننا إلى معرفة حقوقنا والاستمساك بها والتعويل على الدفاع عنها بأى ثمن ، فقد أصبح من الواجب على كل فرد منا أن ينتظم فى صفوف هذا الدفاع فى كل مكان . وقد رأى المسلمون بعد الحرب العالمية الأخيرة كيف أن الله عز وجل كافأ أهل كل قطر إسلامى هب للدفاع عن حقوقه ، فوهبه الظفر بأمانيه ، والتوفيق بالحصول عليها بأسرع مما كانوا يأملون . وإن قيام دولتى أندونيسيا وباكستان أعظم شاهد ملموس فى هذه السنوات على صدق ما وعد الله به الذين يجاهدون فى سبيل حقوقهم من المسلمين . ومن سنة الله فى هذه الأمة أن يعلى مقامها ، على قدر ما تعرف من حقوقها وتؤديه من واجباتها . والدنيا كلها بين حق وواجب ، وما ضاع حق سعى له أهله من طرقه المعقولة الحكيمة ، ولم يخيب الله أمة قامت له بما يجب عليها .



لغة العرب وعلومها

قال (فريتاغ) الألمانى فى مقدمة معجمه الكبير فى اللاتينية والعربية :

« ليست لغة العرب أغنى لغات العالم وحسب ، بل إن الذين نبغوا فى التأليف بها لا يكاد يأتى عليهم العد ، وإن اختلافنا عنهم فى الزمان والسجايا والأخلاق ، أقام بيننا — نحن الغرباء عن العربية — وبين ما ألفوه فيها حجابا لا نتبين ما وراءه إلا بصعوبة » .

والعلامة فريتاغ يقول هذا عن تراث أمة أباد الدهر أغلى تراثها وأجوده ، فكيف به لو شاهد وشاهدنا معه كل ما ألفه العرب والمسلمون من بدء التأليف إلى الآن ؟ !

الجندية في صدر الإسلام

— ٢ —

ومن لم يروِّ رمحه من دم العدى · إذا اشتبكت سمر القنا بالقواضب
ويعطي القنا الخطى في الحرب حقه · ويبرى بحد السيف عرض المناكب
يعيش كما عاش الذليل بغصة · وإن مات لا يجرى دموع النوادب

٣ — خبرتهم بعلم الفلك وعلم القيافة :

نشأ العرب في البادية وحياتهم كلها ترحال وانتقال من مكان إلى مكان وراء الرزق والمرعى ، وكانت لهم تجارة بالقوافل . ولم يكن عندهم آلات للرصد يستخدمونها في سيرهم بل كانوا يعتمدون على الطبيعة وعلى ما فيها من ظواهر وكواكب وأفلاك ، وصارت عندهم خبرة بمسالك الصحراء ودروبها ، السهل منها والوعر ، لكثرة ما تنقلوا فيها ، وكانوا أعلم بأماكن المياه ومواردها لشدة حاجتهم إليها في أسفارهم .

وكان من علومهم « القيافة » وهي تتبع آثار الأقدام والحوافر وكانت لهم فراسة في هذا ذاعت فيهم .

٤ — حدة البصر وقوة السمع :

لا شك أن حاستي الإبصار والسمع كانتا عند العرب مكتملتين لجميع عناصر القوة ، فقد كانت حواس العربي طليقة تعيش على سجيتها ، لم تصطدم بما يضعفها أو يؤثر في قوتها من مظاهر المدنية من أنوار وضجيج وغير ذلك .

ويقترن بحدة البصر براعتهم في رمى القوس ، والقصة التي نرويها الآن خير دليل : خرج أعرابي للصيد فصاد ضباً فعلقه على ظهره ثم مر بخباء ليس فيه إلا عجوز ، فجلس فلما أمسى حضر شيخ كبير يسوق إبلا كثيرة فلما رآه رحب به وأكرم مثواه ثم ناموا ، فانتهز الأعرابي هذه الفرصة وقام إلى الإبل فربط أحدها ببعيره وخرج تتبعه سائر الإبل ، وأسرع

الرجل فى سيره يرجو أن يصل إلى مكان أمين بينه وبينه مسيرة ليلة ، فلما طلع الفجر أبصر ذلك المكان فإذا عليه سواد ، فلما دنا وجد الشيخ قاعداً وقوسه فى حجره فقال : أضيفنا ؟ قال : نعم . قال : استخر نفسك عن هذه الإبل . فقال : لا .

فأخرج الشيخ سهماً وقال : انظر بين أذنى الضب المعلق فى ظهرك . ثم رماه فصدع عظمه من دماغه ثم قال : ما تقول ؟ قال : أنا على رأيى الأول ... فقال انظر هذا السهم الثانى فى فقرة ظهره الوسطى . ثم رمى به فكأنما قدر بيده ثم قال : ما رأيك ؟ فقال : إنى أحب أن أستثبت . قال : فانظر هذا السهم الثالث فى عكوة ذنبه ، والرابع والله سيكون فى بطنك . ثم رماه فلم يخطئها . فلم يسع الأعرابى إلا أن يرد الإبل لصاحبها وهو خائف يرتعد .

٥ — صفاء الذهن :

كان ذهن العربى صافياً كصفاء الطبيعة من حوله ، مشرقاً كإشراق الشمس والنور ، لم يصطدم بما يغبر صفحات العقول ، ويكدر مرايا الأفكار من دخان الحضارة .

وإذا تحققت هذه الصفة فى الجندى كان أقدر من غيره على فهم الأوامر ، وعلى تدبير الحيلة ، وحسن التصرف ومعالجة الأمور ....

بهذه الصفات الفطرية التى ذكرناها دخل العربى المدرسة الإسلامية ، فتناول الإسلام هذه الطبيعة ، وهذه المواهب بالتهذيب المستبصر ، والتوجيه الصحيح ، ناشداً فيهم أعلى الفضائل على ما سنذكره فيما يلى ، حتى أخرج من هذا العربى جندياً عظيما ، وبطلا قاهراً ، وفارساً مغواراً .

١ — الفضائل ومكارم الأخلاق :

تولى رسول الله ﷺ إرشاد العرب الذين دخلوا المدرسة الإسلامية ، إلى الفضائل ومكارم الأخلاق ، ولقد تجلى ذلك بكل معانيه فى معاملته لهم بأخلاقه وفضائله ، فكان لهم خير أسوة يحرصون عليها الحرص كله ، والأسوة خير مرشد ، على أنه لم يكلهم إلى ذلك فحسب ، بل كان يتعهدهم بالإرشاد إلى الخلال الحميدة ويمرنهم على الأخذ بها حتى تصير ملكة وخلقاً ، وحتى يتنافس فيها المتنافسون .

انظروا إلى قوله : « ثلاث من كن فيه استوجب الثواب ، واستكمل الإيمان : خلق يعيش به فى الناس ، وورع يحجزه عن محارم الله ، وحلم يرد به جهل الجاهل » .

وإلى قوله : « إن أحبكم إلى وأقربكم منى منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الموطأون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون » .

ولقد غرس النبي فى المسلمين مبادىء قوة العزم والرأى واستقلال الفكر ، والاعتماد على النفس ، ولم تلبث ثمار هذا الغرس أن ظهرت وأينعت ، فلم يجد عليه الصلاة والسلام فى أصحابه ضعفا فى مواقف الجد ، لم يجد هممهم فاترة ، وعقولهم قاصرة كما وجد موسى عليه السلام فى بنى إسرائيل ، ذلك الخور الفاضح حين ذهب بهم إلى العدو فإذا بهم ينكصون على أعقابهم ويخاطبونه بلسان الخائن الجبان : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » كلا لم يجد من أصحابه مثل هذا ، بل وجدهم يقولون « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون » .

٢ — الشورى :

لما كان استقلال القائد بالرأى ، يشعر باستبداده وترفعه ، وعدم مبالاته أو تقديره لرجاله ، ويورث الغضاضة ويستثير الحفيظة ، اقتضت شريعة الرسول الحكيمة أن يعامل أصحابه بمبدأ الشورى ولا سيما فى أمور الجهاد ، إذ أن ذلك يشعرهم بمكانتهم عنده ، واعترافه بصحة رأيهم وشدة إخلاصهم : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت هذه الآية (وشاورهم فى الأمر) قال النبي ﷺ « إن الله ورسوله غنيان عنها ، ولكن جعلها رحمة فى أمتى ، فمن شاور منهم لم يعدم رشدا ، ومن ترك المشورة منهم لم يعدم غيا » .

ولقد جعل الله تعالى الشورى أساساً للحكم فى الإسلام وأمر نبيه بها ، وامتدح القائمين بها فى قوله (وأمرهم شورى بينهم) فأخذ الرسول يسوس المسلمين بها ، بل كان يتنزل معهم إلى أبعد من ذلك ؛ روى أنه كان فى سفر وأمر أصحابه بإصلاح شاة ، فقال رجل : يارسول الله علىّ ذبحها ، وقال آخر : على سلخها ، وقال آخر : على طبخها ، فقال الرسول : وعلى جمع الحطب . فقالوا : يا رسول الله نكفيك العمل ، فقال : علمت أنكم تكفونى ، ولكننى أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه .

(يتبع)

يوزباشى أركان الحرب

محمد جمال الدين محفوظ

رسول الله في الطائف

تمر كتب السيرة على رحلة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الطائف مروراً عابراً مما جعل كثيراً من المسلمين القارئين لها يفهمون أن هذه الرحلة كانت من الرحلات السهلة الهينة ، ويعتقدون أنها كانت رحلة إلى ضاحية من ضواحي مكة ، مع أنها كانت أقسى رحلة وأشقها على رسول الله ، وأشهد أنني كنت ممن يفهمون هذا الفهم الذي وجدته عند كثير من المثقفين حتى حضرت إلى مكة في العام الماضي وتقرر أن يكون عملي في الطائف ، وكنت إلى تلك اللحظة أعتقد أنها على بعد يسير من مكة ، ولكن بعض العارفين أخذ يعطيني فكرة عن الطائف فعرفت منه أن السيارة تقطع إليها من مكة ما يقرب من ١٥٠ كيلو مترا فدهشت وتساءلت : وهل قطع الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الطريق الذي نقطعه الآن ؟ إننا كنا نظن أنه ذهب إليها وعاد منها في يوم أو في ضحاه ! ! قال : إن الرسول قطع المسافة إلى الطائف من طريق أخصر من هذا قليلا لا تسير فيه السيارات الآن وهو يقرب من مائة كيلو متر يقطعه الناس اليوم سيراً على الأقدام أو ركوباً على الدواب ! ! قلت إنها مسافة طويلة جداً عما كنا نظن ، وإنها لرحلة شاقة ومتعبة لابد أنها أخذت أياما قاسية من حياة الرسول ﷺ .

ثم رجعت إلى كتب السيرة فوجدت ابن هشام يذكر عن هذه الرحلة « ولما هلك أبو طالب - بعد وفاة خديجة - نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل فخرج إليهم وحده » .

إذن كان الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة في أزمة نفسية ، وكان في شدة بلغت أوجها بعد أن فقد النصيرين : الزوجة التي كانت تتلقاه في البيت بصدر حنون وقلب شفيق فتزيل عن نفسه المجهدة المتعبة كثيراً من الهم والتعب ؛ ثم تبعها العم الذي كانت تخشاه قريش فتمنع عن محمد - كارهة - كثيراً من سفاهتها . فوجد الرسول نفسه بعدهما في أتون اتقدت ناره ،

وتشعب لهيبه ، وأصبح بمكة وقد انطلق عليه سفهاؤها وتناولوه بالإيذاء والاعتداء فإذا رجع إلى بيته وجد الحزن يخيم على جوانبه ، فثارت فى نفسه ذكرى الزوج الوفية فتمتلىء نفسه من الهم ، وتفيض عينه من الحزن ، ويبحث حوله عن نصير فى الخارج أو مواس فى الداخل فيعز عليه النصير والمواسى ، ويفكر فى الدعوة التى حمله الله أمانتها - وهل يفكر إلا فيها - ويحاول أن يجد لها متنفساً بعد أن ضيق القرشيون عليه الخناق ولم تعد مكة بيئة صالحة لنشر دعوته ، فإلى أين يذهب وقد بلغ الأمر منتهاه ؟ وفكر الرسول فوجد أنه فى الجنوب الشرقى من مكة قوم من ثقيف يقطنون « الطائف » وبينهم وبين قريش عداء ربما يساعد على احتضان دعوته وهم إن استجابوا كانوا نعم العون والنصير .

ولابد أن الرسول مرت به حالة من التفكير العميق فى هذه الرحلة ونتائجها ، وإن الإنسان ليتصور الحالة النفسية التى كان الرسول يمر بها فى هذه الآونة : كيف يذهب ؟! وهل يستجيب له هذا الحى من العرب بعد هذا السفر الطويل ؟ إن هذا هو الأمل !! ولكن كيف يكون موقفه إن تنكروا له ؟! ثم كيف تكون عودته إلى مكة حينئذ ؟! وماذا يفعل الشامتون ؟! لابد أن الرسول قد فكر فى هذا كله ومرت بنفسه فترات من الأمل المشرق له ولدعوته حينا ، فتنبسط أسارير وجهه ، وتشرق جنبات نفسه ، ويتصور المستقبل الباسم للإسلام ، وحينا تمر به صور اليأس من استجابتهم ومن النتائج المرة التى تتبع إعراضهم فتمتلىء نفسه هماً وحزناً وخوفاً من هذا المستقبل القاتم !! ولكن هل يستسلم لهذا الجانب المظلم ويقعد خوفاً من إعراضهم ومن النتائج المؤلمة التى تترتب عليه ؟ كلا !! إنه عليه الصلاة والسلام لا يترك فرصة أمامه لدعوته إلا انتهزها ، وليكن بعد ذلك ما يكون من مصاعب ومشاق فكل شىء يهون احتماله فى سبيل دعوة التوحيد .

وجاء الوقت المحدد فخرج الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الطائف وحده وبدأ رحلة المشاق والمتاعب ليس معه أحد إلا ربه الذى يرعاه ويحفظه ، لقد تصورت الرسول سائراً بين الجبال يحمل عبء الدعوة وهو ينقل خطاه صاعدا فوق الجبال أو هابطاً منها ، تصورته حينما كنت أنظر لما حولى من السيارة التى تنهب بى الأرض نهبا إلى الطائف .

نعم تصورته عليه الصلاة والسلام وحيداً يقطع هذه المسافة تحت ثقلين من تعب النفس وتعب الجسم . إذا رأيت عربياً يسير هنالك فى بطن الجبل يعلو ويهبط ، قلت : ألم يكن الرسول تضمه الجبال كهذا الرجل ؟ كان يسير فى الشمس المحرقة وفى ظلمات الليل البهيم ، لا يؤنسه شىء إلا تفكيره فى ربه واتصاله بخالقه وحارسه . من كان يظن حين يراه

أنه يحمل أمانة ربه ؟! ومن كان يظن حين ينظر إليه أن ينظر إلى المثل الأعلى للإنسانية إلى الرجل الذى اختاره الله ليبلغ رسالة السماء وليكون خاتم الأنبياء ؟! من كان يظن حين ينظر إلى هذا الرجل العربى — كأى عربى تضمه هذه الجبال — أنه ينظر إلى الرجل الذى سيهز العالم بأسره وأن لفظ الخلود سيقترن بمبادئه واسمه ؟ من كان يفكر من رآه أن هذا الرجل سيجذب الملايين إليه وإلى دعوته، وأن هذه الملايين من خارج الجزيرة ستؤمن به قائداً ومنقذا وشفيعاً ؟! من كان يفكر أن هذا الرجل العربى الذى يسير وحيداً فى فيافى الجزيرة القاحلة سيحيي مواتها ويجعلها مهوى الأفئدة فى جميع أنحاء العالم، ويجعل لغتها التى تحاصرها الجبال فلا تخرج إلى ما وراءها - لغة عالمية خالدة تتعصب لها دول وشعوب، وتطرق المجامع الدولية، وتبعثها موجات الأثير من كل ناحية، وتصبح بفضله لغة شعوب ولسان حضارات ؟! نعم من كان يظن حين ينظر إلى هذا الذى يسير مثقلا بالهموم أنه سيفعل كل هذا ؟!

كانت هذه خواطر مرت بى سريعا سرعة السيارة التى أركبها، وقلت لا أشك فى أن كل من رآه مر عليه كأى عربى يمر عليه بالليل والنهار؛ ولم يكن يعلم أية نفس يحمل هذا الرجل، ولا أية رسالة يؤديها !!.

قطع الرسول ﷺ هذه المسافة الطويلة المتعبة، ولا شك أن الأمل كان يدفعه فى كل خطوة من خطواته، الأمل فى أفق جديد لدعوته، ولا شك كذلك أنه كان مع هذا الأمل شىء غير قليل من الخوف، الخوف من الفشل؛ كان الرسول يؤمل أن تنضم إليه ثقيف وتنصر دعوته ضد أعدائه وأعدائها بعد أن عز عليه النصير فيهم، ولكن هذا الأمل كثيرا ما كان يختفى أمام عوامل القلق والخوف من إعراضهم وصدودهم، وهذه حالة لم تمر بحياة الرسول قبل ذلك ولا بعده، فقد كان يعرض نفسه على القبائل فى موسم الحج، ولكنه لم يتكلف سفرا كهذا السفر، ولم يلجأ مع ذلك إلى أعداء قريش كما لجأ هذه المرة؛ وقد سافر بعد ذلك إلى المدينة، ولكنه لم يخرج إليها إلا بعد أن اطمأن إلى مركزه فيها وأرسل طلائعه يعلمون أهلها الإسلام فكانوا محل الرعاية والعناية، ومكث مدة تكونت فيها جماعة إسلامية تفوق أصحابه بمكة، فلم يكن إذن حين سافر للمدينة محل خوف أو قلق من المصير المجهول، ولكنه كان مطمئنا إليها عازما على الإقامة فيها .

وأقبل الرسول عليه الصلاة والسلام على الطائف، وعمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم وهم إخوة ثلاثة، [1] أقبل عليهم الرسول ونفسه متجهة إلى الله أن

---

[1] سيرة ابن هشام .

يهديهم سواء السبيل ويهدى بهم من وراءهم من قومهم ، ولكن قلوبهم كانت مغلقة ، ونفوسهم كانت متكبرة ، حتى ليقول له أحدهم فى سخرية واستهزاء ، وكأنما عز عليه وهو السيد الكبير أن يرى هذا القرشى اليتيم رسولا من الله يدعوه إلى هذا الأمر العظيم فيقول له : « أما وجد الله أحدا يرسله غيرك »[1] كأنما ظن أن الرسالة تتبع الجاه والمال ، فاهما أنها ملك وسلطان ، وقد جهل المغرور أن « الله أعلم حيث يجعل رسالته » وكانت هذه نغمة سائدة فى الناس حينئذ حكاها القرآن ورد عليها حين قال « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم !! أهم يقسمون رحمة ربك ؟ ! » وكان هذا الرد من الثقفى الكبير الذى يحمل كل معانى الاستخفاف والاستعلاء صدمة لآمال الرسول عليه الصلاة والسلام فى القوم ، وصدق الله العظيم « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » ، « لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » وكانت نتيجة مريرة على نفسه العظيمة ، فقد قطع الآميال الطويلة والأمل يحدوه ، ومن ورائه قريش لا بد أنها سترقب فى لهفة أمر هذه الرحلة بعد أن تدلم بها وتتوق إلى فشلها ، حتى تشمت كما تحلو لها الشماتة ، وتزداد فى عتوها . والرسول عليه الصلاة والسلام يحس كل هذا ويقدره حتى لنجده يقول لهؤلاء الثلاثة المتكبرين من ثقيف بعد أن يئس منهم : « إذ فعلتم مافعلتم فاكتموا عنى » وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم « يجرئهم » عليه »[2] .

إن الرسول قد لقى إعراضا وصدودا من كثيرين قبل ذلك ، ولكنه ما كان يحسب لأى إعراض سابق ما حسبه لهذا الإعراض ؛ كان يدعو الناس فى موسم الحج ووراءه الصادون عن دعوته ينفرون الناس منه ، وما كان يقيم لهم وزنا ولا حسابا ، أما هذه المرة فتختلف ظروفها وأوضاعها ، لقد ترك مكة حزينا لفقد النصيرين واشتداد الإيذاء عليه ، وسافر طويلا إلى أعداء قريش والتجأ إليهم لعلهم ينضمون إليه ويدخلون فى دينه ، ولكنهم لم يستجيبوا فماذا تفعل قريش إذن ؟ وما مبلغ فرحها وشماتتها ؟ إنهم لا شك سيشمتون ، وسيزدادون عليه جرأة ، ومن هنا كان حزن الرسول وخوفه من إذاعة الخبر .

كل المصائب قد تمر على الفتى   وتهون غير شماتة الأعداء

عبد المنعم النمر

مبعوث الأزهر وأستاذ التفسير بدار التوحيد بالطائف

---

[١] و [٢] سيرة ابن هشام .

الحكم بما أنزل الله

****

خلق الله سبحانه النوع الإنسانى لعمارة الأرض وإصلاح الكون ، وركب فيهم عقولا وجعلها مناط التكاليف ، وخلق فى الإنسان غير القوة العقلية القوة الشهوانية والقوة الغضبية وغيرهما من الغرائز النفسية التى تضعف سلطان العقل وتقلل من شأنه ، بل تتغلب وتنتصر عليه فى بعض الأحايين ، ومهما سما العقل واكتمل فما هو يستطيع أن يهدى المرء إلى جميع ما يحتاج إليه فى تحصيل السعادة الدنيوية فضلا عن الأخروية ، لقصوره عن إدراك هذه المنزلة ، فكان لابد للعقل من هاد يكمل هدايته ، ويرسم له الطريقة المثلى فى الحصول على الكمال الدينى والدنيوى ، وكان هؤلاء الهداة رسلا مبشرين ومنذرين يصطفيهم الله ممن زكت فطرتهم وكملت عقولهم ويفيض عليهم من أنواع وحيه ما يشاء ، فيأخذون بزمام العقل ويدلونه على المنهج الواضح والصراط المستقيم ، وهؤلاء الرسل يستمدون هدايتهم من المشرع الأعظم ، وهو الله سبحانه وتعالى العليم بما كان وما يكون ، الخبير بالنفس البشرية وغرائزها وطبائعها ، الحكيم فى كل شئونه وتصرفاته ، المنزه عن العبث واللهو والهوى والشهوة ، فلذلك كان تشريع الله عادلا كل العدل صادقا غاية الصدق ، لا يطرق ساحته خلل أو نقص أو إبطال ، وصدق الله حيث يقول « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » وهذا فرق ما بين شرع الله وقوانين الانسان .

وقد اقتضت حكمة الله أن تكون رسالات الأنبياء السابقين محدودة بالزمان والمكان ، فجاءت شرائعهم ملائمة لزمان خاص ، ولبيئة خاصة . فلما بلغت البشرية كمالها العقلى وسن الرشد وجأرت إلى الله تطلب الغوث مما حاق بها من صنوف الفساد فى الحياة الدينية والخلقية والاجتماعية ، اقتضت رحمة الله أن يرسل خاتم النبيين وسيد البشر محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشريعة هى خاتمة الشرائع ، فجاءت على أتم وأكمل ما تكون شريعة فى الوفاء بحاجات البشر لتحصيل السعادة الدينية والدنيوية .

وجعل هـــذه الشريعة هى المهيمنة على الشرائع السماوية السابقة فما وافقها فهو الحق

وما خالفها فهو مما تزيده المتزيدون ؛ قال سبحانه « أنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » . والشريعة الإسلامية هي الشريعة العامة للبشر كافة الباقية على وجه الدهر إلى أن يرث الله الأرض وما عليها ؛ وصدق الله حيث يقول « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » . وفي الحديث الذي رواه البخاري « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » . وهي التشريع الذي ارتضاه الله لإصلاح الكون ، والحكم بها بين الناس واجب محتم ، وهذا قول الله لنبيه محمد ﷺ « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » ؛ وقد شدد الله النكير على من لم يحكم بما أنزل الله ووصفه بأشنع الصفات وأعظمها إثما فقال « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » وفي آية ثانية « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » وفي آية ثالثة « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » [1] ، والآية الأولى ـ وكذا الثانية والثالثة عند من يحمل الظلم والفسق على أعلى أنواعهما ـ محمولة على من فعل ذلك مستحلا له طيبة به نفسه راضيا به قلبه : فهو الكافر ولا محالة وهو الظالم ، لأنه وضع الأمور في غير موضعها ، وهو الفاسق لأنه فسق عن أمر ربه وتمرد على شرع الله وخرج بعمله من حظيرة الدين الحق إلى مباءة الهوى والباطل .

روى ابن جرير عن علي بن طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » قال : من جحد ما أنزل الله فقد كفر ، ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق ، وروى مثل ذلك عن عكرمة .

وهذه الآيات وإن ذكرت في القرآن الكريم في سياق الكلام عن التوراة والإنجيل والحكم بما أنزل الله فيهما ، والرد على من لا يرتضون حكم الله من اليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويشترون بآيات الله ثمناً قليلا من الرشا وابتغاء الجاه ورضا الناس [2]

---

[1] الآيات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ من سورة المائدة .

[2] ذكر الرواة أن السبب في نزول الآيات ماجاء من أن يهوديا ويهودية زنيا وكانا محصنين وكان حكم التوراة الرجم ولكنهما كانا شريفين فلم يقيموا عليهم الحد ، وقد احتكم اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحاجهم وبين لهم أن حكم الله الرجم ، فلم يجدوا بدأ من النزول على رأيه . وقيل إن السبب ما كان بين بني قريظة والنضير من عدم التساوي في القتلى وإعراضهم عن حكم الله إلى اتباع الهوى والشهوة .

إلا أن حكمها عام ، إذ لفظها عام والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وإلى القول بعموم الآيات وأنها ليست خاصة بأهل الكتاب ذهب كثير من السلف : روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنها عامة فى اليهود وغيرهم ، وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : « نعم القوم أنتم ، ما كان من حلو فهو لكم ، وما كان من مر فهو لأهل الكتاب » وكأن ابن عباس يرى أن حكم الآيات يشمل المسلمين ويرد على من يقول إنها فى أهل الكتاب خاصة [١] .

وروى الحاكم وصححه وعبد الرزاق وابن جرير عن حذيفة رضى الله عنه أن الآيات الثلاث ذكرت عنده ، فقال رجل : إن هذا فى بنى إسرائيل خاصة ، فقال حذيفة : نعم الأخوة لكم بنو إسرائيل ، إن كان لكم كل حلوه ولهم كل مره ، والله لتسلكن طريقهم حذو النعل بالنعل » [٢] وأخرج عبد بن حميد عن حكيم بن جبير أنه سأل سعيد بن جبير عن قوله تعالى : « ومن لم يحكم ... ومن لم يحكم ... » قال : فقلت إنها نزلت على بنى إسرائيل ، ولم تنزل علينا ، قال : اقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال : « لا بل نزلت علينا » ولعل مراده بنزولها على بنى إسرائيل أنها نزلت فى شأنهم .

وكان الشعبى يرى تفريق الآيات على حسب الطوائف الثلاث ، روى ابن جرير عن الشعبى فى قوله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » قال هذا فى المسلمين « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » قال هذا فى اليهود « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » قال هذا فى النصارى .

نعم روى عن بعض السلف أن الآيات فى أهل الكتاب وليس شىء منها فى أهل الإسلام ، ولعل مراد هؤلاء أنها نزلت فى شأنهم وقصتهم ، لا أن حكمها ليس عاما شاملا ، فإن من عمل من المسلمين بمثل عملهم فقد استحق أن يوصف بمثل ما وصفوا به ، بل المسلمون إن عدلوا عن الحكم بما أنزل الله فهم أحق بهذه الأوصاف من أهل الكتاب ، لأن شريعتهم وافية باقية ، وأدلة الأحكام عندهم متوافرة ، فليس لهم عذر فى الحكم بغير شرع الله وقد جعل الله سبحانه وتعالى الحكم بغير ما أنزل الله جاهلية جهلاء وضلالة عمياء فقال فى شأن اليهود الذين لا يرتضون حكم الله « أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله

(١) تفسير المنار جزء ٦ ص ٤٠٣

(٢) تفسير الآلوسى جزء ٦ ط . منير

حكما لقوم يوقنون ، [1] وصدق الله فلا أحد أصدق ولا أعدل من الله حكما عند ذوى اليقين والتفكر . وللشيخ العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية كلام حسن أحببت نقله عسى أن يكون فيه وازع وعظة قال ، ينكر تعالى على من خرج من حكم الله المشتمل على كل خير الناهى عن كل شر وعدل الى سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم وكما يحكم بها التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم ، جنكز خان ، الذى وضع لهم « الياسق » وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية ، وفيها كثير من الأحكام من مجرد نظره وهواه ، فصارت فى بنيه شرعا متبعا يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله [2] .

فالحكم بما أنزل الله والدعوة إليه أمانة فى عنق كل مسلم وسيسأله الله عنها يوم القيامة ، وعلى كل مسلم أن يجهر به ويطالب أولى الأمر بالعمل على تنفيذه ، وذلك عن طريق الحجة والإقناع وإثبات أن خير الشرائع لحكم الناس وصلاح الأحوال هو الاسلام الذى ارتضاه الله للناس كافة والذى أقام دولة الإسلام الأولى التى كانت ولا تزال مضرب الأمثال فى العدل والتراحم والأمن والسلام .

وإذا كان الله سبحانه قيض لهذه الأمة من أبنائها الاحرار الغيورين على مصالحها من رفع عنها نير الظلم والاستذلال ، وأراد تحريرها من أى سلطان أجنبي عنها سواء أكان فى السياسة أم فى الثقافة والتشريع والأخلاق ، فمن حقنا عليهم أن نرغب اليهم فى أن تكون القوانين التى تحكم بها تتفق هى وأمة إسلامية لها الصدارة بين الدول الاسلامية .

ولقد قدر لى أن أكون مبعوث الأزهر للتدريس ببلد الله الحرام ، وقد هيأ لى ذلك الالتقاء بكثير من رجالات الإسلام فكانوا يأخذون على مصر أنها لا تهتدى بهدى الإسلام فى كثير من شؤونها ، ويستكثرون على مصر بلد الأزهر العتيق ومنارة العلم والاسلام

---

(١) الآية ٥٠ من سورة المائدة .

(٢) تفسير ابن كثير جزء ثالث ص ١٧٤ ط المنار .

أن يكون فيها كل هذا اللهو والفجور والمظالم والمخازى التى يندى لها جبين الانسانية الفاضلة ونحن الآن على مفترق الطرق ، فإما إلى طريق يحفظ لمصر مكانتها بين أربعمائة مليون مسلم ينظرون إليها كما ينظر الطير إلى اللحم ويحصون عليها كل كبيرة وصغيرة ، والطريق إلى ذلك سهلة قريبة لمن يتناول الامور بجد وعزم ، وإما إلى طريق أخرى تضيع علينا ما كسبناه فى مئات السنين ، وهذا ما لا نحبه ولا نرضاه .

نحن لا نريد قوانين تحمى الإلحاد والإباحية والرذيلة وما إلى ذلك من عوامل الهدم والفناء للأمم ، وإنما نريد تشريعاً يدعو إلى الإيمان والحق والعدل والفضيلة ، ويقرر القيم الأخلاقية العالية ، ويطهر المجتمع من أمراضه وأدرانه ، ويحيط الأعراض والدماء والأموال والعقول بسياج من الحفظ والرعاية ، نريد تشريعاً يقضى على الشفاعات السيئة والأثرة والرشوة والكسب الحرام والظلم واستغلال النفوذ والسلطان ، ويهدف إلى تحقيق العدل فى كل شأن من شؤوننا ، نريد حكما يقوم على الشورى الحقة التى نوه بها القرآن الكريم منذ قرابة أربعة عشر قرنا ، وأثنى على المتمسكين بها فى قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » ، وأمر الله بها رسوله فى قوله « وشاورهم فى الأمر » .

وكل هذه الاصول الفاضلة لن نجدها متمثلة بأجلى صورها إلا فى شرعة الإسلام الحقة ، وبحسبنا قول رسول الرحمة وهادى الامة « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وفقنا الله جميعاً الى ما فيه إقامة الحق والعدل .

محمد محمد أبو شهبة
المدرس بكلية أصول الدين

أمر الله والقائمون عليه

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : « لا يقيم أمر الله إلا رجل لا يضارع ، ولا يصانع ، ولا يتبع المطامع . ولا يقيم أمر الله إلا رجل لا ينتقص غربه ، ولا يكظم فى الحق على حزبه » .

الحاكم في الإسلام

****

كانت الحكومة فى صدر الإسلام لمحمد ﷺ ، وكان المؤمنون يخضعون له عن رضى وإذعان ، وانقياد وقبول ، فهو الذى يقضى بين المتخاصمين ، ويؤلف بين المتنافرين ، ويقرب بين المتباعدين ، ويقيم الحدود ، وينفذ الأحكام ، والأمر كله له دون منازعة أو خلاف « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » ، وعلى الرغم من أنه كان أمينا على الوحى ، منفذا لكلمة الله فيما ينزل به جبريل ، لم يكن فيه استبداد الرؤساء ، ولا كبرياء المسلطين ، ولا زهو الحكام ، إنما كان يضع نصب عينيه فى كل حالاته أن مهمته الإنقاذ من التردى ، والانتشال من التورط ، والهداية إلى الصواب ، والإرشاد إلى ما يجب أن يكون ، وأنها رسالة ألقيت مسئوليتها على عاتقه من الله الذى له ملك السموات والأرض ، وحين يمتثل تكليفه إياه ، ويستجيب لإلزامه له « بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس » لا يجد نفسه بحاجة إلى الامتنان عليهم ، لتأخذه العنجهية ، ويهزه الصلف ، لأنه أسدى معروفا ، وقدم غنما يحصلون فائدته ، ويجنون ثمرته : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

لهذا فإن أول ما أدرك العرب من معانى الشورى كان بما رأوه من النبى الكريم ، الذى لم يكن يأبى أن يعرض المسألة على أصحابه يناقشونه غير متبرم بمناقشتهم ، أو حاقر لجدلهم ، وقد حصل فى بدء استعداده لملاقاة المشركين ببدر أن نزل بعيداً عن البئر المسماة بهذا الاسم ، وقال له أحدهم : أهو وحى نزل عليك ، أم رأى رأيته ؟ فقال : بل هو الرأى ، فقال : لننزل على الماء لئلا يحول العدو بيننا وبينه ، وبذلك تضعف شوكتنا ، وتفتر همتنا ، وتلحق بنا الهزيمة والانكسار ، ولم يسعه صلوات الله عليه إلا أن يقول لصاحب هذا الرأى : نعم ما رأيت ! .

وهكذا كان يبادلهم المشورة ، ويظهر من التبسط معهم ، وخفض الجناح لهم ، ما يدل على أن شأنه شأن الأب الحانى على ولده ، والراعى الشفيق برعيته ، وصدق الله العظيم « حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

والأمر الحتم من الكتاب العزيز أن نطيعه وأن نطيع من بعده أولى الأمر منا ، والتصريح فى الآية الشريفة بأولى الأمر « منكم » دليل على أن قيام الحاكم فى الأمة يقود زمامها ، ويتحمل أعباءها ، ويرد عدوان القوى ، وظلم المتعسف ، وطمع الجائر ، من الواجب على أهل الرشد ، وأصحاب الحصافة .

ولذلك لم يلبث المسلمون أن انتخبوا أبا بكر رضى الله عنه ، ووسدوا إليه زمام السلطان بعد أن ارتفع الصادق الأمين إلى الرفيق الأعلى ، وهنالك قضى على الفتنة ، وحارب المرتدين ، ونشر ألوية الأمن ، وجاء فى إثره عمر بن الخطاب فنهج نهجه ، واهتدى بسيرته ، وتتابع الخلفاء والولاة بعدهما ، ونظموا الملك ، ودونوا الدواوين ، ووزعوا الاختصاصات بين الموظفين ، فقام كل منهم بما عهد إليه ، وانصرف إلى مصلحة الرعية فى حدود استطاعته .

فوجود الحاكم للشعب ، وتملكه مقاليد الأمور فى الأمة فضلا عن كونه من ضرورات العمران ، وحاجة الاستقرار ، ولوازم النظام السياسية يوجبه الدين لأنه يهتم بالإصلاح ويعنى بالسكينة ، ويرعى الحقوق ، ويكره النزاع والخصومة ، ويرغب إلى الناس أن يلتزموا حدودهم ، وينصرفوا إلى البر والمعروف ، والعمران والتقدم ، وهذه أشياء لا تتم من غير راع يكلؤها ، وسلطان يحرسها ، وقوة حازمة تصونها ، وعقل كبير يدبر شئونها ، ويصرف أمورها . ولا بد أن يكون من هؤلاء الذين يحبون العدل ، ويؤثرون الإنصاف ، ويميلون إلى إيصال الحقوق إلى أربابها ، وأن يعطى من سيرته وسلوكه ، وأخلاقه وآدابه ، وزهده وورعه ، وتدينه وتقواه ، ورأيه وكياسته ، وعلمه وفضله ، واعتدال ميزانه فى تقدير الأشياء وحل المشاكل ، وفهم المعضلات ، ما يجعل الناس يلتفون حوله ، ويبالغون فى الولاء له ، والتمسك به ، والعطف عليه ، ليعيش فى دنيا من قلوبهم ، وملك من أفئدتهم ، ويؤازروه فى المحن ، ويواسوه فى الشدائد .

وكذلك كان المسلمون مع الملوك والرؤساء فى مختلف العصور والأزمنة ، يجعلون طاعتهم من الدين ، والرضا بأحكامهم من أوجب الواجبات . غير أنه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » كما يقول صاحب الشريعة المطهرة هدانا الله بهديه .

ولذلك رسم القرآن الدستور الذى يحكمون به ، والقانون الذى يسيرون على ضوئه ، ويعملون بمقتضاه « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ومن أجل ذلك كانوا يلاحظونه ، ويتبعون هديه ، ويسترشدون به فى كل عمل يعملونه ، أو أمر يقدمون

عليه ، بل كانوا أسبق من العامة إلى الاختلاف إلى المساجد ، وحضور الجماعات ، وقد حدث ـ فى الاندلس ـ أن شغل الخليفة الناصر عند بنائه مدينة الزهراء ففاتته صلاة الجمعة ، ثم انتهى إليه أن الإمام المنذر بن سعيد خطب على المنبر وجاء فى خطبته الاستشهاد بقوله تعالى « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » ، فلما بلغته الخطبة علم أنه المقصود فبكى واستغفر ولم ينقطع عن الجمعة والجماعات إلى أن مات .

وليست ولاية المسلمين ، وتملك زمام أمورهم بالشيء الهين عند الله سبحانه ، لأنه تكليف قبل أن يكون تشريفا ، ولا يدرك معنى هذا التكليف إلا من يتصور موقف « الخليفة الثانى » فى السياسة والحكم ، والسلطان والرعاية ، والعناية والإصلاح . . وكيف أنه كان يبذل جهده وتفكيره ، وراحته ونومه ، ليوفر السعادة للأمة ، والرخاء للناس ، والطمأنينة للشعب ، غير مدخر من وقته وعافيته ، ورأيه وتدبيره ، بما يسمح لنقد الناقد ، ولوم اللائم .

ومع ذلك قال عند موته لمن أشار عليه أن يجعل الخلافة بعده لابنه عبد الله : حسب آل الخطاب أن يحاسب الله واحداً منهم عن هذه الأمة يوم القيامة ! . وما أظن وراء هذا كله من العدل والإنصاف ، والسهر على المصلحة ، والتفانى فى خير الناس ، والدأب على إرضاء مطالبهم ، وإشباع رغباتهم ، وتوفير الأمن والسلامة لهم ، غير أنه الورع والتقوى والمبالغة فى مراقبة العزيز الجبار الذى لا يأمن مكره إلا الكافر ، ولا ينسى رهبة عذابه إلا الجاحد . . .

ولعل المتتبع لسيرة هذا الرجل — بالذات — يعرف إلى أى مدى كان يرسم بتاريخه السياسة والملك ، والحكومة والسلطان ، والتدبير والرأى ، حتى لا تجعل الولاة والقضاة ، والامراء والخلفاء ، تلك المراكز سبيلا إلى المغانم السافلة ، والمطامع الدنيئة ، والشهوات المرذولة . . . لأنهم مسئولون أمام الله عن الفقر الذى يصيب المعوزين ، والمرض الذى تعمل معاوله فى أجسام المرضى ، والجهل الذى ينشر الجرائم ، ويشيع الفساد ، ويغرى بالفوضى . . والواحد منهم مؤاخـذ يوم العرض على رب العالمين بحساب هو من أشق ما يكون ، « ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

الفرض العلمى

— ١ —

إذا تأملنا فى تاريخ الحركة الفكرية ، وعلى الأخص فى القرون الحديثة ، نجد أن لكل قرن - على وجه التقريب - ميزة خاصة به تميزه عما عداه من القرون . فإذا أمكن القول بأن القرن السابع عشر هو قرن التكوين العلمى الصحيح فى الغرب ، إذ كان للعقل فى حركاته العلمية نصيب كبير ؛ يمكن القول إن القرن الثامن عشر - على العكس من ذلك - يقيد ، بقدر غير قليل ، حرية العقل من الميدان العلمى .

ولقد كان للفرض العلمى نصيب كبير فى نظريات المنهج والمنطق فى القرن السابع عشر ، بعكس ما كان له من قيمة محدودة فى القرن الثامن عشر ، فلم يكن يرجع إليه إلا فى أحوال اضطرارية . وسنستعرض هنا آراء عالمين مبرزين هما ديكارت فى القرن السابع عشر ونيوتن فى القرن الثامن عشر ، ثم نذكر حالة الفرض العلمى فى القرن التاسع عشر ، عسى أن نفلح فى إعطاء القارىء فكرة عن الفرض .

تعطى الفلسفة الديكارتيه للعقل كامل الحرية فى البحث والاستنتاج فى ميدان ما وراء الطبيعة ، وهى حين تعرج إلى البحث فى مجال الطبيعة لا تضعف هذه الحرية وإن حددت اتجاهاتها ومراماها . وأبو الفلسفة الحديثة يؤمن - بصفة عامة - بنوع واحد من الفروض هى الفروض الاستنتاجية ، فإن المتأمل للجزء السادس من كتابه « مقال عن المنهج [1] » ، يرى أنه بعد أن أوضح قوانين الحركة وطبيعتها التى تكون من الامتداد المتجانس أجزاء العالم المختلفة ، رأى أنه بين الحركات العامة الآلية أو الميكانيكية الخاصة بالأجسام المختلفة توجد مرحلة لا يمكن للاستدلال العقلى المحض أن يجتازها ، فلا بد من إجراء تجاريب مختلفة للتيقن من أن تطبيقاً معيناً لقانون عام ألزم أو أنجع من تطبيق غيره . ولكن العقل قبل أن يصل إلى هذه المرحلة التجريبية يفرض التطبيقات الممكنة نظريا للمبادىء العامة

(١) نقله إلى العربية الأستاذ محمود الخضيرى ، ونشرته المطبعة السلفية .

ويختار بينها قبل أن يحاول تحقيق إحداها ، هـذا الفرض الأول فرض استنتاجى لأن الظواهر تستنتج منه . هذا ملخص رأى ديكارت فى « المقال عن المنهج » ، يصعب على القارئ أن يستخلص منه رأى ديكارت الحقيقى فى الفرض ، فمن الجائز أن يكون قد اعتبره فى الطريق إلى القانون العلمى ، ومن الجائز ألا يُعتبر قانون علمى بأى معنى من المعانى .

غير أننا إذا قلبنا كتابا آخرا من كتبه ويسمى « مبادئ الفلسفة » وجدناه يقول « إن المعرفة الفرضية لعلل الطبيعة كافية كما لو كانت هناك معرفة صحيحة بهـذه العلل ، إذ أن الطب والميكانيكا وغيرهما من الفنون التى تستخدم قوانين الطبيعة لا تعمل إلا على تطبيق بعض أجسام محسوسة على البعض الآخر ، ونصل من هذا إلى نتائج محسوسة أيضاً ، ثم يستطرد قائلا « وهو ما سنفعله لو درسنا ما ينتج عن علل تخيلناها ، ولو أنها خاطئة ، كما لو كانت صحيحة ، وذلك لأن النتائج تتشابه لو نظرنا إلى الآثار الحسية » . وموقف ديكارت هنا ، موقف من تأكد من قوانين الحركة بأنها قوانين مطلقة للعالم ، ولكنه حين انتقل من المجال العام إلى المجال الخاص لم يرجع للتجربة فقط بل إلى القول إن الطريقة التى تسير عليها الطبيعة لا يمكن معرفتها ، إذ لا يمكن معرفة أى طريقة اختارها الله فى هـذا المجال .

هذا هو رأى ديكارت فى الفرض .

أما نيوتن فإنه يبدو لأول وهلة معارضاً لتلك الحرية الفكرية التى نادى بها ديكارت والفروض على اختلاف أشكالها ، فهو يقول « الفروض لا تخترع » .

وعلى كلٍّ فليس عنده ما يدعو إلى الإيمان بضرورة الفروض أو إلى الاقتناع بموقف فرضى لا يتحول إلى قانون طبيعى . وموقفه هذا ناتج عن طريقته فى الكشف عن التفسير الصحيح للطبيعة وخاصة فى الكشف عن مبدأ الجاذبية العام . فهو بعد أن تأمل حركة التفاحة الساقطة وفحصها بعقله ، انتقل من هـذه الظاهرة الخاصة إلى ظاهرة الجاذبية ، وفرض أن هذه الجاذبية تشابه تماما حركة القمر بالنسبة إلى الأرض ، وأنه فى اللحظة التى يصل فيها العقل إلى القانون الحسابى الجبرى لهذه الجاذبية فانه يكون قد اقترب جدا من كشف قانون عام فى الطبيعة له على الأقل عمومية قوانين ديكارت . فنيوتن يفرض أن الأجسام يجذب بعضها بعضا كما تجذب الأرض القمر ، ثم يتوصل ـ بعد تحليل تجريبى ورياضى كامل

لظواهر النظام الشمسى - إلى أن القانون الحسابى المذكور يسمح بتفسير كل حركات أجسام هذا النظام ، وفى هذه اللحظة ، أى بعد التحليل ، يصبح الفرض قانونا طبيعيا صحيحا .

ولكن من الواجب أن نعرف أن نيوتن يتجه فى بحثه نحـــو القانون الطبيعى لثقته الكاملة فى الآلة الرياضية التى يستخدمها وهى آلة حساب اللانهائيات ، ولثقته التامة فى الآلات التى يعرف بها الطبيعة الظاهرة ويستنتج الخفية ، وأن الفرض الذى دعمته التجارب المختلفة وعبرت عنه العمليات الرياضية الدقيقه لم يعد فرضا بل أصبح قانون الله للطبيعة فهو إذن لا يحذف الفروض الاستنتاجية من العلم بل يقبلها ، بشرط أن تقترب من الظواهر المختلفة للطبيعة ، وبشرط ألا يكون للفرض وجود فى ذهن عالم الطبيعة لأنه لا يفرض بل يثبت ويبرهن فقط .

ولقد بدا أثر نيوتن فيمن جاء بعده ، فأوغست كونت (فى أوائل القرن التاسع عشر) يفتقد الحركة الفرضيـة للعقل ولا يسلم إلا بما تقرره الملاحظة والتجربة ... ولكن من ناحية أخرى نرى جون هرتشل Herschel يحث العلماء على ألا يوقفوا فروضهم على عتبة الباب بل يتجاوزوا ذلك ويذهبوا إلى تفسير داخلية الأجسام وتركيبها العنصرى . وهذا لازم فى رأيه ، فهناك من الظواهر ما هو خفى على الحس ، ولا يمكن تفسيره ما لم نحاول أن نخمن ما وراء الحس ، فالفرض التخمينى متضمن فى حركة العقل الاستقرائية ، فالبحث عن عناصر الأجسام وعن مكوناتها موجـه إلى التكوين الداخلى للمادة عامة لا إلى طائفة خاصة من الأجسام .

(٢) وبعد ، فما هى الفروض ؟ الفرض من ناحية ماهيته هو الفكرة التى يرى المرء قبل دخوله فى مشكلة عقلية أنها ما يحتمل أن تكون هى الحل أو النتيجة ، أو هو الشىء الذى نفكر فيه ونظن أنه الحل الذى يصح أن يكون ، فنعمل على تحقيقه بإثبات صحته أو بطلانه ، وفرض الفروض - كما يقول العلامة ميل - يبعث على الملاحظة وعمل التجارب وهو شىء ضرورى فى تقدم العلوم ، بل يمكن القول إنه ما من مسألة عقلية أو مشكلة علمية إلا ولها نصيب من الفرض .

وهناك مفهومات مختلفة لكلمة الفرض : فهناك الفرض الرياضى . ونجده عند اقليدس منذ القدم ، وقد استعمله أفلاطون فى محاورته Menon ، وفيها يقول (عند ما رأى نفسه

أمام مسألة عويصة من مسائل الهندسة ، لم يستطع حلها بطريق الاستنتاج المباشر) : « لنرجع إلى فرض ، أو لنبحث فرضيا هذه المسألة » . ويعرف أرسطو الفروض بأنها « المبادىء التى تبنى عليها قضية ما » . فلو حاولنا مثلا أن نبرهن على تساوى زوايا المثلث المتساوى الأضلاع رجعنا - حتماً - فى برهاننا إلى تساوى الأضلاع كشىء مفروض مقبول نحاول أن نتجه منه إلى شىء مطلوب ... فهناك إذن معنيان رياضيان للفرض : فرض بمعنى قضية صحيحة هى مبدأ البرهان ، وفرض بمعنى قضية لم نقطع بصحتها بل نسلم بها مؤقتاً دون برهان ثم نحاول باستخلاص نتائجها البرهنة على صحتها .

وهناك أيضاً الفروض الطبيعة ، وهى إما استنتاجية وإما تكوينية ، فالاستنتاجية هى التى إذا سلمنا بها ، سلمنا كذلك وبمقتضاها ، بالظواهر المشاهدة فى مجال معين ، والفروض الاستنتاجية إما أن تكون فروضاً لا يجزم بصحتها ولا بخطئها وهى موجوده عند ديكارت فى الكتاب الثالث من مبادىء الفلسفة فهو يقول « لكى يدرك كل شخص أنه حر فى أن يقرر ما يشاء بصدد ما كتبته ، أرجو أن يعتبر ما كتب كمجرد فرض ، ربما كان بعيداً كل البعد عن الحقيقه » .

ويزيد على ذلك فيقول « وإنى سأضع بعض فروض أعتقد أنها كاذبة ولكن كذبها لم يمنع من أن تكون نتائجها صادقة » وإما أن تكون فروضاً موجزة أو ملخصة وتوجد عند إرنست ماخ ودوهيم ، والفرض هنا عبارة عن تلخيص الظواهر الملاحظة ملاحظة جيدة ، كما أن وظيفة النظرية العلمية منحصرة فى إيجاز القوانين المسلم بها فى العلم وجمعها فى عبارة بسيطة ، وإما أن تكون فروضاً مفسرة وهى التى توجد عند نيوتن ، وهى فروض توضع لكى تصبح قانونا علميا .

أما النوع الثانى من الفروض الطبيعية فهى الظروف التكوينية وهى التى تبحث فى الأشياء وفى حقيقة الظواهر الداخلية .

(٣) بقى أن نتكلم عن شروط الفرض ، فليس كل مايفترضه الإنسان بالفرض المقبول ، وليس كل تخمين برأى سديد ، فلابد لكى يكون الفرض علمياً يصح قبوله واستخدامه كوسيلة من وسائل التفكير ، ألا يكون خيالياً يستحيل تحقيقه ، وألا يتعارض مع الحقائق العلمية المسلم بصحتها ، وأن يكون قضية قابلة للبرهنة على صحتها أو فسادها وإلا تركنا الحبل على

الغارب للتخمينات والظنون ، كما يجب ألا يتأثر الباحث فى فرضه برأى أو نظرية مرجحة لم تصل بعد إلى مرتبة القوانين ، وألا يكون متحيزاً لآراء تصدر عن أشخاص ممتازين ، فقول العلامة أديسون عن الأرواح « لو أن هناك أرواحا تخاطب لكنت أول من يخترع آلة لمخاطبتها » . هذا القول لا يصح اتخاذه أساساً للبحث فى عالم الأرواح ولو أنه صادر عن عالم كبير .

ولكن ، يجب التمييز بين الاعتقاد العلمى الصحيح الذى وصل إليه الفكر البشرى بعد البحث والتفكير المنطق قرونا عديدة حتى أصبح حقيقة لا تقبل الجدل ، كالاعتقاد فى كروية الأرض مثلا وغير ذلك من الحقائق التى يصح اتخاذها أساساً لفروض تفرض لحل مشكلات علمية ، وبين المعتقدات التى نشأت عن أساطير أولية تداولها الناس جيلا بعد جيل حتى أصبحت عند العامة فقط حقائق لا تقبل الشك .

وبعد ، فهذه آراء فى تاريخ الفرض وماهيته وشرطه . وفى المقال القادم إن شاء الله سنتكلم عن تحقيقه ومراحل هذا التحقيق .

سعيد زايد

الحيـاء

قال الهادى الأعظم صلى الله عليه وسلم : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة : إذا لم تستحى فاصنع ما شئت » .

وقال علقمة بن علاثة للنبى صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله عظنى . فقال له صلى الله عليه وسلم « استحى من الله استحياءك من ذوى الهيبة من قومك » .

فضل الرسول على قومه

متى نعود إلى وضعنا فى التاريخ ؟

« إن العرب دخلوا التاريخ من الإسلام » .

كلمة سديدة رشيدة ، لم يقلها مسلم أو عربى ، ولكن قالها منصف غربى :

كلمة لا يسع المفكر إلا أن يتحسس معانيها فى نفسه . وأن يدير مغزاها على نواحى حسه ، كلما أراد أن يستشعر فضل محمد ﷺ على العرب وفضل الإسلام على المسلمين .

حقا إن الإسلام كان هو الطريق الذى دلف منه العرب إلى التاريخ ، فتبوءوا أولى صفحاته واحتلوا مسرح الوجود قرونا ، فمثلوا فوقه الأدوار الأولى ، وتزعموا القافلة البشرية فقادوها من زمامها فى رفق ولين إلى معارج الرقى والتقدم والمعانى المثالية الرفيعة .

كان العرب قبل الإسلام أمة أمية . ولم يكن لهم فى التاريخ العالمى شأن يذكر . طوقتهم الجغرافية بدول كبرى جبارة كالفرس والرومان والأحباش . دعتهم هذه الدول ذات البطش والجبروت تارة برعاة الإبل ومرة بالحفاة العراة . . فما هو إلا أن بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بهذا الدين الحنيف فأخذ يروضهم عليه ، ويعلمهم بتعاليمه السامية ، ويحتفر لهذا الغيث الإلهى مجاريه ومساربه فى أعماق هذه النفوس المتأبية ليبذر فيها البذرة الأولى لكلمة طيبة « كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء » . أمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . وحث على الوحدة فى جميع أشكالها وصورها ، وحذر من الفرقة ومن كل ما يقرب إليها من قول أو عمل . ودعا إلى توحيد الكلمة كما دعا إلى كلمة التوحيد تماما . وأبرز الفضائل النفسية والفكرية والعملية صورة مجلوة واضحة فى إطار من البلاغة القرآنية التى أخذت بمجامع القلوب أخذا . وسدت على المعاندين منافذ القول سدا . أنذر وبشر ورغب وأرهب . واستعمل من وسائل الإقناع والتربية ما دلت العلوم النفسية والتربوية الحديثة على أنه كان ضربا من ضروب الإعجاز . هو الذى بعث فى الأميين

فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » فاذا بقى بعد وفاة الرسول من نصر ومن أمر ؟ بقى شىء كثير ، فلم تكن رسالة الإسلام موضوعية ودستوره ينادى « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً »[1] ، ولم يكن لأصحاب النبى وورثته الذين رباهم تربية إسلامية سليمة أن يتركوا الجهاد ليتركوا أعداء الإسلام يتربصون به الدوائر ، ويتحينون الفرص للانقضاض عليه واقتلاع جذوره من شبه الجزيرة ، فلم يكن بد من أن تندفع خيل الله كالسيل الجارف من شبه الجزيرة إلى ما والاها فتدك بسنابكها القوية عروش القياصرة و الأكاسرة فيمتد ظل الإسلام من الصين شرقا إلى الأندلس غربا بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ ، ويتوطد للإسلام ملكه وجلاله فى عهد الدولة الأموية ، ثم تتوطد حضارته وتزدهر فى عهد الدولة العباسية ، ويحدث الإسلام باسم العرب والمسلمين مدينة خدمت العلم والثقافة والفقه والقانون والفلسفة والطب والفلك والموسيقى والطبيعة والكيمياء ، ودفعت الإنسانية بكلتا يديها إلى الأمام أشواطاً ، وكان منها القبس الذى قبسته أوربا فى العصور الوسطى فكان أساساً لنهضتها هاته التى تدل بها اليوم على الإسلام ناسية أنها منه مأخوذة وأنها كانت عليه فى يوم من الأيام تلميذة . وهكذا تفاعلت مبادىء الإسلام وتعاليمه بما طبعت عليه النفسية العربية من خصائص ومزايا فأحدث هذا التفاعل تلك العجائب . وهكذا أثبت العرب بالإسلام وجودهم ، وكان منهم الخليفة الذى يتحدى السحاب أن ينزل فى أرض لا يجبى إليه خراجها ، والقائد الذى تقول له الشعراء :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

وصدق الله وهو يقول لنبيه عن القرآن والإسلام « وإنه لذكر لك ولقومك[2] . . »

* * *

ترى هل خرجت الأمة العربية الإسلامية اليوم من التاريخ ، فهى على هامشه بعد أن كانت فى صلبه ! ؟ .

كانت هى الوسط المحمى فانتقضت منها الحوادث حتى أصبحت طرفا

فليس للعرب اليوم بين أمم الأرض خطر : يحكمون ولا يحكمون ، ويساسون

(١) سورة الاعراف الآية ١٠٨ .
(٢) سورة الزخرف الآية ٤٤ .

رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين [١] » .

استجاب لله وللرسول من استجاب . وآمن بهذا الدين من آمن . من أهل الحق والخير الذين استثار الإسلام بجماله وجلاله ما كان كامنا فى نفوسهم من حمية للحق والخير والجمال . تبطنوا الإسلام قبل أن يلتحفوه ، بحبه خفقت قلوبهم لتدفع الدماء إلى عروقها نابضة بحرارة الإيمان وحرارة الحياة معا فبدمائهم وأعصابهم ومشاعرهم امتزج الإسلام فكانوا الشراة الذين باعوا أنفسهم لله . اعتنقوه دينا ودولة . مصحفاً وسيفا . عقيدة وجهادا . رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون » [٢] عز جانبهم بالإسلام ، وعز بهم جانب الإسلام ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحملون على الرجس والأوثان حملة تستحيل بها الجزيرة العربية قبيل وفاة الرسول إسلامية خالصة بيضاء واضحة ليلها كنهارها وينفض الرسول يده من ثلثمائة وستين صنما كانت حول الكعبة يحطمها وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

لم ينس صلى الله عليه وسلم قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى أن يخط بكفه الشريفة الخطوط الأولى فى خريطة الامبراطورية العربية الإسلامية التى صيرتها فيما بعد أكف المقادير حقيقة واقعة تسامت الخلود . وتتحدى الزمن وتفرض نفسها على التاريخ فرضا . فكتب كتبه التاريخية المشهورة إلى هرقل والمقوقس وكسرى والنجاشى وغيرهم يدعوهم بدعاية الإسلام ليسلموا ، فإن تولوا فعليهم إثم غيرهم ، ثم قال ـ وكأنه يزيد هذه الخريطة إيضاحا ـ « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده . والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله » .

فإذا كان النصر فى حياة النبى قد تم للإسلام والمسلمين فى داخل الجزيرة العربية ونزل على الرسول قوله تعالى « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا

---

(١) الآية . من سورة الجمعة وقريب منها الآية ١٦٤ من سورة آل عمران « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا الآية » .

(٢) الآية ١١١ من سورة التوبة

ولا يسوسون ! كثرة فى العدد وقلة فى المدد ، تصدق فيهم نبوءة نبيهم حين قال « ستتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها ، فقال قائل : أمن قلة يا رسول الله ؟ قال : « كلا ، أنتم يومئذ كثرة ، ولكنها كغثاء السيل ، ولينزعن الله مهابتكم من صدور أعدائكم ، وليلقين فى قلوبكم الوهن » ، قالوا : وما الوهن ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » .

فإذا كان ذلك صحيحاً فمن أى طريق خرج العرب من التاريخ ؟ إنهم خرجوا من نفس الطريق الذى دخلوا منه : الإسلام . فالإسلام قوة وعزة ، ونحن فى ضعف وذلة . الإسلام وحدة ووفاق ، ونحن فى فرقة وحزبية عمياء . الإسلام نظام ، ونحن فى فوضى ضاربة الأطناب . الإسلام عمل وجهاد ، ونحن فى نوم وكسل . الإسلام « إيثار » جميل ، ونحن فى « أثرة » مقيتة . الإسلام علم ومعرفة ، ونحن فى جهل وأمية . أعرضنا عما أنزل الله ، فأعرض الله عنا ، وصدقت فينا آيته « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى[1] » .

عبد الغنى عوض الراجحى

بعض الجرائد

جرائد ما خط حرف بها لغير تفريق وتضليل
يحلو بها الكذب لأربابها كأنها أول إبريل

حافظ إبراهيم

---

(١) سورة طه الآية ١٢٤ .

أسرار الإسلام

في تعـــــــدد الزوجات

تقوم فى هذه الأيام حملة شعواء على أحكام الإسلام بحجة الانتصاف للمرأة والانتصار لها . ويقود هذه الحملة قوم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، ولا يدركون منه إلا رسمه .

ولقد تمادى هؤلاء القوم فى عدوانهم ، ولجوا فى طغيانهم ، حتى جرءوا المرأة على منازلة الرجل فى ميادين الجدل من غير استحياء ، ومهاجمة الشرع فى شتى المواقف من غير خجل ، وهى التى كانت عن كثب تهاب الرجل وتخشاه ، وتحفظ الشرع وترعاه .

ومن تلك الأحكام التى صارت غرضاً لسهام الغاوين ، وأضحت مقصدا لمرماها ، حكم تعدد الزوجات فى الدين الإسلامى .

فلقد طلعت علينا بعض الصحف اليومية ذات مساء تنشر آراء طائشة ، وأفكاراً ضالة تدعو إلى وجوب تقييد الرجل بزوجة واحدة تمشياً مع حضارة العصر فى نظرهم ، وتتهجم على آيات الكتاب وسنة الرسول ، فتؤولها تأويلا يمليه الهوى ، ويدبجه يراع الإلحاد ، وينشره دعاة السوء .

ولقد رأيت من واجبى - إزاء هذه الحملة - أن أبين حكمة هذا التشريع على صفحات هذه المجلة الغراء ، عسى أن يرد الله بها النفوس السادرة ، ويرشد بها العقول الغاوية ، ويهدى بها الأفكار الحائرة . فأقول :

ثبت بداهة أن كل أمة يزيد عددها ، يرتفع - فى الغالب - مجدها ، ويسطع فى سماء العز نجمها ، ويرهب لدى الأمم جانبها ، وتسعد فى حاضرها ومستقبلها .

وبعكس هذا أمة أصيبت بالعقم الجنسى ، فإن نجمها يأفل ، ومجدها يبيد ، وشأنها يهون وظلها يتقلص حتى تمحى من قائمة الوجود .

وإن أنجح الوسائل إلى نمو الأمم وكثرتها كثرة تورثها القوة والعز ، وتكسبها الشرف والمجد ، هو - بلا شك - تعدد الزوجات الذى أباحه القرآن ، وأرشد إلى سره نبي الإسلام حيث قال : « تناكحوا تناسلوا تكثروا » .

ومن أسرار ذلك التشريع : أن الله سبحانه وتعالى قد أجرى سنته أن يكون عدد النساء أكثر من عدد الرجال ، لما يقوم به الرجال من مهام الأمور : كتدبير أمور الدول وصيانتها ، وتنظيم الجيوش وإعدادها ، ومواجهة الأخطار وصدها ، وإحباط الفتن وقمعها ، وغير ذلك من شئون الحياة التى لا يستطيعها غير الرجال ، والتى تسبب لهم الوهن والضعف ، وتسلم أجسادهم فى النهاية إلى الردى والفناء .

فلو أنه حظر على الرجال تعدد النساء فى هذه الأحوال ، وهن محتاجات إلى الأزواج فى ضرورة الكفالة والتحصين ، لكانت فتنة فى الأرض وفساد كبير .

ومن أسرار ذلك التشريع : أن المرأة غير مستعدة للنسل فى كل آن ، لأنها عرضة للمرض والضعف ، والكبر واليأس ، والعقم وفقد أسباب النسل .

فلو منع تعدد الزوجات لظل الرجل محروما من الولد ، معذباً بلظى الشوق إليه ، أو وقعت الزوجة فى أضرار الفراق . وما ذلك شأن العدل ولا شرعة الإنصاف .

ومن تلك الأسرار : أن بعض الرجال تغلب الشهوة على طباعهم إلى حد لا يصبرون معه على ملامسة النساء ، وقد تكون الزوجة مريضة ، أو غائبة ، أو حائضاً ، أو نفساء .

فلو منع تعدد الزوجات لوقع الرجل الذى هذا حاله فى الفاحشة وساء سبيله ؟ .

ومن الأسرار المهمة : أن صاحب الزوجة الواحدة إذا كان يبغضها لدمامتها أو بذاءتها ، وألزمناه بها دون سواها ، فإن العشرة تسوء بينهما ، والهدوء ينقلب إلى ضده ، ويصير البيت جحيما لا راحة فيه .

ولا علاج لمثل هذه الحالة إلا إباحة التعدد الذى يصون الحقوق والنفوس ، ويحقق الصفاء والهدوء .

مما تقدم يتضح ما فى إباحة التعدد من حكم سامية ، وفوائد هامة ، يتوقف عليها نظام الحياة ، وتقتضيها ضروريات الوجود .

وقد أدرك بعض الأوربيين تلك الأسرار وغيرها فى هذا التشريع الجليل ، فنصبوا من أنفسهم دعاة لتعميمه حتى إن الكاتب الإنكليزى الكبير (برناردشو) قال فى كتابه الحياة الزوجية عند الكلام على تعدد الزوجات فى الدين الإسلامى :

« إن الدولة الإنكليزية تضطر حسب تقدمها المطرد إلى اتخاذ الإسلام ديناً لها قبل انقضاء القرن العشرين » .

وجاء فى جريدة (لندن تروث) الإنكليزية بقلم بعض الكاتبات الإنكليزيات ما ترجمته :
« لقد كثرت الشاردات من بناتنا وعم البلاء، وقل الباحثون عن أسباب ذلك، وإذ كنت امرأة أرانى أنظر إلى هاتيك البنات وقلبى يتقطع شفقة عليهن. وماذا عسى أن يفيدهن بثى وحزنى، وتوجعى وتفجعى وإن شاركنى فيه الناس جميعا، لا فائدة إلا فى العمل بما يمنع تلك الحالة الرجسة. ولله در نبى الإسلام، فإنه رأى الداء ووصف الدواء الكامل للشفاء، وهو الإباحة للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة، وبهذه الواسطة يزول البلاء لا محالة، وتصبح بناتنا بنات بيوت، فالبلاء كل البلاء فى إجبار الرجل الأوربى على الاكتفاء بامرأة واحدة.

أى ظن وخرص يحيط بعدد الرجال المتزوجين الذين لهم أولاد غير شرعيين أصبحوا كلا وعالة على المجتمع الإنسانى ؟ ! فلو كان تعدد الزوجات مباحاً لما حاق بأولئك الأولاد وأمهاتهم ما هم فيه من العذاب الهون.

وإن مزاحمة المرأة للرجل ستحل بنا الدمار، ألم تروا أن حال خلقها تنادى بأن عليها ما ليس على الرجل، وعليه ما ليس عليها، وبإباحة تعدد الزوجات تصبح كل امرأة ربة بيت، وأم أولاد شرعيين.

هذا هو رأى غير المسلمين فى بعض أحكام الإسلام، أما أبناؤه فإنهم يدأبون على التقليل من شأنه، والعمل على محاربة أحكامه بكل ما ملكوا من وسائل وأسباب.

وإن من المطاعن التى وجهوها إلى إباحة تعدد الزوجات فى الإسلام قول بعضهم : إن الرجل الذى يجمع بين زوجتين يعتبر فى نظر المجتمع آثما، لأنه يخلق العداوة بين أبنائه، والبغضاء بين نسائه ».

وأقول : إن ما يشاهد من هذه العداوة والبغضاء لم يكن مصدره تعدد الزوجات، بل منشؤه جور الرجل على زوجاته، وعدم عدله بين أولاده. ومن كان هذا شأنه لا يبيح له الإسلام من هذا التعدد شيئا.

ويجدر بنا بعد هذا أن نذكر الدليل على جواز التعدد من كتاب الله تعالى فنقول : الدليل عليه قوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم، ذلك أدنى ألا تعولوا ».

نزلت هذه الآية قاضية بجواز الجمع بين الأربع من النساء ، وقد بين النبي ﷺ المراد منها حيث قال لغيلان الصحابي الذي أسلم وتحته خمس نسوة : « أمسك عليك أربعا وفارق واحدة » .

فدل كلام المصطفى ﷺ على أن معنى الآية . « فانكحوا مثنى ، أو ثلاثا ، أو رباعا » على التخيير لا التحتيم .

وإن الله سبحانه وتعالى قد أباح الجمع بين النساء ، ولكنه لم يطلق القول بإباحته ، بل حظره على من خاف من نفسه عدم العدل بينهن ، وأمره بالاقتصار على واحدة ، مبيحاً له أن يمسك ما شاء من الإماء المملوكات . فقال جل وعلا « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا » .

ولما كان تمام العدل بين النساء لا يمكن لبشر أن يحققه ، وكان اشتراطه منافياً لسماحة الدين ، لما فيه من شدة الحرج ، تجاوز لنا سبحانه وتعالى عن بعض الأمور كالمحبة القلبية وسائر ما لا يدخل تحت الاختيار ، وحتم علينا العدل في بعضها ، كالمبيت والإنفاق والسكنى ، وسائر ما يدخل تحت الاختيار . فقال جل وعلا : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » .

أي محال أن تقدروا على تمام العدل بين الزوجات بحيث لا يقع جور ما ، ولو حرصتم على إقامة العدل وبالغتم فيه ، فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور ، فتذروها كالمعلقة التي ليست بذات بعل ولا مطلقة .

وقد كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه ويعدل فيما يدخل تحت الاختيار ، ثم يقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك » يعني فرط محبته لعائشة .

وبعد فهذه هي أسرار التشريع الإسلامي في إباحة تعدد الزوجات نضرب بها في وجوه الملاحدة الذين يحاولون النيل من سماحة هذا الدين ، والحط من شأنه .

وقد فاتهم أن الإسلام كالطود الشامخ لا تزلزله العواصف ، ولا تؤثر فيه النوازل . كيف وقد أنزله الحكيم العليم ، ودعمه الرسول الأمين ؟!

عبد الرحيم فرغل البلينى
أستاذ بكلية الشريعة

التشريع الاسلامى

فى دراسات أعلام الغربيين وقرارات مؤتمراتهم

يقول الدكتور أنريكو أنساباتو فى كتابه (الإسلام وسياسة الخلفاء) :

إذا كان الإسلام فى شكله ثابتاً لا يتغير ، فإنه - مع ذلك - يساير مقتضى الظروف ويستطيع أن يتطور معها دون أن يتضاءل مهما مرت عليه الأزمان ، فهو لذلك محتفظ بحيويته وبمرونته ، ولا يجوز قط أن يهدم هذا الصرح العظيم من العلوم الإسلامية ، ولا أن يغفل شأنه ، أو أن تمسه يد بسوء . إنه أوجد للعالم أرسخ الشرائع ثباتاً ، وانها لشريعة تفوق الشرائع الأوربية فى كثير من التفاصيل .

****

والقانونى الإيطالى (بيولا كازيلى) الذى كان مستشارا ملكياً لوزارة العدل ورئيساً للجنة قضايا الحكومة زمناً طويلا هو القائل :

« يجب على مصر أن تستمد قانونها من الشريعة الإسلامية ، فهى أكثر من غيرها اتفاقاً مع روح البلد القانونية » .

****

وفى سنة ١٩٣٢ قرر المؤتمر الدولى المنعقد فى لاهاى للقانون المقارن أن الشريعة الإسلامية مصدر من مصادر القانون المقارن ، وبهذا صارت مصادر القانون المقارن أربعة وهى : القوانين الفرنسية ، والقوانين الألمانية ، والقوانين الانجليزية ، والشريعة الإسلامية

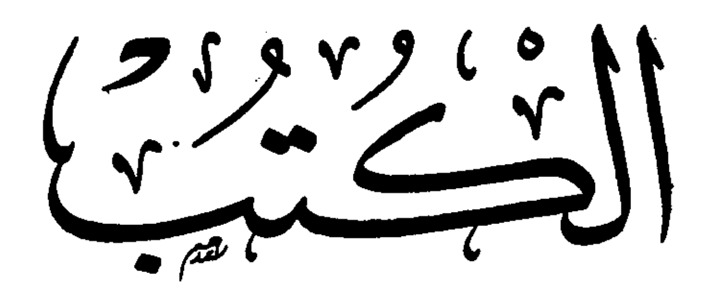
****

وفى سنة ١٩٣٨ انعقد مرة أخرى المؤتمر الدولى للقانون المقارن وأعلن أن الشريعة الإسلامية شريعة مستقلة بذاتها ليس لها صلة بالقانون الرومانى ولا بأى تشريع آخر .

****

وليس بين الغربيين العارفين بحقائق الشرق من لا يؤمن بكلمة جيبون الشهيرة :

« القرآن مسلم به من حدود الأوقيانوس الاطلانطيكى إلى نهر الغانج بأنه الدستور الأساسى ، ليس لأصول الدين فقط ، بل للأحكام الجنائية والمدنية وللشرائع التى عليها مدار حياة نظام النوع الإنسانى وترتيب شئونه » .



الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى

نشره المجمع العلمى العربى بدمشق بتحقيق الامير جعفر الحسنى جزءان فى ١٥٠٠ ص قالبين

العلماء هم الناس . ومن العناصر الاصلية فى تاريخ كل أمة معرفة حال علمائها ومستواهم الخلقى فى أداء رسالة العلم ، وكلما كثرت المراجع التى تنير طريق المؤرخ وتبين له عمل العاملين لإصلاح حال المجتمع من راع ورعية ، كان ما يسجله من حقائق التاريخ أعمق بحثا وأدسم مادة وأوضح بيانا لحقائق الاشياء ؛ لان تقدم الامم ونهوضها نتيجة لعوامل كثيرة من أهمها أمانة العلماء فى أداء رسالتهم لامتهم ، كما أن تقهقر الامم وانحطاطها نتيجة لعوامل أخرى من أهمها كفر العلماء برسالة العلم ، وجهلهم أقدار أنفسهم ، وقصور هممهم عن بلوغ ما أراده الله لهم من مرتبة وراثة النبوة .

وكتاب (الدارس فى تاريخ المدارس) لعبد القادر بن محمد النعيمى (٨٤٥ — ٩٢٧) أحد نواب القضاة الشافعية بدمشق من أمتع الكتب فى تاريخ معاهد العلم فى عاصمة الشام وتراجم علمائها فى نحو خمسة قرون (من القرن الخامس الهجرى إلى عصر المؤلف فى القرن العاشر) ، ويجوز لنا أن نعتبره متمماً لتاريخ الحافظ ابن عساكر الذى وصفنا المجلد الأول منه فى الجزء الماضى ، وقد جمع فيه النعيمى ما تشتت فى الكتب السابقة له عن تاريخ العلم ومعاهده وشيوخها ، ومن أهم مراجعه ابن الاثير وأبو شامة وابن خلكان وابن شداد والبرزالى والذهبي وابن الكتبى والصفدى والحسينى وابن كثير والحسبانى وابن قاضى شهبة وقد جاء فى مقدمة الكتاب ص ٣ بلسان تلميذ من تلاميذ المؤلف لم يصرح باسمه قوله :

« فلما رأيت غالب أماكن الخير الموقوفة بدمشق الشام اندرست ... سنح لى أن أشرع

بجمع تراجم تحيي لها ذكرا ... فاذا شيخنا الامام العالم المؤرخ المحقق المدقق محي الدين أبو المفاخر عبد القادر بن محمد النعيمي الشافعي قد سبقني إلى جمع ذلك ، ولكنها عنده في مسودتها إلى الآن ، فسألته في تبييضها على طول الزمان ، فتعلل على بضعف الحال وهم العيال ، ثم أمرني بتعليق ذلك ناسجا على منواله ، فقابلت أمره بامتثاله ، غير أني ربما اختصرت تراجم متصدريها الاعلام اعتماداً على الطبقات وتواريخ الإسلام » .

إذن فنحن في هذا الكتاب أمام كتاب هذبه أحد تلاميذ العليمي واختصره بعض الاختصار من كتاب شيخه ، والمخطوطات المتداولة من كتاب العليمي كلها من هذا المهذب أو المختصر ، أما أصل العليمي فلم يعثر عليه إلى الآن ، والذين قاموا باختصاره منهم شمس الدين محمد بن طولون وعبد الباسط العلموي وأحمد البقاعي وآخرهم الشيخ عبد القادر بدران المتوفى في القرن الرابع عشر الجاري ، وأغلب الظن أن الشمس ابن طولون هو صاحب هذا التهذيب أو الاختصار لأنه أقربهم من المؤلف .

ومعاهد العلم الدمشقية الموصوفة في هذا الكتاب نحو ثلاثمائة وخمسين بين مدرسة ومسجد وخانقاه وكلها مما كانت تدرس فيه العلوم ويتخرج فيه العلماء . وإن مدينة واحدة من مدن الاسلام يكون فيها مثل هذا العدد من معاهد العلم لبرهان على أن رسالة الاسلام رسالة علم ، ولا غرو فإن المسلمين يتوارثون عن نبيهم ﷺ ما رواه ابن قتيبة في غريب الحديث أن ساعة من العالم على فراشه يتفكر في علم الله تعالى أحب إلى الله من عبادة العابدين أربعين عاماً . وفي هذا قال الامام الشافعي رحمه الله : الاشتغال بالعلم أفضل من صلاة النافلة .

وكان المجمع العلمي العربي بدمشق قد عهد قبل خمس عشرة سنة إلى ثلاثة من أعضائه بمعارضة نسخ هذا الكتاب وبيان اختلافها . ثم قام الأمير جعفر الحسني من أعضاء المجمع بتحقيق الكتاب والاشراف على طبعه فاستعان على ذلك بخمسة وثمانين مرجعاً بين مطبوع ومخطوط . وألحق به فهرسا بأسماء المؤلفات المذكورة في نص الكتاب ، وفهرسا للأمكنة والبقاع والمساجد والمدارس والمعاهد ، وفهرساً للأعلام من رجال ونساء وجماعات . وقد بلغ الكتاب بفهارسه ألفاً وخمسمائة صفحة من قطع صفحات هذه المجلة . وكا أنه

مرجع من أوفى المراجع فى تاريخ العلم والعلماء فى إحدى عواصم الاسلام مدة خمسة قرون ، فهو كذلك مرجع من أوفى المراجع فى الخطط وتاريخ العمران إلى العصر العثمانى الذى انحطت فيه الأمة وبلادها ودرست معالم العلم فيها على ما ذكره المؤلف .

فشكراً للمجمع العلمى العربى ورجاله على مساهمتهم فى نصيب كبير من مهمة البعث والإحياء العلمى مدفوعين إلى ذلك برغبة صادقة من خدمة العلم احتساباً لوجه الله ، ولذلك تأتى أعمالهم وعليها طابع التجويد والاخلاص .

أسماء جبال تهامة وسكانها

وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه

لعرام بن الأصبغ السلمى

نشره وجيها الحجاز الشيخ محمد نصيف والشيخ يوسف زينل
بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون

لما كان حفاظ السنة وأئمتها يطوفون البلاد ليلقوا الشيوخ المسنين من رواة الحديث الأولين فيتلقوه عنهم ليدونوه ويحفظوه ، كان حفظة اللغة وأئمتها يقومون للغة القرآن بمثل هذه العناية فيتنقلون فى البادية ليلقوا علماء الأعراب فيحفظوا عنهم مفردات اللغة وشواهدها من الأشعار والأمثال ، وليتعرفوا منهم أسماء بقاع الجزيرة العربية من جبال وأودية ومنازل ومياه ، وأسماء ما فيها من نبات وشجر ، فيدونوا ذلك فى الكتب قبل أن يموت العلم بموت أهله .

ومن المراجع العريقة فى القدم للمواد الجغرافية فى الوطن العربى هذا الكتيب النفيس من علم عرام بن الأصبغ أحد علماء الأعراب من بنى سليم ، وهو كما يقول ابن النديم فى الفهرست أحد أقران أبى الهيثم الأعرابى وأبى المجيب الربعى وأبى الجراح العقيلى ، وكانت الأيام قد جمعت بهذا العالم الأعرابى عالما من أهل الحضر فى صدر القرن الهجرى الثالث ،

وعو أبو الأشعث عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك الكندى ، فتلق العالم الحضرى عن العالم الأعرابى كل ما فى هذا الكتيب من المعلومات ، وكان يستمليها منه فيمليها عليه ، ثم تلقاها عن أبى الأشعث الكندى تلميذه عبد الله بن عمرو الأنصارى الوراق المعروف بابن أبى سعد (١٩٧ — ٢٧٤) وتلقاها عن ابن أبى سعد تلميذه عبيد الله بن عبد الرحمن السكرى المتوفى سنة ٣٢٣ ، وأخذها عن عبيد الله السكرى تلميذه أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى القاضى (٢٩٠ — ٣٦٨) .

وكتاب عرام السلمى كان المظنون أنه فقد مع ما فقد من تراثنا القديم ، غير أن العلماء كانوا يتعزون عن ذلك بانتشار نصوصه فى معاجم البلدان ، ولا سيما كتاب معجم ما استعجم لأبى عبيد البكرى علامة الأندلس ، ثم ظهرت مخطوطة من هذا الأصل فى المكتبة السعيدية بحيدر أباد (مجموعة رقم ٣٥٥ حديث) كتبت سنة ٨٧٦ ، ولكنها بخط نسخى غامض ردىء وكثيرة التحريف والتصحيف ، ومخطوطة ثانية نقلت عنها بخط الشيخ ابراهيم حمدى مدير مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة بالمدينة فنسخ صورة منها الشيخ سليمان الصنيع من أفاضل المملكة العربية السعودية ، وقد عنى بمراجعتها وتحقيق بعض مواضع منها ، وكذلك وجد عين أعيان الحجاز الشيخ محمد نصيف مخطوطة ثالثة نقلها الشيخ عبد الرحمن بن يحيى اليمانى عن الأصل الهندى ، وأنت ترى أن الأصل فى هذه النسخ واحد وهو المحفوظ فى المكتبة السعيدية بحيدر أباد ، فعهد وجيها الحجاز وعينا أعيان أفاضلها الشيخ محمد نصيف والشيخ يوسف زينل إلى حضرة الفاضل المحقق الأستاذ محمد عبد السلام هارون بأن يحقق هذا الكتيب ويعنى برده إلى أصله بقدر الطاقة ، فقام بذلك خير قيام مستعيناً بمعاجم البلدان وكتب اللغة وغيرها ، فجاء فى ١١١ صفحة من قطع الجاير مزيناً بفهرس للبلدان والأماكن وآخر للأعلام ، وثالث للقبائل والطوائف ، ورابع للنبات والشجر ، وخامس للحيوان ، وسادس للقوافى ، وسابع للغة ، فشكراً للناشرين الكريمين على سعيهما بإحياء هذا الأصل القديم خدمة خالصة منهما للعلم ، وهذا هو دأب الشيخ محمد نصيف حفظه الله فى مواصلة السعى والعمل والإحياء فى كتب العلم النافعة .

كنوز الأجداد

الأستاذ محمد كرد على

نشره المجمع العلمى العربى بدمشق - فى ٤٣٨ صفحة قالبين

الأستاذ محمد كرد على رئيس المجمع العربى بدمشق من رجال هذا العصر الذين عاشوا للعلم ودأبوا على خدمته من ستين سنة إلى الآن . وكان مما عنى به فى عشرات السنين دراسة تراجم علماء هذه الأمة وقادة الأدب والفكر فى مختلف الأمصار والأعصار ، وتسجيل أعمالهم ، وجرد تركتهم ، ووصف ما خلفوه لنا وللإنسانية من تراث خالد على الدهر . وكتابه هذا (كنوز الأجداد) يتضمن تراجم بضع وخمسين إماماً من أئمة الدين والعلم والأدب كتبها الأستاذ المؤلف فى سنوات مختلفة ونشر كثيراً منها فى مجلة المجمع العلمى العربى أو فى أوائل بعض المؤلفات التى تولى الأستاذ كرد على نشرها وترجم لأصحابها . وأكثر ما يعنى به فى ترجمة الرجال وصف علومهم وأدبهم ونواحى اختصاصهم والتعليق على ذلك فى مواطن العبرة من أعمالهم . وقد أحسن كل الإحسان بجمع هذه التراجم فى هذا الكتاب النفيس الذى يضارع أجود كتب التراجم المشهورة كوفيات الأعيان للقاضى ابن خلكان وإرشاد الأريب لياقوت .

وقد تولى الأستاذ صلاح الدين المنجد وضع ثلاثة فهارس له أحدها للكتب المذكورة فيه ، والثانى للأعلام والثالث للبلدان ، وفاته أن يفرد الفهرس الأساسى لأسماء المترجم لهم والدلالة على مواضع تراجمهم من الكتاب ، أما إدراج أسمائهم فى عامة أسماء الأعلام فلا يغنى عن ذلك الفهرس .

الكتاب الذهبى لمهرجان ابن سينا

نشرته الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية فى ٤٦٣ صفحة قالبين
(و ٦٩ صفحة القسم الأفرنجى)

كانت الأمة العربية قد احتفلت بمرور ألف سنة على علمين من أعلام الأدب والفكر وهما أبو الطيب المتنبى وأبو العلاء المعرى ، ثم اشتركت لجنتان من مصر والعراق فى إقامة

مهرجان ذهبي فى بغداد لمرور ألف سنة على وفاة أبى على بن سينا ، فعقد فى هذا المهرجان عشر جلسات : واحدة افتتاحية ، وأخرى ختامية ، وثمان بينهما للدراسة والبحث ألقى فيها ثلاثة وثلاثون بحثا وتسع محاضرات ، وقد دارت مناقشات حول أصل ابن سينا ونسبه وتاريخ مولده وعقيدته وعلاقته بالشيعة والإسماعيلية ، وهل فلسفته ملحدة وتصوفه ستر لهذا الإلحاد . وقد تبين من النقاش بما لم يبق معه مجال للشك أن ابن سينا نشأ فى وسط إسماعيلى وأنه تأثر بدعاة الإسماعيلية وتعاليمهم التى كانت منتشرة فى عصره . وإن البحث القيم الذى ألقاه الأستاذ عباس العزاوى فى اليوم الثالث من أيام المهرجان بعنوان « ابن سينا وأثره فى التصوف » من أجود ما قيل فى هذا المهرجان وأكثره تحقيقا . والحق أن ما عرض فى هذا المهرجان من بحوث عن ابن سينا قد ألم بجميع نواحى حياته وإنتاجه . ولذلك أحسنت الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية كل الإحسان بجمع هذه البحوث كلها ونشرها فى كتاب ذهبي نفيس جاء فى ٥٣٠ صفحة من قطع هذه المجلة .

تاريخ الدعوة الإسلامية فى الهند وباكستان

للأستاذ مسعود الندوى - نشرته لجنة الشباب المسلم - فى ١٦٠ ص

إن اتساع نطاق التعاون بين مسلمى باكستان والهند وإخوانهم فى الأوطان العربية والبلاد الإسلامية ، منذ قامت للإسلام هذه الدولة الجديدة فى ربوع الهند ، قد أشعرت الفريقين بالحاجة إلى زيادة التعارف . وقد كان من نتائج ذلك ظهور هذا الكتاب اللطيف بقلم الأستاذ مسعود الندوى معتمد دار العروبة للدعوة الإسلامية فى باكستان وصاحب مجلة الضياء التى كانت تصدر بالعربية فى مدينة لكنو ومترجم مؤلفات الداعية الإسلامى الكبير أبى الأعلى المودودى من الأوردية إلى العربية . وآخر أعماله العلمية النافعة هذا الكتاب (نظرة إجمالية فى تاريخ الدعوة الإسلامية فى الهند وباكستان) ذكر فيه بداية دخول الإسلام إلى القارة الهندية وتطور انتشاره ، ثم محاولة الملك أكبر فى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى الكيد للإسلام بتقليص ظله ، وظهور المجاهد المصلح المجدد أحمد السرهندى ووقوفه فى وجه ذلك الملك الطاغية حتى تغلب عليه بإخلاصه وعزيمته وتقواه ، وقيام العلماء

بعده بمثل هذا الجهاد وفى مقدمتهم الشيخ عبد الحق الدهلوى وولى الله الدهلوى وتلاميذه، ثم الإمامان الشهيدان السيد أحمد بن عرفان والشيخ اسماعيل حفيد ولى الله الدهلوى، فاستعرض المؤلف حالة مسلمى الهند الدينية فى العصور الثلاثة الماضية وما طرأ عليها من شرور وما يسر الله لها من قيام العلماء الأعلام الأبرار لإرجاع الناس إلى سنة نبيهم وتعريفهم بدينهم والسير بهم فى طريقه المستقيم، إلى أن تأسست معاهد العلم الإسلامية النافعة وفى مقدمتها مدرسة ديوبند ثم ندوة العلماء ودار العلوم التابعة لها، وموقف مسلمى تلك الديار وحركاتهم السياسية والتحريرية التى قاموا بها على بصيرة من الله، وما كان يعترضهم من ضلالات مبثوثة وأباطيل ألبست لباس الدين وليست منه، ثم انتهى هذا الكفاح الإصلاحى بقيام دولة باكستان، فانبرى حينئذ أهل النزعات المختلفة فى التعصب لنزعاتهم ومحاولة التأثير على الأمة لاستمالتها إليهم، وموقف دعاة الإسلام الصحيح من ذلك كله، وما قاموا به لدين الله من الدعوة إلى سبيله بالحكمة واليقظة والموعظة الحسنة فكتب الله لهم التوفيق بأكثر مما كانوا يرجون.

إن هذا الكتاب على إيجازه يقدم للمسلمين فى الأوطان العربية والأقطار الإسلامية صورة صحيحة لحيوية الإسلام وتطورها فى القارة الهندية، وقد كتب مقدمته رئيس تحرير هذه المجلة معرفا قراءه بصديقه القديم الأستاذ مسعود عالم. وقد تولت نشره لجنة الشباب المسلم المؤلفة من أفاضل أبنائنا الجامعيين فى مصر، وقد سبق لها نشر الكتب النافعة التى نوهنا بها غير مرة. والكتاب مختوم بفصل عقبت به اللجنة على ما ورد فيه، ملخصة أبوابه، ومشيرة إلى مواطن العبر منها. وهو بلا شك كتاب طريف لا نعرف فى العربية كتابا يغنى عنه فى بابه.

أحاديث الثلاثاء بدار السلام

نشرتها دار السلام للنشر — فى ٧٢ ص قالبين للقسم العربى، و ١٤٠ ص للقسم الفرنسى

فى مصر مرافق ومعاهد وندوات للعلم قد لا يعرف المشتغلون بالعلم شيئا عنها، ومنها ندوة اسمها «دار السلام» تألفت من فريق من الفرنسيين والشرقيين للبحوث الفلسفية

والصوفية على اختلاف مصادرها البرهمية أو المسيحية أو الإسلامية أو غيرها ، وقد أهدى الينا من أعمالها كتاب بالعربية والفرنسية عنوانه «أحاديث الثلاثاء بدار السلام سنة ١٩٥١» ، اشتمل على النص الفرنسي والترجمة العربية لمقال كتبه المستشرق الأستاذ لويس ماسينيون بعنوان « قيمة الكلمة الانسانية كشهادة » وقد عنى فى هذا المقال بتحديد الطريقة الحسنة لقراءة الكتب السماوية ، والذين يعرفون الأستاذ ماسينيون يعرفون مشربه الصوفى ونظرته من هذه الجهة إلى المأثور من أقوال الحلاج وأمثاله ، وبهذا المشرب ومن هذه الجهة ينظر إلى التوراة والأناجيل وسائر الكتب السماوية ، وقد لا يوافقه علماء جميع هذه الديانات على فهمه وتفسيره وتلقيه لكل ذلك ، وقديما افترق الطريق الصوفى عن الطريق الشرعى حتى عند أهل المنبع الأول للتصوف وهم براهمة الهند ، ومن باب أولى فى اليهودية والمسيحية والإسلام ، غير أن هذا لا يؤيس المتعلقين بالتصوف من مواصلة السير فى طريقهم على أمل أن يتفاهموا ويتقاربوا مهما اختلفت نسبتهم الدينية ، ولعل هـــذه هى مهمة دار السلام وأحاديث الثلاثاء فيها .

ويأتى بعد مقال الأستاذ ماسينيون فى هذا الكتاب بحث مستفيض للأستاذ لويس غارديه عنوانه « البحث عن (المطلق) فى التصوف المسيحى والتصوف الإسلامى والتصوف الهندى » وهو ينقسم إلى خمسة أبواب أولها فى « التعطش نحو المطلق » والثانى عن « اليوغا الهندى فى شكله الكلاسيكى » والثالث عن « حالات الانفراد والتجربة الصوفية » والرابع « التجربة الصوفية فى نظر ابن سينا » والخامس « معرفة الله ومحبته عند الفلاسفة والمتصوفة »

إن الفرنسيين الأفاضل الذين يشتغلون بهذه البحوث لا يشتغلون بها باعتبار أنها بحوث تاريخية ، بل يظهر من كتاباتهم أنهم هم أنفسهم صوفيون وأصحاب دعوة ، ومن أغراض دعوتهم أن يكون فيها تجاوب بين متصوفى أهل الديانات المختلفة ، ونحب أن نقول فى هذا المقام إن الإسلام هو الإسلام ، والتصوف الذى ينحرف عن ظاهر نصوصه لا يجوز أن يسمى تصوفا إسلامياً ، بل إن الإمام الشافعى كان يكره هذه التسمية ، وله فى ذلك كلمة مشهورة رواها عنه الحافظ أبو نعيم فى حلية الأولياء وأبو الفرج بن الجوزى فى صفة الصفوة ، والإسلام دقيق جداً فيما ينتسب إليه وما يخرج عنه ، وأكثر ما يسميه المستشرقون تصوفا إسلامياً لا يلتقى مع الإسلام فى طريق .

فاتح مصر عمرو بن العاص

الأستاذ صابر عبده ابراهيم من شباننا الأفاضل المعروفين بنشاطهم وإنتاجهم ، وقد سبق له قبل ست سنوات نشر سلسلة من الرسائل فى تراجم الصحابة رضى الله عنهم كان لها جميل الحظوة بين شباب المسلمين . وهو الآن يستأنف نشاطه بالشروع فى سلسلة أخرى أهدى إلينا الحلقة الأولى منها عن فاتح مصر العظيم (عمرو بن العاص) رضى الله عنه ، وقد اعتذر المؤلف عن الإحاطة بسيرة هذا الصحابى الجليل بأن أعماله وجهاده ونبوغه وعبقريته ليس من المعقول أن يتسع لها كتاب كهذا الكتاب ، لأن تاريخه فى الجاهلية والإسلام حافل بعظائم الأعمال التى تدعو إلى البحث والنظر فى سر القوة الكامنة فى هذا الرجل القوى . ومع ذلك فإن المؤلف استعرض من سيرة هذا الداعية الأول إلى الإسلام فى مصر ما وسعه المقام من عظيم أعماله ، فجاء كتابه فى ١٢٥ صفحة . فنرجو لهذه السلسلة الجديدة من (أعلام الصحابة) ما لقيته السلسلة السابقة من الإقبال عليها والانتفاع بها .

القعقاع بن عمر التميمى و بلاؤه فى الاسلام

للأستاذ عبد الله قاسم صقر

القعقاع بن عمرو من أفاضل الصحابة وشجعانهم وأهل الرأى والعدالة فيهم ، وقد كانت له مواقف فى الجهاد الإسلامى مدة الخلفاء الراشدين استعرض الأستاذ عبد الله قاسم صقر أخبارها فى كتب التاريخ ، وسجلها فى كتاب بلغ ٩٢ صفحة مرتبة بحسب تاريخ وقوعها ، وعنى بما للقعقاع من الشعر فأورده وفسره ، فكان كتابه بذلك كتاب تاريخ وأدب . جزاه الله خيراً .

الأدب والعلوم في شهر

انحطاط التعليم الثانوى

قال الدكتور محمد عوض محمد مدير جامعة الإسكندرية فى حديث له مع مندوب جريدة المصرى : « إن الجامعات فى مصر كلها مزدحمة ازدحاما شديداً لا يتفق ورسالة التعليم الجامعى وهى تخريج قادة الأمة فى مختلف الميادين .

« ويكاد الاجماع ينعقد على أن التعليم الثانوى بحالته الراهنة لا يؤهل للتعليم الجامعى ، وليس جميع الحاصلين على شهادة التوجيهية بقادرين - لا من حيث الاستعداد ، ولا من حيث دراساتهم - على الالتحاق بالجامعات . وبانحطاط المستوى العلمى للطلاب لم يكن هناك مفر من انحطاط مستوى التعليم الجامعى أيضاً ، حتى لقد انتشر فى كثير من الأقسام الدراسية بكل الكليات - بدلا من إلقاء محاضرة - أن يملى المدرس إملاء على الطريقة التى تتبع فى المدارس الثانوية . فمن الضرورى أولا رفع مستوى التعليم الثانوى وشهادة التوجيهية بصفة خاصة .

سياسة التعليم خاطئة

حتى فى التعليم الصناعى

زار وزير التجارة والصناعة الغرفة التجارية فى القاهرة ودارت بينه وبين أعضاء مجلس إدارتها أحاديث مهمة ، منها أن أحد الأعضاء أشار إلى مشكلة الحاجة إلى الكتبة التجاريين إذا حتم القانون على تجار مصر جميعاً وعددهم حوالى ستمائة ألف تاجر أن يمسكوا دفاتر قانونية ، فأجاب الوزير :

« إن التعليم الفنى فى مصر قد مات . وكما نشكو فى مصر من أن الطبقة المتوسطة فى المجتمع قد ماتت نشكو أيضاً من أن التعليم الفنى الذى يخرج رؤساء عمال فنيين أو كتبة تجاريين غير موجود . وليس فى مصر مدارس تخرج من الفنيين من هم بين مركز المهندس والعامل . وكل المدارس الصناعية فى مصر

تخرج موظفين للحكومة فقط ، مع أن عصب الصناعة فى العالم هو « الاسطى » أو « العامل المتعلم » . وأعتقد أن هـذا سببه أن سياسة التعليم الصناعى فى مصر سياسة خاطئة ، وأنه يجب أن يكون التعليم الصناعى فى مصر وفقاً لأحدث النظم فى البلاد الصناعية ليخرج عمالا فنيين مهرة » .

مكتبات فى المساجد

دعا الرئيس اللواء محمد نجيب المواطنين إلى قضاء جانب من أوقات فراغهم فى المساجد ، وعلقت (الأهرام) على هذا النبأ بأن وزارة الأوقاف تحسن صنعاً لو نظمت - بمعاونة وزارة المعارف - مكتبات علمية وأدبية تزود بها المساجد ، فتحبب إلى المواطنين قضاء أوقات فراغهم فيها وتقرن العلم بالدين .

والمسجد فى التاريخ الإسلامى معهد علم ، ومجمع أدب ، وكان فى بعض أدوار التاريخ محكمة للقضاء العام ، وداراً للشورى ومركزا للقيادة والاستعداد للجهاد . ولم تسقط منزلة المسلمين وتنحط أخلاقهم إلا منذ اخترع لهم إبليس هـذه المقاهى وحشرهم فيها ، فخسروا دنياهم وآخرتهم . ومن العجيب أن جميع أمم الأرض لا تكثر المقاهى فى أمة منها كما تكثر فى بلادنا معاشر المسلمين !

معلم المدرسة وضابط الجيش

فى خطبة ألقاها الرئيس اللواء محمد نجيب عن التعليم قال : « نظريتى فى التعليم هى أنه السبيل إلى إعداد المواطن الصالح الذى يحسن التصرف فى الأمور ، ويكون له من الغيرة الوطنية قدر وفير . ولهـذا أعتقد أن المعلم هو النواة الأولى فى هذا السبيل . فالمعلم يعد المواطنين ، والضابط يعلمهم الجهاد . وأنا أضع التعليم فى المحل الأول من عنايتى ، فان رجال التعليم لا يقلون فى نظرى عن ضباط الجيش وجنوده ، بل إن المعلمين بمثابة جنود المقدمة أو الفرسان لأنهم يضعون الحجر الأول فى سبيل إعداد جيل سليم . والمعلم فى حرب طول حياته ، الأمر الذى يجعل له عندنا مكانة خاصة » .

الكتب فى المدارس الأهلية

كانت وزارة المعارف توزع كتب الدراسة على تلاميذ المدارس الأميرية التابعة لها . وفى الأيام الأخيرة قرر مجلس الوزراء أن يكون نظام الكتب شاملا المدارس الأهلية أيضاً فتوزع على تلاميذها كما توزع على تلاميذ المدارس التابعة للوزارة .

أنباء العالم الإسلامي

تصرفات الإنجليز فى السودان :

من دواعى الأسف الشديد أنه قبل أن يجف المداد الذى كتبت به الاتفاقية التى عقدت بين مصر وبريطانيا بشأن السودان ، أخذت ترد إلى مصر من مختلف أنحاء السودان شكاوى صارخة من المعاملة السيئة التى يعامل بها الإداريون البريطانيون فى الأقاليم الجنوبية من السودان بعض الزعماء الذين وقعوا اتفاقات مع مصر وكثيرين غيرهم من الأهلين وقد ورد فى هذه الشكاوى أن زعماء ورجالا عديدين ألقوا فى غياهب السجون ، وإن الإداريين البريطانيين فى السودان عادوا إلى سيرتهم الأولى من الالتجاء إلى التهديد والوعيد ، وجميع هذه الأعمال لا تتفق فى شىء مع ما تنص عليه الاتفاقية التى قالت مصر عقب توقيعها : إن العبرة فى تنفيذها تنفيذاً دقيقاً وسليما .

وقد صرح الرئيس اللواء محمد نجيب تعليقاً على هذه الحقائق بأن الإداريين البريطانيين خرجوا على الاتفاقية ، وأقاموا الدليل الملموس على عدم توفر حسن النية عندهم. قال : « وهذا ما يحملنا من غير شك على عدم الثقة بهم والاطمئنان إليهم فى إبرام أية معاهدة معهم » .

ثم قال بلهجة قوية « لقد اختار الحسيبان النسيبان والزعيمان الكبيران السيد عبدالرحمن المهدى والسيد على الميرغنى المندوبين السودانيين فى لجنة الانتخابات ، ووافقنا على اختيارهما ، ومع ذلك فقد اعترض الجانب البريطانى على هذا الاختيار من غير ما سبب ، وبلا أدنى موجب ، ويترتب على هذا الاعتراض تأخير إجراء الانتخابات فى حين كان الواجب على الجانب البريطانى أن يوافق هو الآخر على اختيار هذين المندوبين ما دام أصحاب الشأن الأول هم الذين اختاروهما ثم وافقنا نحن على هذا الاختيار » .

وقال : « لقد وردت إلينا من مصادر رسمية وغير رسمية أنباء عن ازدياد حوادث التعسف والاضطهاد . وطلب الكثيرون من المواطنين السودانيين العمل على إيفاد هيئة دولية للتحقيق فى هذه الحوادث . كما وردت أنباء عن محاولات يعمد هؤلاء الإداريون البريطانيون إلى اتخاذها دون حساب ولا مبالاة ، وذلك بتعيين موظفين بريطانيين فى وظائف ثابتة كالوظائف القضائية وغيرها ،

لإبقائهم فى السودان أطول مدة ممكنة ، وهذا عمل لا يجوز الإقدام عليه ، بل ولا التفكير فيه ، إلا بواسطة لجنة الحاكم العام التى تنص عليها الاتفاقية » .

ثم ختم الرئيس تصريحاته بلهجة الحزم والعزم الشديدين قائلا : « إننا إذا اتفقنا ، فإن رجولتنا الحقة هى التى تصون هذا الاتفاق وتنفذه بحذافيره . ونحن رجال نعرف حق المعرفة كل ما لنا فنحصل عليه ، وكل ما علينا فنعطيه لصاحبه . ولست أدرى كيف تتوفر الثقة عندنا وتنبعث الطمأنينة فى نفوسنا لنعمل اتفاقا آخر مع الانجليز وهذا موقفهم العجيب من اتفاقية أبرمت بيننا وبينهم يوم ١٢ فبراير الماضى ، أى لم يمض بعد شهر واحد على إبرامها ، وهذا ما يجب أن يكون واضحا من جانبنا لهم ، فليتدبروا الأمر ، ولنا بعد ذلك ما نريد » .

واحة البريمى

هذه الواحة واقعة بين أراضى المملكة العربية السعودية وأراضى عمان ومسقط المحمية من الإنجليز . ولما زار سلطان مسقط وعمان فى المدة الأخيرة العاصمة البريطانية ووقع مع حكومتها اتفاقية جديدة ، أخذت تنتشر من لندن الأخبار عن اختلاف على واحة البريمى ، وعن تدخل الإنجليز فى هذا الأمر بصفتهم أصحاب الحماية على أراضى مسقط وعمان ، وعرضوا الالتجاء إلى التحكيم فى هذه المسألة ، فعقب على ذلك متحدث باسم وزارة الخارجية السعودية بأن حكومته تطلب استفتاء سكان المنطقة فى أمر تابعيتهم لأنهم أهل الحق فى ذلك ، ولا ترى الالتجاء إلى تحكيم أحد . ومع أن بين الحكومتين اتفاقاً على وقف كل نشاط عسكرى فى هذه الجهة ، فإن ممثلى الحكومة البريطانية فى الخليج الفارسى قاموا بإجراءات سريعة فحلقت طائراتهم على الواحة بقصد التأثير على أهلها ، وساقوا قوات مسلحة من الجنود الذين جلبوهم من بعض البلاد العربية لإلزام الأهالى بالخضوع .

ولما لم تجد الاتصالات الودية لمنع هذا التعدى قامت الحكومة السعودية — عملا بالمادة ٣٣ من ميثاق الأمم المتحدة — بتوسيط الولايات المتحدة الأمريكية فى الأمر . وإن الحكومة السعودية تستند فى ملكيتها لهذه المنطقة إلى التاريخ والواقع ، وإلى أن سكان واحة البريمى يدينون بالطاعة للحكومة السعودية هم وآباؤهم وأجدادهم من قبل ، وقد ظلت هذه المنطقة تحت حكم السعوديين إلى المدة التى غاب فيها والد الملك عبد العزيز عن قلب الجزيرة وهى مدة إحدى عشرة سنة ، ثم عاد ابنه الملك عبد العزيز بعد تلك الفترة وبسط سلطانه على البريمى وغيرها ، وما زال الأمر على ذلك من ٥٢ عاما بلا منازع .

الوحدة العربية :

يظهر أن مبدأ « الاتحاد » فى مصر سيكون خطوة نحو الوحدة العربية والتعاون بأسلوب أقوى بين الشعوب الناطقة بالضاد . ولذلك دلائل متعددة أحدها قول البكباشى جمال عبد الناصر لمدير القسم العربى بإذاعة صوت أمريكا صباح يوم ١١ جمادى الآخرة (٢٥ فبراير) : « إن الشعوب العربية قاطبة - كشعوب - تشعر بالرغبة التواقة الى الوحدة وأقول لك عن مصر صادقا : إننا نعد أى عربى نزيه مخلص أخا لنا وواحدا منا . وتجاه هذا الشعور السارى فى صفوف الشعوب العربية جمعاء فإنه ينبغى للأمم الصديقة أن تلمس هذه الرغبة المشتركة بين العرب وألا تنتقص منها أو تستخفها ، وألا تحاول وضع العراقيل فى سبيل تحقيقها » .

وقال له أيضا : إن أمة قوية فتية كالولايات المتحدة قادرة على استرداد ما كان لها من منزلة شريفة بيننا وفى أرجاء العالم العربى قاطبة إن هى وعت وأدركت الرغبة الصادقة لشعوب هذه المنطقة ، وفهمت عزم هذه الشعوب على أن تعيش إلى جانب الأمم الأخرى وتتعامل معها تعامل الأحرار المستقلين . وكما قال لكم الرئيس اللواء محمد نجيب فإننا نرى فى الواقع تشابها كبيرا بين هذه المرحلة من تاريخنا فى مصر والمرحلة الأولى من تاريخ تحرير أمريكا ، لا من الحكم الأجنبى فحسب ، بل تحررها أيضاً من الفوضى والفساد فى الداخل » .

من هو الأجنبى فى البلاد العربية ؟

صدر مرسوم جديد فى سوريا يتناول تنظيم بعض أمور الجيش فى الحرب والسلم ، ومما جاء فيه أنه « يحظر على العسكريين الزواج من أجنبيات » . وتنص هذه المادة على أن « المرأة العربية لا تعتبر أجنبية » .

تعاون المسلمين جميعا :

عادت من باكستان البعثة العسكرية المصرية التى زارت تلك البلاد الاسلامية أخيرا ، وفى الاحتفال باستقبالها خطب الرئيس اللواء محمد نجيب فقال : « لقد سرنى كثيراً ، ما سمعته عن النهضة المباركة فى باكستان ، مما ينشرح له صدر كل مصرى . وأرجو الله أن يحقق آمالنا ، وأن يقرب اليوم الذى نجد فيه جميع أبناء البلاد الإسلامية والعربية متكاتفين ، حتى نقف جميعاً جبهة واحدة أمام الخصم الكبير من الأطماع » .

المسلمون فى الحكم الشيوعى

برهن الشيوعيون فى ظل حكمهم الذى بسطوه على بخارى وخيوة والقريم والقفقاس وسائر الأقطار الشرقية الداخلة فى نطاق حكمهم

على أنهم أشد مال الأرض تعصباً لعقائدهم واضطهاداً لعقائد غيرهم .

فقد جاء فى كتاب انتشر فى الشهر الماضى بقلم البروفسور والتر كولارز من علماء تشيكوسلوفاكيا وصف مطول لحالة دول آسيا الوسطى ، وكانت حتى فى العهد القيصرى تدين بالإسلام وتعتز بالثقافة الإسلامية . فسرد البروفيسور كولارز - بصراحة - قصة التوغل الشيوعى فى هذه الدول وشرح كيف تحامل الشيوعيون على الإسلام واعتدوا عليه وحالوا دون نشر الثقافة الإسلامية فى أوطانها الصميمة التى ظهر منها أعلام الإسلام كالإمام البخارى ، ثم حملوا شعوب هذه الدول على نبذ اللغة العربية ، وفرضوا عليهم الحروف اللاتينية ، ثم اللغة الروسية ، واعتقلوا قادة المسلمين ورجال الدين والفكر ، وصادروا المصاحف والكتب الدينية ، وألغوا مناهج التعليم الإسلامى ليحولوا دون نشوء أجيال أخرى مؤمنة بهذا الدين . ولم يكتفوا بذلك بل جعلوا اللغة الروسية هى اللغة الرسمية فى هذه البلاد الإسلامية من سنة ١٩٣٩ إلى الآن ، وبسبب ذلك فقدت تلك البلاد طابعها الاسلامى ، ونشأ شبانها الاحداث لا يدرون شيئاً عن الاسلام ولا يشعرون بعلاقة بينهم وبين المسلمين أو الماضى الاسلامى . بل إن روسيا دربت عدداً كبيراً من أبناء المسلمين فى مدارسها ثم أعادتهم إلى بلادهم وعلى رأسهم المدعو (أفندى كابييف) الكاتب التترى الذى كتب فى أحد مؤلفاته يقول : « أيتها اللغة الروسية العظيمة ، إننى أركع تحت أقدامك ، وأسألك أن تنشرى فوق جناحيك ، لأن جناحيك رحمة وبركة » .

الاصلاح يبدأ بالأخلاق

شكا السيد سامى الصلح رئيس الوزارة اللبنانية السابق إلى مندوب جريدة الأخبار الجديدة ما يلقاه رجال الحكم من الصعوبات بسبب فساد الأخلاق فقال عن الحالة فى لبنان :

« إن إصلاح الحال من المحال : فالتربية السياسية عندنا بحاجة إلى معالجة سريعة : والحاكم بيننا لا يستطيع أن يحكم بدون تأييد قطاع الطرق ومهربى الحشيش ، والزعيم بيننا لا يتزعم إلا بنفوذ أصحاب أندية القمار والمشردين والمطاردين أمام القانون . ومن هؤلاء وهؤلاء يستجدى الحاكم والزعيم نفوذه وسلطانه .. ولعنة الله على الزعامة التى لا تأتى إلا عن هذا الطريق ، ويا ضيعة الحكم الذى لا يتحقق إلا بتأييد هؤلاء وهؤلاء . إن الرجال الذين تعاونوا مع الانتداب .. ثم تعاونوا مع عهد الاستقلال .. ثم تعاونوا مع الشيخ بشارة الخورى .. هم اليوم - بأنفسهم - أبطال هذه الأيام » .

الروتين الحكومى

خطب الأستاذ محمد فؤاد جلال (وزير الإرشاد القومى) فى قاعة يورت الأمريكية ، فكان مما قاله عن إصلاح الإدارة الحكومية :
« إن أداة الحكم هى ذلك المخلوق الخطير المترامى الأطراف الذى أنشىء جهازه منذ أكثر من مائة عام وظل يتسع شيئاً فشيئاً . والثورة (يعنى تطور العهد الجديد) إما أن تقتل « الروتين » ، وإما أن يقتلها الروتين . وليس هناك حل وسط . ولذلك اتجهت الثورة إلى قلب الأوضاع فى نظم الأداة الحكومية قلبا أساسيا يجعل من هذه الأداة المعوقة أداة فعالة تستهدف ما تستهدفه الثورة نفسها ، بل تصبح جزءا منها . وهنا لانجد الأمر هيناً كما وجدناه فى الخطوات السابقة التى لم تكن فى ذاتها هينة .
فان الأداة الحكومية قد وضعت لنفسها نظما وقوانين وتقاليد بالمتون والشروح والحواشى ، وجعلت لنفسها دهاقنة وكهانا لا تفلت من بين أصابعهم الدقيقة شعرة ، فأصبحت دولة داخل دولة ، بل أصبحت هى الدولة ، وكأنها غاية فى ذاتها ليست وراءها غاية من الغايات .
وواقع الأمر أن الأداة الحكومية وسيلة لتحقيق الغايات ، وإذا لم تفلح فى تحقيق الغايات فلا كانت ولا كان لها وجود » .

نواة الجيش الاقليمى

أخذت مصر فى افتتاح معسكرات لتدريب الشباب تمهيدا لجعلها نواة لجيش مصر الاقليمى ، ولما افتتح الرئيس اللواء محمد نجيب معسكر إمبابة ألقى خطبة قال فيها : إن الله يحب الاقوياء ويكره المستضعفين . وهذه باكورة معسكرات التدريب العسكرى يقوم عليها نفر من خيرة شباب ضباطنا ليتعهدوا شبابكم بالتدريب على حمل السلاح واستخدامه ، وعلى رياضة النفس والجسم على تحمل المشاق واجتياز المصاعب ليعدوا الشباب إعدادا قوياً للدفاع حين يحزب الأمر ويدوى النفير أن « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » .

تشجير مصر

قاد الرئيس اللواء محمد نجيب حركة مباركة لتشجير بقاع مختلفة من الأرض المصرية ، وإن العزيمة معقودة على غرس ملايين كثيرة من الأشجار بأيدى رجال الجيش وطوائف الطلبة والموظفين وغيرهم من الجماعات والأفراد . وقد خصصت لذلك مساحات واسعة من الأرض ، وينتظر أن تكسب مصر من هذه الحركة النشيطة قيام كثير من الغابات فى جميع الأنحاء .

العلم المصرى

تتجه النية إلى التحرر من الرمز للتابعية العثمانية الممثل فى العلم المصرى ، وتصحيح الرأى الخاطىء فى الشرق والغرب بأن الهلال رمز دينى فى الإسلام ، وليس فى الإسلام نص على أن الهلال رمز له ، بل إن استحداث

الهلال فى الراية حديث عهد حتى فى الدولة العثمانية المنقرضة ، فإنها فى بداية عهدها لم يكن الهلال رمزاً لها .

وقد اختارت هيئة التحرير علما لها مؤلفاً من الألوان الثلاثة : البياض والسواد والحمرة ولا يبعد أن يعمم هذا العلم فيكون هو علم الدولة المصرية . وقد لاحظ بعضهم أن اللون الأخضر الذى تتألف منه أرضية العلم المصرى الذى يراد تغييره أصرح تعبيراً عن طبيعة مصر وخصب واديها وبركة نيلها فى تربتها ، وعندنا أنه لا بأس فى أن يكون اللون الأخضر هو اللون الثالث فى العلم المصرى مع اللونين الأبيض والأسود . ومن الثابت فى التاريخ أن الرايات الإسلامية الأولى كان منها الأبيض ومنها الأسود ومنها الأخضر ، وكان كل من هذه الألوان شعاراً لدولة عربية إسلامية مجيدة فى التاريخ ، فإذا جمع العلم المصرى هذه الرموز التاريخية مميزاً بالنسر أو بالصقر الذى كان هو أيضاً من الرموز العربية والمصرية قبل الاسلام كان التوفيق حليف مصر فى هذا الاختيار .

مديرية التحرير

تقرر إنشاء مديرية جديدة فى الصحراء الغربية بالقرب من الطريق الصحراوى بين القاهرة والإسكندرية تسمى (مديرية التحرير) . وستكون مساحة هذه المديرية ٣٣ ألف فدان ، وفيها مركزان إلى جانب حاضرتها وعدة نقط للبوليس فى جهات ستكون مأهوله بالسكان . وقد وضع لهذه المديرية تصميم هندسى ، وينتظر أن يبدأ العمل فى تنفيذ مشروعات العمران ، وأولها شق ترعة تبدأ من مصرف المحيط عند مديرية الجيزة ويبلغ طولها حوالى عشرة كيلو مترات وقد أصبح فى حكم المقرر توزيع أراضى هـذه المديرية على المعدمين وذوى الأسر المؤلفة من خمسة أشخاص على أن يكون نصيب كل أسرة خمسة أفدنة يزرعها صاحبها بتقاوى توزعها وزارة الزراعة .

مدافن مديرية القاهرة :

اعتادت مصر من زمن الفراعنة العناية بالأموات أكثر من عنايتها بالأحياء ، وتقيم لدفن الموتى مدافن أعظم مما تقيم من البيوت لسكن الناس . ومع أن الاسلام قد وضع حداً لهذا الشذوذ العمرانى ، فإن آثاره لا تزال باقية إلى الآن عند المسلمين وغيرهم ، مع أن المسلمين يرون منذ نحو أربعة عشر قرناً أن المسلم الأول فى مصر والسبب الأول فى إسلام كل مسلم فيها وهو عمرو بن العاص صاحب رسول الله ﷺ ، لم يشأ ابنه وسائر أصحابه من القواد والولاة والعمال أن يقيموا له على قبره بناء ، لأن الاسلام يرى أن المسلم

إذا مات يجب أن يخلد ذكره بأعماله لا بما يقام على قبره من أنصاب ومعالم.

نقول هذا لمناسبة عزم ولاة الأمور على تخصيص ٢٥٠ فداناً فى الجبل الأخضر لإقامة مدافن صحية جديدة عليها يراعى فيها المساواة التامة بين الطبقات، فلا يمتاز قبر الغنى لغناه على قبر الفقير، بل يقتصر فيها جميعا على إعدادها بما يتناسب مع جلال الذكرى والشروط الصحية.

تحريم المسكرات فى برقة

أصدر ملك ليبيا قانوناً بتحريم المسكرات فى ولاية برقة على كل مسلم، فأحسن بذلك إلى أهل ذلك الوطن الإسلامى فى عقولهم وأخلاقهم وثروتهم كما أحسن به إليهم فى دينهم

أمريكا والعرب

عقب زيارة الأمير فيصل السعود وزير الخارجية السعودية للرئيس ايزنهاور أصدر البيت الأبيض بيانا أعلن فيه أن رئيس الولايات المتحدة أعرب عن اهتمامه وقلقه بقيام بعض الأدلة على أن العلاقات بين الولايات المتحدة والدول العربية تدهورت فى المدة الأخيرة، ويقول البيان إن ايزنهاور وعد بالعمل على تصحيح الأخطاء، وأنه أبلغ الأمير فيصلا أنه سيجعل هدفه الثابت العمل على إعادة روح الثقة والطمأنينة.

فتنة القاديانية فى لاهور

كان الداعية المأفون غلام أحمد القاديانى يرمى بدعوته إلى أغراض متعددة أحدها إعانة الاستعمار الأجنبى بدعوى أن حكمه على المسلمين حكم شرعى، وأن الجهاد نسخ، وذلك فضلا عن الضلالات الأخرى فى هذه الدعوة كادعائه بأنه نبى يوحى اليه، وإطالة لسانه على بعض الأنبياء والصحابة، وكان المنتظر من أتباعه المثقفين — ولا سيما بعد زوال سلطان الاستعمار — أن يكفوا عن هذه الدعوة وأن يرجعوا إلى أحضان الإسلام ويجعلوا نشاطهم وقفاً عليه.

فلما رأى منهم مواطنوهم المسلمون أنهم لا يزالون على إصرارهم السابق فى الدعوة إلى هذه الضلالة، وهم مواصلون نشاطهم فيها مستفزين مشاعر الجمهور الأعظم، نشأت عن ذلك فتنة فى الأسابيع الأخيرة بمدينة لاهور قتل فيها أحد عشر شخصا وجرح أربعة عشر فأعلنت حكومة باكستان الأحكام العرفية فى تلك المنطقة وهيمن الجيش عليها ليحول دون وقوع اضطرابات أخرى.

تصحيح

تحرفت كلمة «عام» بكلمة «علم» فى وصف «سبيل الله» بالسطرين ١٧ و ٢٢ من الصفحة ٧١٧ فى الجزء الماضى والصواب فيهما: «سبيل الله عام».

فهرس

الجزء السابع — المجلد الرابع والعشرون